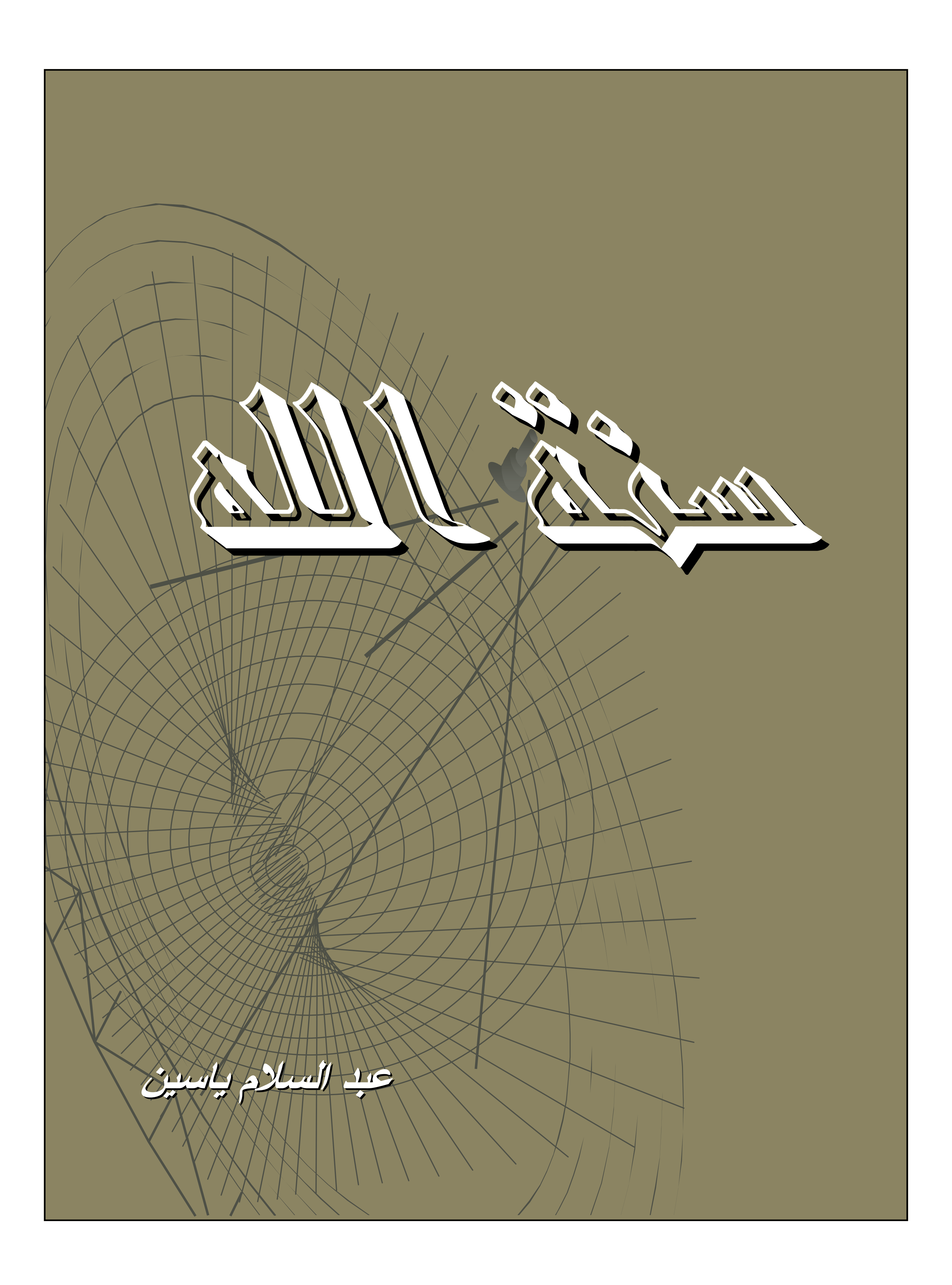

سنة الله
عبد السلام ياسين



عبد السلام ياسين

سنة الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : سنة الله .

المؤلف : عبد السلام ياسين .

الحقوق : الأولى *1426 – 2005* .

الحقوق : جميع الحقوق محفوظة .

الطبع : مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء .

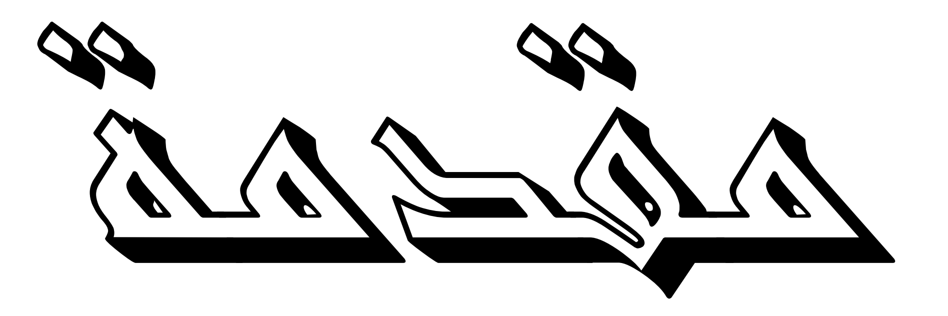
الإيداع : القانوني رقم *535 / 2005* .

مطبوعات الهلال وجدة

بسم الله الرحمن الرحيم
و صلى الله و سلم و بارك على سيدنا محمد
و آله و صحبه و إخوانه و حزبه

كتاب " سنة الله " كتب منذ ما يقرب من عشرين سنة و لم يُقدر له أن ينشر وقتها لظروف يعلمها الجميع . و ها هو اليوم يصدر في هيئته الأولى رغم ما جد من أمور و تغير من معطيات . فهو يعالج ثوابت باقية ببقاء سنة الله في الأنفس و في الآفاق .

و لعل أهم متغير فيما كتب كان على الساحة الأفغانية ، أفغانستان الفتنة و العبرة . فصفحات الكتاب في هذا الموضوع تمثل صورة لعطف المسلمين في ذلك الوقت ، قضية كبرى كانت وعدا فصارت كمدا . بل إن ما وقع و يقع ليثبت " سنة الله " ، فهذا المقياس يعطينا صورة لمعرفة هزيمة المسلمين و انحطاطهم . و ما انحدار الجهاد الأفغاني إلى دركات التناحر القبلي – و ما تبع كل ذلك – إلا لمحة بئيسة من هذا الانحطاط و هذه الهزيمة . نسأل الله أن يتداركنا بلطفه .


مقدمة

و لن تجد لسنة الله تبديلا

سبحان الله و الحمد لله و لا إلــٰـه إلا الله و الله أكبر و لا حول و لا قوة إلا بالله . سبحانه خلق الكون على نسق قدره في أزله تقديرا ، و سوّى العباد على ما قضاه علمه فيهم ثم هداهم السبيل . كل ميسر لما خلق له ، فمنهم شقي صار إلى دار العذاب بما اقترفت يداه ، و منهم سعيد دخل الجنة بفضل مولاه . إن الله لا يظلم الناس شيئا ، و لكن الناس أنفسهم يظلمون . سبحانه خلق أعمال العباد برحمته و دعاهم رسله للإيمان و العمل الصالح لتجزى كل نفس بما كسبت و ليحيق بها ما اكتسبت . كور سبحانه و تعالى على العباد الليل و النهار ، و سخر الشمس و القمر كل يجري لأجل مسمى عنده . و جعل لنا في الأرض معايش و في السماء رزقا ، و سخر لنا ما فيهن جميعا منه . نحمده على نعمه الجُلى . شرفنا بتشريف آدم أبينا خليفته في الأرض . خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . و ذرأ بنيه و بناته في الأرض و جعلهم شعوبا و قبائل و أمما ليمتحنهم مدة الحياة ، و ينظر كيف يعملون ، و يرفع أكرمهم الذين تكرموا بالتقوى ، و يخزي الذين يبغونها عوجا و يتردون في دركات أسفل سافلين . و جعل سبحانه لمسيرة بني آدم نواميس تحكم مجتمعاتهم ببواعث النفوس ، و ضرورات الاقتصاد ، و التدافع السياسي ، و التنافس ، و الأثرة التي تلهب أهواء الأقوياء ليرضوا نهمهم باحتواش الأموال و احتكار السلطان و الاستكبار في الأرض و البغي و جحود الخالق و صد المستضعفين في الأرض عن سبيل الله بوسائل التفقير و الإشغال و التحقير و ملء الفضاء عليهم بالتعمية العقلية و السحر و تكذيب الرسل و إذايتهم و إبادة الدعاة و قتل الأنبياء .

هذه سنة الله في التاريخ ، و لن تجد لسنة الله تبديلا . مهما كانت الوسائل المتاحة في العصر فإن حركية التاريخ لا تتغير لثبات الفطرة الإنسانية المغروزة في النفوس ، و ثبات الحاجات الاقتصادية للإنسان ، و ثبات الدوافع الاجتماعية و السياسية و الاستكبارية التي تجمع الفئات العرقية و القبلية و الحزبية المصلحية أو المبدئية في تكتلات .

التصور الدهري للتاريخ يمثل الأحداث نهرا جاريا بالحضارات يصب في بحر العدم . يقولون : «مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَـا نَمُوتُ وَ نَحْيَـا وَ مَا يُهْلِكُنَـآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ» (سورة الجاثية ، 24) . لا معنى للإنسان و لا إلـٰه و لا رادع إلا توازن القوى و حساب الاستراتيجية . و التحليل المادي الجدلي يصور التاريخ سلسلة من التطورات تمسك كل حلقة بالتي قبلها و تتولد منها و تتناقض معها و تتجاوزها . صراع الطبقات و بروز الثورات بعد نشوء نواتها في رحم المجتمع العتيق . تقدم الماركسية عن التاريخ ، كما تقدم التطورية الأخرى الداروينية عن الإنسان ، صورة وجود عبث صراعي لا قيمة فيه للإنسان فوق قيمة حيويته و صلاحيته للبقاء من بين أجناس الحيوان المتصارعة في البيئة ، و لا قيمة فيه للفرد وسط المجموع القطيعي ، و لا بعث إلا انبعاث الطبقة القوية المحررة ، و لا نشور إلا امتداد الثورة الطبقية لتعم العالم ، و لا جنة إلا المجتمع اللاطبقي ، و لا نار إلا هيمنة الإمبريالية و بقاء العدو الطبقي .

إننا نبحث عن الإحسان و الإيمان و السلوك إلى الله سبحانه و تعالى و نيل مقامات الكمال . لم نحد عن المطلب الإحساني بالدخول في سنة الله. بل يكون طلبنا لهذه المقامات أشبه بطريق الرسل و ألصق بنموذج الرسل و أليق بواجبات الجهاد إن قبلنا إيمانا و تصديقا بسنة الله ، و اتبعنا عملا و جهادا و صبرا و مكايدة و مدافعة سنة رسل الله . عليهم صلاة الله و سلام الله .

الخروج من المجتمع و الهروب إلى الخلوات كان و لا يزال اختيار كثير من الصوفية أكرمهم الله . و لمستقبل الإسلام يتحتم قبول الشروط التي وضعها الله عز و جل في المجتمعات البشرية و احترام قوانينه في التاريخ و التعرض بذلك لوعده بالنصر . قبول إيماني و احترام عملي هما ضمان النجاح . علمنا القرآن ذلك بالتقرير و القصص و مثلات الذين خلوا من قبلنا و أنباء الرسل . القبول الإيماني يصل دنيانا بآخرتنا و يربط مصيرنا في الآخرة بأعمالنا هنا . و الاحترام العملي يثبت أقدامنا على الأرض ، و يضع في أيدينا وسائل القوة التي أمرنا بإعدادها ، و يعطينا مواصفات المومنين المجاهدين الذين يستخلفهم الله في الأرض و يمكنهم فيها رغم قوة من يريد أن يستفزهم و يخرجهم منها .

قال الله تعالى يخاطب عبده محمدا صلى الله عليه و سلم : « وَ إِنْ كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَ إِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿76﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَ لَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿77﴾ » (سورة الإسراء) .

و قال عز من قائل : « وَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿42﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَ مَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَ لَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿43﴾ » (سورة فاطر) .

و قال جل ثناؤه : « وَ لَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا ﴿22﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَ لَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿23﴾ » (سورة الفتح) .

سنة الله أن ينصر رسله و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و في الآخرة . إن آمنوا و عملوا الصالحات ، لا إن أخلوا بالشرط الجهادي حالمين بالمدد الإلهي الخارق للعادة ، و هو مدد لا يتنزل على القاعدين بل يخص به الله من قام و شمر و تعب في بذل الجهد ، و أعطى الأسباب حقها ، و أعد القوة و بذل المال و النفس و حزب جند الله و جيشهم و سلحهم و تربص بالعدو و خادعه و ماكره و غالبه . احترام نواميس الله في الكون و سنته في التاريخ مع صعود النيات إلى الملك الحق مفاتيح لأبواب السماء ، بها مع الصلاة و الدعاء تتنزل السكينة و تغشى الرحمة و تهب رياح النصر برفرفة أجنحة الملائكة .

كيف كان محمد صلى الله عليه و سلم حين نزلت عليه آيات ربه تؤمنه من مكر الذين يريدون أن يستفزوه من الأرض ليخرجوه منها ؟ كيف جاء النذير محمد صلى الله عليه و سلم قومه ، و كيف جاءت النذر قبله ؟ كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم حين نزل عليهم وعد الله بالنصر و حين ولى بالفعل عدوهم الأدبار لا يجد وليا و لا نصيرا ؟

كانوا جادين في تبليغ رسالات الله ، يقارعون الحجة بالحجة ، و يدحضون القول بالقول ، و يزاحمون الكتف بالكتف ، و يناجزون متى توفرت كفاية المناجزة ، و يدورون مع الأحداث إن لم تتوفر ريثما تتوفر .

و من شروط الله و سنته المكملة لمعاني حكمته تعالى في الكون و ابتلائه للعباد بالسراء و الضراء أن يتعاقب النصر و الهزيمة ليربي الله الذين آمنوا و يمحصهم و يمحق الكافرين آخر المطاف . قال جل شأنه عن هزيمة أحد : « *قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ* ﴿ 137 ﴾ *هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ* ﴿ 138 ﴾ *وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ* ﴿ 139 ﴾ *إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ* ﴿ 140 ﴾ *وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ* ﴿ 141 ﴾ » (سورة آل عمران) .

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، و من أجل العبادة الدعاء و الثقة بالوعد . و الإحسان أن تحسن عملا و تتقن الفنون البشرية المتاحة المسخرة لتمتد يد القوة المعدة سببا واصلا بين السماء و الأرض ، دعاء عمليا و استفتاحا ميدانيا لأبواب النصر .

يطرح المسلم الذي يشهد لله بالوحدانية و يجهل من دينه كثيرا ما وضعه الله من أسباب و ما رتب من نتائج . يطرح من الاعتبار سنة الله في التاريخ التي لا تبديل لها و يتعلق بالغيب و ينتظر المعجزة . و يتجلى طرحه هذا في تواكلية عاجزة عن فهم الواقع و عن التأثير فيه . هذا المسلم السطحي لا يدرك مسؤولية العباد و كسبهم و يبقى إيمانه مشطورا حيث وقف مع : « *وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ* ﴿ 96 ﴾ » (سورة الصافات) و لم يلتفت إلى : « *قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ* » (سورة آل عمران 165) التي قرعت أسماع الصحابة بعد هزيمة أحد لتثبت لأولئك الغر الميامين أسد الله أن سنة الله لا تجامل أحدا .

أما المفكر المعاصر ، ملحدا كان أو قوميا أو مسلما تراثيا أو سطحيا ، فيعمد إلى طرح جانب الغيب من معادلته و يعلم وعيا تاريخيا وضعيا لا مكان فيه للغيب ، ماديا جدليا لا يحسب إلا حساب القوى المتناقضة المتصارعة . في زعم هؤلاء لا يصلح للمجتمعات المسلمة إلا التنصل الكامل الشامل من العقلية الغيبية ليتأتى لها اكتساب العقلانية المحررة . و لا تفتح لها أبواب التاريخ إلا بوعي لعالمية الحضارة الغربية ، من جملة هذا الوعي التحليل التاريخي الأرضي الصرف . فعل الله في الأرض و تصرفه ، بل وجوده ، عندهم خرافة .

فحين يبحث المومنون عن المنهاج النبوي الذي ربى به رسول الله صلى الله عليه و سلم جيلا قرآنيا من المحسنين لإعادة الشخصية الجهادية إلى قيادة الأمة و لإعادة القيم الإيمانية الإحسانية إلى مكانتها في سلوك الأمة ، يسعى الآخرون لتجريد الأمة من تلك القيم و لعزل الشخصية الإيمانية من تقدير المسلمين . في نظر الملاحدة و التابعين للفكر الوضعي يتمثل التخلف كله في جهة هي جهة الإيمان بالله و اليوم الآخر، و يتمثل التقدم كله في جهة الكفر بالغيب ، و في مقدمة الغيب وجود الله . في قاموس هؤلاء لا معنى لعبارة نصر الله أو التوكل على الله إلا الهروب من الواقع و صدماته و حقائقه و الارتماء في أحضان الغيبية الخرافية .

بين طرفي إلغاء الأسباب و إلغاء الغيب من الحساب يقع صواب الإيمان بقدرة الله تعالى المطلقة و الاحترام المشروط على المومنين لسنته في الكون و التاريخ . التحليل العلمي الموضوعي الوضعي و المادي لا يستطيع إدراك المعجزة التاريخية التي برزت للوجود على يد رسول الله صلى الله عليه و سلم و أصحابه و خلفائه من بعده لأن المحللين ، و معهم كلمة العصر الحاسمة : العلم ، لا يحيون الإيمان فلا يعرفون شؤون الإيمان و مقتضياته من داخل نفوسهم الخالية الخربة .

أما القرآن كلام الله و بيانه و علمه فيضع الغيب مكانه من الواقع في مثل قوله تعالى في غزوة بدر : « *إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ*

فَاضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَ ٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿ 13 ﴾ » (سورة الأنفال) . الملائكة مدد غيبي ، قد يراه المومنون و قد لا يرونه ، لكن هذا المدد و التثبيت الناتج عنه لا يأتي إلا انعطافا إلى قوم حققوا في قلوبهم معاني الإيمان و في سلوكهم شعب الإيمان ، قوم مسلحين يضربون و يقاتلون و يقتلون و يقتلون . قوم يجري عليهم قانون الله في الأرض ، و يوفون جزاء إيمانهم و إعدادهم القوة خصوصيات منها تنزل التأييد الغيبي الذي يتفاوت زيادة و نقصانا بزيادة الإيمان و الإعداد و نقصهما . قال الله عز و جل : « إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَ إِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿ 65 ﴾ » (سورة الأنفال) . جماعة المومنين المسلحة بالإرادة الاستشهادية و بما في وسعها من الأسباب المادية مؤهلة للانتصار على عشرة أضعاف عددها . هذا نشاهده الآن في أفغانستان ، و الحمد لله على ذلك [1].

و حين يضعف الإيمان و تكون الأمة أخف ، فالمدد الغيبي على مقدار ذلك . قال الله تعالى : «ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَ إِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿ 66 ﴾ » (سورة الأنفال) .

من خصوصيات تاريخ هذه الأمة المباركة أنها وعدت بالنصر و الاستخلاف في الأرض متى تحققت لها شروط سنة الله . قال الله تعالى : « وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَ عَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا » (سورة النور ، 55) . لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، و لما كان من الأمة انتكاسات و انكسارات و انهزامات ، و لو شاء لرفع قانون الأسباب أمام رسله و أوليائه . لكنها سنته التي لا تتبدل ، و وعده المشروط بالإيمان و العمل الصالح ، لا استخلاف و لا تمكين إلا بتوفرهما .

[1] كانوا مجاهدين و كانوا أملا للمسلمين ثم تدخلت أيدي الفتنة وقانا الله شرها .

الآيات الكريمة هذه وعد عام تأتي السنة المطهرة لتخصصه كما خصصه القرآن في قوله تعالى : « هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِـٱلْهُدَىٰ وَ دِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفَى بِـٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿28﴾ » (سورة الفتح) . الدين الإسلامي لما يظهر في الأرض ذلك الظهور ، و لما يعم الأرض ، فنحن على موعد إن شاء الله مع مستقبل الدين الزاهر . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في حديث رواه ابن حبان في صحيحه و غيره : «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل و النهار ، و لا يترك الله بيت مدر و لا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزا يعز الله به الإسلام ، و ذلا يذل الله به الكفر » [1] .

من خصوصيات هذه الأمة أنها أخبرت مسبقا بما يحدث في تاريخها من فتن قبل تحقق الظهور الموعود . قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : " قام رسول الله صلى الله عليه و سلم مقاما ، ما ترك شيئا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به . حفظه من حفظه ، و نسيه من نسيه . قد علمه أصحابي هؤلاء . و إنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه " [2].

من خصوصيات هذه الأمة أنها أطلعت مسبقا بالحروب الداخلية و التطاحن الطائفي و الفرقة . أخرج الإمام أحمد و مسلم و غيرهما و اللفظ هنا لمسلم ، قال : إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أقبل ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين ، و صلينا معه (يقول الصحابي) ، ثم انصرف إلينا ، فقال صلى الله عليه و سلم : «سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين و منعني واحدة , سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة (المجاعة) فأعطانيها . و سألته ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها . (في رواية أحمد : و سألته أن لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيستبيحهم فأعطانيها) . و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » و في أحاديث أخرى ذكر بأس الظلمة من الحكام على الأمة .

---

[1] صححه الشيخ الألباني ، رقم 3 في سلسلة أحاديثه الصحيحة .
[2] رواه مسلم في " باب إخبار النبي صلى الله عليه و سلم فيما يكون إلى قيام الساعة " من كتاب الفتن .

كان لإخبار النبي صلى الله عليه و سلم المسبق ، و الله يطلع على غيبه من يشاء ، بالأحداث و الفتن أثر بالغ على سلوك أجيال المسلمين و علمائهم ، و من ثم على تاريخ الأمة كلها . فانعزال من انعزل و سكوت من سكت و مقاومة من قاوم كان تقديرا فرديا أو جماعيا لمقاصد رسول الله صلى الله عليه و سلم الذي أوصى بالحفاظ على الجماعة و الصبر على جور الحكام حتى يتم قضاء الله . و في الحديث الصحيح أن المسلمين إذا تقابلا بالسيف فالقاتل و المقتول في النار . أنى لأصحاب التحليل الموضوعي أن يفهموا عنا !

بشارة عظمى تنير لحاضر الأمة و مستقبلها طريق الظهور و النصر ، و تسدد خطانا على المحجة البيضاء نعود إليها إن شاء الله بعدما عماها عنا دخن الفتن . بشرى نضعها نصب أعيننا برنامجا لإعداد القوة و أملا مشرقا ، بل يقينا ثابتا ، بأن مواطئ أقدامنا على رقعة الواقع تطابق مواقع قدر الله ، و تستجيب لنداء الله ، و تقتفي أثر رسول الله ، و تماثل مسيرة الخلفاء الراشدين بهداية الله . لا إلـٰه إلا الله و الحمد لله . روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : « *تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها . ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها . ثم تكون ملكا عاضا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها . ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها . ثم تكون خلافة على منهاج النبوة . ثم سكت* »[1] .

[1] *صححه الشيخ الألباني ، رقم 5 من سلسلة أحاديثه الصحيحة .*

الفصل الأول

القاسية قلوبهم

رحا الإسلام

الجاهلية

الفتنة

داء الأمم

القاسية قلوبهم من ذكر الله

قلوب كالحجارة

رحا الإسلام

نستطيع أن نتمثل للإسلام رحا ذات شقين ، لها قاعدة ثابتة و محور ثابت و حلقة عليا تدور . الإسلام قرآن منزل لا تبديل لكلمات الله ، و قضاء مقدر لا راد لحكم الله ، ثم هناك فهم العباد للدين و إيمانهم و حركتهم و نظام حكمهم ، و كلها متغيرات متحركات . يساعدنا على هذا التمثيل الرحوي حديث أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « خذوا العطاء ما دام عطاء ، فإذا صار رشوة عن الدين فلا تأخذوه ، و لستم بتاركيه ، يمنعكم من ذلك الفقر و الحاجة . ألا إن رحا الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار . ألا إن الكتاب و السلطان سيفترقان ، فلا تفارقوا الكتاب . ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم ، إن عصيتموهم قتلوكم ، و إن أطعتموهم أضلوكم » قالوا : يا رسول الله كيف نصنع ؟ قال : « كما صنع أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام : نشروا بالمناشير و حملوا على الخشب . موت في طاعة الله خير من حياة في معصية الله » .

هذا الحديث بمقاومة الملك العاض و الملك الجبري و رفض رشاواه ، و ذلك حين يدور الحكم على قاعدة غير قاعدة القرآن ، حين تنفصل الدولة عن الدعوة . إلى جانب الأحاديث الكثيرة التي أوصت بالطاعة للجائرين حفاظا على وحدة الأمة و جماعتها نجد أحاديث مثل هذا توصي بالوفاء للقرآن و الدوران معه حيث دار ولو كره السلطان و أغرى و سفك الدماء .

و كل ذلك كان في تاريخنا الإسلامي الحافل : نقضت عروة الحكم بعد ثلاثين سنة من وفاة النبي صلى الله عليه و سلم ، و استحال الحكم من الخلافة إلى الملك العاض الوراثي و نحن في عصرنا لا نزال نعيش تحت أنظمة عاضة وراثية أو جبرية عسكرية ننتظر ما وعد به رسول الله صلى الله عليه و سلم أمته من عودة الخلافة على منهاج النبوة . ننتظر بثقة و رحا الإسلام تدور ، و خصام السلطان للقرآن مستمر . فهل يكون انتظارنا إلا تبلدا إن نحن اكتفينا بمراقبة الأحداث و لم ندر مع القرآن متحركين بأوامره ؟

و هل تكون حركتنا إلا دوامة تتكرر فيها مآسي الماضي إن نحن تجاهلنا دروس التاريخ ، أو قفزنا من فوقها ، أو تخيلنا الإحسان هروبا خارج التاريخ قانعين بزهادة عاجزة مستسلمة ؟

كان الصحابة رضي الله عنهم يسمعون القرآن غضا حيا بحياة الإيمان و الإحسان في قلوبهم ، فيدورون بدورانه ، و يسعون حيث أمر ، و يتجدد لهم عزم بتجدد نزوله ، و تستمر لهم إرادة باستمرار تلاوته ، و يزدادون قوة و صلابة في الموقف تأسيا بمن ضرب الله لهم مثلا من النبيئين و الحواريين . فما هي الشروط النفسية التربوية و القلبية الإيمانية الإحسانية ، و العلمية العقلية الحِكَمية اللازمة لكي نكون على مستوى المواعدة لسنة الله ، و الملاقاة مع بشارة رسول الله ؟ ما هي الشروط لكي نكون بإزاء القرآن و تحت منبر المصطفى من ولد عدنان نسمع و نطيع و نعزم و نستمر و نصبر و نقوى على المقاومة و مقارعة الخطوب؟

هل نكون الرجال على موعد مع الخلافة إن اختفينا عن تاريخنا ، أو رغنا عن فهمه و نقده ، أو احتضانه بعاطفية متسامحة جانحة إلى تزيين الواجهة و التفاخر بالأمجاد ، أو اتخذنا تاريخنا ، المجيد بالفعل في كثير من إنجازاته ، واسطة بيننا و بين القرآن ، نفهم فهم من دارت بهم الرحا من قبلنا ، و نفسر الأحداث بتفسيرهم ، و نوجه الجهود بتوجيههم ، و نقدر الواجب و الممكن بتقديرهم ؟

إن الإعراض عن تاريخنا بدعوى التشبث بالنموذج النبوي قرين في البلادة لاحتضان هذا التاريخ احتضانا صبيانيا يدافع عن الأخطاء الفادحة و يعلم للأجيال ترسيخ الواقع الموروث . نقد تاريخنا بالعقلانية الوضعية من زاوية الإلحاد و العلمانية أو المادية الجدلية أو القومية الاشتراكية نقد موجه لتفسير تاريخ المسلمين تفسيرا يجرد الإسلام من الوحي و النبوة و الإيمان بالله و باليوم الآخر ليبقى فقط للاشتراكي " ثورة " أبي ذر و عدل عمر ، و للعلماني حضارة بغداد و الأندلس المتسامحتان ، و للقومي عزة العرب و نخوتها ، و للجميع حين ينافقون عبقرية محمد القائد العربي الرائد في إدخال السياسة إلى الميدان العسكري بحيث عبأ العرب تعبئة لا مثيل لها في التاريخ .

للتقدميين تفسير خاص لتاريخ المسلمين يتحسس نبضات القوة و نصوص الحركات ليستدل على ثورية الإسلام . و للمتبلدين من أكاديميات البلاد ولع بالدفاع عن نمط الحكم الأموي ، و توسع المعارف الفلسفية في البلاط العباسي ، و روعة الحضارة و الفن و المعمار في قاهرة الفاطميين و غرناطة دويلات الطوائف . كل ذلك في قَرَن واحد ، كل ذلك يدور مع السلطان و تقلباته لا مع القرآن و من تحت جناحه .

إننا في بحثنا عن المنهاج الإحساني لا نستطيع أن نتخطى تاريخنا . العبرة بالتاريخ سمة يتحلى بها أولوا الأبصار . و فهم تاريخنا ذكرى ، و ما يذكر إلا أولوا الألباب . لو كان مشروعنا أن ننعزل عن الدنيا و فتنتها لنتفرغ للآخرة و نسلك إليها الطريق السهلة لكان تقليد السادة الصوفية الذين تعطرت بأنفاسهم الأيام لنا سندا كافيا . لكن مشروعنا جهادي و نظرنا إلى الصحابة رضوان الله عليهم المنغمسين – كانوا – في جو الوحي و القتال ، كان الإحسان العبادي و الإحسان الجهادي لا ينفكان في حياتهم ، و في حياة الصوفية انفك الجهاد عن العبادة ، و ترك السلطان زائغا عن القرآن .

فقه أئمة التربية الصوفية ثروة لا غنى عنها لأنه فقه قلوب تغذت بذكر الله و تفتحت لنور الله . و فقه الفقهاء المذهبيين ثروة . و أثل لنا المحدثون علما شامخا . و أسس الأصوليون صرحا عليه كان مدار فهم الشريعة . و لا غنى لنا عن كل هذا في مستقبل الإسلام . لكن هذه الكنوز تبقى غامضة المغزى ضبابية الدلالة إن لم نتابعها كيف نشأت ، و في أية تربة نبتت ، و بأي مياه سقيت ، و أية أيد تناولتها ، و أية جهة رعتها ، و في أية حدود استطاعت أن تزدهر ، و إلى أي مدى و تحت أية ضغوط اضطرت أن تنكتم .

إن قفزنا فوق تاريخنا فاتتنا العبرة و فاتنا الاستبصار و اختلط علينا اللب و الجوهر بالقشر و الأعراض . و بفوات ذلك نرتطم بالواقع الذي نريد أن نغيره ، بدءاً بواقع أنفسنا التي نريد أن تكون محسنة .

ما هو المنهاج لفهم فتنة القرن الخامس عشر و ما بعده استنادا إلى العبرة بالجاهلية الأولى ؟ ما هو منهاج النبوة في تعاملها مع الجاهلية ؟ هل نكفر المجتمع و نعتبره جاهليا لنبدأ من نقطة الصفر ؟ ما هي التربية النبوية التي جعلت من الصحابة أولياء لله مجاهدين في سبيل الله ؟ ما هي الضمانات الإسلامية للإنسان و كرامته و حقوقه

التي جاء بها الإسلام ، كيف طبقت و كيف ضاعت و كيف تسترد ؟ ما هي مواصفات الخلافة الراشدة الأولى حتى نخطط على علم للخلافة الثانية ؟ ما خصائص جماعة المسلمين كما ألفها الله على يد رسوله الكريم فحملت أعباء الجهاد لنحذو ذلك الحذو ؟ كيف تمزقت الجماعة الأولى و كيف نشأت الفرق في الإسلام ، و كيف دب الخلاف ، و كيف استفحل ، و لم غلا من غلا ، و جمد من جمد ، و استبد من استبد ، و ظلم من ظلم ؟

كيف نبع أهل البدع و الأهواء ، و كيف انبرى لهم علماء الكلام ، و كيف انكب أئمة الفقه على التفريع ، و كيف أصلوا ، و كيف اجتهدوا ، و كيف جمع المحدثون و صفوا و غربلوا ، و كيف و لم انعزل الصوفية ، و كيف زاغ الفلاسفة ، و كيف دامت الخصامات ، و من أوْرَى زند الصراعات ، و ما هي الكوارث التي حلت بالأمة ، و الانشقاق الداخلي ، و الغزو الخارجي حتى جاء تهديد أوربا و استعمارها و حلول عساكرها و فكرها و نمط معيشتها و كفرها و ماديتها بين ظهرانينا ؟

يبدو للملاحظ ذي النظرة البسيطة أن لا علاقة لكل هذه الأسئلة المتعرضة للدنيا و صخبها و ناسها بالإحسان و فقه التصوف . لكن من وقف معنا وقفات متروّية يعرف عن أي إحسان نبحث . درجة الانقطاع عن العالم لطلب وجه الله درجة مشكورة مذكورة ، إحسان فردي فار إلى الله يفوقه ذكرا عند الله إحسان جهادي جماعي يقاتل في سبيل الله . لا إلــٰــه إلا الله و الحمد لله .

تسمى قاعدة الرحا التي عليها تدور ثفالا ، و في الثفال يغرز المحور . لنتمثل ثفال رحا الإسلام هو جماعة المسلمين و قاعدتهم الاجتماعية السياسية المتماسكة بالأخوة الإيمانية الإحسانية . و لنتمثل محور جماعة المسلمين ما غرز في القلوب من توحيد الله عز و جل و إفراده بالعبودية ، و الطاعة لأمره و نهيه الوارد بهما كتابه ، و الالتفاف حول الرسول الكريم و حول الخليفة المختار بالإرادة الحرة للأمة . و لنتمثل الشقّ الأعلى للرحا ما في حياة المجتمعات من متغيرات من نظام الإدارة و إدارة الاقتصاد و الاجتهاد التشريعي فيما ليس فيه نص قطعي الثبوت و الدلالة و ترتيب الشورى في توزيع المسؤوليات و تخصيص المؤسسات . كل ذلك يدور حول قاعدة ثابتة ، و حول محور مكين فيها ، قائم عليها . لنتمثل الدعوة و ما تمثله من ركائز الدين

و قوة الجماعة قاعدة تدور الدولة حولها لخدمتها . هذا هو الوضع الإسلامي الذي كان سائدا ما بين الهجرة النبوية و انقضاء عهد الخلافة الراشدة ثلاثين سنة بعد وفاة الحبيب صلى الله عليه و سلم .

فلما أصبحت ملكا انقلب الوضع ، و توسط الملوكُ و السلاطينُ الرقعة ، و مكنوا في البلاد صنائعهم و رجالهم و ذوي عصبياتهم ، و راود السلطان القرآن على تنازلات و رخص و سكوت ، و شالت الدولة رجال الدعوة إلى الهامش ليدوروا حول إرادة الحاكم بالسيف و الوراثة و العصبية .

الوضع الآن أشد قلبا للحقائق ، و الدعوة لا يسمح لها بالوجود إلا إذا أعطت الولاء غير المشروط للحاكم .

و المطلوب إرجاع الوضع إلى نصابه الإسلامي ، و إخضاع الواقع الثقيل لعمليات التغيير اللازمة حتى تدور حياة المجتمع حول القرآن . الإسلام على الهامش و المطلوب إدخاله مرة أخرى إلى مكان الصدّارة و إثباته في منصّة السيادة . عامة المسلمين جاهلون بدينهم أو شاردون عنه ، و طائفة كافرون به محاربون له ، و المطلوب أن يرجع الناس إلى الإسلام و أب يقبلوا شرائعه و أن يندرجوا في درجه .

في معرض استخلاص العبرة من سنة الله في الكون ، و معرض مراقبة رحا الإسلام كيف انقلبت و دارت دون أن تتفكك أوالها و يندثر وجودها ، ينبغي أن لا تنسينا صعوبة المشروع – الذي نأمل نجاحه و ننتظر – أن حصون السلطان المتمنع من القرآن مهما كانت قوية لا تستطيع مقاومة الجهاد الإحساني إن درنا مع القرآن حقا ، و قلدنا المعصوم صلى الله عليه و سلم .

ينبغي مع توقع المدد الإلهي الخاص أو نتزود بالصبر ، و نعول على المطاولة ، و نتوغل في الواقع بحزم في غير عنف و لا تسرع ، و نوغل في الدين برفق . من يريد أن يغير الواقع في لحظة ، و يرفع الموجود بضربة ليحضر مكانه " حلا إسلاميا " جاهزا مكتملا فإنما هو حالم أو مجنون .

سنة الله ترتيب النتائج على المقدمات ، و ترتيب المرحلة على المرحلة ، و المعلولات على العلة ، و تغيير ما بالقوم على تغيير ما بأنفسهم ، و الفوز في المعركة على إعداد القوة .

الوقت بساط على امتداده تتسلسل هذه العمليات و تتوالد و تتدرج . و في احترام هذا التدرج العام قانونُه على الناس أجمعين تكمن حكمة الله الخاصة بهذه الأمة ، تطوى لها المراحل و تمهد الصعاب و تعجل بالنصر . ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم و هو يطوف بمكة حول البيت الحرام تحيط به مئات الأصنام مظنة أن يفتح مكة و يكسر الآلهة القرشية بعد بضع سنوات . كان المشركون و يهود المدينة من بعد يحسُبون حساب ميزان القوى و هو في صالحهم . و لو شاء الله لأبطل تلك الميزان إبطالا و لأطبق الأخشبين على قريش و خسف الأرض بيهود كما فعل بأعداء الرسل من قبلُ . لكن حكمته جل و علا اقتضت أن تدور رحا الإسلام بالتدرج في عالم الأسباب ، و أن تأتي الدفعة الملكوتية لتساعد الأيدي المجاهدة ، داخل التاريخ و في زحمته لا خرقا سافرا لناموسه .

قال الله تعالى في سورة الحشر : « *هُوَ ٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَ ظَنُّواْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَ قَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ* ﴿02﴾ » .

كذلك يقدر الله تعالى أن يأتي البناء الفتنوي من القواعد ، و أن يبدلنا خيرا منه ، و أن يفتح لنا كل الحصون . ذلك إليه سبحانه ، نستغفره و نضرع إليه . و الذي علينا أن نتوغل بالرفق الحازم . روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : *« إن هذا الدين متين ، فأوغلوا فيه برفق »* . و جاء الحديث من طرق أخرى بزيادة تقول : *« و لا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله . فإن المُنْبَتَّ* (المسرع جدا) *لا أرضا قطع و لا ظهرا* (دابة) *أبقى »* .

التدرج و الإيغال برفق من أهم واجبات الراجين نصر الله ، الناصرين بجهادهم الصابر لله .

في الصحيح : « يؤتي الله على الرفق ما لا يؤتي على العنف » . و في القرآن : « وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَ أُوذُواْ حَتَّىٰ أَتَـٰهُمْ نَصْرُنَا وَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ وَ لَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِىْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿34﴾ » (سورة الأنعام) . يليها قوله تعالى لرسوله ينبهه و إيانا أن العجلة و الضيق بالواقع المعاكس لا تغير من الواقع شيئا : « وَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴿35﴾ » (سورة الأنعام) .

فمن سنن الله أن يملي للقرى الظالم أهلها و يمهلهم " حتى " يأتيهم بأسه . و من سننه أن يلهم أولياءه الصبر على بذل الجهد حتى يأتيهم نصره .

فساد كبير يدخل على العبد في نفسه و جسمه و عقله و عادته يتحرج به و يعنت و يكره بسببه العمل إن كلف ما لا يطيق ، و تزاحمت عليه وظائف الشرع ، و اكتظ أفقه بالمهام الملحة حتى لا يدري من أين يبدأ . فيعجل و يعنف و لا يحسن في شيء بل يسيء في كل شيء . ما بالك إذا كانت المهام على مستوى إعادة بناء المجتمع ، و الوظائف الشرعية شاملة لإقامة دولة القرآن ، و زحام الأولويات لا يقيم وزنا لمخلفات الماضي و رواسبه المرَضية في جسم الأمة و نفسها و عقلها و عادتها . أي عنت يلحق الأمة و أية كراهية تكره " الحل الإسلامي " إن جاء جاهزا في التصورات الساذجة عنيفا قاطعا سافكا عجلا !

يأتي مدد الله تعالى من حيث لا يظن المومنون ، و من حيث لا يحتسب الآخرون إن تأنسنا بسنة الله و رسوله و تتبعنا و اقتدينا . و هي كلها تدرج و بناء متعاقب و رفق يرفع الإكراه في الدين و الحرج في الدين و الغلو في الدين و التشدد في الدين .

روى الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن من صحيحه عن أمنا عائشة رضي الله عنها أنها جاءها عراقي فقال : " أي الكفن خير ؟ قالت : و يحك و ما يضرك ؟ قال : يا أم المومنين ، أريني مصحفك : قالت : لِمَ ؟ قال : لعله أؤلف القرآن فإنه يقرأ غير مؤلف . قالت : ما يضرك أيه قرأت قبل ، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة و النار ، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال و الحرامُ . و لو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ! و لو نزل : لا تزنوا ، لقالوا لا ندع الزنا أبدا ! " . الحديث .

قال الحافظ ابن حجر : " أشارت (أمنا عائشة) إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل ، و أن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد ، و التبشير للمومن و المطيع بالجنة ، و للكافر و العاصي بالنار . فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الحكام . و لهذا قالت : " و لو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندعها " . و ذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف " . قال رحمه الله : " و كان أهل العراق اشتهروا بالتعنت في السؤال " .

العراقي يدقق في جزئيات الكفن و أم المومنين تزجره و تدله على سعة الدين . و النفوس تنفر أشد النفور من الإقلاع عن العادة . و من الإسلاميين المعاصرين من يدل على الضيق و يتصور أن فرض القوانين الإسلامية بالقوة يوم يستولي جند الله على السلطة كاف لإقامة الدين . لا نتفق مع هذه العقلية القانونية ، و لا نحب أن يصبح أهل الحق جلادين يُكرِهون و يكَرِّهون ، و لا نقول برفع التكليف لنبدأ من نقطة التوحيد فقد تم التنزيل و الأمة مسلمة مكلفة بالشرع كله . لكن نقول بوجوب التدرج و ضرورة التربية .

تكلم الشاطبي رحمة الله طويلا في الموافقات على أصل مكين من أصول الدين و هو رفع الحرج و المشقة . و ذكر قصة الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ما أجدرنا أن نجعلها لنا شعارا . سأله ابنه عبد الملك ، و كان رجلا صالحا : " ما لك يا أبت لا تنفذ الأمور ؟ فو الله ما أبالي لو أن القدور غلت بي و بك في الحق ! " فقال الخليفة العالِم الذي بلغ درجة الاجتهاد المطلق : " لا تعجل يا بني ! فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين ، و حرمها في الثالثة ، و إني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة ، فيكون من ذا فتنة " .

الجاهلية

معرفة الجاهلية و معرفة بداية الإسلام خروجا منها و معالجة لها و قتالا و جهادا عبرة بالغة لنا و تثبيت في أذهاننا لسنة الله في الخلق التي لا تتبدل . تثمر العبرة فينا من دراسة الجاهلية و خصائصها إن راعينا الفرق بين الجاهلية الجهلاء العامة الشاملة التي واجهها النبي صلى الله عليه و سلم و صحابته و بين المجتمعات الإسلامية المعاصرة التي داخلتها الجاهلية و تخللتها ، لكن لم تغير طبيعتها المسلمة العميقة . لا قياس مع الفارق كما يقول فقهاؤنا . و نرجع إن شاء الله في الفقرة المقبلة لنميز بين مفهوم " جاهلية " و مفهوم " فتنة " .

قال أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " إنما تنقض عُرى الإسلام عروةً عروةً إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية " . و كلمته هذه تأتي هامشا و إضافة إلى الحديث النبوي الذي رواه الإمام أحمد و الطبراني عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« لتنقضن عُرى الإسلام عُروةً عروة ، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها . و أولهنَّ نقضا الحكم و آخرهن الصلاة »* .

يكثر عند الباحثين في تاريخ الإسلام تحليل العوامل السلبية التي أدت إلى انحطاط المسلمين . و سؤال شكيب أرسلان رحمه الله : " لماذا تأخر المسلمون و تقدم غيرهم ؟ " مثال لا يزال ماثلا في قاموس القوميين و الوطنيين لأن الشطر الثاني من السؤال " و تقدم غيرهم " يوحي بضرورة استفادة التقدم من هذا الغير ، و استعارة وسائله ، و تبني أساليبه ، و السير في مضماره ، و الرضا بمعاييره لما هو التأخر و التقدم و الخير و الشر . مع شيء من الأصالة هنا و من العزة الوطنية هناك ، و لبرالية و اشتراكية يكونان مفتاحا لحل المشكل الاقتصادي الاجتماعي .

و عند بعض الإسلاميين تركيز على العوامل الإيجابية في سيرة الرسول صلى الله عليه و سلم و كلها حق و صواب لا ريب ، و دعوة للتميز عن " جاهلية القرن العشرين " و مقاطعتها و المفاصلة عنها . و يفتح الفهم

التبسيطي لهذه الدعوة الأبواب لتكفير المجتمعات المسلمة و التعلق بمثالية مطلقة يتخيل طلابها أنها تُنال بمحو مَاحِقٍ للواقع الجاهلي ، بلا انتظار ، و لا تدرج ، و لا محاكمة ، و لا صبر .

عرى الإسلام انتقض منها الكثير ابتداء بفساد الحكم ، و محاولة إعادة هذه العرى للارتباط و الإبرام و الشد جهود ضائعة إن نشأ في حضن الدعوة من لا يعرف الجاهلية الأولى ، و الجاهلية الحالية ، و خصائصهما المشتركة ، و الدعوة النبوية المتزلة من السماء الغازية زمان إقبال الإسلام و شبابه ، و الدعوة الحاضرة النابعة من مجتمع مغزو زمان انبعاث الإسلام و تجدده .

دراسة السيرة النبوية في المجتمع الجاهلي الأول تعطينا نموذج النشأة ، و معيار القيمة ، و حقيقة التاريخ ، و حظ الجهد البشري ، و حياطة العناية الإلهية ، و شروط هذه العناية . تعطينا صورة لسنة الله في فترة الميلاد الإسلامي نستهدي بملامحها العامة في سيرة التجدد الإسلامي . مع مراعاة النقلة الزمانية ، و انقطاع الوحي الموجه للحركة الأولى يحل محله الاجتهاد و التسديد و المقاربة ، و مراعاة وجود مجتمع مسلم في الحاضر انحلت عراه لكنه لا يزال مسلما .

الخصائص العامة للجاهلية ، تلك و هذه و كل جاهلية ، نجدها في كتاب الله عز و جل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، تتريل من حكيم حميد . أنى وجدت هذه الخصائص مجتمعة متساندة مكثفة مظلمة قائمة فتلك الجاهلية حق الجاهلية . فإن أبصرنا بعضا منها تسرب إلى العقول و النّفوس و السلوك الفردي و الجماعي ، و أكسب المنظر كدورة و ضبابية تأصلت فيه أو غيرته عن صفائه الأول فهي بعض الجاهلية . و قد يتصور في الذهن مسلمون فيهم جاهلية ، ما أخرجهم ترسب آثارها فيهم عن الإسلام .

الخاصية الأولى للجاهلية هي " ظن الجاهلية " ، هي فساد الاعتقاد أو الشك في قدر الله عز و جل و قدرته و هيمنته . قال الله تعالى في سورة آل عمران يذكر وقائع أحد : « ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَـآئِفَةً مِّنْكُمْ وَ طَـآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِـٱللهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ » (سورة آل عمران ، 154) .

هؤلاء الأعراب أسلموا و لما يدخل الإيمان في قلوبهم ، و منافقون خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و مع المومنين . فلما حلت الهزيمة و وقع الفشل حلت الأمنة و السكينة على قلوب المومنين فرجعوا إلى موقف ثابت ، و استولى الهلع و سوء الظن على الآخرين ، و ظهرت طويتهم الجاهلية : « يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ » (سورة آل عمران ، **154**) .

جاهلية إذن في القلوب و الصدور و العقول . مُتفاوتة الدرجة و التغلغل بين مشرك صريح و منافق و أعرابي .

المشركون و من في حكمهم يتبعون الظن و ما تهوى النفس ، و يجادلون في الله بغير علم و لا هدى و لا كتاب منير ، و يتبعون كل شيطان مريد من شياطين الجن و الإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا كما جاء في القرآن الكريم . و الظن تخرّص و جهل و تكبر و جحود . الظن بالمفهوم القرآني مظهر للذهنية الجاهلية المتشبثة بما قال الأولون المتعصبة لجهلها . عاهة عقلية نفسية معا . قال الله عز و جل : « وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لَا هُدًى وَ لَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿08﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ » (سورة الحج) . ثاني عطفه أي مستكبرا مصعرا خده يسمع آيات الله هزؤا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا . قال مجاهد : نزلت في النضر بن الحارث . و قال قتادة : ثاني عطفه : هو المعرض من العظمة ، إنما ينظر في جانب واحد .

هذه الخاصية كانت طاغية في التشكيل الذهني للجاهليين الأولين ، و هي الآن أطغى و أعتى في جاهلية الاختراع و غزو الفضاء و الإعلاميات و المعلوميات .

و الفيصل ما بين العلم و الجهل ، و الإيمان و الكفر ، و الجاهلية و الإسلام قبول الوحي المخبر عن وحدانية الله تعالى و عن الدار الآخرة و مصير الإنسان إلى ربه و بعثه و خلوده في دار النعيم أو في دار الشقاء جزاء أعماله في الدنيا .

الخاصية الثانية من خصائص الجاهلية هي خاصية " حكم الجاهلية " نجدها في قوله تعالى : « وَ أَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَ ٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿ 49 ﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿ 50 ﴾ » (سورة المائدة) .

مبادئ الحكم و نظامه و علاقاته و أهدافه تتبع التصور السائد للإنسان عن نفسه و قيمته كما تتبع القوة العملية الاجتماعية التي تكون عصبيتها قاعدة الحكم البشرية . نرجع إلى هذه الأخيرة إن شاء الله في الخاصية الرابعة .

الحكم بما أنزل الله يقتضي تحكيم الشرع ، و الحكم الجاهلي يريد تحكيم الهوى و منازعة منهاج النبوة .

نقف وقفة لطيفة عند وصية الله لرسوله : « وَ ٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ » (سورة المائدة ، 49) . نقف لنسجل للفقرة المقبلة بإذن الله كيف تأتي الجاهلية " تفتن " الإسلام عن " بعض " الوحي ، و لو استطاعت ، و هي تفعل ذلك حين تستطيع ، لفتنته عن كل الوحي . و عندئذ زال الإسلام زوالا . نسجل ثم نمضي إلى توفيق المولى الكريم السميع العليم .

ظن الجاهلية السيّئ بالله و تكذيبها لرسله و صممها عن الحق يتعدى من مجال العقيدة ، و يعبر إلى الحياة العملية . فيكون القوي سيد الضعيف ، و الغني مولى الفقير ، و المال غنم الفئة الجبارة و دولة بينها ، و الربا أصل التعامل ، و لغة السيف أفصح تعبير .

لفظ " الجاهلية " يحمل لغة معنيين اثنين : معنى الجهل ضد العلم . و معنى الجهل ضد الحِلْم . و هكذا يلتئم شمل الجاهلية بالمعنيين اللغويين ، و القرآن نزل بلسان عربي للناس لعلهم يعقلون ، فيتغذّى عنف الجاهلية على الإنسان بجهل الجاهلية لمعنى الإنسان .

و العنف و تردي الإنسان في حيوانيته من أبرز صفات تلك الجاهلية و هذه . زادت الحاضرة على أختها العتيقة بالإلحاد المفلسف المواكب للصواريخ النووية المدمرة .

الخاصية الثالثة للجاهلية هي " تبرج الجاهلية " ، هي فساد الخلاق و طغيان الشهوات و خرق حدود العفة و الصيانة التي تتميز بها الإنسانية عن البهيمية . فمتى تعدت الترعات الغريزية مكانها الطبيعي في كِنِّ العفاف و هتكت سِتر الحياء انطبعت بطابع الجاهلية . قال الله تعالى مخاطبا نساء النبي و المومنات جميعا : « وَ قَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ » (سورة الأحزاب ، 33) .

استقرار النساء في بيوهن مطلب شرعي . و خروجهن و تبرجهن و تسويقهن و ابتذالهن من أبرز سيما الجاهلية المعاصرة . و إن معالجة مشكل المرأة و مظلوميتها في بلاد الله ، خاصة في بلاد المسلمين حيث يأمر الشرع بإكرامهن و إعزازهن ، لن تلقى حلا إن أفرز عن مجموع التشكيلة الجاهلية المتكونة من جموح " ظن الجاهلية " و طاغوت " حكم الجاهلية " و حمى " حمية الجاهلية " و هي الخاصية الرابعة من خصائص الجاهلية .

قال الله تعالى واصفا الحالة النفسية لمشركي قريش و للمومنين عند فتح مكة : « إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ » (سورة الفتح ، 26) .

الحمية لغة الغضب ، و حمية الجاهلية عصبيتها كما تفسر ذلك الأحاديث النبوية . يقابل " حمية الجاهلية " السكينة التي يترل الله في قلوب المومنين .

إن كان للخصائص الثلاث الأولى للجاهلية الأثر الفاعل في ذهنية الجاهليين و ثقافتهم و نظامهم السلوكي و السياسي فحمية الجاهلية و غضبيتها و عنفها و تكتلها للعصبية ، ينصر بعضها بعضا ظالما كان أو مظلوما ، هي سياج الجاهلية و دائرتها و قفلها . العصبية هي ملخص الجاهلية و خلاصتها . و إن ذكرت في القرآن متأخرة في الترتيب فما هي نتيجة بل هي المقدمة . ما هي البنت بل هي الأم .

التمسك " بظن الجاهلية " و عقائد الآباء و الأجداد فرع عن العصبية الكلية . و الولاء السياسي للقبيلة و مشيختها يؤسس " حكم الجاهلية " ، لا حياة للفرد بدونه ، فهو التعبير الحياتي للعصبية . و تبرج النساء مفاخرة عند قوم يمتدحون بكل ما يرفع سمعتهم ، من ذلك جمال نسائهم ينشر محاسنهن الشعراء في المحافل ، و تنفق سلعتهن إن ذاع صيتهن . العصبية عُصارة الجاهلية و ثقلها و ركيزتها .

و قد نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن عصبية الجاهلية و حميتها ، لأنها اللحمة الجامعة بين أفراد المجتمع الإسلامي . و أمر الله و رسوله بالأخوة بين المومنين على أساس من عضوية الإيمان و التقوى ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بهما .

عبر تاريخ الإسلام إلى عصرنا نستطيع أن نعرض نبضات القلق و نزعات الشقاق و فورات الفتن على معيار العصبية ، عصبية الظن و الحكم و التبرج و الحمية ، فنجد أن الإسلام يقوى بضعفها و يتراجع بقوتها . يكفي أن نشير إلى التلاحم الحاضر بين الإلحاد و العلمانية ، و هما " ظن الجاهلية " ، بالقومية و هي " حمية الجاهلية " ، و ارتفاعها على الإسلام إلى سدة الحكم . و أي حكم أشد جاهلية و أحمى حمية من حكم النصيرية الكافرين في سوريا و حكم البعث في العراق .

أخرج مسلم و النسائي عن جندب بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : « *من قُتل تحت راية عُمِّيَّة (ضالة جاهلة) يدعو عصبية أو ينصر عصبية فقتلة جاهلية* » . و أخرج أبو داود بإسناد حسن عن جبير بن مطعم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : « *ليس منا من دعا إلى عصبية ، و ليس منا من قاتل عصبيَّةً ، و ليس منا من مات على عصبية* » . و أخرج أبو داود بإسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : « *من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي رُدِّيَ في مهواة (سقط في حفرة) فهو ينزع بذنبه* » . و جاء عند أبي داود أيضا في " باب العصبية " أن واثلة بن الأسقع قال : قلت : يا رسول الله ، ما العصبية ؟ قال : " أن تعين قومك على الظلم ".

بعد فتح مكة ، و هزيمة حمية قريش و عصبيتها و انتصار السكينة و كلمة التقوى و العدل على كلمة الظلم و الاستكبار قام رسول الله صلى الله عليه و سلم خطيبا فقال : « *يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية و تعاظمها بآبائها . الناس رجلان : بَر تقي كريم على الله عز و جل ، و فاجر شقي هين على الله عز و جل . الناس كلهم بنو آدم ، و خلق الله آدم من تراب .*

قال الله تعالى : " يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿13﴾ " » (سورة الحجرات) . أخرجه الترمذي بسند حسن .

لا يقصد الإسلام أن يمحق صلات القربى و يقضي على علاقات النسب و الانتساب . لا و لا كان ذلك من فعل رسول الله صلى الله عليه و سلم . فقد حافظ النبي الكريم على البنيات الموجودة و اعتمدها منطلقا لتشييد صرح الأخوة الإيمانية وراء حدود القبيلة و العشيرة بمؤهلات التقوى و العمل الصالح تحت شعار : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ » (سورة الحجرات ، 13) .

النسب و الانتساب مما أمر الله به أن يوصل شريطة أن لا يتحول حب ذوي القربى و الولاء للعشيرة عصبية ، و حد العصبية و تعريفها كما قرأنا : " أن تعين قومك على الظلم " .

لكن لعِبِّيَّة الجاهلية ثقلاً و عناداً و رعونة و مقاومة . العَبَى في اللغة الرجل الجافي ، و العَبَاء الثقيل الأحمق . كذا قال في " لسنا العرب " .

هذه الجاهلية الحَرُونُ التي طاردها الإسلام الأول – و هي اليوم تحاصر الإسلام من كل جانب منذ كرَّتها المتواصلة على الإسلام ابتداء من عودة العصبية للقضاء على الخلافة الراشدة و تأسيس الحكم العاض – هي قبل كل شيء وثنية عامة ، وثنية عقيدة ، وثنية حكم ، وثنية زينة ، وثنية تفاخر . أوثان العرب كانت على عهد النبوة أحجارا بدائية . قال الكلبي : " كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنعُ في منزله أن يتمسّح به . و إذا قدم من السفر كان أول ما يصنع أن يتمسح به أيضا "[1]. يتمسحون بها و يطوفون حولها و يناجونها و يشكون إليها همهم . يعبدونها لتقربهم في زعمهم إلى الله زلفى . و ذلك هو الشرك . كان في جوف الكعبة ثلاثمائة و ستون صنما . و كان الصنم عندهم يفقد قدسيته أو يكسب سمعة و شعبية ، محلية أو عامة ، بحسب ما يحيط به من دعاية و ما يحميه من عصبية . و كان لقريش القِدْح المعلى في ذلك .

---

[1] كتاب الأصنام ص 33 .

كان الكهان الماهرون في الزمزمة يكسبون لقبيلتهم شهرة فتصبح قبلة لحج المختصمين . و أية قبيلة حصلت على صنم مستورد من البلاد الهلينية المتقدمة الراقية في وثنيتها التي تجيد نحت المرمر فقد قدمت لمستقبل مفاخرها " استثمارا " معتبرا . أما ضعفاء الناس فيكتفون بالموجود . قال أبو رجاء العطاردي : " كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرا هو خير منه ألقيناه و أخذنا الآخر . فإذا لم نجد حجرا جمعنا حثوة (حفنة) تراب ، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به "[1] .

كان للعرب آلهة من الجن و الكواكب و الملائكة في زعمهم . كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، جل الله . و كان منهم من يعبد الشمس و من يعبد القمر ، أو نجما معينا يخصونه .

كانت الحروب الدموية و الغارات طبيعة طبعت عليها الجاهلية الأولى . كان العنف هو القاعدة لا الاستثناء . كانت الغارة و النهب هما المعيشة . كانت أية نفرة أو خصومة أو نزاع بسيط بين شخصين ، لا سيما إذا كانا شريفين في قومهما ، تقدح حربا طاحنة تراق فيها الدماء عشرات السنين .

و كان " تبرج الجاهلية " خاصا بالطبقة المستأثرة بالزينة ، و الزينة البئيسة خاصة بالفتيات المسلوبات الحرية يُحصرن في دور الخنا تخفق عليهن رايات الإشهار الحمر في مكة .

كان القمار رياضة يومية و مفخرة . و كان الربا أضعافا مضاعفة يقبض على أزمة المال .

نقتصر على هذا القدر من وصف تلك الجاهلية و نقتصر على الجاهلية العربية التي كانت على كل حال " أنظف " من الجاهليات المعاصرة لها ، في الهند حيث كانت المعابد دوراً للزنا المقدس ، و في بيزنطة حيث كانت فضائح الكنيسة و قصور البازليوس مضرب الأمثال ، و في مصر حيث مارس الاستعمار الرومي البيزنطي أبشع الوحشيات في محاربة نصرانية القبط ، و في فارس حيث شرع مزدك الإباحية في الموال و النساء دينا ، و في كل مكان حيث كان اليهود لعنهم الله يُفسدون في الأرض و لا يصلحون بمكرهم الرقيق الشيطاني الذي يزري فساده بجفوة العرب السذج و ظنهم و تبرجهم و حميتهم .

[1] رواه البخاري .

الفتنة

الفتنة لغة إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته . قال الراغب الأصفهاني رحمه الله : " و جعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة و رخاء . و هما في الشدة أظهر معنى و أكثر استعمالا " . قال : " و الفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى و من العبد كالبليَّة و المصيبة و القتل و العذاب و غير ذلك من الأفعال الكريهة " . قال : " و متى كان من الله يكون على وجه الحكمة . و متى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك " .

تأصيل مفهوم " الفتنة " مفيد جدا لفقه سنة الله في تاريخ المسلمين . ينبغي أن نميز مفهوم " فتنة " عن مفهوم " جاهلية " ليتجلى أمامنا الفرق بين مجتمع قاعدته الكفر و الجحود لم يعرف الإسلام و تلاشت فيه تعاليم الرسالات الإلهية . و بين مجتمع مسلم لا يزال في عمومه متمسكا بالدين و إن كرت عليه الجاهلية و غزته و حرفت من مساره .

على هذا التمييز بين المفهومين يترتب نوع تعاملنا مع المجتمع . كان سيد قطب رحمه الله أبلغ من تحدث عن عزة الإسلام و استعلائه على الجاهلية و تميزه عنها تميز النور عن الظلمة . كلماته النيرة الخيرة رسمت في عقل هذا الجيل و وجداه صورة ناصعة لمثالية الإسلام ، و مثال ثباته على الحق و رجولته في الإيمان رسخت في قُرائه تعشق تلك المثالية . بعض من قرأوه لا يقدرون على الانتقال من عالم المثالية و النزول إلى عالم الواقع ، فيدفعهم ما يرون من حولهم من فساد فتنوي إلى اليأس ، و تكفير المجتمع و الهروب منه ، و الانزواء مع مثالية مكبوتة في أقبية السرية و العنف .

الفتنة شدة و مصائب و بلايا من فعل الله المقضي المقدر ، و من فعل الناس يصيبهم بأس الله و يظهر بينهم الفساد في البر و البحر بما كسبت أيديهم . الفتنة اختبار له معنى و مغزى و هدف ، يريد الله عز و جل به أن يبلونا أيُّنا أحسن عملا . يبلونا بالخير و الشر فتنة ، يبلونا فرادى و جماعة ، تأتي الفتن

التاريخية على ميعاد بين قدر الله و انحطاط العباد عن مقتضيات الإسلام لتؤكد سنة الله و تثبتها و تعطيها طابع الاستمرار و الصرامة . فالفتنة في تاريخ المسلمين ، بشاهد من الكتاب و السنة و الواقع الملاحظ المسجل ، من متن سنة الله لا من حواشيها ، من أبجدياتها .

نرجع إلى قول الله تعالى : « *وَ ٱحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَـآ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ* » (سورة المائدة ، 49) . تحذير ما كان ليوجه للرسول الكريم و يبقى قرآنا نتلوه لولا أن من طبيعة الجاهليين حراس " حكم الجاهلية " المحبين له الباغين لا ينفكون يحاولون فتنة أهل الحق عن بعض الحق ، إن لم يستطيعوا صرفهم عنه جميعا .

ذكر الله تعالى كيف غشي النُّعَاس الأمنة " طائفة منكم " . فنسب الطائفة للمخاطبين و هم المومنون بقوله منكم . ثم ذكر سبحانه الطائفة الأخرى قائلا : « *وَ طَـآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِـٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ* » (سورة آل عمران ، 154) . لم ينسبهم بكلمة " منكم " ، لكن كونهم طائفة تذكر بعد طائفة نسب أكيد . فهم من المومنين باعتبار كونهم طائفة داخلة في عموم الخطاب ، و هم مسكوت عنهم في مقام " منكم " لما يحكم عليهم به ما فيهم من " ظن الجاهلية " . قال المفسرون : قائل الكلمة عبد الله بن أُبَي أو هو معتب بن قشير . قوم منافقون لِبسوا ثياب الإسلام .

أخرج البخاري و مسلم و غيرهما عن المعرور قال : لقيت أبا ذر بالربَذَة (المكان الذي عاش فيه أواخر حياته رضي الله عنه) و عليه حلة و على غلامه حلة . فسألته عن ذلك فقال : " إني سابَبت رجلا فعيرته بأمه ، فقال لي النبي صلى الله عليه و سلم : « **يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية ! إخوانكم خَوَلكم ، جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، و ليلبسه مما يلبس . و لا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم** » .

صحابي جليل نتصوره في جلاله مكتملا ، ها هو في أحضان التربية النبوية نتعلم معه أن الجاهلية لا تنمحي ضربة واحدة ، و أنها تلتصق بقاع الطبع ، و تترسب في جنبات النفس ، و تنتشب في العقل و الكيان كله بمخالب العادة ، و تتحالف مع الهوى . في الطائفة القلقة التي لم تذق السكينة و أمنة

النعاس بقايا " ظن الجاهلية " ندد بها القرآن في موقف جماعي خطر هو موقف القتال الذي يقتضي ثقة بالله كاملة . و في موقف فردي بسيط يندّد المربي العظيم بصغيرة الجاهلية في خلق رجل يعير خادمه بأمه .

كانت فلول الجاهلية يومئذ في انحسار ، لكن كانت تقاوم على كل المستويات . فلننظر الآن كيف كرت الجاهلية كرتها الشعواء حتى أثخنت في الأمة ، و نقضت كثيرا من عرى الإسلام ، و بددت جماعته ، و نالت من عقيدة طوائف من المسلمين ، و أعادت " حكم الجاهلية " ، و نفخَتْ في " حمية الجاهلية " و زينت في بلاد المسلمين " تبرج الجاهلية " .

مثل رسول الله صلى الله عليه و سلم الجاهلية الكارة على المسلمين بفتنها بالليل المظلم . سواد جاهلي و شر .

و مثل الإسلام و هو يعاني من الفتن بجسم مدَخن خالطه الشر دون أن يغيِّر طبيعته الخيرة .

روى أبو داود و الترمذي بسند صحيح عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : « إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم » . الحديث .

و روى مسلم و الترمذي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه و سلم قال : « بادِروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم » . الحديث .

و أخرج الشيخان و غيرهما عن أبي إدريس الخولاني أنه سمع حذيفة رضي الله عنه قال : " كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الخير ، و كنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت : يا رسول الله ! إنا كنا في جاهلية و شر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم ! قلت : فهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم ، و فيه دخَنٌ . قلت : و ما دخنه ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتي ، و يهدون بغير هديي ، تعرف منهم و تنكر . قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها . فقلت : يا رسول الله ! صفهم لنا! قال : هم من جلدتنا و يتكلمون بألسنتنا . قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟

قال : تلزم جماعة المسلمين و إمامهم . فقلت : فإن لم يكن لهم جماعة و لا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، و لو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت و أنت على ذلك " .

قال الحافظ في معنى الدَخن : " هو الحقد ، و قيل الدغَل ، و قيل فساد في القلب " . و الدخن في اللغة كُدرة في سواد . و دخِن الخُلُقُ دخناً ساء و فسد و خبث .

في رواية للحديث السابق عند أبي داود قال حذيفة : قلت يا رسول الله ! أرأيت هذا الخير الذي أعطاناه الله ، أيكون بعده شر كما كان قبله ؟ قال : نعم . قلت : فما العصمة من ذلك ؟ قال : السيف ! قلت : هل للسيف من بقية ؟ قال : نعم ! " . و في رواية : " بقية على أقذاء ، و هدنة على دخَن " الحديث .

قال ابن الأثير رحمه الله : " المراد بأقذاء في الحديث : الفساد الذي يكون في القلوب " . و قال عن الدخَن : " أن تكون القلوب كهذا اللون (لون الكدورة) لا يصفو بعضها لبعض " .

موت القلوب و دخنها و كدورتها و خروج نور الإيمان منها حتى لا يبقى إلا إسلام أعرابي تغشاه ظلمة الجاهلية أهم أثر تخلفه الفتنة في المجتمع بعد هبوب رياحها و هياج أعاصيرها . الأحداث الدامية و قتل الأبرياء و خراب الديار و ضياع الأموال مصائب تهون بالمقارنة . تحويل القلوب و العقول عن الإيمان فساد و خبث و سوء و حقد يتعمق و يُتوارث و تتعدَّى أمراضه و تسري ، أما الأحداث مهما كانت فاجعة فتنسى و تلتئم جراحها . لهذا تلح الأحاديث الرحيمة بالأمة على موطن الداء و مكمن البلاء : القلوب حين تظلم و تقسو و تُفرزُ " ظن الجاهلية " و " حكمها " و " تبرجها " و " حميتها " .

حديث حذيفة رضي الله عنه يبسط تعاقب المراحل ، من خير لشر ، و تمازجهما ، و سريان الجاهلية في الإسلام و تدخينها عليه حين يتولى أمر المسلمين و يقود دولتهم قوم بَيْنَ بَيْنَ " تعرف منهم و تنكر " ، ثم يتولاها الدعاة على أبواب جهنم ، ليسوا من الأمة إلا بِلَوْنِ الجلدة و لهجة اللسان . ليس في الحديث ما يدعو إلى الاستيحاش من الأمة . فالخير هناك كامن موجود ، و حتى الدعاة على أبواب جهنم ، لا يسقط

معهم في النار إلا من استجاب لندائهم و تابعهم في عصبيتهم للجلدة و اللسان بمعزل عن الدين و إلحاداً فيه و صدا عنه . و ليس في الحديث دليل لمن يبتغي العزلة و الهروب ، إلا أن يكون من العاجزين عن الجهاد ليكون للأمة جماعة و إمام إن قدر له أن يفتح عينيه و لا جماعة للأمة و لا إمام إلا أئمة العلمانية .

دخن و هدنة على دخن و أقذاء و خبث و فساد في القلوب . هذه سمات الظلمانية الفتنوية تتكاثف سحبها القاتمة في حياة الأمة من جراء الظلم و سفك الدماء و الأثرة و طغيان العصبية و سيادة النزوات و النعرات .

فتن كقطع الليل تتابعت و طحنت رحاها خيار الأمة فبقي الشرار . فتكت بالصحابة بعد انخرام نظامهم و انهداد حصونهم . سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه زمان خلافته حذيفة عن الفتنة التي تموج كموج البحر ، و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد خص حذيفة بعلم ذلك ، يعرف ذلك عنه الصحابة و يسألونه . قال حذيفة : قلت : ما لك و لها (أي الفتنة المائجة) يا أمير المومنين ؟ إن بينك و بينها بابا مغلقا . قال عمر : فيكسر البابُ أو يفتح ؟ قال حذيفة : لا ، بل يكسر ! قال عمر : ذاك أحرى أن لا يغلق أبدا ! قال الراوي : فقلنا لحذيفة : هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال : نعم ، كما يعلم أن دون غد الليلة ، إني حدثته حديثا ليس بالأغاليط . قال الراوي : فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب . فقلنا لمسروق : سله ! فسأله فقال : عمر ! . الحديث أخرجه الشيخان و الترمذي .

كان الصحابة رضي الله عنهم يعيشون الأحداث على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و من بعده عينٌ على خبر الوحي و ما يأتي به من توقيت القدر ، و عين على مناط التكليف و واجب الجهاد و العمل الصالح طبق الأمر و النهي الشرعيين . ما كان الخبر السابق إليهم ، المخزون عند بعضهم ، المصدق ليس بالأغاليط ، تُكَأَةً و مِشجَباً يعلقون عليه كسلهم و تفريطهم بدعوى أن لا حيلة مع القدر .

فتكت الفتن المائجة بخيار الصحابة ، بل عامتهم بعد كسر الباب بمقتل عمر . قال سعيد بن المسيب التابعي الجليل رضي الله عنه : " وقعت الفتنة الأولى – يعني مقتل عثمان – فلم يبق من أصحاب بدر أحد .

ثم وقعت الفتنة الثانية – يعني الحَرّة – فلم يبق من أصحاب الحديبية أحد . ثم وقعت الفتنة الثالثة ، فلم ترتفع و بالناس طَبَاخٌ " . رواه البخاري . المراد لم يبق من الصحابة أحد يذكر . و الطباخ في اللغة القوة و السِّمَن .

طلب رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما من أصحابه قال : " أحصوا لي كم يَلفِظُ الإسلام " (أي عدد المسلمين الشاهدين بالحق) . قال حذيفة راوي الحديث : فقلنا : يا رسول الله ! أتخاف علينا و نحن ما بين الستمائة إلى السبعمائة ؟ قال : " إنكم لا تدرون ، لعلكم أن تبتلوا " . قال : فابْتلينا حتى جعل الرجل منا لا يصلي إلا سرا . أخرجه الشيخان . في رواية للبخاري : فقد رأيتنا ابتلينا حتى أن الرجل ليصلي وحده و هو خائف .

بعد أن مرت رحى الفتنة لم يبق من الصحابة إلا أفراد يتخفون غرباء خائفين . و علت سفلة الناس و رعاعهم كما كان أخبر بذلك الصادق الأمين . أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أو ابن عمرو قال : شبك رسول الله صلى الله عليه و سلم أصابعه و قال : " كيف أنت يا عبد الله بن عمرو إذا بقيت في حثالة قد مرِجَت عهودهم و أماناتهم ، و اختلفوا فصاروا هكذا " . الحديث . الحثالة القُشارة و الرديء من كل شيء . مرجت بمعنى اختلطت .

سعَّر سفلة الناس و مسلمة الأعراب منذ ثورة الناقمين على بني مروان في عهد ذي النورين عثمان رضي الله عنه إلى عهد الرعاع المجندين في خدمة يزيد و من بعده من غلمة قريش الفاسدين فتنا طاحنة .

في سنة *36* تقاتل الصحابة في واقعة الجمل ، فكانت قارعة لا يزال صداها يتردد في ضمير الأمة . في سنة *37* واقعة صفين ، الكارثة العظيمة . في سنة *51* مقتل حجر بن عدي و أصحابه بالشام ، و ذكرى مقتله حية في ذاكرة المسلمين ، لاسيما الشيعة ، لأنها من أبشع المظالم . في سنة *61* وقعت أبشعهن و أفظعهن مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه سيد شباب أهل الجنة و ريحانة رسول الله صلى الله عليه و سلم .

جاء بعض الفجرة برأسه إلى زياد بن أبيه و أنشد :

أوقِرْ ركابي فضة و ذهبا إني قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أما و أبا

قتل الحسين و انصدع ركن من أركان البناء الإسلامي و وحدته ، فصراخ المظلومين في كربلاء ، حسين و بضع و سبعون من أهل بيته ، يتردد عويلا مُرّاً في مجاري تاريخنا . سيقت نساؤه و ابنه علي زين العابدين الطفل البريء ابن المصطفى صلى الله عليه و سلم سبايا .

سنة *63* غزا جيش يزيد المدينة عقر دار الإسلام لما قام ضده علماؤها . قتل ستّاً و ثلاثمائة نَفْس من الصحابة و أبناء الصحابة ، و حملت ألف امرأة من هتك رعاع الجيش لأعراض طاهرة في بقعة تضم المسجد الشريف و الجسم الشريف بعد أن كانت مهدا للإسلام .

العصبية النتنة أفاقت ، و أهدرت قيم الدين . قال شاعر الأنصار :

فإن يقتلونا يوم حَرة واقِمٍ فنحن على الإسلام أول من قَتَل

و نحن تركناكم ببدر أذلَّةً و أُبنا بأسيـــــاف لنا منكمُ نُفُل

كان الشعراء يخوضون حرب اللسان يضرمون بها حرب السيف و السنان . قال الحسن البصري و قد عاش هذه المآسي : " إنه لم تكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء و الشعراء و السفهاء و أهل التيه و الخيلاء "[1] . هذه أصناف الحُثالة .

سنة *67* فتنة المختار الثقفي و حربه لعبد الله بن الزبير .

سنة *73* نصب الحجاج بن يوسف الثقفي المنجنيق على جبل أبي قُبيس أشهرا يقذف مكة و الكعبة . و قتل عبد الله بن الزبير الصحابي المظلوم الثائر على الظلم و معه خلق كثير .

المختار و الحجاج من الحثالة التي عينها النبي صلى الله عليه و سلم بقوله : " **في ثقيف كذاب و مبير** " . المبير المهلك المخرب . الحديث رواه الترمذي و قال : يقال الكذاب المختار بن أبي عبيد و المبير

---

[1] تاريخ الطبري ج 8 ص 153 .

الحجاج بن يوسف . و روى الترمذي أن الذين قتلهم الحجاج صبرا مائة ألف و عشرون ألفا . و هو رقم هائل يومئذ قبل اختراع وسائل الإفناء الحديثة .

أخبر رسول الله صلى الله عليه و سلم أنَّ قطع الفتن المظلمة لا تقتل الأبْدَانَ فقط ، بل تقتل القلوب . أي أنها لا تقطع حياة الأفراد فحسب و قد انتهى أمرها ، بل تخلف في قلوب الباقين جفافاً من الإيمان .

روى الإمام أحمد و الطبراني من حديث الضحاك بن قيس قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم ، فتن كقطع الدخان ، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه " .

بقتل الرجال الأخيار تغيب النماذج الصالحة ، يغيب الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر المعلمون المربون ، فتبقى الحثالة يموج بعضها في بعض . و إن للفجوة الواسعة العميقة التي تركها فناء الصحابة في حروب الفتنة أبلغ الأثر في نقص تربية الأجيال اللاحقة .

مِن قتل عمر و فناء الصحابة بدأ انْسياب تاريخنا من قمم الإحسان إلى بِطاح سنة الله الجارية على الأمم . مع الأمة المحمدية عناية الله و وعده لا يزالان . لكن خصوصيات العناية و الوعد لا تستثنينا من عموم السُّنَّة . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " لتتبعُن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع . حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لتبعتموهم . قلنا : يا رسول الله ! اليهود و النصارى ؟ قال : فمن ؟ " . أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري .

داء الأمم

مقدر على هذه الأمة أن تتناوشها عوامل الانحلال الخلقي و الاجتماعي على قدر انسلاخها عن الدين و ابتعادها عن مثله العليا و اتباعها في ذلك سنن اليهود و النصارى . من تدخين الفتن على القلوب و العقول تحقق اللقاء بين سنة الله و فعله المتعالي عن كل تحليل و بين تحرك العصبية الجاهلية ، و هي من نزغات شياطين الجن و الإنس و من كسب الناس ، فأنتج اللقاء أمراضا و عاهات تردّت بالأمة في مهاوي الانحطاط .

كم نحن بعيدون حين نُسَايِرُ الفقه القرآني السني للتاريخ عن التحليل المادي الجدلي و عن العقلانية الأرضية ! ليس معناه أن مسايرتنا للحق و استنارتنا بضوئه تغيب عنا حقائق الأرض ، بل تزيدنا التلمذة للقرآن و السنة بصيرة بهذه الحقائق ، إذ تركز اهتمامنا على منبع الطاقة البشرية المحركة للتاريخ ، ألا و هو قلوب بني آدم و ما ينفعل فيها و ما يتفاعل من نزوات حين تكون القلوب مظلمة جاهلية ، أو مدخنة مفتونة ، أو نائرة بالإيمان و الإحسان . لسنا و نحن ننظر إلى سنة الله بمنظار القرآن و الحديث مع التفسير المادي و لا مع التفسير السيكولوجي للتاريخ ، لأن هذا الأخير يهمل الأسباب الأرضية ، و يعطيها التفسير القرآني النبوي مكانتها من زاوية تأثرها سلبا و إيجابا على شعور الناس و سلوكهم .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما رواه أبو هريرة : " سيصيب أمتي داء الأمم " فقالوا : يا رسول الله ! و ما داء الأمم ؟ قال : " الأشَر و البطر ، و التكاثر و التّناجش في الدنيا ، و التباغض و التحاسد ، حتى يكون البغي " . أخرجه الحاكم و صححه و وافقه الذهبي .

الأشَر و البطر بمعنى واحد . قال الراغب الأصفهاني رحمه الله : " البطر دَهَش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة و قلة القيام بحقها و صرفها إلى غير وجهها " . و التناجش المزايدة في الدنيا و التنازع عليها . أرأيت كم تحمل الألفاظ من دلالات خلفية إيمانية في لغة القرآن و الحديث ! للإنسان في الدنيا معنى و اتجاه ،

و لأفعاله الأثر الأول فيما يصيبه و يصيب المجتمع من بَلْوى ، و على قوة دوافعه القلبية في الحق و ضعف هواجسه النفسية مع الباطل يتوقف مصيره الشخصي في الآخرة و مصير مجتمعه في الدنيا .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يشخص الأطوار الأخيرة لداء الأمم ، و ظواهر هذا المرض و نتائجه : " يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأَكَلَةُ على قصعتها " . فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : " بل أنتم يومئذ كثير ، و لكنكم غثاء كغُثاء السيل . و لينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، و ليقذفن في قلوبكم الوَهْن " . قيل : و ما الوهْن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا و كراهية الموت " . أخرجه أبو داود و أحمد بسند قوي من حديث ثوبان رضي الله عنه .

أينما نظرت في كتاب الله و سنة رسوله رأيت الحديث عن الإنسان و سعادته أو شقائه في الآخرة يدور حول ما يجري في قلبه . و رأيت أن المصير الدنيوي للقُرى و الجماعات و الشعوب و الأمم يتقرر أيضا حسب ما في النفوس من تكذيب،للرسل أو تصديق ، من إسلام أو كفر ، من إيمان أو نفاق .

التدخين الذي جلبته الفتنة للأمة تعتمت منه القلوب و مرضت و ماتت . داء الأمم الأَشَر و البطر و التحاسد التناجش ، و كلها كواسح و جوائح في النفوس ، تلتهب فيها و تتصادم و تتكتل في عصبيات هائجة متقاتلة فيكون البغي .

ثم يتردى حال المريض بداء الأمم حتى ينحدر إلى دركة الوَهْن . و الوهن معنى في النفوس : حب الدنيا و كراهية الموت . و ميزان القوى الذي بمقتضاه رجحت كفة أعداء الإسلام المتداعين على المسلمين يأكلونهم قدره الحديث النبوي تقديرا معنويا عناصره نزْع الله جل و علا هيبة المسلمين من صدور أعدائهم و قذفه الوهن في قلوب المسلمين .

لاحظ نسبة " الصدور " إلى الأمم الهاجمة على المسلمين ، و نسبة " القلوب " إلى المسلمين . و لا ترادف بين اللفظين ، إن الصدور أمر مشترك ، و قلوب الكفار مطموسة مطبوع عليها لا تعقل ، بينما يبقى للمسلمين قلوب يحق لها أن تعقد الأمل عل توفيق الله العليّ القدير ليخرج الوهن و يشفي من المرض و ينجلي الدخن .

يتصل ثالث الأحاديث النبوية التي أوردناها هنا بأولها . اتبعنا سنن الأمم من قبلنا فأصابنا ما أصابها من داء . ثم استفحل فينا المرض ، و خطُر وقعُه لأننا حملة الرسالة النهائية ، المؤتَمنون على أشرف أمانة ، فاستحققنا أشد الزجر و أبلغ العقوبة . ثم يمحو الله الخطايا و يعفو عن السيئات .

يمحوها إذا شاء تعالى و تقدس ، و يرفع الوهن إذا شاء ، و تكون خلافة على منهاج النبوة إذا شاء . و قد شاء جلت عظمته ، أخبرنا بذلك من لا يكذب و لا ينطق عن الهوى .

فهل يرتفع الوهن و يأتي النصر و يكلل بالعزة هام أمة قاعدة خاملة راضية بنكوصها ، تحسب ذلك الرضى مزية ؟ أم هل ننتهض من المرض و نبرأ من أعراضه و جراثيمُه جاثمة على قلوبنا ؟ المرض موت القلوب و جفافها من الإيمان . أعراضه البَطَر و الوَهْن و هما عاهتان متجاورتان متلاصقتان متوالدتان . بطر الطبقة المترفة و سِمنَتُها و تبرجها الجاهلي و حكمها الجاهلي . إلى جوارها ، من تحت ، يَئن سواد الأمة المحروم الهزيل الجاهل العائم في لجة الفتنة . بين الطائفتين حمية جاهلية تتأجج في صدور القومية المنظمة . دَاوِني بالتي كانت هي الداء !

هذه أعراض المرض و دائرتُه ، و من ضرب المرض في المرض ، أو إضافة المرض إلى المرض ، أو طرح المرض من المرض تكون النتيجة دائما مزيدا من المرض . ما دمنا نستعير آلات جاهلية لفحص مرضنا ، و نستقبل مصابيح الجاهلية لنكشف عنه ، و نستعين بخبراء الجاهلية لنحدده ، و ندخل مصحات الجاهلية ، و نستعمل عقاقير الجاهلية ، فلن نبرح أرض الجاهلية ، و سيتفاقمُ المرض و يفشو الموت في القلوب . و لا عيش إن مات موطن الإيمان و نزع منا القرآن . يا طلاب الحضارة بأي ثمن ، و عشاق التقدم المادي ، و دعاة اللحاق بركب المدنية ، و الفانينَ في تأمل الفضاء و عجائب الاختراع ، هل عندكم من خَبَرٍ بالآخرة و البعث و النشور و الجنة و النار ؟

صدقت يا سيدي يا رسول الله ! اتبعناهم شبرا بشبر و ذراعا بذراع . و دخل السفهاء منا كل جحر حفرته خنافس الجاهلية و ضبابها .

جرثومة المرض و أصله اتباعهم في القول و العمل ، في منهجية الفكر و تصور الحياة ، في حبهم للدنيا و جهلهم بالله و باليوم الآخر ، في لصوقهم بالأرض و تشجيعهم للسلوك الدوابي ، في تيه عقلانيتهم

المتألهة التي تنفي وجود الله اغترارا بما يُملي الله لها و ما يسخر من كشوفات و صناعات . أتباع خانعون نحن عن رضى و طواعية للنموذج الجاهلي ، لا معنى لرفضنا لاحتلالهم أرضنا و نهبهم خيراتنا ما دمنا نبيح لهم احتلال عقولنا و نفوسنا و حاضر واقعنا و آمال مستقبلها .

كان اتباع سنن اليهود و النصارى تجزيئيا تفصيليا تدريجيا انتقائيا ، أما اليوم فتقليدهم الكلي العمومي الشمولي دين طائفة منا .

يظهر فينا من أعراض داء الأمم على قدر إيغالنا في اتباع سننهم ، و على قدر توغل ثقافتهم في عقولنا و عاداتهم في حياتنا و نزعات النفوس الضالة المظلمة في نفوسنا . منهم إلينا سَرَت نفثات الفكر الجاهلي النافي لوجود الله ، و نفحات الاستعلاء الإبليسي المستكبر على خلق الله ، و حمى العنف الجاهلي المتَجبر في أرض الله .

في أقفيتنا تلهث حاجات المعاش و ضرورات الاقتصاد تلاحقنا و ترهقنا و تضطرنا إلى الجحر ، و نلاحق نحن خيال النصرانية اللبرالية ، و مذهبية الماركسية اليهودية ، و أوهام الهوسية الفرويدية . نلهث وراء ذلك معجبين ، نتلقى عنهم تفسير التاريخ و حركية المجتمع و نموذج التغيير ، نتلقى تفسير النفس البشرية ، يغرنا عن الحق الذي معنا ، المنزل من عند ربنا ، ما تتبجح به أوربا اللبرالية من أنّها محور التاريخ و أم الحضارة ، العالم من حولها هامش ملحق لمجدها . و يغرنا ما تدعيه اليهودية الاشتراكية الفرويدية من أنها فكر المستقبل المفتاح لمعرفة الأوائل و الأواخر في حياة النفوس الفردية و الكتل البشرية ، و تطورها ، و مسارها ، و طريقها ، و غايتها ، و الحتميات السابقة لها ، الموجهة الحاكمة .

كان نسبنا إلى الإسلام حبلا موصولا لم ينقطع و لا يزال كذلك بحمد الله و لو كره الكافرون . لم ينقطع نَسْلاً رغم الفتن التي لم تترك من الصحابة طَبَاخا ، و لم ينقطع نورا رغم الدخَن الطارئ ، و لم ينقطع سلامة رغم داء الأمم الذي هبت علينا رياحه . حتى إذا جاءت صدمة الاستعمار ، و واجهت الأمة ما لا قِبَل لها به و لا عهد من خيل النصرانية و رجلها ، و مكر اليهودية و احتكارها ، رفضت الأمة استقبال الجاهلية المقتحمة و كافحت بما بقي فيها بعد فتنة القرون من شهامة حتى خَارت القوى .

و لعل الغثائية المذكورة في الحديث لا تطابق واقع الأمة و لا تصح لها صفة ، رغم كل ما عرفته الأمة من فتن ، إلا منذ سقوط شوكة الإسلام العثمانية ، و انحلال الوحدة المعنوية التي كانت تحضنها ، و انفتاح المسلمين طوعا أو كرها على العصر و حضارته السائدة ، و ما يحمله سيلها من خبيث و صالح . و هل في الحضارة الدوابية من صالح يا هذا ؟ سؤال نعود إليه إن شاء الله .

و تتابعت عوامل الاستحقاق لوصف الغثائية بتفشي " داء الأمم " فينا و بتوالي هزائمنا و تشتت أشلائنا . كل جرح في جنب وحدتنا فتح لجراثيم الإفساد منفذا ، و كل نزيف أصاب جسم وحدتنا ذهب معه ماء الحياة الإيمانية ، و كل تماس مع النصرانية الأوربية أو تحالف أو تعامل يزيد من فرص الإصابة .

اندمجت اليهودية في النصرانية اندماج حلف عدائي ضد الإسلام حتى أحدثت الصدع الهائل في كياننا باحتلال القدس و الأرض المباركة من حوله . و اندمج في وعي طائفة من بني جلدتنا فكر الأمتين من قبلنا حتى احتل منهم النخاع .

فدَاء الأمم فينا حالّ لا يرحل ، مستقر ساكن مطمئن . و كلما زادت الأمة بنار الجاهلية المعتدية صُلِيّا زاد الطّلاب من جانبنا على كل ما من شأنه أن يعطي للجاهلية في حياتنا الصبغة النهائية و الجنسية و الوطنية ، لا يتنافى ذلك مع موروثنا من الجاهلية الأولى و عصبيتها القومية ، بل يتآخى الويل الوافد مع الويل الرافد .

إن نسبنا إلى الإسلام لم ينقطع رغم قتل الصحابة المبكر ، و نور الإيمان لا يزال شعاعه بحمد الله ممتدا ، و عافية الفطرة لا تزال و المنة لله محفوظة . في دوائر مصونة لا يزال أهل الإيمان و الإحسان يشكلون إمكانية انبعاث من الموت المحدق خطَرُه ، يشكلون وصلة مع تاريخنا الأول ، يشكلون جوا معافى من داء الأمم . و لنكون في مستوى سنة الله و موعوده و اختصاصه لهذه الأمة بالعناية و الخلافة يلزمنا أن نتعلم أن بداية مجد الإسلام تكون بقطع حبال الجاهلية و حسمها ، و وصل نسبنا إلى الإسلام بدعم جهود أولي البقية من صالحينا و إشاعة جو العافية من داء الأمم في حياتنا .

إن التصدي المنحصر في قتال أعراض المرض دون قتال جرثومة المرض جهد ضائع و كرّة خاسرة . أعراض داء الأمم الأشر و البطر و التباغض و التحاسد و التناجش و التكاثر و البغي . ثم الغثائية و الوهن و حب الدنيا و كراهية الموت .

أعراض يكشف عيبها الظاهر ما هنالك في الأفئدة و الصدور من كوامن المرض . و بقلع جذور البلاء فقط ينتظم أمرنا وفق سنة الله و موعوده ، بنواظم سنة الله و موعوده ، و ضوابط شرع الله ، و روادع حدود الله ، خروجا عن نطاق الشرائع الوضعية ، و قومة على نواظم التطورية المزعومة ، و تكذيبا لمنطقها .

عندما نعلم ورثة من نحن ، و ورثة ماذا ، و خلفاء موعودون بماذا تنجلي أمامنا الطريق . و بداية الطريق معرفة أن داء الأمم يعالج ، و أن له علاجا واحدا ، و حيدا ، موحدا . علاج داء الأمم الإيمان ، و التربية على الإيمان ، و التشوف للإحسان ، و إخلاص الوجه للملك الديان .

داء الأمم جرثومة في قلوب العباد . تمرض هذه القلوب ، و تنكدر ، و تتدخن ، و تموت ، و أحيانا تقسو أشد القسوة . في أحشائها يتكوّن " ظن الجاهلية " ، و من أعماقها تفور " حمية الجاهلية " ، و لإرضاء أهوائها تعرض الدنيا زينتها في مهرجان " تبرج الجاهلية " ، و لصيانة الثلاثة و استمرارها و ازدهارها و إشاعة فاحشتها يتسلط " حكم الجاهلية " .

كل ما يأتي به التحليل الوضعي و المادي للتاريخ معطيات صمّاء مجملة ، مثل " الوطنية " و " القومية " و " توازن القوى " و " الطبقية " و " الإنتاج " و " فائض القيمة " و " الإمبريالية " و " قانون الصراع " و ما إلى ذلك .

أدوات التحليل و البحث هذه لها معنى في سياقها و " حقلها التاريخي " و مرتبتها في سلم المعرفة البشرية .

و هي منقطعة عن القرآن ، و من ثم فهي مجتثة كالشجرة الخبيثة من فوق الأرض ما لها من قرار . ما لها من قرار و لا دلالة لأنها لا تعرف الله ، و لا تتصور سنة الله . فلذلك تقدم تفسيرا للإنسان ، فمن هذا الجانب يرفضها الإسلام .

و يتعين أن ننصرف عنها لنستضيء بضوء القرآن يكشف لنا آدمية الإنسان و تركيبه من الصورة المادية و المعنى ، من الجسم الفاني و الروح الخالدة ، من العقل الخادم و القلب السيد ، موطن الداء و مقر السّناء .

القاسية قلوبهم من ذكر الله

يرتبط فقه سنة الله في التاريخ بفقه القلوب ارتباطا عضويا . و في قول الله عز و جل : « *إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ* » (سورة الرعد ، 11) . إجمال لهذا الفقه المزدوج يأتي تفصيله و عرضه في آيات عديدة و أحاديث .

جماع الداء فتنة القلوب و مرضها و صممها و انغلاقها و قسوتها . و جماع العلاج شرحها بالإسلام و إلانتُها بالإيمان و اطمئنانها بذكر الله .

كل ما ورد في كتاب الله و سنة رسوله من سَرْد أحسن القصص و التذكير بسنة الله في الذين خلوا إنما ورد للعبرة بفعل الله بالعبيد من جراء انحراف أعمالهم عن الجادة بانحراف قلوبهم عن الفطرة و الإيمان . و قصدنا من التعرض في هذا الكتاب لسنة الله في تاريخنا إنما هو إحاطة المنهاج التربوي بالظلال و الألوان لتبرز أهمية التربية . فالتربية ثم التربية هي المطلب المحوري للأمة .

من كان يوصي بمزيد من " الثقافة الإسلامية " و مزيد من المعاهد و الكتب و العلم فنحن معه لا نعارض بل نحبذ و نشعر بالحاجة الملحة إلى تنوير العقل بالعلم . لكن الجهاز العلمي يتحول ركاما إن ابتعد في مفاهيمه و مقاصده ، و يصُبّ في نهر داء الأمم تراكمه ، إن حاد عن القرآن و مقعد القرآن و هدف القرآن ، ألا و هو الإيمان و الإحسان . في الفقه القرآني يستوطن الإيمان في القلوب فَتَتَنَوَّرُ أو يدخلها ظلام الكفر و النفاق فتسوَدّ . و العقل بعد ذلك و العمل الفردي و الاضطراب الجماعي في الأرض و التاريخ تَبَعٌ و نتيجة و جزاء . و على انشراح القلب أو انغلاقه ، و كفره أو نفاقه ، و إدراك العقل أو بلادته ، و صواب العمل أو خطإه ، و نية الجهاد أو غيابها يترتب الجزاء الأخروي . و الآخرة للإخبار بها و بالخالق جاءت الرسل و نزلت الكتب . عن السعادة الأبدية أو الشقاوة و العياذ بالله تحدث القرآن أبلغ

ما تحدث . و مَرَدُّ السعادة و الشقاء للفساد المعاني القلبية أو صلاحها كما يفسد الجسد أو يصلح تبعا لحالة المضغة القلبية التي تحرك الحياة .

و المزيد من العلم و " الثقافة الإسلامية " دون تربية الإيمان المبنية على فقه القلوب قد يساعد على نوع من يقظة العقل و وعي العقل و نشاط العقل ، و متى لم يدخل الإيمان في القلوب فالأعرابية الفكرية لن تخدع الله سبحانه المطلع على القلوب المحاسب على نياتها السائق بسنته في التاريخ الناس جميعا إلى مصائرها .

عن فقه القلوب كان يبحث الصحابة رضي الله عنهم في مجالسهم ، كانوا يعرفون أن بفسادها أو صلاحها تتم عليهم نعمة الاستقامة أو تحل بساحتهم الفتنة . كانوا يترقبون الأحداث على خشية من ظهور علامات الفساد في البرّ و البحر في الوقت نفسه الذي كانوا يتحسسون قلوبهم و يتعاهدون لعل حصل فيها من أعراض الداء ما به و عليه تنزل العقوبة .

سمعوا قول الله جل و علا : « فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ » (سورة الزمر ، 22) . فكانت مجالسهم مجالس ذكر و تذكير ، لا يخلوا مجلسهم عن ذلك ، أجلّ موضوع للحديث هذا الموضوع ، و أهم موضوع ، و أنسب موضوع .

جلس أمير المومنين عمر بن الخطاب لأصحابه مرّة ، و كانت مجالسهم مجالس علم و حلم على غرار المجالس التي ربتهم ، مجالس رسول الله صلى الله عليه و سلم . فقال عمر : أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يذكر الفتن ؟ فقال قوم : نحن سمعناه ! فقال لعلكم تعنون فتن الرجل في أهله و جاره ؟ قالوا : أجل ! قال : تلك تكفرها الصلاة و الصيام و الصدقة . و لكن أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم يذكر الفتن التي تموج مَوْج البحر ؟ قال حذيفة : فأسْكَتَ القومُ . فقلت : أنا ! قال : أنت ؟ لله أبوك !

قال حذيفة : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا . فأي قلب أُشرِبَها نُكِتَ فيه نكتة سوداء . و أي قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء . حتى تصير على

قلبين : أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات و الأرض . و الآخر أسود مُرْبَادّاً ، كالكوز مُجَخِّيّاً ، لا يعرف معروفا و لا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه " .

قال حذيفة : **" و حدثته (أي عمر) أن بينك و بينها بابا مغلقا يوشك أن يكسر . قال عمر : أكَسراً لا أبا لك ! فلو أنه فُتح لعله كان يعاد ! قلت : لا ، بل يكسر . و حدثته أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت ، حديثا ليس بالأغاليط "** .

الحديث أخرجه مسلم في " كتاب الإيمان " من صحيحه . قال النووي رحمه الله : " تعرض الفتن : أي تلصق بعُرض القلوب ، أي جانبه ، كما يلصق الحصير بجنب النائم و يؤثر فيه شدة التصاقه به " . قال القاضي عياض في شرح " مثل الصفا " : ليس تشبيهه بالصفا بيانا لبياضه . لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان و سلامته من الخلل ، و أن الفتن لم تلتصق به و لم تؤثر فيه " .

معنى مُرْبَادّاً : مختلط سواده ببعض البياض .

معنى مُجَخِّيّاً : مائلا أو منكوسا حتى لا يمسك ما فيه ، كناية عن القلب المفتون الذي لا يَعْلَقُ به خير و لا حكمة .

في مجلس أمير المومنين كان العلم ، و فقه الدين ، و فقه الواقع ، و حركة الحاضر ، و توقعات المستقبل تلتمس جميعا من كلمة الوحي ، مترابطا جميعا ، متساوقة متلاحقة . و في صميم المناقشة يجري الحديث عن إيمان العباد و ما ينكت في قلوبهم ، و ما يقع عليها من ظلام مع إلقاء الفتن ، و ما يصيبها و يعرض من رضوض و ضرر ، و ما تتشربه في جوفها من سموم الميل مع المنكر .

كان الأحباب يعيشون إيمانهم و جهادهم على بصيرة من قدر الله سبحانه ، لا يساورهم شك فيما أخبر به المعصوم صلى الله عليه و سلم . و في نفس الوقت كانوا يُقدرون في خشية و إشفاق قدْرَ مسؤوليتهم عن وقوع الفتنة التي يجلبها فساد القلوب و ذهابها مع المنكر و انصرافها عن المعروف .

و يقف عمر سدا منيعا أمام التموج الفتنوي لأن شخصيته الفذة و جمعه للصحابة حوله لم يأذن لأحد بمغادرة المدينة كان ضمانا لوحدة الكلمة . و في المجالس كان ينقل القول النبوي الكريم أن الباب بين الناس و الفتنة لا بد أن يكسر . و كان أمر الله قدرا مقدورا .

ذكر في هذا الحديث صنفان من أصناف القلوب : أبيض مثل الصفا ، و آخر مربادا مجخيا . في سورة الزمر تفصيل لحالة القلوب على مرتبتين : القلوب القاسية من عدم ذكر الله و قلة ذكره ، و القلوب اللينة الخاشعة إلى ذكر الله . للقاسية الويل و العذاب في الدنيا و الآخرة ، و لأصحاب القلوب الذاكرة اللينة البشارة بالنور و الهداية . قال الله تعالى : «أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُولَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿22﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿23﴾» (سورة الزمر) .

نجد عند الإمام أحمد حديثا يعطينا مزيدا من الفقه القلبي ، فيه تفصيل و بيان . روى عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : " القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج مزهر . و قلب أغلف مربوط على غلافه . و قلب منكوس . و قلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المومن فيه نوره . و أما القلب الأغلف فقلب الكافر . و أما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر . و أما القلب المصفح فقلب فيه إيمان و نفاق : فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ، و مثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح و الدم . فأي المادتين غلب على الأخرى غلب عليه " .

لنمسك أنَّ في القلوب يجري صراع بين الإيمان و النفاق ، و أنهما قد يجتمعان في القلب المصفح ، و كأن له صفحتين و وجهين يستمد كل وجه منهما بما يناسبه ، و تتغالب المادتان على القلب .

و هذه حالة القلوب التي لم تتشرب الكفر إشرابا و لا سكنها الإيمان و الاطمئنان ، فهي بين تيارين . سواد يخالطه بياض ، و نبتة تسقى من ماءين ، يرجى لها أن يحجز الماء الخبيث و تطيب مادتها ، و تغلب الإرادة الخيرة .

هذه القلوب المفتونة المعرضة لتأثير الظلمة ، المدخنة المترددة هي ميدان المكافحة بين جند الرحمان ذوي القلوب الجرداء النيرة و جيش الشيطان المنكوسة قلوبهم المغلفة القاسية الذين لا يذكرون الله و لا يخافون الله و لا يومنون بالله .

سواد الأمة يعيش إسلاما أعرابيا سطحيا لم يدخل الإيمان في القلوب . و النفاق يتغشى القلوب و يهجم و يُراوِد و يتزيَّن ليُغري . فما دامت في الناس بقية من إيمان و إسلام ، جاءت مادتها من الوراثة أو من لقاء المومنين و سماع الكلمة الحسنة ، ففي تلك القلوب مطمع أن تلين إلينا و تميل و تستمد . و من إنكار السنة النبوية و التنكر لسنة الله في الكون و التاريخ أن نحكم على المجتمع بأنه جاهلي ، ننظر فقط إلى مادة النفاق و الكفر ، نتقزز من رؤية القرحة و قيحها ، و لا نلتفت إلى ما في القلوب من مثال البقلة الطيبة التي تنتظر منا تعهداً و حماية و سقاية .

جاهليون منافقون من أعلنوا عن إلحادهم و ثبت بالحجة العملية نفاقهم . جاهليون مُمَحضون من قالوا ، اعتقادا و إصرارا لا عن تبعية أو مخافة أو جهل و تضليل ، مثل ما قال الأولون ، قالوا " قُلُوبُنَا غُلْفٌ " ، فشهدوا بذلك على أنفسهم بالكفر في سجل الآخرة ، و سجل المومنون كلمتهم تدينهم و تنفيهم من ولاية المجتمع الإسلامي .

كثير من الرفق و التدرج يلزمنا في معاملة الناس و الحكم عليهم في مراحل الدعوة و تأسيس الدولة . من لم يبد صفحته و يجهر بكفره و عداوته لنا فلا سبيل عليه . و سنجد من أئمة الضلال من لا يمنع الناس من إتياننا إلا اعتراضه ، فتنحية هؤلاء من الطريق ، بالإعراض و الحجة و الصبر الجميل ما أمكن ، يفتح ما بيننا و بين الناس .

نقل السيوطي في تفسير " الدر المنثور " هذه القصة قال : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله تعالى : « وَ قَالُواْ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ » (سورة فصلت ، 5) الآية قال : أقبلت قريش إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال لهم : " ما يمنعُكم من الإسلام فتسُودوا العرب ؟ " فقالوا : يا محمد ، ما نفقه ما تقول و لا نسمعه ، و إن على قلوبنا لَغُلُفاً . و أخذ أبو جهل ثوبا فمده فيما بينه و بين رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : يا محمد ! قلوبنا في أكنة مما تدعونا

إليه و في آذاننا وقر ، و ما بيننا و بينك حجاب ! فقال لهم النبي صلى الله عليه و سلم : " أدعوكم إلى خصلتين : أن تشهدوا أن لا إلـــه إلا الله وحده لا شريك له و أني رسول الله " . فلما سمعوا شهادة أن لا إلـــه إلا الله ولوا على أدبارهم نفورا و قالوا : أجَعَل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عُجاب ! و قال بعضهم لبعض امشوا و اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يُراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق ! أأُنزل عليه الذكر من بيننا ؟ !

" و هبط جبريل فقال : يا محمد ! إن الله يُقرئك السلام و يقول : أليس يزعم هؤلاء أن على قلوبهم أكنة أن يفقهوه و في آذانهم وقر فليس يسمعون لك ؟ كيف و إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ؟ لو كان كما زعموا لم ينفروا ، و لكنهم كاذبون ، يسمعون و لا ينتفعون بذلك كراهية له " .

" فلما كان من الغد أقبل منهم سبعون رجلا إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقالوا : يا محمد ! اعرض علينا الإسلام . فلما عرض عليهم الإسلام أسلموا عن آخرهم . فتبسم النبي صلى الله عليه و سلم و قال : " الحمد لله ، ألستم بالأمس تزعمون أن على قلوبكم غُلُفا ، و قلوبكم في أكنة مما ندعوكم إليه و في آذانكم وقر ؟ و أصبحتم اليوم مسلمين ! فقالوا : يا رسول الله ، كذبنا و الله بالأمس ، لو كان كذلك ما اهتدينا أبدا ! و لكن الله الصادق و العباد الكاذبون عليه ، و هو الغني و نحن الفقراء إليه " .

قصة تجد مكانها في اعتبارنا و نحن نتهمّم بموقف أمثال أبي جهل ، و بتردّد الناس في قبول الدعوة و التقدم لنصرتها ، و بكذب المضللين على الناس و كذب الناس على أنفسهم و بالصراع القائم المحتدم على عقول العباد و قلوبهم بين دعوة الحق و دعايات الباطل .

قليل اليوم من بني جلدتنا من يجسر على تحدي الشعور الإسلامي المنتشر في الشعوب المسلمة . لكن وسائل التضليل تمكن الكائدين للدين من حجب العامة و التعمية على عقول الخاصة بالمكر السيِّئ الذي يضحك من جَفْوة أبي جهل و غلظته البدائية و سذاجته حين مد الثوب بينه و بين رسول الله صلى الله عليه و سلم ليشخص نواياه و شعوره .

إن مناط نجاح القومة الإسلامية اقتناص قلوب العباد ، و الفوز بمودتها ، و إمالتها إلينا حتى تتشرب الإيمان و تخلُص من شوائب الفتنة ، و تصفو من دخنها ، و تعرف الرب جل و علا ، و تتقرب إليه بالعمل

الصالح ، و تبتغي رضاه ، و تخطب إليه مقاما في جنة الله ، و تخلِص في طلب الله ، و تلح بالدعاء على الله ، و تبلغ المجهود في عبادة الله ، و يصبح همها الله ، و نصرة أمر الله ، و الانخراط في جند الله ، و الجهاد في سبيل الله ، و السير على خطا رسول الله حتى تدور في صالح العبد آخرة و في صالح الأمة دنيا و أخرى سنة الله .

ذلك لا مجرد الإقناع الفكري ، و الإكراه السياسي ، و إدارة دواليب الدولة و أحكام الحدود لردع الناس .

و معرفة داء الأمم و العطب الطارئ على القلوب من دخول الفتنة عليها مقدمة ضرورية للتطبيب الضروري و التربية الضرورية .

جلسنا مع عمر بن الخطاب في أصحابه و أترابه و وُزرائه فسمعناهم يتباحثون في مسألة الفتن المتموجة ، و سمعناهم " يحللونها " من زاوية واحدة ، من زاوية التغير الذي يخشاه المومن على قلبه . لم نجد عندهم مشروعا عسكريا للمواجهة و هم كانوا سادة الجهاد فرسان الزمان . و لم نجد عندهم خطة سياسية لتطويق الفتنة و هم كانوا قد أصبحوا بالإسلام و بتربية خير الأنام دهاة العرب و ساسة الدنيا . إنما وجدنا عندهم الاهتمام البالغ بالقلوب و فقه التفاعل الفتنوي فيها .

و استمعنا إلى قصة رسول الله صلى الله عليه و سلم مع أبي جهل المتعصب و مع الذين زعموا أن قلوبهم في أكنة ، أي في غلاف كما يخزن السهم في الكنانة ، لا يعرفون قلوبهم و لا ما يجري فيها فهم بيت تيارين متنازعين حتى أزال الله عنهم الغشاوة و هداهم . نفس عمر بن الخطاب روى القصة ، نفس عمر بن الخطاب نجده في أخبار أخرى يسأل حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه و سلم عن النفاق و فقهه .

عمر بن الخطاب الرجل العظيم عاش جاهلية عنيفة ، و عرف بالتجربة العميقة كيف تبدأ القلوب قاسية مغلفة ، و كيف تلين بالإيمان و تتنوّر بالإحسان . فحين رفعه الله إلى سُدَّة الحكم لم يستحل و أصحابه و أترابه و وزراؤه جباة قضاة بل رعوا الخلق و ساسوا العالم برفق الدعاة الهداة ، و كان فقه القلوب أسمى علم و أشرفه ، تعلموه و علموه و ألَّفوا به و حافظوا عليه حتى وصل إلينا كتاب الله و سنة رسوله ، ثم نسلهم المعنوي من فقهاء التربية هداة الخلق .

قلوب كالحجارة

قلوب و قلوب ، ما يخطر في أعماقها ، و ما يروج من نيات ، و ما يبرم من عزمات و ما يتلون ، و ما ينير أو يظلم . من جذور ما في القلوب يتحدد موقف الأفراد ، و من المواقف الفردية تتجمع مقومات الموقف الجماعي و الحركة الاجتماعية . لا مكان في التحليل المادي لشيء من البحث عما تكنه الصدور ، لأن عماد ذلك التحليل نفي وجود الله و إقالة الحكمة البشرية من مكانها في الاعتبار ، هذه الحكمة التي تدرك أن مرد كل حركة إنسانية إلى تسلط قوم على قوم و ظلم قوم لقوم و كراهية قوم لقوم . هذه الحكمة البشرية يتجاهلها الماديون الجدليون العلمويون ليزعموا أن الصراع بين الناس هو العلاقة التاريخية الوحيدة ذات المغزى و المعنى ، و أن الناس طبقات ، و أن أفكار هم و شعورهم تبع لحياتهم المادية و توزيع الثروة بينهم و نمط الإنتاج السائد في عصرهم .

لا التصنيف المادي و لا الحكمة البشرية المفتوحة على التخمينات و حساب الأهواء المقطوعة عن الله تفيد شيئا من الدلالة على الحق الذي به قامت السماوات و الأرض ، و عليه دارت سنة الله و تدور . سنة الله سائرة بالجميع فقهوا ذلك أم جهلوا . و من يسمعْ كلام الله و يصدق كلمته و يستنير بحكمته تعالى يستطعْ وحده أن يساير سنة الله في خلقه على بصيرة من حتمية القدر ، و هي غيب يومن به ، على بصيرة أيضا بارتباط النتائج بالأسباب ، و ارتباط نصرة الله للعباد بنصرة العباد لله ، و وجود عنصر الشر و الكفر و الفساد في الكون ، و احتجاب أمر الآخرة عن الأبصار و العقول ، و دخول كل ذلك في مشروع واحد مدبر من لدن حكيم خبير هو إرادة الله الكونية . خلق سبحانه لابتلاء العباد أيهم أحسن عملا الدنيا و الآخرة ، و الموت و الحياة ، و الخير و الشر ، و صعود شعوب و انحطاط أخرى ، و تقدم الاختراعات و وفرة الأمداد ، و كفر من يكفر و إيمان من يومن ،

و التفاوت السحيق في الأرزاق ، و ظلم الناس بعضهم بعضا ، و ألم المريض ، و عافية المعافى ، و سائر المُؤتلفات و المختلفات و المتناقضات في الأرض و السماء ، و فسيح الفضاء ، و ذرة الظلماء .

عن حكمته تعالى نصدر ، و عن كلمته في معرفة مصائر الأمم نبحث . فإنه جل و علا أنجز وعده لمن اتبعوا الرسل ، و صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، و جاهدوا في الله حق جهاده ، و جعلهم أئمة في الأرض ، و جعلهم خير امة أخرجت للناس . أوفى لهم وعده بشروط مشروطة و عقود مربوطة . و قد تتبعنا شروط الإيمان و الإحسان ، و أنْصتنا إلى الحديث و القرآن ، و عرضهما لأسباب الفساد و الطغيان ، فدلنا كتاب الله و سنة رسوله على أن هنالك جاهلية لها ملامح بها تعرف ، و أن ستنزل على الأمة فتن كقطع الليل المظلم ، و أن " داء الأمم " يتربص بنا كما يتربص بالآخرين شركائنا و زملائنا في قاعة الامتحان ، و أن " داء الأمم " يَؤول عند التدقيق إلى سبب رئيس بئيس هو فساد القلوب .

في هذه الفقرة و تالياها نفتح إن شاء الله الآذان لنتفقه في تشخيص أحوال القلوب و أدوائها عسى أن يدركنا توفيق من بيده الخير و إليه المصير فيُلهمنا حكمة التطبيب لنعالج أنفسنا حتى تصح و نرجع إلى ربنا بقلب سليم راضين مرضيين في عباد الله و في جنات النعيم . هذه هي الغاية و المطمح الأعلى : أن يَسمع الواحد منا ذلك النداء القُدسي يوم التنادي و الحساب : « يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿ 27 ﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿ 28 ﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿ 29 ﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿ 30 ﴾ » (سورة الفجر) .

و أخرى نحبها : نصر من الله و فتح قريب . نحب أن يكتبنا ربنا من المجاهدين لإعلاء كلمته ، و أن تَبْرَأَ الأمة من " داء الأمم " و تستعيد سلامتها من الغثائية على أيدينا ، و أن نبني للأمة مستقبل الخلافة في الأرض بشروطها الأصيلة في سنة الله و سنة رسوله ، و من أهمها الحكم بما أنزل الله بالعدل و الإحسان و الشورى و الخلافة على منهاج النبوة .

في بداية كتاب الله ، في الآيات الأولى من سورة البقرة ، من الفقه الأعلى فقه القلوب ، قال الله تعالى :

« بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ الم ﴿ 01 ﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿ 02 ﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَـٰوةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿ 03 ﴾ وَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ مَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَ بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿ 04 ﴾ أُوْلَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿ 05 ﴾ » (سورة البقرة) . تقوى و إيمان بالغيب ، تصديق للرسل و عمل صالح ، و إيقان باليوم الآخر . عاقبة من اتصف بذلك و فعله الهدى من الله و الفلاح . و كل من التقوى و الإيمان و الإيقان صفات قلبية . و الأعمال لا تصلح الصلاح المتره عن الشوائب إلا بصلاح النية ، و النية في القلب .

ثم قال عز من قائل : « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ 06 ﴾ خَتَمَ ٱللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ 07 ﴾ » (سورة البقرة) .

في مقابل أهل الإيمان و التقوى و الإيقان و صلاح الأعمال كفار مختومة قلوبهم ، مغلقة عن الخير ، لا يدخلها الإيمان و لا يحوم حولها الإحسان . ختم الله عليها و على سمعهم ، و جعل على بصرهم غشاوة فعلا من عنده و قدراً من قدره لا راد لحكمه . و جزاء في نفس الوقت عن إعراضهم و كفرهم و احتجاهم خلف أنانيتهم و استكبارهم عن سماع كلمة الحق و إبصار نور الهداية . لا تتعارض في عقيدة المومن السني و لا في توجيه إرادته إرادة الله الكونية الماضية في سننه مع قانون الجزاء الوفاق الذي جاء به الشرع و قننه و بنى عليه . خلافا للمعتزلة القدرية و الجهميَّة الجبرية .

ثم يقول الباري جل و عز : « وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللهِ وَ بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَ مَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿ 08 ﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللهَ وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَ مَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ ﴿ 09 ﴾

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿ 10 ﴾ وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿ 11 ﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَ لَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿12﴾ » (سورة البقرة) .

طائفة ثالثة مندمجة باطنا مع مختومي القلوب ، و ظاهرا أيضا كلما سنحت الفرصة و أُمِنَ العقاب و تحقق المكسب ، و في الظاهر يلقون الذين آمنوا بالابتسامة المنافقة و القول المعسول الذي يكذبه الواقع ، يقولون آمنا و ما هم بمومنين .

الجامع المشترك بين الطائفتين الضالتين ، طائفة الذين كفروا و طائفة المنافقين فساد القلب : أولئك طبع الله على قلوبهم فانسدت على ما فيها من غوائل الجاهلية ، و هؤلاء قلوبهم مريضة فزادهم الله مرضا . أمراض تولد أمراضا و تهيِّئ لها التربة و يمد بعضها بعضا و يسقيه .

من المؤرخين الماديين من يتحدث عن التحالف الطبقي بين ملإ قريش و كبرائها من أمثال أبي جهل و أبي سفيان قبل إسلامه و بين رؤوس النفاق في يثرب من أمثال عبد الله ابن أُبَي الذي كانوا يُعدون الخَرَزَ ليرصعوا له تاجا و يملكوه عليهم عندما هاجر النبي صلى الله عليه و سلم و أفسد الخطة .

يرى المراقبون من خارج جيئة الناس و ذهابهم ، و تعاونهم أو تقاتلهم ، و يستنبطون العلاقة المصلحية و الدافع المصلحي لحركة التاريخ . و قد يتساءل بعضهم هل كره مشركو قريش و منافقو يثرب الإسلام و رسول الإسلام لأن دين الله أمر بالعدل و إنصاف ذوي الحقوق و حرم الربا ففوت عليهم أسباب الإثراء ، أم حاربوه لأنه كان تهديدا لزعامتهم السياسية حيث جعل التقوى و العمل الصالح معيارا وحيدا به يشرف المرء أو يهون لا بالنسب و العصبية و المكانة المُحْرَزَة و الموروثة ؟

يبقى التساؤل عندهم عائما جانبيا يلهو بتقليب الرأي فيه المثقفون . و ننفذ نحن بتلمذتنا للقرآن و سنة نبي الرحمة و الحكمة إلى الجدلية العميقة في القلوب بين طرفي الإيمان و الكفر ، و تمايزهما في الطائفتين الصريحتين ، و تداخلهما في المنافقين . عمق لا يُغفلنا عن الظواهر الاجتماعية ، نترصدها

من هناك ، من منابع الإرادة البشرية و الفكر البشري ، و نرقبُها منذ كانت يقظة نورانية أو هاجسا مرضيا إلى أن أصبحت نية ، ثم صارت إرادة ، ثم أصبحت عزما ، ثم خرجت إلى الكون الخارجي أفعالا نحكم بمعيار الإسلام على صلاحها و فسادها ، و نستنبط علة تحالف هؤلاء مع أولئك و نفرة أولئك من هؤلاء . علة سبب و علة مرض . المصلحة المادية الظاهرة تُوثِق الرباط الباطني ، و يؤكد حلف القلوب التحالف السياسي الاقتصادي ، و يمول هذا ذاك ، و يسلحه ، و يؤطره ، و يحفظ توازنه ، و يقود جيشه ، و يُحمي حميته .

في القرآن الكريم الحكيم أوصاف شتى لقلوب الطوائف المتباعدة عن الإيمان و الإسلام . يأتي ذكر الذين في قلوبهم مرض مع ذكر المنافقين في مثل قوله تعالى : « *إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ* » (سورة الأنفال ، 49) . و ينعت المنافقون تارة بأنهم هم مرضى القلب في مثل قوله تعالى عن الذين يخادعون الله و الذين آمنوا فيظهرون الإسلام و يبطنون الكفر : « *فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ* ﴿ 10 ﴾ » . إلى أن قال : « *أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَ لَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ* ﴿ 12 ﴾ » . إلى أن قال : « *أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَ لَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ* ﴿ 13 ﴾ » (سورة البقرة) . جامع مشترك هو رابطة مرض القلوب تحالف عليها اليهود في المدينة مع المنافقين . اختص المنافقون بأصناف الخداع و الكذب و السفه ، و هو الطيش و الخفة ، و بأنهم لا يشعرون و لا يعلمون . و كلها صفات ضعف في الإدراك و ضعف في الموقف و ضعف في السياسة . مرض ضعف إذن . بينما مرض اليهود مرض مكر و شيطنة .

جامع آخر مشترك بين اليهود و بين المشركين و هو ختم الله جلت عظمته قلوب الطائفتين ، و طبعه عليها ، و على سمعهم و أبصارهم ، فهم جميعا لا يعقلون ، و لا يسمعون ، و لا يعلمون . غلف القلوب ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون .

يجتمع اليهود مع المشركين أيضا في نعت قسوة القلب . في مقابل لين القلوب المومنة إلى ذكر الله و الرحمة السائدة بينهم ، متساكنة مع الشدة على الكفار ، لا نجد في قلوب اليهود و المشركين إلا القسوة . و القسوة غير الضعف الذي وصفت به القلوب المنافقة . و القسوة العصبية التي يوقظها دعاة القومية في عصرنا فلا تريد أن تستيقظ إلا في مجال الهتاف و الشعار المحموم ليست الشدة على الكفار التي ذكرها القرآن .

ذكر مرض القلب في القرآن اثنتي عشرة مرة . يعلمنا الله تعالى فيهن كيف يزيد في مرض من به مرض قلبي . قال عز من قائل : « *فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا* » (سورة البقرة ، 10) . و يعلمنا أنه يزيد المومنين إيمانا و مرضى القلوب رجْسا إلى رجسهم عند نزول القرآن و تلاوته : « *وَ إِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿ 124 ﴾ وَ أَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَ مَاتُواْ وَ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿ 125 ﴾* » (سورة التوبة) . ازداد المومنون إيمانا لما انفتحت قلوبهم للقرآن يتلى عليهم و يدخل نوره جوفهم . و ادْلَهَمّ باطن اليهود و المنافقين لإعراضهم عن مصدر النور ، و انغلاقهم عنه ، و تكذيبهم له .

في ساعة الأزمة ينزل القرآن و يتلى فيثبت الله أقدام المومنين ، و يظهر ضعف مرضى القلوب المنافقين .قال الله القوي العزيز : « *وَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ* » (سورة محمد ، 20) .

أما حلفاؤهم و شركاؤهم في مرض القلب اليهود ، فهلعهم في ساعة الأزمة لا يقل عن هلعهم . قال الله تعالى عنهم : « *لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ* » (سورة الحشر ، 14) . قسوتهم تدفعهم للقتال ، يستميتون فيه كما نشاهد في عصرنا ، لكن الهلع الآتي من مرض القلب و خوائه من الإيمان تجعل الواحد منهم أشد الناس خوفا و أعجزهم عن المواجهة إلا إن كان في عُصبة من قومه و وراء حصن من حجر ، كما كان في العهود السابقة ، أو حصن من فولاذ يدبُّ في الأرض أو يطير في السماء .

ذكرت قسوة القلوب في خمسة مواضع في كتاب الله العزيز . عمت صفة القسوة القلبية كل كافر بالله من الأمم في قوله تعالى : « وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَـآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَ ٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿ 42 ﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَ لَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿ 43 ﴾ » (سورة الأنعام) . و تأتي عليهم سنة الله ، تطوي في النقمة الإلهية و السنة الأزلية كل قوم قست قلوبهم . قال الله العزيز : « فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿ 44 ﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿ 45 ﴾ » (سورة الأنعام) .

و قد تنتظر النقمة الإلهية طويلا ، لكنها لا تتخلف ، و العاقبة دائما للمتقين ، متى أذن الله رب العزة و استيقظ المسلمون من الغفلة ، و تطهروا من دخن الفتنة ، و ذكروا الله كثيرا فذهبت القسوة ، و دخل الإيمان و النور ، فقويت العزائم و انتظمت الشؤون بنواظم الإيمان و الإحسان ، و تجند جند الله ، و تحزبوا لله ، و تقدموا رحماء بينهم أشداء على الكفار لاستقبال موعود الله .

يملي الرب القادر المقتدر ، و يفتح أبواب الأرزاق و العلوم و الاختراع و السلطان في الأرض حتى يفرح قساة القلوب بما أوتوا ، و يَشمت الشامتون المنافقون ، و يَسْتَيْئِسَ المسلمون لبعد الشُّقة بين وسائلهم و وسائل غيرهم ، و تمكن أعدائهم منهم . فذلك أوان مجيء نصره ، و ظهور سنته بشروط النصر يعدها حزب الله ، هي الدعاء الكسبي لقدره المقدر ، لا إلـٰه إلا هو العليم الحكيم .

قسوة القلب في سائر المواضع خصت اليهود . تفردوا عن طوائف الكافرين و المنافقين بذلك و بكون قلوبهم في أقسى درجات القسوة . قال الله تعالى يخاطبهم ليذكرهم سوء أعمالهم من بعد ما كذبوا موسى عليه و على جميع الرسل و الأنبياء أزكى السلام و جادلوه و أتبعوه : «ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » (سورة البقرة ، 74) .

و اختص بنو إسرائيل من بين كل الأمم باجتماع الشر كله في قلوبهم : غلاف القلوب و مرضها و قسوتها و الطبع الإلهي عليها و الختم . زادوا على ذلك اللعنة و الغضب . استحقوا ذلك كله فتهيأوا بتراكم اللعنات و الأوبئة ليكونوا كما نشاهد ، أو كما لا يحب البعض أن يشاهدوا ، جرثومة الفساد في الأرض و عينه منهم يتفجر ، و سدَنَتَهُ و مدبريه و تجاره . و تهيّأوا لنقمة الله بهم الموعودة على أيدينا يوم تتوفر فينا الشروط .

فتح الله عليهم أبواب كل شيء ، المال و البنبن و الاستحكام في مراكز السلطة و الإعلام و التمويل الربوي و الجاسوسية و الصناعة و معاهد البحث و أوراش الاختراع و مكاتب التزوير و الجمعيات العلنية و السرية و دور العهارة و إدارة الرذيلة و توجيه الفلسفة ، في كل القارات و على كل المستويات و بكل الوسائل .

هم هم بنو إسرائيل الفرحون بما أوتوا المنتصرون على العرب لغفلة العرب عن الله ، المحتلون لبلاد المسلمين لتمارض المسلمين عن الإيمان . هم هم بنو إسرائيل الذين قال الله فيهم و هو أعلم : « *فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَ قَتْلِهِمُ ٱلْأَنبِيَـآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ* » (سورة النساء ، 155) .

هم نفس الأمة الملعونة في القرآن الذين أخبرنا الله عن دخيلة قلوبهم و مصير تاريخهم و جزائهم في الدنيا و الآخرة بما عتوا و كانوا يعتدون . هم الأمة المطبوعة إلى الأبد و إلى هلاك دولتهم على أيدي أمة الإسلام بطابع الخزي و المسخ و قسوة القلب و نسيان الله و إنساء الخلق إياه ، ذلك النسيان المقرون في سنة الله بالنقمة بعد الإملاء و لو طال . قال الله تعالى : « *فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَ نَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ* » (سورة المائدة ، 13). و قد حذرنا الله من النسيان كما نسوا ، قال : « *وَ لَا تَكُونُواْ كَـٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَـٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ* ﴿19﴾ » (سورة الحشر) .



الفصل الثاني

روح الجاهلية

لكيلا ننسى

" يحرفون الكلم عن مواضعه "

استطلاع

كتب اليهود

التلمود خرج من الكُتَّاب لا من الأنبياء

حقد بلا حدود

الصهيونية

وعد الآخرة

روح الجاهلية و جسمها

التجذر الصهيوني

من الرمز إلى الواقع

" و بالحق أنزلناه "

لكي لا ننسى

قال الله تعالى الرؤوف الرحيم يحذّرنا أمة محمد صلى الله عليه و سلم من مغبة نسيان الله و الغفلة عن ذكره المورثين لقسوة القلوب المعرضة لغضب الله و نقمته: « وَ لَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿12﴾ » (سورة الحديد) .

لست أقصد في هذه الفقرات التي أعرض فيها بعض فساد يهود و إفسادهم أن أُوغِرَ القلوب حقدا و أن أُذكيَ حفيظة القارئ . بل أقصد التذكير بالله عز و جل و بالحق المترل الخالد في الحكم على بني إسرائيل ، ليكون حكم الله فيهم و غضبه عليهم و لعنته إياهم دستورنا في التعامل معهم . نغضب عليهم لغضب الله عليهم ثم لعدوانهم علينا . يأتي في اعتبارنا حسبان السياسة و احتلال فلسطين و مذلات الهزائم في المرتبة الثانية ، بعد اعتبار سنة الله و عناصرها الموحى بها مسبقا من كون اليهود جرثومة الفساد و مادته ، كانوا كذلك لن ينفكوا كذلك إلى يوم الفصل .

لن يكون لنا النفس الطويل ، و لا الثقة بنصر الله ، و لا القدرة على إعداد العدة في الأمد البعيد ، إن لم نجعل جوهر القضية في وعينا و حركتنا مطابقا لتعليم القرآن في المسألة ، مستنيرا بهديه ، مسايرا له في تفسيره إلى أعماق النفس اليهودية الخبيثة ، و القلب اليهودي الأشد قسوة من كل القلوب ، و كفر يهود و نفاقهم و مكرهم و صدهم عن سبيل الله .

لما تَنَصّلت النصارى من دينهم و اتخذوا من المادية و التقدم المادي دينا اندمجنا معهم طوعا و كرها ، اتبعناهم في طرائق تفكيرهم ، و سلكنا مسالكهم في تحليل الواقع و الحكم عليه ، و في النظر إلى المستقبل و ما يتوقع منه . نسينا الله و اتبعنا سنن النصارى المُؤْتَمّين طيلة تاريخهم طوعا أو كرها بيهود الفاسقين ، نسينا سنة الله في التاريخ و إرادته في الكون ، فأنسانا الله أنفسنا حتى لا يكاد يعرف

بعضنا من نحب ، و لا يلتفت حتى علماؤنا إلى أن لنا خصوصيات ، لا تستثنينا من القاعدة ، لكن تفتح لنا آفاق الأمل و آفاق الحياة .

طَمَرَ اليهود بتحريفهم و تسرّبهم و تزويرهم ما كان في يد النصارى من أثارة علم ، و نشروا لاهوت الأرض ، و علموا دين المادية و الجدلية و الكراهية و الصراعية . يفرزون الكفر و ينجبون أحبار الكفر . هم قَدَّمُوا للغرب سادته في الفلسفة و الطب و العلوم و الاختراع . ماركس و فرويد و إينشتاين أسماء لامعة في الدنيا مرفوعة هائلة . و من نسي الله منا يتبع التابعين ، و يصفق للعبقريات الخالدة ، و يسارع إلى النضال من أجل عصرنة الإسلام ، بتراثية قومية ، أو باشتراكية تقدمية ، أو بلبرالية متجددة عائدة منتصرة ، نفخ فيها روحَ الانتعاش أزمة الاقتصاد في العالم ، و المديونية المخيفة تقرع بها أبناك اليهود رؤوس العالم الفقير ، و ردة الصين عن الشيوعية ، و طلاق كرباتشوف للمذهبية الصارمة.

نذكر بالله و سنته في التاريخ ، و نذكر بالجاهلية و الفتنة ، و بداء الأمم و فساد القلوب من طول الأمد و مخالطة المفسدين و اتباع سُنَنهم ، و نذكر باليهود و بكونهم معدن بشري تركزت فيه كل معاني الجاهلية ، و كل أسباب الفتنة ، فهم الحضنة المتخصصون لداء الأمم ، هم المنتجون الرئيسيون له ، و هم موزعوه بما خصهم الله عز و جل به من عنده و بما أجرموا و يجرمون . خصهم الحكيم العليم بخزي الدنيا و الآخرة ، و تأذن في كتابه العزيز ، إعلانا صارما متلوا إلى يوم القيامة : « لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ » (سورة الأعراف ، 167) .

و أخبرنا كتابه المبين في أول سورة الإسراء بأن لبني إسرائيل مع عباد له سبحانه جولتين يجوس في أولاهما العباد المنسوبون لحضرة الألوهية ، المكرمون بتلك النسبة ، ديار اليهود . و في الجولة الآخرة يدخل العباد المصطفون الأخيار المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة ، و يسوؤون وجوه بني إسرائيل ، و يهينون ما يعظمه بنو إسرائيل . و أخبرنا الكتاب المبين في آخر نفس السورة و أولها أن من علامات الجولة الآخرة أن يجمع الله بني إسرائيل من شتاتهم في الأرض و أن يجيء بهم لفيفا لميقات يوم معلوم .

و أن تكون ثمرات كرتهم علينا و مقوماتها قدرتهم المالية حيث أمدهم الله بالأموال التي اكتسبوها بالربا و بمساعدة حلفائهم ، و قدرتهم البشرية حيث أمدهم الله بالبنين من الطراز الأول تعوض نوعيتهم الممتازة ضآلة العدد النسبية ، و قدرتهم السياسية و الدعائية على حشد العالم ليكون معهم ضدنا . فهم أكثر نفيرا و صديقا و حليفا منا .

تاريخ نعيشه منقطعين عن القرآن مع أنَّ قليلا من التروي في القراءة و من الاستدلال يشرح لنا بآيات الله ميلاد الحركة الصهيونية ، و اختيارها لفلسطين مهدا لدولتها المرجوة ، ثم حلف إنكلترا لها و مساعدتها حتى تمكنت في الأرض ، ثم أحداث الاستيطان ، و كرة ***1948*** (هكذا أصبحنا نؤرخ بتاريخ النصارى تبعية منذ أصبحنا غثاء على هامش حضارتهم و تاريخهم) ، و " نكسة ***1967*** " ، و ما صحب ذلك و تلاه من هزائم العرب و تنازلاتهم .

تاريخ نعيشه دون أن نفقه له معنى غير معنى " الهجوم الإمبريالي " و كون دولة اليهود بيدقا في رقعة أمريكا . لو كان القرآن دليلنا و كنا أهل القرآن نتلو لفظه و نحمل أمانته و نحيى به لرأينا بنور الله إمساك اليهود بزمام القضية كلها ، و تحكمهم في مصائر الشعوب ، من خلف ستار الدولة العظمى و المتوسطة و الصغيرة ، بل من عُقْرِ دار المسلمين ، لهم من بعض الحكام على المسلمين نصراء و نظراء و معجبون .

يُعوِّم المتكلمون العرب المسألة تبعا للمتكلمين من أطراف الجاهلية و تقليدا غائبا عن الحق ناسيا لله ، و يدخنونها بلغتهم المفتونة ، فإذا هي " قضية الشرق الأوسط " ، صراع جغرافي مصلحي بين شعبين و قوميتين كلتاهما تبحث عن سياسة تؤمن لها الإمداد السلاحي و الدعم العسكري و الاقتصادي و الدبلوماسي من الدول القوية لتصل إلى حل مرض لطموحها العارم أو إلى حل يقنع من الغنيمة بالإياب إلى صلح " كامب دافيد " أو إلى حل نهائي يوفر ماء وجه الحكام العرب و يضمد جراح الفلسطينيين المنكوبين المعطوبين المستضعفين في أرض لبنان و مخيمات الذل و الهوان .

عندما ننظر من إزاء القرآن و بمنظار القرآن نبصر القضية في أبعادها الضاربة الأعماق في سنة الله ، العميقة الجذر في قلوب بني آدم من جهة إيمانهم بالله و تصديقهم لرسله أو تكذيبهم . من إزاء القرآن لا ننسى الله و لا ينسينا الله أنفسنا . من إزاء القرآن لا يحجب عنا حقائق سنة الله و شروط نقمة الله و فتنة الناس و نصر الله طول الأمد ، و لا تسلسل التاريخ الطويل ، و لا تدهورنا و تخلفنا ، و لا ضخامة الحضارة المادية العادية علينا المعتدية ، و لا سيادة وجهات النظر المادية ، و لا الذهنية التقليدية الموروثة ، و لا صخب المغربين من بني جلدتنا الدعاة على أبواب جهنم ، و لا أي دخن طرأ على النفوس ، و اربدت منه القلوب ، و تعشت منه العقول ، و خنست منه الإرادات ، و غُم فيه على الرجولة ، و بَلِيَ منه الإيمان .

من إزاء القرآن نشرف على التاريخ وعيا ، و بتطبيق القرآن عقيدة و عبادة و سلوكا و عملا على المقاصد و طلبا لها نستعيد أنفسنا من قبضة الفتنة التي أردانا فيها نسيان الله ، و قساوة القلوب من عدم ذكر الله .

قال الله عز و جل : « وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ فِي ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ 04 ﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَـٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿ 05 ﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿ 06 ﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُـٔواْ وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿ 07 ﴾ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿ 08 ﴾ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿09 ﴾ وَ أَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿ 10 ﴾ » (سورة الإسراء) .

قال المفسرون من القرون الماضية ، و لم يكن أمام أعينهم ما نشاهده من باهر الحقائق : إن المقصود بالعباد الذين جاسوا خلال الديار هم بُخْتَنَصَّر و جنوده ، و قيل جالوت ، و قيل جند من فارس ، و قيل جند من بابل . و فسروا المرة الأولى التي أفسد فيها بنو إسرائيل في الأرض و علوا علوا كبيرا هي حين قتلوا نبي الله أشعياء ، و قيل حين حبسوا نبي الله أرْمياء ، و قيل حين خالفوا أحكام التوراة .

قال المفسرون الأقدمون رضي الله عنهم عند قوله تعالى : « وَ إِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا » : إن الوعيد الإلهي قد تحقق في زمن محمد صلى الله عليه و سلم حيث عاد اليهود إلى الإفساد في الأرض فجرى على بني قريظة و النضير و بني قينقاع و خيبر ما جرى من قتل و سبي و إجلاء ، و ضربت عليهم الجزية .

و هكذا نظر أسلافنا رحمهم الله و رضي عنهم إلى قضية بني إسرائيل و كأنها أمر انتهى و لم يعد لذكرهم موضوع بعد أن شُرِّدوا في الأرض و قُتِّلوا تقتيلا .

و نقرأ نحن رحمنا الله كما رحمهم هذه الصفحة من كتاب الله العزيز قراءة حية تنبض بالتوتر مع الأحداث الهائلة التي رفعت بني إسرائيل إلى عُلُو كبير . مكنهم و لا يزال يمكنهم من الإفساد في الأرض . علو و فساد ما كان لأسلافنا أن يتصوروه و هم كانوا أحد رجلين : إما مفسر مجتهد قابض على النص ناظر فيه و من خلاله ثاوٍ في منصة العِزِّ أيّام كان للمسلمين الغلبة و كان اليهود تحت الذمة يرتعون في حماية الإسلام دون أن يشكلوا قوة تستحق ، في نَظر المفسر الثاوي في زمانه ، أن يخاطبها القرآن . أو كان المفسر مقلدا في عصور الرقاد و الانحطاط فلا يجرؤ على تجاوز ما قاله السابقون ، و ماذا يقول ، و لو كان هو الشوكاني المجتهد المطلق ، و لا ذكر لليهود إلا بالقلة و الذلة ؟

نقابل نحن هذه الصفحة من آيات الله في القرآن بمرآة آيات الله في الأكوان . مصدر هذه و تلك واحد أمر الله الكوني هو الواقع و هو حق ، و إخباره بالغيب في كتابه حق . و الخطأ في المقابلة يعزى إلينا . و الله أعلم .

نقابل الصورتين على ضوء الآية التي وردت عقب سرد الأحداث : « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِي هِىَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿ 09 ﴾ » (سورة الإسراء) .

هداية القرآن و بشارته . ما هي " التي هي أقوم " بالنسبة إلينا و نحن نعيش كابوس علو اليهود و إفسادهم مهما كان تفسير الأولين و الآخرين لما يقصده رب الخلق و الأمر من الآيات ؟ الجهاد لا شك ، و إعداد القوة له بالنفس الطويل حتى تتوحد الأمة عليه و به .

ما هي بشارة القرآن في الموضوع ، و لم زُفت البشارة للمومنين تحريضا لهم على عمل الصالحات إثر ذكر علو أعداء الله في الأرض و إفسادهم الكبير ؟ ألِكي نتفرغ للصالحات الفردية من صلاة و نسُك و نترك لله و رسوله قتال الأعداء كما قال الأعداء لموسى : « *فَٱذْهَبْ أَنتَ وَ رَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴿24﴾* » (سورة المائدة) ؟

معنا نص من الحديث في غاية الأهمية نقله إلينا رجال الحديث أمناء العلم و لم يجد له المفسرون مكانا إلا في أعقاب الحديث عن فتن آخر الزمان ، لا يمس الحديث قضية معينة و لا يرسم خطا عمليا واقعيا .

روى الإمام أحمد و مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « **لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر و الشجر . فيقول الحجر و الشجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله . إلا شجر الغرقد فإنه شجر اليهود** » . و قد قرأت أن اليهود اليوم في فلسطين مولعون بغرس شجر قال عنه الكاتب الإسلامي إنه الغرقد المعني في الحديث .

إذا أشرفنا على الساحة الواقعية من إزاء القرآن و تصفحنا الأحداث و قارنا أهميتها التاريخية بالمستوى الجهادي الذي تطلبنا به " التي هي أقوم " ، و هي مطلقة لا تتقيد بصوابنا أو خطإنا في التفسير ، رأينا كيف كان التكليف خفيفا على مفسرينا الأولين الذين عاشوا في ظل شوكة الإسلام المنتصرة لا وجود تحتها لما يشبه و لو في الخيال شيئا مثل " الخطر اليهودي " . و أنى لليهود ، في رأي العين يومئذ ، أن يشكلوا قوة تعلو في الأرض و هم بَدَدٌ ، هل تُحس منهم من أحد أو تسمع لهم رِكزا ؟

لذلك طفق مفسرونا يرددون قتل اليهود لأشعياء و حبسهم لأرمياء عليهما لسلام . قتل أنبياء الله من أشنع جرائم اليهود لعنهم الله ، لكننا لا نحسِبه من حيث مصير الإنسانية إفسادا يقارب ما نعرفه و نشاهده و نقاسيه من إفساد بني إسرائيل في عصرنا .

و راح المفسرون يذكُرون إيقاع بُخْتنصر باليهود و إيقاع جالوت و جند فارس و بابل . و كل هؤلاء كانوا كفارا لا يحق أن يشرفوا بتفسير أنهم " عباد لنا " . فلفظ " العباد " منسوبا إلى الألوهية أو الرحمانيّة أو ضمير الجلالة يطلق في القرآن على العباد الصالحين . و ما ربك بظلام للعبيد ، مطلق العبيد .

عباد الحضرة المصطفون الأخيار كانوا هم رسول الله صلى الله عليه و سلم و صحابته . أفسد اليهود في الأرض يومئذ بما نقضوا من عهود و بما نكثوا و غدروا . كان جند الله بقيادة رسول الله عبادا لله أولي بأس شديد جاسوا خلال ديار خيبر الجوس المُنكي الذي لا تزال ذاكرة إخوان القردة تحفظه و تغذي نوايا ثاراته باحتلال مكة و المدينة بعد احتلال القدس .

نقلة تاريخية ما بين انتصار المسلمين على اليهود بعد خيبر و دخولهم بيت المقدس في زمن عمر طواها القرآن طيا كما نعهد من بلاغته .

لم يكن لليهود كل ذلك العلو المادي على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و إن كانت لهم صناعة و أطُم و حصون لكن عباد الله كانوا عباد الله حقا . و موعد الآخرة بينهم و بيننا يقترب ، نرى اطِّراد تقدمهم العلمي و التكنولوجي و التحالفي و التنظيمي و الكيدي و معهم القنابل الذرية و الصواريخ يصنِّعونها تصنيعا . و لن يكون المسلمون الذين يقاتلونهم و يقتلونهم خلف الحجر و الشجر ، يتكلم الشجر بإذن الله ، إلا الجيل الذي يستحقُ أقرب ما يكون الاستحقاق أن يسموا عباد الله كما كان المهاجرون و الأنصار عباد الله .

يحرفون الكلم عن مواضعه

من المفسرين من قال بأن الإفساد في الأرض المنسوب في سورة الإسراء لبني إسرائيل هو تحريفهم للتوراة . و هذا أشبه ، لأن تحريف كلام الله عن مواضعه مروق عن شرعه و خروج عن الحكم الشرعي الذي يضبط أفعال العباد ، فلا يبالون بعد التحريف و تناسي الحق ثم نسيانه ما يفعلون .

الجرأة على تحريف الكَلِم الإلهية عن مواضعها نتيجة لقساوة القلب و مقدمة لنسيان ما أنزل الله و إهماله . قال الله عز و جل : « فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَ نَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ » (سورة المائدة ، 13) . ثلاث مراحل : قسوة القلب فالتحريف فالنسيان . و قد يكون النسيان أو التنسية المتعمدة سببا لقسوة قلوب جيل حرف من قبلهم كلام الله و اشتروا به ثمنا قليلا .

و هذا كان دأب أحبار اليهود و رهبانهم على مر الأجيال . ذكر الله لنا هذا في كتابه مرارا و تكرارا . فالأحبار الذين كانوا يفتون بما يرضي الحاكم أو الراشي يحملون أوزارهم و أوزار من ائتموا بهم ، و يتولون كبر الفساد و الإفساد في الأرض ، و هم قلب قلب الكفر ، و جرثومة جرثومته ، و مادة مادته . داء الأمم من فساد القلوب ، و فسادها عَرَض من أعراض مرضها ، و مرضها نفحة من القسوة و اللعنة و غضب الله المجسد في فسقة بني إسرائيل و في نواة ملتهم الأحبار و الرهبان .

داء الأمم من تحاسد و تناجش و أشر و بطر و تباغض و بغي ، و ما يتلو ذلك من " ظن الجاهلية " و حميتها و عصبيتها و تبرجها و حكمها لا يعدو أن يكون عصيانا لله و كفراً به في أشر الحالات . لكنَّ تحريف كلام الله و تزويره و الاتجار فيه محاربة لله كفاحا ، و صد عن سبيله .

كان من رهبان النصارى من يتجرون في الدين . بل كانت الكنيسة الكاثوليكية قرونا طويلة تبيع صكوك الغفران بيعا رسميا . من يدفع تُغفر ذنوبه ، و من يملك الثمن يشتري الغفران قبل الإقدام

على الجريمة و استعدادا لها . اليوم تَحَضَّر الأسلوب ، و أصبحت الكنيسة بما لها من أموال طائلة هي التي ترشي فقراء العالم لتنصرهم .

بيد أنه لا تصح مقارنة رهبان النصارى بأحبار اليهود مع أننا نعلم أن رهبان النصارى صنعوا لملتهم دينا غير دين المسيح عليه السلام ، و ألهوه ، و اخترعوا طقوسا تضحك من حماقتها الثكلى . و نعوذ بالله أن يتبع أحد من علماء ملة محمد و إبراهيم و رسل الله سنن المحرفين من الملتين حتى يصح أن يذكر معهم .

من قضاء الله المقضي و قدره المقدر الماضي حكمه أن تتبع هذه الأمة ، المرحومة المبتلاة المفتونة فتنة لا تُعقب إلا كل خير بإذن الله ، سنن من كان قبلنا من يهود و نصارى شبرا بشبر و ذراعا بذراع كما قرأنا في الحديث . لكن لا يتجاوز التقليد أنماط المعاش و دائرة العادات و طرائق التفكير و الوَلوع بمفاتن العصر المادي إلا عند طائفة من بني جلدتنا هم الدعاة على أبواب جهنم . و تبقى عقيدة السواد الأعظم من الأمة سليمة و الحمد لله .

أما النصارى فمنذ جاءهم بولس بتحريفه لدين المسيح عليه السلام و مزجه لعناصر يهودية بفلسفة اليونان و وثنية الرومان جعلوا بينهم و بين ربهم وُسطاء ، لا عبادة تقبل إلا عن طريقهم ، و لا غفران و لا توبة . و لا يرجى فهم للكتب " المقدسة " إلا بتفسير رجال الكهنوت . فلما ثار البروتستانت على الكهنوت و البابوية تخلصوا من احتكار الكنيسة و استبدادها بإصدار الأمر المجدد بأنه يجب اعتقاد كذا و تغيير كذا . لكنهم لم يتخلصوا من التحريف الأول عندما ألفت كتب " العهد الجديد " و لا هم فكروا لحظة في تمحيص ما في كتب " العهد القديم " و هي كتب يهودية فيها من الخرافات عن الله و رسله ما تخر منه الجبال .

هكذا نجد تحريف أحبار اليهود المُعْلن المكتوب في " العهد القديم " قاعدة مشتركة بينهم و بين النصارى . و لهم تحريف خاص بهم ، متداول بينهم ، مكتوم أشد الكتمان عن غيرهم ، سنرجع إليه بعد حين إن شاء الله .

اتبعت النصارى اليهود في صميم الكفر و انتقلت قسوة القلب و داء الأمم إلى أطراف الملتين و أجيالهما و تشابكت الفِكَر . و في عصرنا توحدت المصالح ، و وحدت ، و قربت الشقة ، و سوت العقبات ، و أصدرت روما منذ سنوات براءة رسمية لليهود من تهمة قتل المسيح القديمة التي لاحقت بها الكنيسة آباءهم و أجدادهم من قبل . الآن التحمت الملتان ضدنا و تهيأ المجال لمواجهة بين المحرفين قساة القلب و بين ورثة الإسلام أهل الإيمان و الإحسان .

همَّ اليهود أن يقتلوا المسيح عليه السلام فرفعه الله تعالى إليه و شبه لهم شخصا ظنّوا أنه هو . قتل الأنبياء كان عادتهم ، و هو نوع شنيع من أنواع الإفساد في الأرض . و في سجلنا يساوي همُّهم بقتل المسيح قتله الفعلي ، لا نملك أن نعفو عن جريمة نتلو وصفها في كتاب الله عز و جل بكرة و عشيا كما عفا التحريف الكنسي .

لا بد من المواجهة إذن ، و قتال اليهود وراء الحجر و الشجر ما عدا الغرقد حتم مقضي ، و الدخول الثاني للقدس بعد دخول عمر رضي الله عنه قضاء محتوم . لا نحسب الدخلة الكريمة العزيزة التي دخلها صلاح الدين رحمه الله و رفع مقامه ، فقد دخلها على النصارى المحتلين لا على بني إسرائيل . و لو بدا من النصارى التفات عن حلفائهم اليهود لالتمسنا " ظروفا للتخفيف " من حدة المواجهة معهم . و هم على كل حال تابعون لا متبوعون في حلبة الكفر ، مؤتمون ليسوا أئمة . و هم قبل هذا أقل عداوة لنا بنص القرآن بينما اليهود هم الأشد عداوة ، و منهم مع ذلك من يتبع المسيح فيجعل الله في قلبه رأفة و رحمة . قال الله تعالى : « *لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿ 82 ﴾* » (سورة المائدة) .و قال عز من قائل : « *وَ قَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَ ءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ*

إِلَّا ٱبْتِغَـآءَ رِضْوَ ٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿27﴾ » (سورة الحديد) .

من النصارى قسيسون و رهبان لا يستكبرون . و منهم من يُرجى له و لو بعد حين البعثة المحمدية أن تصله من بركة محبته للمسيح نفحة من الرأفة و الرحمة ، إن كان لم تبلغه الدعوة الخاتمة ، و لم يُكذب الإسلام و لم يحارب .

أما أحبار اليهود و رهبانهم فسنجدهم أمامنا ، من سبق منهم و من لحق . سنواجه تحريفهم المكتوب ، و عقائدهم المُوَرّثة ، و بغضهم و عداوتهم الشديدة . و قومهم تبع لهم ، لا يغرننا عن تبعية بني إسرائيل جملة لرهبانهم القدماء و المحدثين ما تراه من إلحاد بعض بنيهم . و عند الأزمة إلى دينهم يفزعون . هذه دولتهم في فلسطين يهودية صهيونية أحبارية رهبانية صرفة في حقيقتها و روحها . و الأحبار و الرهبان سادة قادة .

قال الله تعالى و هو أعلم بخلقه و كلامه حق خالد : « ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ » (سورة المائدة) . روى الترمذي و حسنه عن عدي بن حاتم قال : « أتيت النبي صلى الله عليه و سلم و هو يقرأ في سورة براءة : " ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ " فقال : أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، و لكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه ، و إذا حرموا عليهم شيئا حرموه » .

فلكي تكون مواجهتنا على بصيرة من الفكر القيادي و من الخبيعة العقدية و النوايا المبيتة المدروسة المحفوظة في ذاكرة الأجيال لابد أن نفحص التحريف اليهودي و مادته التاريخية .

استطلاع

إن المواجهة الفعلية للموت و التربية الإيمانية الجهادية المؤهلة للفدائية هي مطلبنا في كل ما نكتب . و ما معرفة التحريف اليهودي و الاطلاع على خبايا النفس اليهودية التي غذيت قرونا طويلة بأفكار الأحبار و الرهبان الملعونين في القرآن إلا عملية استطلاعية في أرض العدو لنعرف ما هي الدوافع المحركة و ما هي التركيبة النفسية التي لا مفر لنا من الصدام الموعود معها . فمن الاهتمام بفعل الله المستقبل الذي حدثنا عنه آيات سورة الإسراء و بسطه لنا الحديث الشريف ، و من الاستعداد له قياما بواجب الكسب البشري نبحث في تحريف اليهود و نستطلع ما هي آفات " داء الأمم " التي سرت فينا مباشرة باتباعنا سننهم أو نزلت علينا من مخالطة النصارى الذين طلقوا الدين و احتفظوا بخرافات التحريف و قسوته و رداءته .

على مِحك العرض نستطيع أن نمحص تاريخنا و نفسيتنا الغثائية لنستبصر بالمقابلة و التضاد الخصال الإيمانية الإحسانية التي فقدناها . و لن نكون أهلا أن تخفق على رؤوسنا رايات النصر في الدنيا و لافتات السعادة في درجات الآخرة إن لم نستعدها . كمالات العلم ، و حيوية العمل ، و صدق الإرادة ، و الصبر على الشدائد في نصر الله . كل هذه أخلاق عليها يعطينا الله النصر ، و على الأخلاق الغثائية من وَهن و خوف لا يتنزل علينا القدر إلا بما نكره .

نقرع باب رجل من رجالات الإسلام ، أحد جهابذة العلماء و أفذاذ المجتهدين و فرسان العلم ، هو ابن حزم . إنه الخبير في علم " الملل و النحل " كما هو خبير في علوم شتى . نقرع بابه لنطلع من يده على خبايا اليهود و قد جلس لكتبهم حتى عصر ما فيها من سم ليقدمه لنا في قارورة في متحف الفكر لنتعلم ما هو السم اليهودي . اليهود شحيحون بكتبهم الخاصة مثل التلمود على من ليس من ملتهم ، حريصون على أن لا تقع هذه الكتب في أيدي " الجويم " أي الأمميين الذين يكنون لهم كل احتقار و عداء . و من عبقرية ابن حزم رحمه الله أن يحوز هذه الكتب ليكشف لنا أسرارهم الحميمة .

من كتاب " الفِصَل في الملل و الأهواء و النحل " نقتطف هذه الصفحات ، فيها عرض للمعلومات الموضوعية ثم تعليق من عالمنا ، نكتفي بتعليقه .

بعد أن أورد الأستاذ ابن حزم آيات تثبت تحريف اليهود للتوراة و أحاديث بسنده المتصل و آثارا عن الصحابة كلها تؤكد هذه الحقيقة قال : " و نحن إن شاء الله نذكر طرفا يسيرا من كثير جدا من كلام أحبارهم الذين عنهم أخذوا كتابهم و دينهم ، و إليهم يرجعون في نقلهم لتوراتهم و كتب الأنبياء و جميع شرائعهم ليرى كل ذي فهم مقدارهم من الفسق و الكذب فيلوح له أنهم كانوا كذابين مستخفين بالدين ، و بالله التوفيق . و لقد كان يكفي من هذا إقرارهم بأنهم عملوا لهم هذه الصلوات عوضا مما أمر الله تعالى به من القرابين . و هذا تبديل الدين جهارا " .[1]

عندما يكتب ابن حزم يتحدث عن نفسه بالكنية خلافا للمعهود من آداب المسلمين ، و هي جرأة من جرآته رحمه الله . قال : " قال أبو محمد رضي الله عنه : ذكر أحبارهم ، و هو في كتبهم مشهور لا ينكرونه عند من يعرف كتبهم ، أن إخوة يوسف إذ باعوا أخاهم طرحوا اللعنة على كل من بلغ إلى أبيهم حياة ابنه يوسف . و لذلك لم يخبره الله عز و جل بذلك و لا أحد من الملائكة . فاعجبوا لجنون أمة تعتقد أن الله خاف أن تقع عليه لعنة قوم باعوا النبي أخاهم و عقوا النبي أباهم أشد العقوق ، و كذبوا أعظم الكذب . فو الله لو لم يكن في كتبهم إلا هذا الكذب و هذا الحمق و هذا الكفر لكانوا به أحمق الأمم و أكفرهم و أكذبهم . فكيف و لهم ما قد ذكرنا و نذكر إن شاء الله .

" و في بعض كُتبهم أن هرون قال لله تعالى إذ أراد أن يسخط على بني إسرائيل : يا رب لا تفعل ، فلنا عليك ذمام (أي جميل) و حق لأن أخي و أنا أقمنا لك مملكة عظيمة . قال أبو محمد : و هذه طامة أخرى ! حاشا لهرون عليه السلام أن يقول هذا الجنون ! أين هذا الهوس و هذه الرعونة من الحق النير إذ يقول تعالى : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿17﴾ » (سورة الحجرات) .

[1] ج 1 ص 217

" و في بعض كتبهم أن الصورتين اللتين أمر الله تعالى موسى أن يصورهما على التابوت خلف الحجلة في السرادق إنما كانت صورة الله و صورة موسى عليه السلام معه . تعالى الله عن كفرهم علوا كبيرا .

" و في بعض كتبهم أن الله تعالى قال لبني إسرائيل : من تعرض لكم فقد تعرض حدقة عيني . و في بعض كتبهم أن علة تردد بني إسرائيل مع موسى في التيه أربعين سنة حتى ماتوا كلهم إنما كانت لأن فرعون كان بنى على طريق مصر إلى الشام صنما سماه " باعل صفون " ، و جعله طلسما لكل من هرب من مصر يحيره و لا يقدر على النفاذ . فاعجبوا لمن يجيز أن يكون طلسم فرعون يغلب الله تعالى و يجيز بتيه موسى و من معه حتى يموتوا ! فأين كان فرعون عن هذه القوة إذ غرق في البحر ؟ !

" و في بعض كتبهم أن دينة بنت يعقوب عليه السلام إذ غصبها شكيم بن حمور و زنى بها حملت و ولدت ابنة . و أن عُقابا خطف تلك الفرخة و حملها إلى مصر و وقعت في حجر يوسف فرباها و تزوجها . و هذه تشبه الخرافات التي يتحدث بها النساء بالليل إذا غزلن " .[1]

و يطول بنا القول لو تتبعنا ابن حزم في اكتشافاته ، و بعضها أغرب من بعض . فنكتفي بمقتطفات .

قال رحمه الله : " في بعض كتبهم مما لا يختلفون في صحته أن السحرة يحيون الموتى على الحقيقة . و أن ههنا أسماء لله تعالى و دعاء و كلاما من عرفه من صالح أو فاسق أحال الطبائع و أتى بالمعجزات و أحيى الموتى و أن عجوزا ساحرة أحيت لشاوول الملك ، و هو طالوت ، شُمؤال النبي بعد موته . فليت شعري إذا كان هذا حقا فما يُؤمنهم أن موسى و سائر من يقرون بنبوته كانوا من أهل هذه الصفة . و لا فرق بين شيء من هذا أبدا " .[2]

قلت : معروف شائع عند الألباء أن اليهود في فلسطين اليوم ، أغنى كبراء دولتهم و زعماءهم المغربين القادمين من أوربا ، يمارسون السحر و يستعملونه وسيلة من أعز وسائلهم . و السحر حق كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم . حق في إطاره و أذى محقق و سم زُعاف . و قد سحر اليهود رسول الله صلى الله عليه و سلم و سموه . فهم اليوم على عهد أسلافهم يمارسون السحر و التنجيم ، لهم

---

[1] نفس المصدر ص 217 – 218 .
[2] نفس المصدر ص 218 .

مراكز لذلك و متخصصون في أنحاء العالم . و السحر في أيديهم سلاح سياسي فاتك . فاتك باعتبارات شتى ليس أهونها أن كثيرا من رؤساء الدول الجبرية القائمة بلاد المسلمين يتخذون مستشارين يهود و سحرة و منجمين قارين في البلد ، أو يسافر الأمير و الرئيس لاستشارة خبيره إذا كان هذا المخبر عن الشيطان ذا شهرة عالمية .

و ظاهر ما قاله ابن حزم من أن الاعتقاد المبالغ فيه في قدرة السحرة حتى يظن بهم أنهم يحيون الموتى يهدم الحد الفاصل بين الحق و الباطل فتكون معجزات الأنبياء عليهم السلام ضربا من السحر العالي . و هذا ما يعتقده اليهود لعنهم الله .

و في بعض كتبهم أن بعض أحبارهم المعظمين عندهم ذكر لهم أنه رأى طائرا يطير في الهواء ، و أنه باض بيضة وقعت على ثلاث عشرة مدينة فهدمتها كلها .

" و في كتبهم أن طول لحية فرعون كان سبعمائة ذراع . و هذه و الله مضحكة تسلي الثكالى و ترد الأحزان " .[1]

" و في كتاب لهم يسمى " شعر توما " من كتاب التلمود ، و التلمود هو معولهم و عمدتهم في فقههم و أحكام دينهم و شريعتهم و هو من أقوال أحبارهم بلا خلاف من أحد منهم ، ففي الكتاب المذكور أن تكسير جبهة خالقهم (أي مساحتها) من أعلاها إلى أنفه خمسة آلاف ذراع . حاش لله من الصور و المساحات و الحدود و النهايات .

" في كتاب آخر من التلمود يقال له " سادر ناشيم " ، و معناه تفسير أحكام الحيض ، أن في رأس خالقهم تاجا فيه ألف قنطار من ذهب ، و في أصبعه خاتم تضيء منه الشمس و الكواكب ، و أن الملك الذي يخدم التاج اسمه " صندلفوت " . تعالى الله عن هذه الحماقات .

---

[1] المصدر السابق ص 218 – 219 .

" و مما أجمع عليه أحبارهم لعنهم الله أن من شتم الله تعالى و شتم الأنبياء يؤدب ، و من شتم الأحبار يموت ، أي يقتل . فاعجبوا لهذا و اعلموا أنهم ملحدون لا دين لهم ، يفضلون أنفسهم على الأنبياء عليهم السلام و على الله عز و جل " . [1]

و يأتينا هنا الإمام ابن حزم بحقيقة هائلة ، كانت في حياته منذ ألف سنة معروفة مذكورة غير منكورة ، و هي اليوم في طي النسيان . هذه الحقيقة البالغة الأهمية هي أن اليهود لعنهم الله المحترفين في التحريف و التزوير لم يكتفوا بتحريف دينهم بل حرفوا بالرشوة دين النصارى . و إذا علمنا أن دولتهم الآن تطبع مصاحف مزورة و تُوزعها في العالم بأعداد كبيرة رجاء أن تشوه دين الإسلام في عصر تركز فيه الإسلام منذ قرون طويلة و توطدت معارفه و انتشر العلم به ، علمنا كم كان من السهل على اليهود أن يعملوا على تزوير الإسلام الذي جاء به المسيح عليه السلام حتى أصبح على الصورة الشوهاء الوثنية التي هو عليها . في بدايات النصرانية كانت المعارف منحصرة في دوائر ضيقة ، و استطاع اليهود لعنهم الله أن يأتوا على الآثار الحقيقية للسيد المسيح عليه السلام في عهد مبكر على يد من كانت تظن فيهم الأمانة .

قال الشيخ الإمام رحمه الله : " و فيما سمعنا علماءهم يذكرونه و لا ينكرونه معنىً أن أحبارهم الذين اخذوا عنهم دينهم و التوراة و كتب الأنبياء عليهم السلام اتفقوا على أن رَشَوْا بولس البنيامين لعنه الله و أمروه بإظهار دين عيسى عليه السلام ، و أن يضل أتباعه و يدخلهم إلى القول بإلاهيته . و قالوا له : نحن نتحمل إثمك في هذا . ففعل و بلغ من ذلك حيث قد ظهر . و اعلموا يقينا أن هذا عمل لا يستسهله ذو دين أصلا . (...) فاعجبوا لهذا !

" و هذا أمر لا نبعده ، لأنهم قد راموا ذلك فينا و في ديننا ، فبعد عليهم بلوغ أربهم من ذلك . و ذلك بإسلام عبد الله بن سبإ (يعني تظاهره بالإسلام) المعروف بابن السوداء اليهودي الحميري

[1] المصدر السابق ص 221 .

لعنه الله ، ليضل من أمكنه من المسلمين . فنهج لطائفة رَذَلَةٍ كانوا يتشيعون في علي رضي الله عنه أن يقولوا بإلهية علي . و نهج بولس لأتباع المسيح عليه السلام من أن يقولوا بإلهيته .

" و هم (أي الرذلة من أتباع ابن سبإ) الباطنية و الغالية إلى اليوم . (...) .

" و أشنع من هذا كله نقلهم الذي لا تَمانُعَ بينهم فيه عن كثير من أحبارهم المتقدمين الذين عنهم أخذوا دينهم و نقلوا توراهم و كتب الأنبياء بأن رجلا اسمه إسماعيل كان إثر خراب البيت المقدس سمع الله تعالى يئن كما تئن الحمامة و يبكي و هو يقول : الوَيل لمن خُرِّبَ بيتُه و ضُعضع ركنُه و هُدم قصره و موضع سكينته ! و يلي على ما أخربت من بيتي ! ويلي على ما فرقت من بَنيَّ و بناتي ! فأمتي منكسة حتى أبني بيتي و أرد إليه بَنيَّ و بناتي ! قال هذا النذل الموسخ ابن الأنذال إسماعيل : فأخذ الله تعالى بثيابي و قال لي : أسمعتني يا بني يا إسماعيل ؟ قلت : لا يا رب ! فقال لي : يا بني يا إسماعيل ، بارك علي . فقال الجيفة المنتنة فباركت عليه و مضيت . قال أبو محمد : لقد هان من بالت عليه الثعالب ! و الله ما في الموجودات أرذل و لا أنتن ممن احتاج إلى بركة هذا الكلب الوضِر ! فاعجبوا لعظيم ما انتظمت هذه القصّة عليه من وجوه الكفر الشنيع ! " . [1]

و مضى أبو محمد رحمه الله يسخر من تفاصيل هذا الهوس الجنوني . و قد نقلنا القصّة و غضب الشيخ لكي ندرك إلى أية سفالة و رذالة ينزل من غضب الله عليهم و لعنهم و جعل منهم القردة و الخنازير . ما يجدي يا أبا محمد أن تهين الكلب البريء بمقارنته بالمغضوب عليهم المخذولين . لو لم تكن مقالتهم من الحماقة و الرعونة بمكان تجاوز معايير الإنسانية إلى أسفل سافلين لجاز أن نغضب ، و لكان كافيا لتلويث القلم و الكتاب و ألفِ ميل من حوله نقلُ المقالة الوسخة روايةً عن ألف واسطة . و القصة كاللواتي سبقنها تقدم للعاقل صورة عن الخلفية العامة للذهنية اليهودية التي عاشت في هذه الحَمْأَة قرونا طويلة ، و تغذت بهذه " الثقافة " ، و نشأت في غضب الله جيلا بعد جيل .

---

[1] المصدر السابق ص 222 .

ما كان لبؤرة السوء ، و معدن الشر ، و خلاصة الجاهلية ، و منبع الفتنة ، و داء الأمم المبثوث في التاريخ ، و فساد الأرض الأكبر ، و وباء كل عصر إلا أن يكون أبشع ما يمكن أن يتصوره خيال .

و أكثر هرائية و كفرا و استخفافا بالألوهية مما سبق ، إن بقي للألفاظ معنى بعد كل الذي قرأنا ، ما يذكره الشيخ بعد فراغه من التعليق على المقالة السابقة .

قال رحمه الله : " و لولا ما وصفه الله تعالى من كفرهم و قولهم " يد الله مغلولة " و " الله فقير و نحن أغنياء " ما انطلق لنا لسان بشيء مما أوردنا . و لكن سهل علينا حكاية كفرهم ما ذكره الله تعالى لنا من ذلك . و لا أعجب من إخبار هذا الكلب لعنه الله عن نفسه بهذا الخبر . فإن اليهود كلهم ، يعني الربانيين منهم ، مُجمعون على الغضب على الله ، و على تلعيبه و تهوين أمره عز و جل . فإنهم يقولون ليلة عيد الكيبور ، و هي العاشر من تشرين الأول و هي أكتوبر : يقوم المِطَطْرونُ ، و معنى هذه اللفظة عندهم " الرب الصغير " تعالى الله عن كفرهم . قال : و يقول و هو قائم ينتف شعره و يبكي قليلا قليلا : ويلي إذ خربت بيتي و أيْتمت بني و بناتي . فأمتي منكسة ، لا أرفعها حتى أبني بيتي و أرد إليه بَني و بناتي . و اعلموا أنهم أفردوا عشرة أيام من أول أكتوبر يعبدون فيها ربا آخر غير الله عز و جل ، فحصلوا على الشرك المجرد . و اعلموا أن الرب الصغير الذي أفردوا له الأيام المذكورة يعبدونه فيها من دون الله عز و جل هو عندهم " صندلفون " الملكُ خادم التاج الذي في رأس معبودهم . و هذا أعظم من شرك النصارى . و لقد وقّفت بعضهم على هذا فقال لي : مططرون ملك من الملائكة . فقلت : و كيف يقول ذلك الملك : ويلي على ما خربت من بيتي و فرقت بني و بناتي ؟ ! " .[1]

و يختم الشيخ رحمه الله قائلا : " قال أبو محمد : هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود و كتبهم من الكذب الظاهر و المناقضات اللائحة التي لا شك معها في أنها كتبٌ مبدلة محرفة مكذوبة ، و شريعة موضوعة مستعملة من أكابرهم . و لم يبق بأيديهم بعد هذا شيء أصلا ، و لا بقي في فساد دينهم شبهة بوجه من الوجوه . و الحمد لله رب العالمين . (...) و اعلموا أننا لم نكتب من فضائحهم إلا قليلا من كثير " .

[1] المصدر السابق ص 223 .

كتب اليهود

نسمع في الأخبار كثيرا وقوف اليهود عند حائط المبكى قرب المسجد الأقصى . ترى لم يبكون و ماذا يقولون في بكائهم ؟ ذلك سرّ يكتمونه . و عرفنا إياه شيخنا ابن حزم قال : " و اعلموا أن اليهود يقومون في كنائسهم أربعين ليلة متصلة من أيلول و تشرين الأول ، و هما شتنبر و أكتوبر ، فيصيحون و يولولون بمصائب . منها قولهم : لأي شيء تُسْلِمُنا يا الله هكذا و لنا الدين القيم و الأثر الأول ؟ لِمَ يا الله تتصمم عنا و أنت تسمع ، و تعمى و أنت مبصر ؟ هذا جزاء من تقدم إلى عبوديتك ! و بدرَ إلى الإقرار بك ! لِمَ يا الله لا تُعاقب من يكفر النّعم ، و لا تجازي بالإحسان ؟ ثم تبخسنا حظنا و تُسْلِمنا لكل معند ، و تقول إن أحكامك عادلة ! فاعجبوا لوَغَادةِ هؤلاء الأوباش و لرذالة هؤلاء الأنذال الممتنين على ربهم عز و جل ، المستخفين به و بملائكته و برسله . و تالله ما بخسهم ربهم حظهم ، و ما حقهم إلا الخزي في الدنيا و الخلود في النار في الآخرة . و هو تعالى موفيهم غير منقوص .

" و احمدوا الله على عظيم منته علينا بالإسلام الملّة الزهراء التي صححتها العقول ، و بالكتاب المنزل من عنده تعالى بالنور المبين و الحقائق الباهرة . نسأل الله تثبيتنا على ما منحنا من ذلك بمنه إلى أن نلقاه مؤمنين غير مغضوب علينا و لا ضالين " .

و نقول نحن مع أبي محمد : آمين و الحمد لله رب العالمين . ثم نرجع إلى الظلمة الفسقة . كيف يستوي في العقل أن يكون ما نشاهده من علو اليهود في الأرض مع جزاء الخزي في الدنيا المناسب لقوم غضب الله عليهم و لعنهم ؟

الجواب في قوله تعالى : « *وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ* ﴿ 183 ﴾ » (سورة الأعراف) . و هو عام في حق كل قرية ظالمة أو قوم فاسقين .

و قوله جلت قدرته : « *حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَ ٱزَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* ﴿ 24 ﴾ » (سورة يونس) . إنها سنة الله مبسوطة قواعد تصريفها في كتابه مفصلة ، لا يستطيع قراءتها إلا قوم يتفكرون . أما الصم البكم العمي الذين يعمون عن رؤية فعل الله في الواقع و لا يتصل الواقع و القرآن في أذهانهم بأية صلة فهم لا يعقلون .

قلت اقتداء بعبارة أبي محمد رحمه الله : فاعجبوا رحمكم الله من إدلال اليهود على ربهم و اتهامهم إياه في دعواتهم . العجب و الغضب ، غضبا لله لا ثأرات قومية و دفاعا عن الأرض بعد التجرد من الدين و الاصطفاف في طابور العلمانية العاجز . لا يتنافى في شيء ما نقله شيخنا الظاهري الجريء الجليل ابن حزم مع قول الله عز و جل عن اليهود : « *وَ قَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَ ٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَ أَحِبَّـٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ* » (سورة المائدة ، 18). و نذكر من مقالاتهم أخزاهم الله ما يثبت احتقارهم العنصري للبشرية ، كأنهم بشر لا بشر .

هذا الجانب البسيط من ستار الكتمان و السرية الذي رفعه لنا ابن حزم أطلعنا على روح عبادتهم ، و أظهر لنا لم يبكون . نراهم يفعلون في الصور فحسب أنهم مثلنا يتخشعون في الدعاء كما هو شأن كل متدين و يضرعون و يتوبون ، فإذا بدعواتهم كلها سوء أدب مع الله عز و جل و عتاب و نقد و اعتراض . اقرن هذا مع ما سبق من استهزائهم بالألوهية و بما سيأتي قريبا إن شاء الله تعْرف أية غدة مرضية يشكل اليهود في جسم البشرية .

و في كتبهم ما هو أخزى إن كان الخزي دركات سنأتي لذكره بعد حين بإذن الله . لكن نريد أن نأخذ معلومات طرية عنهم ، فقد يقول القائل : إن بيننا و بين ابن حزم ألفَ سنة . فإذا قدرنا أن معلوماته مدققة ، فما يدرينا أن يكون القوم نسوا تلك الأسفار القديمة ، أو لعلهم رجعوا عنها و تبرأوا منها أو من بعضها !

فإنصافا في القضية ، و التماسا لموضوعية تبني الأحكام على الواقع الحاضر الموثق لا على آثار أركيولوجية مندثرة أصبحت في ذمة التراث و التاريخ الميت ؛ إنصافا و التماسا نفتح كتابا ألفه اليهود المعاصرون يعرضون ملتهم و دينهم و ثقافتهم من وجهة نظرهم و لغاية في نفسهم . إنه كتاب من كتبهم المنشورة لا المستورة ، أرادوه للدعاية ، و قصدوا به أن يعطوا صورة جذابة عن دينهم . و ليس بعد الاستشهاد عليهم بوثائقهم المعترف بها علنيا إنصاف .

إنه كتاب بعنوان : " مظاهر للعبقرية اليهودية " ألفه بالفرنسية لفيف منهم على ما نستنتج لأنهم لم يكتبوا عليه اسم المؤلف . لكن وقع على مقدمته واحد منهم اسمه ***Elian – J Finbert*** و ذكر أن له " زملاء " كتبوا معه . و طبع الكتاب سنة ***1950*** بتاريخ النصارى بباريس بدار النشر : ***Les cahiers du Sud*** .

الكتاب إذن نشر في أعقاب الحرب العالمية الثانية بعد انتصار الحلفاء على النازية التي عذبت اليهود تَعذيبا أليما أعطاهم فرصة للتباكي على العالم و المبالغة المنفوخة في مظلوميتهم و عدد ضحايا النازية . لنذكر بكاءهم المتجني على الله عز و جل و بهتانهم حتى نعرف الاستغلال الماهر الذي استغل اليهود مذابح هتلر فيهم ، و كيف ضغطوا على ضمير الدول المصنعة حتى ساعدتهم في أقامة دولتهم على أعز بقعة .

لا نقبل بوجه الظلم الشنيع الهتلري لليهود و لغير اليهود . و من اليهود أبرياء كثيرون ذهبوا ضحية الهمجية النازية . و بالمنظار القرآني تتوحد لنا الرؤية . قال الله تعالى عن بني إسرائيل بعد أن فسقوا : « *وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ* » (سورة الأعراف ، 167). هذا حق قضاء الله المحتوم نزل قدرا لا يرد في زمانه و مكانه على يد هتلر و حزبه . فهتلر ممن بعثهم الله على اليهود ليسوموهم سوء العذاب . أما حق التكليف و الكسب الإنساني فهو موقفنا المبدئي من الظلم الذي حرمه الله تعالى و قال : « *وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ* » (سورة الأنعام ، 164). و لئن غضب الله عز و جل على اليهود جملة فإنه استثنى حيث قال عن أهل الكتاب ، و اليهود منهم : « *مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَـآءَ مَا يَعْمَلُونَ* ﴿ 66 ﴾ » (سورة المائدة) . أمة مقتصدة أي معتدلة .

و قال تعالى : « وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ ﴿ 159 ﴾ » (سورة الأعراف) .

و قال عز و جل : « ¤ وَ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَ ٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » (سورة آل عمران ، 75) .

يمر المفسرون مر الكرام على هذه الآيات ، يعدون من المقتصدين و الذين يعدلون و يُؤْتمَنُون المسلمين مع موسى عليه السلام قبل التحريف لا غير . و نعتبر نحن أن كلام الله عز و جل ماض إلى يوم القيامة ، و أن من أهل الكتاب و من غيرهم كثير لما تبلغهم دعوة الإسلام ، و أن علو بني إسرائيل في الأرض و إفسادهم فيها مرتين ليس تاريخا مضى ، و أن المواجهة معهم و قتالهم خلف الحجر و الشجر واقع مستقبلي ، و أن دستورنا في التعامل معهم حكم الله فيهم في كتابه العزيز و من حكمه الاستثناء . و من سماحة الإسلام المعروفة من الدين بالضرورة أن لا تزر وازرة وزر أخرى . و ليس مما يقبله الإسلام أن يحرق الأخضر باليابس .

الشاهد الحاضر معنا الملاحظ أن من اليهود قلة اليوم لا تتفق مع المشروع الصهيوني و لا تعترف بالدولة اليهودية . و قد يكون ذلك من دهاء اليهود ، لكن قد تكون القلة قلة صادقة في اعتراضها . فالباب مفتوح للتوبة ، و التعميم مزلقة مثل الغفلة .

لم نبتعد عن موضوعنا ، و لا نزال مع الظروف التي ظهر فيها كتاب " مظاهر للعبقرية اليهودية " .

دار النشر مشهورة ، إن لم تكن يهودية خالصة فهي و لا شك من دور النشر السائرة في ركاب اليهود ، تنشر عقب الحرب و في الوقت الذي قامت فيه دولة اليهود كتابا مُنتصرا مفتخرا في *440* صفحة كلها ذكر لأمجاد الشعب الذي خرج من الحرب بسمعة الضحية المظلومة العظمى يدلّله العالم ، فالكتاب فيه زهو كبير ، لا شك أن كاتبيه اختيروا من أبرع ما عندهم من الكتاب لكي يعطوا عن اليهود و دينهم أجمل صورة ممكنة . فنقلنا عن مثل هذا الكتاب يعطي الضمانات كلها

لكي لا يكون حيف و تحامل . و أحاول جهدي أن تكون الترجمة حرفية . و أنا حر بعدها في استنطاق النص و كشف ما وراءه .

قال كاتب المقدمة بأنه و من معه كتبوا الكتاب لحوار داخلي بين اليهود ثم ليقرأه أناس " و إن لم يكونوا مرتبطين بقَدَرِنا مباشرة ، فهم يَتَمنون أن يسمعوا منا و يجيبونا تجاوبا مع التعاطف الطبيعي الإنساني الذي نحسه جميعا . ذلك التعاطف الذي لم يفقد معاني عظمته في كل مكان ترتعش فيه الضمائر النقية التي تبحث عن التحالف بحرية " .

في الصفحة الثانية من المقدمة يخاصم الكاتب النصارى الذين اغتصبوا التوراة و أطلقوا عليها بدون إذن من " إسرائيل " اسم " العهد الجديد " و هي كتاب فيه تاريخ إسرائيل و أخلاقها .

في الصفحة الثالثة من المقدمة يعترف الكاتب و يؤكد كثيرا بأن " الفكر الفاعل لليهودية لا يمكن أن يقيد على شكل ثابت كما أن عقائدها الدينية ليست مضغوطة في كماشات علم لاهوتي ساكن " . و يقول : " كل من الفكر و العقيدة متحركٌ نحو كل الممكن اليوم و نحو كل المستقبل التاريخي ، و قد كانا اندمجا في التاريخ دائما بحرية حركة كبيرة " .

و يقول عن فكر اليهود و عقيدهم أنهما : " ليْسَا مقهورين تحت ميتافيزيقية عتيقة مخالفة للطبيعة (...) فهما متحرران من كل مبدإ مخالف للعقلانية و من كل هم لمح لما بعد الموت أو للموت " .

في آخر الصفحة الثالثة من المقدمة يفَرِّق سهامه للنصرانية و الإسلام فيقول : " الحضارة الغربية المحملة بقيم نصرانية و الحضارة الشرقية المحملة بقيم إسلامية تولدت ، بتناسل هجين ، من الترعرع القوي العنيف لنَبْتَتِهما على مستوى الأرض ، و من هاتين النبتتين ستنفصل دائما شهب محرقة " .

في الصفحة الرابعة يقول عن الإسلام و النصرانية : " هناك مئات الملايين من النصارى و المسلمين تدور حياتهم كلها حول قيم استلهمت من هذه الثقافة (اليهودية) بعد أن أعادوا صياغتها حسب " هواهم المتحكم في مصيرهم " .

ليس مطلبنا من كتاب اليهود الاستعراضي أن نتعلم اعتزاز اليهود بتراثهم هذا الذي كان آباؤهم و أجدادهم يتبجحون بأنه دين صامد ثابت و أصبح ملاحدقم و صهاينتهم اليوم يتبجحون بأنه دين غير مقيد فكرا و لا عقيدة فهو مفتوح على التاريخ انفتاحا كليا ، متحرر من هم الموت و ما بعد الموت . ليس مطلبنا منه أن نتعلم احتقار اليهود للنصرانية و للإسلام ، يعتبرونهما تشويها للدين الصحيح و توالدا لنبتة عنيفة محرقة .

غرضنا أن نعرف على لسان يهود عصريين صهاينة نظرة اليهود اليوم لكتبهم ، و أن نعرف نشأة هذه الكتب و مشكلها و مضمونها في حدود الصفحات القليلة التي يمكن أن نخصص لهذا البحث .

قالوا في الصفحة ***14*** : " دراسة اليهودية هي دراسة التلمود ، و دراسة التلمود هي دراسة اليهودية " . فالتلمود إذن هو العمدة عندهم ، و في التلمود من الطوام الكبرى ما قرأنا من كلام ابن حزم و ما نقرأ قريبا إن شاء الله . فكيف يروغ اليهود عن حماقات كتابهم المقدس دون أن يتخلوا عن الكتاب في جملته ؟

فصَّل الكتَّاب بأن ما يعنونه بالتلمود عندما يجعلون دراسة التلمود هو دراسة اليهودية إنما هو الجزء منه المسمى " هلكة " أو " حلقة " . لا نكتب الأسماء بحروف عربية متخطين هاءات الحاخامات العبرية و حاءاتهم و خاءاتهم . فالعبرة باللفظ العربي لمن يقرأ في آيات الله في الكون و سنته في التاريخ و يقول مع العرب بأن لِكُلٍّ مسمّى نصيبا من اسمه .

قالوا بأن الهلكة أو الحلقة أهلكهم الله هي كتاب الشريعة المعتبر . أما الجزء الآخر المسمى " حقدة " فهو مجموعة من الحقائق العلمية و التوجيهات الأخلاقية ، و هذه تدخل في حكم الهلكة ، فهي صالحة . و الباقي إنما هو : " أساطير و خرافات تحتوي على كل الأدب الشعري الذي خلفه المِدْراشِيمْ " .

بعد هذا التملص اليهودي من النصوص المحرجة التي تدين بني إسرائيل و إرسالها إلى سماء الأسطورة و الشعر الجميل يتفرغ الكتاب لشرح ما هو التلمود و كيف نشأ .

قالوا : إن الشريعة المكتوبة في الألواح التي جاء بها موسى عليه السلام غامضة مقتضبة غير تامة [1]. و أن صحف موسى تفاجئ القارئ بـــ " الصمت المطلق حول بقاء الروح و حول الحياة بعد الموت " .[2]

قالوا بأن الغموض الذي في الصحف و " الثغرات المهمة " و " التناقضات الظاهرة " محتاجة إلى شرح . و لا بد أن يكون " شرحا دائما " متواصلا .[3]

كل هذه الغمزات التي تهيئ الناظر في كتب اليهود ليقبل سلطة الأحبار شراح الصحف الضروريين . و ليقبل تحريفاتهم دون سؤال لأنهم ورثوا علم التأويل الذي أنزل على موسى عليه السلام .

علم عظيم هذا السر المعطى للأحبار أن يؤولوا كيفما شاؤوا . فما نعتبره نحن تحريفا و عدوانا على دين الله المنزل كاملا لا نقص فيه ، واضحا غير غامض ، مبينا لا يحتاج لزيادة ، يعتبرونه هم تأويلا مشروعا شريفا عفيفا .

التلمود إذن بما فيه من هلكة و حقدة ، من شرائع و " أساطير " شعرية هو من عمل الأحبار .

التلمود " بحر " زاخر خاض فيه الجيل الأول المسمّونَ " دِبْرِي سوفريم " أي كتاب الأسفار ، و الجيل الثاني المسمون " ثانا " ، و الجيل الثالث المسمون " أمورا " . و للأولين سلطة لا ينازعها اللاحقون ، و مقالات " الثانا " لا ينقضها اجتهاد " الأمورا " . و الكل في الكل هو الأحبار ، و لا شيء غيرهم . و ما التوراة إلا تاريخ قومي و أخلاق .

---

[1] مظاهر للعبقرية اليهودية ص 14 .
[2] نفس المصدر ص 15 .
[3] نفس المصدر و الصفحة .

التلمود خرج من الكتاب لا من الأنبياء

هذه عبارة لم أستنتج معناها و إنما وردت بالحرف في كتاب ليهود الاستعراضي " مظاهر للعبقرية اليهودية " . قال كُتَّابُه : " لم يخرج التلمود من هذا الازدهار الأدبي القوي الغني الذي ندين له بهذه النصوص الشعرية الباهرة مثل (سفر) اليسع أو (سفر) المزامير أو (سفر) أيوب (قلت : و هي من أجزاء توراتهم المحرفة) ، بل خرج من التعليم العقدي الصارم الأصيل الذي أعطانا بعد ثمانية قرون من العمل التلمود " .[1]

تصوروا أننا أخذنا كتابا من فقهاء المذاهب في القرن الثامن و وضعناه مكان القرآن . على أن المقارنة لا تجوز لأن فقهاءنا لم يكونوا محرفين يمتطون متن الامتياز الخاص بوصفهم أُمناء على أسرار التأويل ليسبحوا في بحر الظلمات ، و لأن القرآن أصلا محفوظ .

هؤلاء القوم لاينكرون ، بل يفتخرون ، أن كتابهم العمدة في الدين خرج من " عمل " ثمانية قرون من تكديس التأويلات حول نصوص نعرف بشهادة القرآن أنها أساسا محرفة . يعترفون أن التلمود هو العلم الصارم لا " شعر " الأنبياء .

و يقولون : " و منذ ذلك (أي منذ خروج التلمود) بدأ عهد جديد بالنسبة لبني إسرائيل . كل الأمة اجتمعت حول " السوفِريم " (أي كتاب الأسفار) ليستمعوا إلى شرح الشريعة " .[2]

من قبل كانوا يرفضون الاستماع إلى الأنبياء ، و قد أخبرنا الله عز و جل في كتابه المحفوظ أن من الأسباب التي أحلت عليهم غضب الله حتى طبع على قلوبهم قتلهم الأنبياء . قتلوا الأنبياء ثم تحلقوا بخشوع حول كتّاب الأسفار الذين ورثوا جيلا بعد جيل ميراث التحريف ، كل جيل يحترم تأويل من سبقه و يبني عليه .

---

[1] نفس المصدر ص 18 .

[2] نفس المصدر و الصفحة .

يقولون بأن الفترة التي يسمونها " فترة الملك " ، أي زمان كان أنبياؤهم عليهم السلام يؤدون رسالتهم في التذكير بالشرائع الإلهية ، كانت فترة انشقاق و شقاق . " فمن جهة كانت العقائد الشعبية الخرافية و الشهوانية الوثنية الغليظة المقتبسة من الفينيقيين و التي كان الأنبياء مثل يرمياء و حزاقيائيل يصرخون عليها دون طائل في غالب الأحيان . و من جهة أخرى كانت الروحانية العالية الزاهدة التي كانت تحاول إرجاع الجموع عند أقدام مذبح " يهوه " (هكذا يسمون الرب جل و علا في لغتهم) و يحاربون بشدة الوثنية التي تفسد الناس " .[1]

و جاء انتصار الدين بعد رجوع اليهود من منفى بابل . و فتح العهد الجديد الذي فتح الطريق للدين الصحيح ، دين التلمود و كتاب الأسفار . " بعد الرجوع من المنفى التف الشعب بأكمله حول رؤساء الدين ، و لم يكن هؤلاء الرؤساء هم الأنبياء ، بل كانوا الكُتاب . و منذ ذلك لم تعد شوارع أورشليم (القدس) تعلو فيها شتائم النّبيئين المدوية ، بل امتلأت المدارس و البيع بتفاسير " السوفرِيم " و شروحهم " .[2]

و ظهر حبر معظم عندهم في القمة هو أب " العمل " الذي ليس فيه شيء من " شتائم " النبيئين و الذي أدى إلى كتابة التلمود و اسمه " عَقِبَ " ، و للأسماء دلالتها . قتل عقب و ترك لأنجب تلامذته " يهودا الولي " مهمة كتابة المتن الرئيسي المسمى عندهم " مِشْنَا " ثم تتابعت القرون فكتبت على متن المشنا شروح سميت " الغِمَارَا " .

في لغة العرب الشين ضد الزين . و الغِمْرُ بكسر الغين الحقد ، و بضَمها الرجل الجاهل . و لكل هذا دلالته لمن كان يقرأ من آيات الله في الكون و سننه في التاريخ قراءة إيمانية لا وضعية مادية . كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يحب الفأل الحسن ، و كان يكره الأسماء الشينة و يُغيرها ، و كان يأمرهم إذا أرسلوا إليه رسولا أن يختاروه حسن الاسم حسن الصورة .

---

[1] نفس المصدر ص 17 – 18 .

[2] نفس المصدر ص 18 .

بهذه السنة حاضرة في ضمائرنا ، جُزْءاً من جهازنا الفكري ، نقرأ غضب الله يتجلى في أسماء " هلكة " تهلك ، أو " حلقة " هي طوق في تلك الأعناق إلى جهنم ، و " الحَقَدا " و هي حقد على الله و الناس . و نقرأ في " المشنا " الشين و الشنآن ، و نقرأ " الغمارا " و هي جهل و حقد .

ليعذرنا من كان لا يتسع أفقه لسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم كاملة و ليرجع معنا إلى متن " يهودا الولي " .

ثم بعد العذر ليسمع منا القراءة السنية الكاملة هي القراءة الصحيحة . إنها قراءة سنة الله ، الأحداث التاريخية المتسلسلة واقعها الظاهر ، و قدر الله من وراء سُجُف الغيب هو الحق ، و علم رسول الله صلى الله عليه و سلم بذلك كله ، ناظرا هنا و هناك ، هو العلم . و إدخال أسماء و معانيها باللفظ العربي لا علاقة له بسحر اليهود و طلسماتهم إلا علاقة التقابل من حيث أن ذلك ظلام و سنة المصطفى صلى الله عليه و سلم نور .

و كُتِب المتن المشنا إذن و اكتسب قداسة مطلقة ، حيث أصبح شريعة جديدة بدل الشريعة القديمة ، شريعة " شتائم النبيئين " . قال الكتاب عن المشنا : " لم تبق نصا موروثا و تقليدا بل أصبحت شريعة جديدة أتم و ادق و أوضح من الشريعة القديمة . هذه الشريعة القديمة نُحّيت إلى المرتبة الثانية . و كان الأحبار يقولون : ينبغي الاشتغال بالمشنا لا الاشتغال بالشريعة . يمكن تشبيه الشريعة بالماء ، أما المشنا فهي خمر " . [1]

و جاءت شروح الغمارا في عدة قرون توضح المتن حتى اكتمل التلمود . و كانت الغمارا إثراء للمتن حيث اقتبست من القانون الروماني الذي يتحدث عنه كتاب اليهود باعتزاز ليسمع الغرب المشبع بالثقافة المتأصلة على اليونان و الرومان أن اليهود هم آباء الثقافة و حفظتها . " و بينما كان علماؤنا يُشَيِّدون القانون على أساس المشنا القوي ، كان شعب مجاور عرف علماؤنا

---

[1] نفس المصدر ص 24 .

جيدا مقدار سطوته يشتغل في عمل مشابه تقريبا ، و بقوة لا مثيل لها و عبقرية عجيبة يرفع صرح قانون سيكون أساس قانون أوربا المعاصرة " .[1]

و يذكر الكتاب إعجاب أحبارهم بالقانون الروماني و تأثرهم به . " لذلك فالقانون المدني التلمودي مطبوع في كل جزئياته تقريبا بطابع القانون الروماني و روحه " .[2]

و يذكرون كيف أدخل الأحبار في البوتقة التلمودية عناصر شتى ، و عجنوا من ذلك الخليط شريعة " . " و من هذه البوتقة التي انصهرت فيها على مدى ثلاثة قرون مواد من أصول مختلفة أدخلتها فيها المدارس خرج العمل الموحد توحيدا عميقا مندمجا هو القانون التلمودي " .[3]

هذا هو الوصف النهائي للجزء من التلمود المسمى هلكة و المحتوى على فصلين : متن و شروح ، أي مشنا و غمارا . و هو خليط خليط . قدموه على أنه وحدة عميقة مندمجة .

أما الجزء الثاني من التلمود ، جزء " الحقدا " فهو دائما يوصف بأنه البحر بلا حدود . و قد قرأنا في أول هذه الفقرة أن فكر اليهود و عقيدتهم فضاء مطلق لا يعرف القيود و لا التقيد بـــ " شعر " الأنبياء و " شتائمهم " . على رسل الله و أنبيائه السلام . و على إخوان القردة اللعنة .

في فصول الحَقَدَا توجد النصوص الجهنمية التي تعبث بالدين ، و تنسب إلى الله جلت عظمته عظائم الأمور ، و ترمي الأنبياء عليهم السلام بما يخجل القلم أن يرويه . لذلك تجد في الكتاب الاستعراضي محاولة التنقيص من أهمية الحقدا و أنها لا سلطة لها . و لا يُتبع ما فيها و لا يُلزم . و أن ما فيها إن هو إلا من قبيل " الأحاديث اليومية البسيطة و التوجيه الأخلاقي الذي يعترض النفس المتعبة " . الحقَدا بحر كما يسميها الأحبار ، الحقدا " كلام " .[4]

ثم لا يلبث الكتاب في الصفحة القابلة أن ينقضوا حكمهم المستخف بالحقدا ليثبتوا أن نصوصها ذات أهمية قصوى ، و أن الحقدا هي اليهودية . " في حقل الحقدا العظيم ازدهرت بكل

[1] نفس المصدر و الصفحة .
[2] نفس المصدر ص 25 .
[3] نفس المصدر ص 25 .
[4] نفس المصدر ص 28 .

حرية الروح الشرقيّة في غِناها و كمالها . في الحقدا قبل غيرها يجب أن يبحث المرء عن العقائد و الأفكار و العواطف التي عاش بها العالم اليهودي ، بل العالم الشرقي ، طيلة هذه القرون الخصبة التي رأت تفَرُّع الخرافات زمن الإمبراطورية (يعني ملك داود و سليمان عليهم السلام) و رأت نباتَ دين عيسى (عليه السلام) و حوارييه (عليهم رضوان الله) " .[1]

محاولة التملص من الحَقَدَا التي تدين نصوصها اليهود ، و التنقيص منها ، و اعتبارها مجرد " كلام " ذهبت أدراج الرياح . " في هذا الكتر (يعني الحقدا) الذي تكدست فيه مختلطة أنبل عقائد ظهرت على وجه الأرض ، و أيضا أغرب أفكار خطرت على عقل بشر ، نجِد عالَما مصغرا تزهر فيه هذه الحضارة الغابرة بملامحها الرئيسية . أضف إلى ذلك كل مل تختص به اليهودية ، و ما يعطيها طابعها الخاص و عقائدها الدينية و الأخلاقية و عاداتها " .[2]

للحقدا الأهمية القصوى إذن باعتراف دعاة اليهودية المعاصرين الواضحة . لها الأهمية بالنسبة للمفكرين و العلماء المهتمين بالفكر البشري ، ليدرسوها " و يرَوا إلى أي مكانة سامية ارتقت " .

و يكرِ المكر اليهودي الصهيوني كرَّته فيوصي أحبار الصهيونية بدراسة الحَقَدا برمتها ، خاصة جانبها " المرضي " لأن الصحة إنما تعرف بمعرفة السقم . ينبغي دراسة الجانب المرضي من الحقدا لمعرفة الأمراض العقلية كما يدرس عام الفيزيولوجيا المراض فيجد مساعدة كبيرة في دراسة الظواهر المرضية . ينبغي دراسة غرائب الحقدا و خرافاتها و " سخافاتها " قبل أي شيء آخر .[3]

لنتبع الآن المؤلّفين نتفرج على السخافات التي تكون الخلفية الثقافية لليهود ، قبل أن يلحدوا الإلحاد العصري الصهيوني و بعد . و يأتي السحر في مقدمة كنوز الحقدا .

السحر هو المظهر البارز لعبقرية اليهود " لن نعجب إذا وجدنا في الحقدا مكانا واسعا خُصص للسحر " . و لسحر اليهود سمات خاصة " تتجلى فيها عبقريتهم الخاصة " .[4]

---

[1] نفس المصدر ص 29 .
[2] نفس المصدر ص 29 .
[3] نفس المصدر و الصفحة .
[4] نفس المصدر ص 33 .

الأحبار هم الذين يعلمون في الكتاب المكنوز السحر ، " يُذَكّرون بالخرافات الشعبية ، و هم يؤمنون بها قليلا أو كثيرا " .

الحَبْرُ هونا (يا الله من دلالة الأسماء !) يعلم الناس كيف يعالجون الحمى الربْعيّة : " ينبغي أن تأخذ سبع شوكات من سبع نخلات ، و سَبْع قطعات من سبع خشبات ، و سبعة آثار من سبعة جسور ، و سبع حبات رماد من سبعة تنانير ، و سبع ذرات تراب من سبع عتبات ، و سبع حبات جليان ، و سبع حبات كمون ، و بعض الشّعَر " .

أطلقنا كلمة " إلحاد " على الصهاينة ، و هي كلمة في غير محلها . فالملحد من كان على دين صحيح فخرج منه و تنكر له . و الكلمة تحمل دلالتها الكاملة إن أطلقناها على مسلم انتسب للإسلام و هو دين واضح محفوظ ثم كفر . أما اليهودية فما هي إلا خليط من التحريفات ، شريعة التلمود رومانية غربية ، و ما تحويه الحقدا من عقائد و أفكار بحر شرقي مليء بالسحر و الخرافات و السخافات . فمن اجل سهولة التفاهم لا غير نستعمل كلمة " إلحاد " في حق الصهيوني الذي تشبع بالأفكار العصرية و ترك من دين التلمود ما لا يخدم قصده .

حاول كتاب الدراسة التبشيرية التي بين أيدينا ، و نفَسهم صهيوني عصري ، أن ينتقدوا بحر الحقدا ، لكن قِوام شخصيتهم العميقة هو الحقدا فلا يستطيعون نبذها . فهم تارة يشيدون بسمو عقائدها ، و تارة يسمون غرائبها أمراضا عقلية ، و يلفون و يدورون كما يليق بطائفة تفتخر بأن أفكارها و عقائدها لا تخضع لقانون ، و لا تحدها حدود .

بعد سرد علاج " هونا " للحمى قالوا : " ربما يكون من الممكن أن نبصر في وصفة الرَّبّى هونا سخرية مكتومة من الخرافات الشعبية التي يحاربها خفية و هو يتظاهر بالتنازل إليها " .[1]

و يطوي أحبار الصهيونية صفحة العلاج السحري للحمى ليتحدثوا عن السحر الخالص ، و عن التعامل مع الجن و الشياطين . لا مكان هنا لنورد سخافاتهم في الموضوع ، فنحن نؤمن بالجن

---

[1] نفس المصدر ص 33 .

و نعلم بما علمنا الله أن الشياطين الملعونة تعلم الناس السحر و توحي إلى أوليائها ، و من أخلصهم اليهود تجمعهم بهم اللعنة الإلهية . خبرة عجيبة بالشياطين و عاداتها نجدها عندهم . اسمع و اعجب و انظر كيف يسلط الله عز و جل شياطين الجن على شياطين الإنس شعب الشيطنة .

" لا تشرب بالليل ، فإن الشيطان " شَبْريري " الساكن في الماء شيطان مخيف يُعمي الذين يشربون . فإذا كنت عطشان فأيقظ رفيقك و قل له : لنشرب معا ، فإن الشيطان لن يمسك . فإذا كنت وحدك فأحدث حِسّا بوسادتك و قل بصوت عال : يا فلان بن فلان ! قالت لك أمك : احترز من شَبْريري ، بْريري ، ريري ، إيري ، ري ، إي ، في الأواني البيضاء " .[1]

في الحقدا عجائب و غرائب يسرد بعضا منها الكتاب ، فلا تقرأ العين و لا تسمع الأذن أسخف سخافة منها ز

و بعد أن يتم الكتاب سرد العجائب يتساءلون : " من يستطيع أن يحدث الناس عن تاريخ هذه الخرافات الشعرية الخاصة و عن تحريفاتها المتتابعة في أساطير المحمديين و النصارى ؟ " .[2]

لا تعليق لدينا على هذه السخافة النهائية .

[1] نفس المصدر ص 34 .
[2] نفس المصدر ص 35 .

حقد بلا حدود

تجاوزنا من الكتاب الاستعراضي الخرافات التي تسكن الخيال لنتفرغ في هذه الفقرة للضغائن التي تسكن القلوب القاسية ، و النوايا العنصرية التسلطية التي حاكت في الماضي مخططات الإفساد في الأرض و لا تزال تحيك . تجاوزنا " الشامير " تلك الحشرة الصغيرة التي تشق الصخر بمجرد النظرة ، و الوحش الذي أخصاه الله ليمنع توالده حتى لا يفسد نسله الأرض كلها . و تجاوزنا أنثى " اللفْيَتَان " التي قتلها الله فأحاطت جثتها بالأرض .

الخرافات الإسرائيلية تتميز عن خرافات الشعوب بإغراقها في السخافة . و لا يزال علماؤنا يحذرون من " الإسرائيليات " التي تسرب بعض منها إلى كتبنا . و هي معروفة تذكر على أنها من ذلك العالم الموبوء . و قد سربها إلينا على مر العصور يهود تظاهروا بالإسلام مثل المسمى عبد الله بن سبإ موقد الفتن على عهد الإمامين عثمان و علي رضي الله عنهما .

أعتمد في النقول التالية على كتاب باللغة الفرنسية عنوانه : " اليهود " لم يذكر اسم مؤلفه و لا مكان طبعه . و متى يقدر أحد أن يكتب عن اليهود ما يدين اليهود باسمه و عنوانه ؟ إن لهم منظمات تقتل ، و تشتري كل نسخ الكتب التي لا تعجب ، و تهدد من يظن فيه أنه يكتب ضد اليهود . ونتعرض بعد حين إن شاء الله لقصة نشر " بروتوكولات حكماء صهيون " .

فهاك نُتفا من كلام الأحبار و توجيهاتهم و ما يسكن أفئدة اليهود من عنصرية و كراهية لبني الإنسان ، موثّقاً لمن استطاع أن يظفر بالأصل و يقرأ العبرية . فمن لم يستطع فقراءة بروتوكولات " الحكماء " كاف جدا ، فما هي إلا التطبيق العملي في هذا العصر لمبادئ التلمود . فأتركك مع المقتطفات من الشجرة الزقومية .

تكلم أقدس الأقداس مع بني إسرائيل فقال لهم : اعترفتم بي سيدا وحيدا للعالم ، لهذا فسأعترف بكم سادة وحيدين للعالم " . (شانيجا 3 ل ، 3 ب)

" أعطى الله لليهود السلطة على ممتلكات كل الشعوب و دمائها " . (سفر ج ب ، *92* ، *1*)

" إنه عمل صالح أن يستولي اليهودي على ممتلكات أمّي " . (سلخان أروش) . نترجم بكلمة أمّي كلمة العبرية " جويم " . و في القرآن حكاية قولهم : « ذَ ٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ » (سورة آل عمران ، 75) . و الآية الكريمة تعطي لكل ما يرد في هذه الفقرة المصداقية المطلقة .

" إن الذين يحسنون إلى النصارى لن يبعثوا من بين الأموات أبدا " . (زُهار *1* ، *25* ب)

مما يبرر نقلنا عن كتاب وضعه النصارى أن النصارى أمسّ عِشرةً باليهود من المسلمين . سبقونا إلى عشرتهم ، و لم يحظ اليهود في أوربا بالتوقير الذي حظوا به تحت الحكم الإسلامي . لذلك فكتب اليهود أجدر أن يوجد علمها عند إخوانهم من أهل الكتاب .

" بيوت الأميين بيوت حيوانات " (لب . طوب . *46* ، *1*)

" رغم أن شعوب الأرض تشبه اليهود في المظهر ، فهي في الحقيقة بالنسبة لليهود كالقردة بالنسبة للإنسان " (شين لوكوهوط هابرت)

" كل النساء غير اليهوديات زانيات " . (ابن حيزر)

" يمكن لليهودي أن يغتصب بنت ثلاث سنوات من بنات الأميين " (أبودا شارا *37* أ)

" يجب أن يحدد نسل النصارى " . (زُوهار *2* ، *64* ب)

فإذا كنت ترى في العالم دعوة ، تبناها اليوم النصارى في حق غيرهم ، إلى تحديد النسل فاعرف مصدرها .

" كل أمي يدرس التلمود يجب أن يقتل ، و يقتل أيضا كل يهودي يساعده على ذلك " . (سنهدرين *59* أ)

" حرام أن تطلع غير اليهود على أسرار الشريعة . و من فعل ذلك من اليهود فكأنما أفسد الأرض و جحد وجود الله " . (حالكوت شداش)

" إن من ينشرون الديانة اليهودية و يدعون الناس إليها خطرون على اليهودية كخطر القرحة على الجسم السليم " . (التلمود)

" من يسفك دم أمي يقرب قربانا إلى الله " . (التلمود ، جالكوت سميوني)

" حتى أفضل الأميين يستحقون الموت " . (أبودا زارا 26 أ)

" يجوز قتل كل يهودي يفشي الأسرار أينما كان . و يجوز قتله حتى قبل أن يفشيها " . (شلخان أروش ، شوشن هامشيات ، 338) . أكتب هذا في الوقت الذي تحاكم فيه دولة إسرائيل الخبير اليهودي الذي باع لإحدى صحف لندن أسرار القنبلة الذرية اليهودية بعد أن خطفوه من بريطانيا .

و هاك نموذجين من عهر الشريعة الأحبارية : " جاءت امرأة إلى الربى حِسَدَا و اعترفت له أن أخَفّ ذنوبها أن ابنها الأصغر هو ابن ابنها الأكبر . فلما كان هذا أصغر ذنوبها فقد غفر لها " . (أبودا زارا . 17 أ)

" المرأة التي نكحها حيوان (أي الكلب) تصلح أن تكون زوجة لحبر من الأحبار " . (يباموت 59 ب)

و الآن نستمع إلى شهادات بعض كبار الملة النصرانية و حكامها و فلاسفتها لنعرف حكم العالم النصراني على اليهود . نعلم يقينا أن هذه الشهادات أُقْبِرَتْ ، و أن النصارى إلا قليلا منهم سائرون في ركاب اليهودية المنظمة العالمية ، خاضعون لفكرها ، ضحية لدعايتها . و إنما نأتي نحن بهذه الشهادات لتبقى بأن شهادة الله سبحانه في اليهود حق ماض إلى يوم القيامة ، يلاحظ الناس منهم الفساد و الإفساد في كل زمان و مكان . و لا نسرد آراء الناس في اليهود و حكمهم عليهم انتقاما لعجزنا و هزائمنا الحالية ، لكن نفعل ذلك لنتمكن في معرفة استمرارية بني إسرائيل في وظيفتهم الإفسادية ، نستعد بالمعرفة و الاطلاع ليوم يأتي فيه وعد الآخرة لنسوء وجوههم و لندخل المسجد المقدس إن شاء الله بعد قتال الأعداء وراء الحجر و الشجر . وعد من الله و رسوله غير مخلوف .

و للتخفيف أستغني عن ذكر المراجع .

في إنجيل متى نسب إلى المسيح عليه السلام قوله : " ويل لكم أيها الكتاب المنافقون ، لأنكم تفترسون بيوت الأيامى و تتظاهرون بالصلوات الطويلة . ستعاقبون عقابا شديدا " .

و قال طوماس الأكويني أحد كبار فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية : : ينبغي أن لا يسمح لليهود بالاحتفاظ بما حصلوه من الناس بالإقراض الربوي . من الأفضل أن يُرغموا على العمل لكسب قوتهم عوض أن يبقوا عاطلين لا عمل لهم إلا الإمعان في البخل " .

و قال مارتن لوثر زعيم الحركة البروتستانتية : " اليهود كذابون كلاب حرفوا الكتب من أولها إلى آخرها بتأويلاتهم المتتابعة . كل أملهم و شوقهم و طموحهم المهموم منصرف إلى اليوم الذي يستطيعون فيه أن يعاملونا كما عاملوا الوثنيين الفرس في عهد إستر . آه كم يحبون كتاب إستر ! (قلت : و هو من أسفار توراتهم) المناسب جدا لآمالهم و شهواتهم الدموية الانتقامية السفاكة !

" لم تطلع الشمس قط على شعب دموي انتقامي مثلهم ، إذ يزعمون أنهم شعب الله المختار ليتأتى لهم قتل الوثنيين و خنقهم . و أول ما ينتظرونه من مسيحهم (قلت : اليهود لا يعترفون برسالة عيسى عليه السلام ، فهم لا يزالون ينتظرون مسيحا منهم ينصر دينهم على الأديان) أن يقتل بسيفه العالم كله و يفنيه . جربوا سفك الدماء فينا نحن النصارى ، و يتمنون تكرار التجربة اليوم لو قدروا . حاولوا ذلك مرارا ، و مرارا ضُربوا على خطمهم (الخطم أنف الكَلْب) .

"ليس تحت الشمس شعب أكثر جشعا ، و ما كان و لن يكون ، كما يمكن أن يُرى ذلك من رباهم الملعون . إنهم يحلمون بيوم ظهور مسيحهم ليجمع فضة العالم و ذهبها و يوزعها عليهم .

" يغط الأمراء و السلطات في النوم فاغرين أفواههم ، و يتركون اليهود يسرقون ما يريدون من محافظهم و صناديقهم المفتوحة . أعني أنهم يتركون رعاياهم و أنفسهم يسلخهم اليهود و يمتصّون دماءهم بالربا ، و بذلك يصبحون بإضاعة أموالهم متسولين في بلادهم (...) إن اليهود استولوا على أموالنا و أراضينا في بلادنا التي يعيشون فيها لاجئين . علامتهم التي تميزون بها أنهم يُقوّون عقيدتهم و عداوتهم لهم و يتواصلون فيما بينهم : " استمروا في العمل ، و انظروا كيف الله معنا ، لا ينسى شعبه في المنفى . نحن لا نعمل و نتمتع بأيام جميلة من الكسل و الراحة بينما الأميون الملعونون يعملون مكاننا و يدفعون لنا أموالهم . نحن إذن سادتهم و هم لنا خدام . استمروا

يا بني إسرائيل الأعزاء ، أمامكم مستقبل أفضل ! سيأتي مسيحنا إن استمررنا على هذا و سنستولي على " همدات " (ممتلكات) الوثنيين " .

و يخاطب لوثر اليهود في نص آخر قائلا : " أنتم معاشر اليهود كنتم منذ أكثر من خمسة عشر قرنا عنصرا لعنه الله ، لا حكومة لكم و لا قانون ، و لا أنبياء ، و لا معبد (...) ليس لكم من مزية تفتخرون بها إلا خطاياكم " .

و نقرأ شهادة أخرى بلصوصية اليهود في كلام رجل دولة و حرب هو نابليون الفرنسي . قال : " لا يمكن أن تُحَسِّن طباع اليهود بالحوار . يجب أن نضع لهم قوانين خاصة بهم .

" منذ عهد موسى (نقول عليه السلام) أصبح اليهود إما ظلَمةً معتدين و إما مُرابين .

" كل عبقرية اليهود تتلخص في أعمال النهب (...)

" إن لهم عقيدة تبارك سرقاتهم و جرائمهم .

" ينبغي أن نمنع اليهود من ممارسة التجارة كما نمنع الصائغ الذي ينتج حُليا مغشوشة من الاستمرار في عمله (...)

" إن اليهود جراد أو حشرات تأكل فرنسا " .

و يقول جورج واشنطون الرئيس الأمريكي الأول : " إنهم (اليهود) يعملون ضدنا عملا أجدى من عمل جيش العدو . إنهم أخطر من العدو مائة مرة على حرياتنا و على القضية العظمى التي تشغل بالنا ... من المؤسف جدا أن لا تكون كل ولاية قد طاردتهم منذ أمد طويل بوصفهم أعظم جائحة اجتماعية و أكبر عدو عرفته أمريكا قط " .

و يقول قيصر ألمانيا ولهلم الثاني : " إن اليهود أصل كل بلاء في العالم "

و يقول فولتير الفيلسوف الفرنسي : " سواء انتسب هؤلاء المخنَّثون الإسرائيليون إلى قبيلة نفتالي أو قبيلة إساخر فنسبهم لا أهمية له . فهم مهما كان نسبهم أكبر خونة نجسوا وجه الأرض " .

و يقول غوته الشاعر الألماني : " ليس للإسرائيليين إلا فضائل صغيرة ، و يجمعون معظم رذائل الشعوب الأخرى .

" ليس لهم أي شرف " .

و يقول نيتشه الفيلسوف الألماني : " من بين المناظر التي سيدعونا القرن المقبل (يعني القرن العشرين بتاريخ النصارى) لمشاهدتها تقرير مصير اليهود . من الواضح جدا الآن أنهم خلعوا ستار الاختفاء و تجاوزوا الحدود . لم يبق لهم إلا خيار واحد : إما أن يصبحوا سادة أوربا ، و إما أن يخسروها كما خسروا مصر من قبل حين كانوا أمام نفس الخيار ... يمكن أن تسقط يوما ما أوربا في أيديهم كما تسقط الثمرة الناضجة في اليد . ذلك إن لم يمسكوها بجشع شديد " .

و يقول كارل ماركس الفيلسوف اليهودي : " ما هو أصل اليهودية ؟ أصلها تلهف و طمع عملي لتحصيل الفائدة الربوية . في ماذا تتلخص تقوى اليهود الدينية ؟ تتلخص في ابتزاز الأموال . ما هو إله اليهودية ؟ إلههم المال " .

فاعجبوا رحمكم الله من يهودي هو زعيم داء الأمم الحديث الشيوعية و مشرِّعه و مرجعه كيف ينتقد دولة الربا اليهودي في العالم و كيف يجَرِّح قومه علنا ليؤسس دولة جديدة قادها اليهود و وطدوا أركانها ، حتى تمكن اليهود الجدد إلى جانب زملائهم القدامى في معاقل العالمين الرأسمالي و الشيوعي . و معنا نصوص تفضح العلاقة التاريخية الحميمة بين الشيوعية و اليهودية لا نريد أن نطيل بها . يكفي أن نذكر أن مجلس إدارة الثورة الشيوعي الأول في روسيا كان فيه و قريبا منه ثلة من اليهود مثل تروتسكي و راديك و زوجة لينين و زنوفييف و كثير غيرهم .

و يقول الأمير فون بسمارك رجل الدولة الألماني : " سأقص عليكم قصة تلخص علاقة النصارى باليهود . أعرف مقاطعة يقطنها فلاحون لا يملكون من الأرض التي يعملون بها شيئا . كل شيء ملك لليهود من الفراش الذي ينام عليه الفلاح إلى الحديدة التي يحرك بها النار . الأنعام في الحظائر ، و الحبوب في المخازن و الحقول ، كل ذلك ملك لليهود . يدفع الفلاح كِراءً

عن كل شيء ، و يبيع اليهودي الخبز و الحبوب و العَلَف للفلاح و يذبحه كأنه جزار . لم أسمع في حياتي قط أفظع من هذه المعاملة الربوية للنصارى " .

و يقول طوماس كارليل الكاتب الإنجليزي : " عمليا و روحيا لا يحسن اليهود غير الاتجار في الفضة و الذهب و الثياب البالية . لم يُسْهموا أي إسهام له قيمة " .

سمعنا شهادة أوربيين نصارى قريبين من عصرنا ، فوجدنا أن طبائع اليهود هي طبائعهم في كل عصر ، و أن أفعالهم مطابقة لما في كتبهم ، و أن الإفساد في الأرض و ابتزاز الأموال بالربا و الحيلة و الخديعة هي مهنتهم أينما حلوا . يرى ذلك منهم رجل الدولة ، و كاهن الكنيسة ، و الكاتب ، و الفيلسوف ، و عامة الشعب كل من زاويته .

في كل زمان و مكان يتكتلون و يتآمرون على الشعوب التي نزلوا عليها أضيافا بعد أن سلط الله عليهم من أجلاهم تنفيذا لما كتبه عليهم من الجلاء و التشرد إلى يوم القيامة .

قال هنري فورد صانع السيارات الأمريكي و قد عانى من مزاحمتهم : " إن أقدم الوثائق عن علاقة اليهود بالأمم الأخرى تؤكد أنه لم تمض فترة طويلة من الوقت دون أن يسجل التاريخ أن اليهود يكونون أمة في الأمة ، و شعبا في الشعب " .

في القديم كتب يكلوس ديودروس المؤرخ الإغريقي في عصر المسيح عليه السلام ما يلي : " أوصى أصدقاءُ قبل الملك أنطيكوس (*175 - 163* قبل ميلاد المسيح عليه السلام) الملك بأن يطرد اليهود لأنهم يرفضون أن ينضموا للشعب ، و يعتبرون كل الناس أعداءً لهم " .

و كتب الخطيب الروماني تشيشرو (مات سنة *43* قبل ميلاد المسيح عليه السلام) : " ينتمي اليهود إلى قوة غامضة و خبيثة تتقزز منها النفوس .

" نعلم كم هم كثيرون هذه الطائفة ، و نعلم كيف يتشبث بعضهم ببعض ، و نعلم مدى القوة التي تعطيهم تجمعاتهم . إنهم شعب من المجرمين و الخونة " .

الصهيونية

منذ عهد الإغريق و الرومان إلى عهد فورد الأمريكي الرأسمالي لاحظ الناس أن اليهود حافظوا على خصوصيتهم من دون الناس . في كل زمان و مكان احتفظوا بشخصيتهم و ثقافتهم و ديانتهم ، مقتنعين بأنهم " شعب الله المختار " صامدين أمام رفض الشعوب التي حلوا بها كما يحل الجراد ، لم يجدوا المعاملة الطيبة المتسامحة إلى أقصى جد ممكن إلا تحت ذمة المسلمين .

و لا يزال اليهود يشهدون في كتبهم أن عهدهم الذهبي بعد ملك داود و سليمان عليهما السلام و قبل حضارة " الكيبوتز " العسكرية و الانتصارات على العرب و قيام دولة إسرائيل كان عهد الأندلس ، ازدهرت تحت ظل المسلمين هناك و إذ ذاك حضارتهم و علومهم و فلسفتهم .

شعب انكفأ على نفسه و ذاق المرائر بما كسبت أيدي بنيه و بناته جزاء من الله الحكيم العليم قَدَراً ، و انتقاما من الشعوب التي ابتزوا أموالها و استحَلوا حُرَمَها استنادا إلى مبدئهم العنصري العدواني : " ليس علينا في الأميين سبيل " .

و تصرمت القرون الطويلة ، و انقرضت شعوب ، و علت أخرى ، و تغير وجه المجتمعات البشرية ، و اليهود قابعون في حاراتهم الخاصة ، يسميها الأوربيون " جيتو " و نقول في المغرب " ملاح " . شعب فريد ادَّخَرته يد القدرة الإلهية بلاء في الدنيا ، و يفخر اليهود بعصاميتهم الصمودية . قال المؤرخ اليهودي شيمون دوبنوف : " هناك أمثلة عديدة في التاريخ عن أمم اختفت من الوجود بعد أن فقدت أرضها و تفرقت بين شتى الأمم . و لكن ليس لدينا سوى حالة وحيدة فقط لشعب أمكنه أن يستمر على قيد الحياة لآلف السنين رغم تشتته و ضياع وطنه . و هذا الشعب هو شعب إسرائيل " .

منبع الصهيونية و أصلها هو الشعور المكبوت بالانتماء و الصمود التاريخي و الحنين الدائم إلى العودة لأرض " الميعاد " . الصهيونية نُقلة نوعية من ذهنية اليهودي الخامل في بلاد الشتات ، المتجمع حول الأحبار و أسفارهم ، الحالم بنزول المسيح " الماشيح " كما يقول العبرانيون إلى الأرض ليخلص

" شعب الله المختار " . نقلة من تلك الذهنية إلى ذهنية اليهودي الفاعل المتحرك المنظم . الصهيونية تشخيص عملي لفكرة العودة و إحياء القومية اليهودية التي كانت تدور لآلاف السنين في أذهان بائسة حاقدة محتقِرة للعالم محقورة .

تُعرف الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية الصهيونية قائلة : " حركة يهودية تهدف إلى حل المشكلة اليهودية ، أدت آخر الأمر إلى قيام دولة إسرائيل " .

و قد بدأت من القرن الثامن في أوربا بين اليهود المثقفين حركة " التنوير " التي جمعت نخبة اليهود حول هدف : " العودة إلى عهد سابق مجيد ، و استرجاع عصر ذهبي ، و إحياء حالة سابقة من الطهر و النقاء و السمو الاجتماعي " . و كان " المتَنوّرون " يستلهمون القيم التلمودية و يستمدون من تراثهم القوة المعنوية . بيد أنهم كانوا في بداياتهم لا يجدون الحل العملي لبلورة سخطهم على وضعهم في أوربا ، و تغيير حالة الانحطاط و الانهيار من " الماضي المجيد و العصر الذهبي " . فبقيت حركة " التنوير " حركة سرية ثقافية لها طقوسها و شبكاتها التنظيمية ، لم يكن لها القوام السياسي و لا الهيكل القيادي الكفيلان بتقدمها من مخابئ الأحلام و الآمال إلى مضمار الرفض و التمرد و المشروع المخطط .

كانت في البداية حركة مثالية أسطورية تتغذى بالمخزون التَّلمودي المشترك بين يهود الشتات الموزعين في الأرض . كان الحنين إلى أرض فلسطين و إلى المجد الضائع هو العلاقة العاطفية الوحيدة التي تؤلف بين الطوائف اليهودية المنبتة في الآفاق . كانت الشعائر و الطقوس و العصبية العرقية جامعا و مدرسة لإحياء الشعور بالانتماء .

و كان تفاعل النخبة اليهودية في أوربا مع الفلسفة الأوربية و المذاهب السياسية الأوربية يجر طائفة منهم إلى الدعوة للاندماج في أوربا ، مع المحافظة على هوية ثقافية متميزة متطهرة من الأساطير و الخرافات . و طائفة أخرى تدعو إلى إقامة وطن قومي لليهود ، ليتحرر اليهود من الاضطهاد الذي يلاقونه من جراء العداء العالمي للسامية .

حتى انتصرت الصهيونية السياسية على يد موشي هيس و هرتزل و بن جوريون من بعدهما . الصهيونية السياسية صهيونية عملية احتفظت ببعض مبادئ الفلسفة الألمانية التي نشأت في أحضانها و تقمصت المبدأ الاستعماري الذي ساد أوربا طيلة القرنين التاسع عشر و العشرين .

كان هرتزل يكتب بالألمانية و يعجب بالحضارة الألمانية . من الفلسفة الألمانية التائهة بعبقرية اللغة الألمانية أخذ الصهاينة العناية باللغة القومية ، و من عناية الألمان بثقافتهم و أساطيرهم المغرقة في الغَرابة اقتبس اليهود وَلوعا مجددا بأساطيرهم ، و من مثال تَوَحد ألمانيا بعد أن كانت مشتتة أخذ اليهود أملا جديدا في قيام دولة لهم ، و من القومية الألمانية الرومانسية استقى الصهاينة شعارات ملتهبة ، و من فلسفة نيتشه الذي قرأنا احتقاره لليهود استقى اليهود مبدأ القوة و الفاعلية التاريخية و الإقدام و احتقار الفكر النظري التأملي و تمجيد المبادرة العملية .

و تركز المبدأ الاستعماري في فكر مؤسسي الصهيونية و عملهم على قوة الرأسمالية اليهودية في العالم . كما تركز على العنصرية اليهودية العتيقة التي تجاوبت نِدا لنِد مع العنصرية الأوربية ، و قَلَّدتها ، و نافستها . العنصرية و الرأسمالية قوتان سياستان اكتنفتا ميلاد الصهيونية و كانتا لها جسما و روحا .

في بريطانيا أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين كان لعائلة روتشيلد دولة مالية هائلة كما كان لليهود رجالهم العظام في السياسة البريطانية مثل دزرائيلي الوزير الأول في آخر عهد الملكة فكتوريا . ارتفع اليهود في ميادين المال و السياسة بحيث أصبحوا من علية القوم يخاطبون الحكومات خطاب الأكفاء . يخاطب الرجل الأبيض الرجل الأبيض في المساومة على مصائر الشعوب الملونة و منها العرب . طلب هرتزل من الوزير البريطاني " بقعة في الممتلكات الإنجليزية ليس بها حتى الآن رجل أبيض " . و بهذه الصفة قُدِّمَتْ لليهود أرض فلسطين . قدمت لهم في حساب أوربا على أن اليهود من الجنس الأبيض الكفيل أن يتفاهم مع أوربا البيضاء و يحفظ مصالحها . و يُبْطِنُ اليهود حقهم الموروث في فلسطين و مشروعهم المبيت للسيطرة على العالم .

و هاجر الصهاينة المقتنعون بالفكرة إلى فلسطين زمان الانتداب الإنجليزي ، و أخذ اليهود يتمكنون في الأرض تحت رعاية الرجل الأبيض حليفهم و صديقهم ، و كانت لهم أقسام إدارية خاصة بهم و محاكم دينية و مدارس و جهاز تنفيذي مستقل . و بينما كان اليهود يشترون الأراضي من العرب يدعمهم المال اليهودي العالمي و يفسح لهم المجال غباء العرب و مساندة الاستعمار ، و بينما كانت الهجرة اليهودية آخذة في الاتساع ليحصل اليهود على الأغلبية في الانتخابات التي كانت تنظمها السلطة الاستعمارية ، برزت للوجود منظمات إرهابية مثل " الهاجاناه " و فيالق الحرس اليهودي .

كان شراء الأراضي و توسيع الهجرة عمليتين " سلميتين " سياسيتين . لكن عمل التنظيمات العسكرية الإرهابية كانت العامل الحاسم في قلع العرب و إنشاء الدولة . كتب حاييم وايزمان يشبه العرب في فلسطين بصخور الضفة الغربية التي تشكل عقبات يجب قلعها . و كان . و طرد الفلسطينيون إلى المنفى مشردين في الأرض . و عشنا مذابح صَبْرَا و شاتيلا و حصول الفلسطينيين ، ضحايا الاستعمار و التّخلف ، بين كَمَّاشَتَي الغزو اليهودي للبنان و تحزب إخوانهم العرب لطردهم من لبنان .

نرجع إن شاء الله لننظر في القضية الفلسطينية من زاوية سنة الله و في إطار غثائيتنا .

مررنا سريعا على الأحداث ، فهي معروفة مأساوية محزنة ، لنتفرغ لقراءة البرنامج الصهيوني و النفسية الصهيونية و الأساليب الصهيونية استعدادا لوعد الآخرة .

في سنة *1897* من تاريخ النصارى اجتمعت في مدينة بال بسويسرا الجمعيات الصهيونية برئاسة زعيم الصهيونية و مؤسسها و موحدها هرتزل . و اتخذوا قرارات سرية هي بمثابة برنامجهم المستقبلي . في هذه القرارات يحدد اليهود أهدافهم و مناهجهم العملية الإجرائية للتطبيق و مراحلهم التكتيكية . سموا هذه القرارات بروتوكولات .

بواسطة عشيقة نصرانية " خانت " صاحبها اليهودي الكبير سقطت هذه القرارات التي عرفت فيما بعد " بروتوكولات حكماء صهيون " في يد المارشال الروسي الكسيس نيكولايفيتش سوشتين و سلمها هذا للبروفسور الروسي سرج نيلوس فطبعها سنة *1902* . و سرعان ما غُيِّبَت

من السوق ، اشترى اليهود الطبعة و أعدموها . و تتالت الطبعات بالإنجليزية و الألمانية و الفرنسية ، و في كل مرة تغيب الكتب ، تشتريها أيد منسَّقة الجهود .

اليهود ينفون بقوة أن يكون للبروتوكولات أية علاقة بهم . لكن مواظبتهم إلى الآن على اشتراء كل ما يطبع من الكتاب و إعدامه حجة قاطعة . و أكثر منها قطعية منشور أصدره الدكتور هرتزل سنة ***1901*** يخبر فيه الصهاينة أن " الأميين " اطلعوا على أسرار الجمعية الصهيونية بعد سرقة وثائق بالغة الأهمية .

نترك للقارئ الكريم المهتم بدينه أن يبحث عن نسخة للبروتوكولات و يقرأها ليرى مباشرة كيف يخطط اليهود للاستيلاء على العالم بواسطة العنف و الذهب . و لعله يقارن بنفسه بين ما خطط منذ ما يقرب من مائة عام مع ما تم تحقيقه بالفعل .

في هذه الفقرة نورد نصوصا تتضمن تصريحات منشورة (لا نثقل بذكر مراجعها) لزعماء الصهيونية و مفكريها صدرت بعد البروتوكولات بما ر يدع مجالا للتشكيك أن هنالك إرادة منسقة و جهودا متضافرة . و كفى من نتائج المخطط الجهنمي قيام دولة في فلسطين تتكفل أعظم دول العالم أمريكا بأمنها و غذائها و تسليحها و تدمج اقتصادها في اقتصادها . كفى نتيجة أن يكون الستة ملايين يهودي في أمريكا هم المسيطرون على أبناك نيويورك و شبكات الصحافة و التلفزة و الإعلان في أرجاء البلاد . ستة ملايين يهودي هم نصف تعداد الطائفة الملعونة في العالم وزنهم السياسي و الاقتصادي و الثقافي هو الحاسم في الانتخابات الأمريكية و السياسة الخارجية الأمريكية و الاختراع و العلوم و الأبحاث و كل مناحي الحياة .

في كتاب عنوانه : " لا بد لليهود أن يعيشوا " يتحدث الحبر شامويل روث عن الذنوب المغفورة لليهود مسبقا . فلا حرج على اليهود فيما يفعلون خاصة في حق الأميين . قال : " تفصح الدعوات اليهودية عن الذنوب التالي ذكرُها و التي تُغفر لليهود بلا شرط في يوم عيد كيبور : الذنوب المقترفة بشهوة الأقارب ، التجمعات التي يختلط فيها النساء و الرجال في الظلام ،

ظلم الجيران ، الاعترافات المزورة ، العنف ، الإنكار و الكذب ، إعطاء الرشوة و تلقيها ، الغيبة ، التكبر ، خلع الحياء ، الفوضى ، الجَدَل ، غدر الجار ، النميمة ، الحِلف الكاذب ، سرقة الأموال ، خيانة الأموال " .

الباب مفتوح لليهود على مصراعيه للرذيلة و الفحشاء . و هم لعنهم الله في كتبهم يقرأون الفرية الكبيرة على أنبياء الله ، يقصون كيف زنى النبي فلان بابنته بعد أن سكر . فالزنا بالأخوات و البنات و الأمهات مغفور في شريعتهم التلمودية لعنهم الله .

و هم تجار الفحشاء في العالم باعترافهم . في مجلة " العالم اليهودي " *2* أبريل *1910* ما يلي : " إن دور اليهود في ترويج العاهرات و تصديرهن لمن أخبث الأفعال التي تلوث شعبنا " نهي عن المنكر !

في كتاب : " اليهود و الرأسمالية المعاصرة " يقول البروفسور اليهودي فرنر زُومبارت : " ارجع إلى صفحات التلمود و ستجد أن اليهود رفعوا الإقراض الربوي إلى مَقام الفن . منذ زمان بعيد تعلموا كيف يبحثون عن السعادة في تملك المال . لقد كشفوا كل الأسرار المختبئة في المال . لقد أصبحوا سادة المال و سادة الدنيا " .

في المجلة السويدية " يودِسك تدسْكرِفْت " عدد *57* سنة *1929* يقول الناشر اليهودي بلومنتال : " في السنوات الأخيرة أخرج شعبنا للعالم نبيا جديدا . لكن لهذا النبي الجديد وجهان و اسمان ؛ فمن جهة اسم هذا النبي روتشيلد رئيس كل الرأسماليين ، و من الجهة الأخرى اسمه كارل ماركس داعية الذين يريدون أن يحطموا الآخرين " .

أسرة روتشيلد منذ أزيد من قرنين تكون دولة عظمى في عالم الأبناك و التمويل الربوي . تحتل فرنسا و إنكلترا ، و منذ عهد قريب أمريكا أيضا . و تتفرع في العالم .

كتب الدكتور اليهودي أوسكار ليفي في مقدمة كتاب : " المغزى العالمي للثورة الروسية " ما يلي : " اليهود هم آباء الديمقراطية ، و هم بالتالي آباء حكم أرباب المال . إن العناصر اليهودية هم القوى المحركة في الشيوعية و الرأسمالية على السواء " .

في كتاب بعنوان " الحكومة السرية " كتب المؤلف ج . كريج سكوت المقالة التالية ينسبها للحبر اليهودي الربي ابن أموزاغ : " يمكن أن نعتبر الصهيونية بناء أساسيا (...) إن اليهودي لا يكتفي بإبعاد النصارى عن نصرانيتهم ، لكنه يهودهم . إنه يهدم العقيدة الكاثوليكية و البروتستانتية ، يبعث على عدم الاهتمام بالدين ، لكنه يفرض تصوره للعامل و الأخلاق و الحياة على الذين يهدم عقيدهم . إنه يشتغل في مهنته القديمة ، و هي القضاء على دين النصرانية " .

لعل الملاحظ السطحي الذي يشاهد التعاون الوثيق بين أمريكا و دولة اليهود يحسب أن الدولة اليهودية ما هي إلا بيدق أمريكي على رقعة السياسة الإقليمية . و ينسيه ذلك العداء العميق بين الملتين . و نرجع إن شاء الله للموضوع في الفقرة التالية .

هناك إذن مشروع يهودي معترف به لتهويد النصارى . إلى جانب المشروع الصهيوني لاحتلال أرض المسلمين و إبادهم بالقنابل الذرية . و من في العالم يستطيع الإفلات من قبضة التهويد الإعلامي الانحلالي الإباحي مهما كان دينه و قارته و جنسه و عمره و مشربه السياسي و مكانته الاجتماعية ؟

الإعلام آلة جهنمية في قبضة يهود العالم . هم صانعو الأفلام الخليعة الرئيسيون و ممولوها و موزعوها .

في مقدمة كتاب : " المغزى العالمي للثورة الروسية " كتب الدكتور اليهودي أوسكار ليفي يقول : " نحن الذين قدمنا أنفسنا للعالم على أننا منقذو العالم . نحن الذين زعمنا للعالم أنن أعطينا الإنسانية " منقذا " (بقصد المسيح عليه السلام) . نحن لسنا اليوم إلا المُغْرين للعالم ، و الهادمين له ، و المحرقين له ، و القاتلين (...) نحن الذين وعدنا العالم بأن نرشده إلى جنة جديدة ، نحن قدناه إلى جحيم جديد (...) لم يكن هنالك أي تقدم و بالأخص التقدم الخلقي (...) و ما عاق التقدم الخلقي للبشرية إلا أخلاقياتنا . و أقبح من ذلك أن أخلاقياتنا تتعرض في طريق إعادة بناء عالم محطم بناء مستقبليا طبيعيا . إني أنظر إلى العالم و أرتعد لهول ما أرى . و يزداد رُعبي أنني أعرف الآباء الروحيين لهذه الفظائع " .

يهودي يؤنبه الضمير ! يهودي أدرك مبعث الفساد في الأرض ، و أصل " داء الأمم " و فظاعة الجناية اليهودية ! ألا فاعجبوا رحمكم الله !

عرفنا " الآباء الروحيين " للتهويد الأخلاقي . الآن الوسائل . في كتاب : " روسيا اليهودية " كتب اليهودي كاليكست دي فودسكي ما يلي : " إذا كان الذهب هو القوة الأولى في العالم ، فإن القوة الثانية هي الصحافة . لكن ماذا تستطيع الثانية بدون الأولى ؟ و بما أننا لا نستطيع تطبيق كل ما قلنا و خططنا بدون مساعدة الصحافة فيجب على شعبنا أن يستولي على كل الجرائد في كل بلد " .

و يقول اليهودي برنارد ج . بْرون في كتاب : " من فرعون إلى هتلر " يخبر أن المهمة أنجزت و أن ما " قيل و خطط " قد نُفِّذَ بالفعل . يقول : " إن اليهود ألْجَمُوا الصحافة غير اليهودية إلى درجة أن صحف أمريكا تتحاشى أن تنعت أي شخص ذي سمعة شائنة بأنه يهودي " .

و قال اليهودي جيمس بول واربورج في خطبته أمام مجلس الشيوخ الأمريكي بتاريخ *17* فبراير ***1950*** : " سنحصل على حكم العالم ، شئنا ذلك أم أبينا . السؤال الوحيد هو : هل سنحقق الحكم على العالم بالغزو ، أم بموافقة الشعوب ؟ " .

يهودي يتحدث في أعلى مؤسسة أمريكية بهذه اللغة . إنه يعتبر انتصار أمريكا و استيلاءها على العالم انتصارا لليهود صانعي الرؤساء في أمريكا ، صانعي القرارات و السياسات .

و إن كانت أمريكا القوة الظاهرة إلى جانب الدولة اليهودية تفعلان بالنار و الحديد و بالغزو و بإخضاع الشعوب و إبادتها و إذلالها ما تفعلان ، فإن هنالك منظمات صهيونية منتشرة في العالم غنية بالمال و الخبرة و الدهاء . هنالك الماسونية العالمية و ما ينضوي تحت جناحها من كلوبات و جمعيات " خيرية " و " رياضية " و " ثقافية " إلخ .

" الحقيقة الإسرائيلية " كتاب صدر سنة ***1891*** . يقول فيه مؤلفه : " إن روح الماسونية هو روح اليهودية في أهم عقائدها . إن الماسونية هي أفكار اليهودية و لغتها و في الجانب الأهم مؤسستها . الأمل الذي يضيء للماسونية و يدعمها هو الأمل الذي لإسرائيل و يدعمها . و سيكون التتويج العظيم الرفيع للماسونية بناء المعبد الماسوني في أورشليم (القدس) حيث يكون المركز و الرمز للنَّصر المبين " .

وعد الآخرة

قال الله جلت عظمته : « *وَ قُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَاءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَــآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿ 104 ﴾ وَ بِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَــٰهُ وَ بِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَ مَــآ أَرْسَلْنَــٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا ﴿ 105 ﴾* » (سورة الإسراء) . من بعده أي فرعون . و قول الله عز و جل لبني إسرائيل : « *ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ* » قول تكويني ، أمر قدري لا يحتمل التعطيل ، إذ هو إرادته الأزلية المقدسة .

قال بعض المفسرين مثل ابن كثير : المقصود بالأرض يثرب و ما حولها ، سكنها اليهود حتى جمع الله بينهم و بين أعدائهم المسلمين لفيفا أي مجتمعين . و قال آخرون و منهم الشوكاني : اسكنوا الأرض مدة عمركم في الدنيا حتى يأتي وعد الآخرة فيجمعكم الله يوم العرض .

و نحن إذ عرضنا الآية ، و هي في آخر سورة الإسراء ، على الآيات الواردة في أوائل السورة تبين لنا أن هنالك " ***وعد أولاهما*** " أي وعد الإفساد في الأرض ، و " ***وعد الآخرة*** " و هو المرة الآخرة التي يفسد فيها بنو إسرائيل في الأرض . فسكنى بني إسرائيل الأرض انتشارهم فيها ، في أرجائها جميعا ، يفسدون فيها و لا يصلحون . و تلك علامة قدرية على أن زمان تسْليط رب العزة عليهم عبادا له يسوؤون وجوههم قَد آن .

و في زماننا انتشر بنو إسرائيل في الأرض على قلة عددهم انتشارا سياسيا و اقتصاديا و ثقافيا و إعلاميا و علميا و تنظيميا . في كل بقعة من بقاع الأرض لهم مؤسسات ، و خبراء ، و أيْد مشاركة ، و أصابع محركة ، و رأي مسموع .

الأرض التي احتلوها احتلالا واضحا كاملا هي الولايات المتحدة الأمريكية . لكن وجودهم في سائر البقاع وجود ثابت راسخ .

احتلوا من أمريكا الاقتصاد و السياسة و الإعلام ، و احتلوا العقول و النفوس ، و احتلوا الكنيسة و الدين النصراني احتلالا مريعا . و بما أن الولايات المتحدة الأمريكية هي أقوى دولة و أعظمها و أغناها في عصرنا فإن " وعد الآخرة " يكتسب عندنا معنى كان بعيدا جدا أن يتصوره أسلافنا رحمهم الله . معنى " وعد الآخرة " المواجهة المحتومة بين اليهوديّة التي جعلها الله تعالى لفيفا في أرض فلسطين ، و في خدمة اليهودية و دولتها الصغيرة الدولة العظمى التي يتحكم في ماليتها و سياستها و عقيدتها اليهود . يهودية تلمودية و نصرانية مُهودة كتابها الأقدس " العهد القديم " و هو توراة بني إسرائيل المحرفة .

بعد الحرب العالمية الثانية برز في أمريكا رأسمالي نصراني نشط هو صانع السيارات هنري فورد . و تفوق الرجل في صناعته و أعماله فزاحم اليهود ، و انبرى له اليهود يهددون مشاريعه . جمع فورد لفيفا من الباحثين نقبوا له عن أموال اليهود . فنشر أبحاثهم تباعا في جريدة " دِيربُورن إندِبَنْدانت " ثم نشرها في كتاب بعنوان : " اليهودي العالمي " الكتاب الآن مطبوع بالعربية بعد أن لاحقه اليهود و أخفوا طبعاته الأولى في أمريكا .

يقارن الكتاب بين مخططات اليهود كما جاءت تفاصيلها في " بروتوكولات حكماء صهيون " و بين إنجازاتهم في واقع أمريكا و العالم فيجد التطابق الكلي الذي يستنتج منه أن تلك البروتوكولات أصيلة و أن تنفيذها ناجح مستمر مطّرد .

و رغم أنه مضى على أبحاث فورد ما يقرب من سبعين سنة فإن الاستشهاد به يفيدنا . و رغم أن دوافع فورد للتنقيب على اليهود كان الدفاع عن مصالحه التي يفسدها عليه اليهود فموضوعية مقالات باحثيه تدخل بإزاء شهادات كثيرة تتعاضد كلها و تتماسك . و كلها عندنا استِئناس من الواقع بالحقيقة الموحى بها في قوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ » (سورة الإسراء ، 4) . فإخبار الله عز و جل عنهم هو سندنا . ما رأيناه من إفسادهم ظهر في الأرض و شهدته الناس و أخبرت به فذاك . و ما لا يزال في طي الغيب مذخورا في المستقبل من " وعد الآخرة " و نصرة الله تعالى لعباده المجاهدين فحق لا نرتاب فيه ، و وعد منجز نستعد له و نعد له إن شاء الله القوة .

دزْرائيلي اسم رجل يهودي كان الوزير الأول لملكة بريطانيا فكتوريا ، و له كُتُبٌ . نقل عنه فورد ، أو على الأصح لفيفه من الباحثين ، قوله : " ليس في وسعك أن تلاحظ حركة فكرية عظيمة في أوربا لا يكون لليهود فيها إسهام ضخم جدا . فلقد كان الشيوعيون الأوائل من اليهود . و الدبلوماسية الروسية الغامضة التي تُزْعج الدول الغربية يقوم على تنظيمها و تنفيذها اليهود . و الثورة العظيمة التي يجري إعدادُها في ألمانيا الآن (في عهده) و التي ستكون بمثابة إصلاح ديني ثان ، و لعلها أعظم من الحركة الأولى ، و التي لا يعرف عنها إلا القليل الآن في إنكلترا ، تتطوّر الآن و تنمو نموا كليا تحت إشراف اليهود " .[1]

لا يكتفي اليهود ، و هم عباقرة التحريف ، باحتلال العقول و جلب الأموال و توجيه السياسة و الدبلوماسية ، بل يسعون أينما كانوا و في كل زمان لتحريف الأديان ليتمكنوا بعد أن يمسكوا بزمام النفوس من خلال العقائد المناسبة لهم من نشر سلطتهم و بسطها . قرأنا في فقرة سابقة شهادة مارتن لوثر زعيم الإصلاح البروتستانتي في اليهود . و كانت شهادة عِدَاءٍ و كراهية صدرت عن الزعيم النصراني في أخريات حياته بعد أن اختبر القوم المفسدين . لم تكن تلك الشهادة الوحيدة فيهم ، لأن لوثر في عهد سابق من حياته أصدر في حقهم شهادات موالية مصادقة بالغة الاحتفاء باليهود و التعظيم لهم .

كان لوثر ، قبل أن يغير رأيه ، يستند إلى " العهد القديم " توراة اليهود و يعظمه و يرفع من شأنه ليحارب به السلطة البابوية و يُحل " الكتاب المقدس " مكان القداسة التي يحتلها رأس الكنيسة الكاثوليكية . البابوية تعتبر حكم الكنيسة هو الحكم النهائي سواء وافقت ما في الكتب أو خالفت ، و لوثر يريد أن يقوض سلطة الكنيسة فاعتمد كتاب اليهود حتى كان أعداؤه الكاثوليك يسمونه يهوديا . كان لوثر يهاجم هجوما عنيفا على الوثنية الكنسية و التمسح بالآثار و التماس البركات من القساوسة و الرهبان فكان الكاثوليك يسمونه " الراعي اليهودي " أو " شبه اليهودي " أو " نصف اليهودي " .

---

[1] اليهودي العالمي ص 66 .

و الحقيقة أن لوثر فتح لليهودية أبواب النصرانية البروتستانتية على مصاريعها، فهي نصرانية مهودة ، في أمريكا و إنجلترا و هولندا و سائر معاقل البروتستانت .

يعترف اليهودي دزرائيلي أن اليهود كانوا يدبرون " إصلاحا " ثانيا في كنيسة النصارى الألمان ، لم يكفهم ما أحدثه " إصلاح " لوثر من تهويد . يقول لوثر في مراحله الأولى النزاعية مع الكنيسة الكاثوليكية : " شاءت الروح المقدسة أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس للعالم عن طريقهم وحدهم (أي اليهود) : إنهم الأطفال (يعني أنهم أبناء الرب ، تعالى الله ، كما زعموا في قولهم : نحن أبناء الله و أحباؤه) و نحن الضيوف و الغرباء . و علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فُتات مائدة أسيادها " .[1]

ألا فاعجبوا رحمكم الله من حماقات أهل الكتاب !

جاء كلام لوثر هذا و هو يجادل الكاثوليك الذين يعادون اليهود و يصدونهم عن اعتناق النصرانية . كما يريد أن يتودّد لليهود ليدخلوا في دينه اعتقادا منه أن إنقاذ إسرائيل سيتحقق عندما يدخل اليهود في دين النصارى فتقوم مملكة " صهيون " التي تدوم ألف عام . قال : " إنني أنصح و أرجو كل شخص أن يكون لطيفا في تعامله مع اليهود و أن يعلمهم الكتاب المقدّس ، عندها نتوقع منهم أن يأتوا إلينا . أما إذا استعملنا العنف الوحشي و ألحقنا بهم الإهانات قائلين : إنهم بحاجة لدعم النصارى للتخلص من نَتَنِهم و غير ذلك من السخافات ، و بقينا نعاملهم كالكلاب فأي خير نتوقعه منهم ؟ " .[2]

ألا فاعجبوا رحمكم الله من زعيم ديني يشبه طائفته بكلاب تأكل من فُتات مائدة أسيادها اليهود لكيلا ينفر اليهود الذين أضْفى عليهم كل قداسة من دينه الجديد !

احتفظ لوثر بالعقيدة الألفية اليهودية التي قراها في توراتهم ، القائلة بأن شعب إسرائيل سينتصر في آخر الدنيا و ستقوم له دولة " صهيون " التي تَدُومُ ألف سنة . كانت الكنيسة الكاثوليكية قد طلّقت العقيدة الألفية و اعتبرت أنّ الكنيسة الرومانية هي الدولة الموعودة و إنما هي صهيون . عقيدة الكاثوليك أن إسرائيل الموعودة بدواة ألف عام هي إسرائيل الجديدة المتمثلة في الكنيسة النصرانية . و عقيدة

[1] عزاه مؤلف " الصهيونية غير اليهودية " للوثر في كتاب : MARTIN Luther :Saemtliche Werke Vol.29 PP.7-46
[2] نفس المصدر ص 46 .

البروتستانت كانت منذ نشأة ديانتهم و لا تزال أن إسرائيل الموعودة بالوعد الألفي هم اليهود العبريون بعد أن يدخلوا في دين النصرانية .

وضع العقيدة الألفية للكاثوليك حبر النصارى الأعظم " القديس أوغستين " منذ القرن الخامس بتاريخهم . و وضع عقيدة البروتستانت في القرن السادس عشر مارتن لوثر . ألغى لوثر في حركته الرافضة تعاليم أوغستين المودعة في كتابه " دي تشِفتَاتي دِبِي " أي " مدينة الرب " و الذي يُعَدُّ " التحفة الأدبية للاَّهوت الكاثوليكي " ، و رجع لتعاليم اليهود المُودعة في توراتهم . فأتباعه ينتظرون نفس ما ينتظره اليهود ، بنيتين مختلفتين ، لكن في تعاون و تضافر كاملين فيما يرجع للجهود المبذولة و النتائج المحصلة .

للبروتستانت وَلُوعٌ خاص بسفرين من أسفار التوراة اليهودية المحرفة تحريفا فظيعا عن كتاب الله الذي أنزل على رسوله موسى عليه السلام . سفرا " دانيال " و " رؤيا يوحنا " يتحدثان عن الوعد الألفي ، و لا نريد أن نثقل بسرد تلك الأساطير . و في نفوس البروتستانت هيبة كبيرة للكتاب اليهودي ، هو مرجعهم و سلطتهم العليا التي تمثل الكلمة النهائية كما تمثل عند الكاثوليك كلمة البابا و أمره و فتواه الكلمة النهائية .

فالبروتستانت ، خاصة كنائس أمريكا ، ينتظرون تنصر اليهود ، و يعاملون اليهود كما تعامل الكلاب سادتها و هي تأكل على موائدها تطبيقا للتوصية اللوثرية التي قرأناها . و ينتظرون قيام مملكة الله في الأرض ، مملكة " صهيون " .

و اليهود يستغلون هذه العقيدة المتوغلة في وجدان النصارى اللوثريين ، و يستغلون ما أصابهم و يصيبهم من اضطهاد ، فيسارعون إلى الشكوى من مظلوميتهم ليستدِرّوا عطف إخوانهم من النصارى المهودين .

الاضطهاد الممارس ضدهم رأسمال . فإن لم يكن اضطهاد اخترعوا قصصا و بالغوا ليتأتى لهم الصراخ و العويل كما يفعل الأطفال . و قد وصفهم لوثر بأنهم أطفال البيت " المقدس " و النصارى ضيوف غرباء . فلا غَرْوَ أن يتدلل الأطفال لينالوا مزيدا من حسن المعاملة . لذلك لا يرد النصارى المهودون طلبا

لليهود . و أسطورة الاضطهاد مجد يؤثل دخائره " شعب الله المختار " في زعم يهود و في عقيدة النصرانية المهودة التي تنتظر أن ينتصر بنو إسرائيل لتَحُل البركة على أطفال البيت و على الضيوف و الأغراب جميعا .

يقول كتاب المليونير هنري فورد : " و يشعر اليهود بالمجد في الاضطهاد الديني بنفس الاعتزاز الذي يشعر به الأمريكي في الوطنية الأمريكية " .[1]

لا تسأل عن اضطهاد النازية لليهود ماذا كسبوا منه لدى أحبارهم نصارى أمريكا . و يحرفون الأخبار و ينفخون في الأرقام فتتهاوى على أقدامهم التنازلات و التعويضات . و كل من يطعن في الدعاية الصهيونية و يريد تصحيح المعلومات يوصم بأنه متحامل معاد للسامية .

و بنفس الروح الطفولية المدللة يصر اليهود على أنهم " شعب الله المختار " ، فلا يسع الكنائس البروتستانتية إلا التصديق و الموافقة . " فاليهود ليسوا " شعب الله المختار " على الرغم من أن الكنائس جميعها قد أذعنت للدعاية التي تطلق عليهم هذا الاسم . و لقد سيطرت الأفكار اليهودية في السنوات الأخيرة على الكثير من البيانات النصرانية ، و برهن الكثيرون من رجال الدين من غير المثقفين بأنهم على استعداد لتقبل الإيحاء اليهودي أكثر فأكثر " .[2]

فتح لوثر أبواب كنيسته على مصاريعها لليهودية عندما بنى ثورته على الرجوع الكلي إلى التوراة اليهودية ، و عندما أشاد تلك الإشادة باليهود و تَبَنَّى عقيدة مملكة صهيون الألفية . فالمياه اليهودية الصهيونية تصب مباشرة في الكنائس الثائرة ، خاصة منها البوريتانية الأمريكية إنها كنائس تهودت و تصهينت . " و قد سيطر اليهود على الكنيسة في عقائدها ، و في حركة التحرر المسماة بالليبرالية المزعومة (...) و إذا كان ثمة مكان تدرس فيه القضية اليهودية دراسة صريحة و صادقة فهو موجود في الكنيسة العصرية ، لأنها المؤسسة التي أخذت تمنح الولاء دون وعي أو إدراك إلى مجموعة الدعاية اليهودية " .[3]

---

[1] اليهودي العالمي ص 50 .
[2] نفس المصدر ص 31 .
[3] نفس المصدر ص 33 .

روح الجاهلية و جسمها

قال الله جلت عظمته : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَ ٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ » (سورة المائدة ، 21) . و قال جل من قائل : « وَ لَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَ لَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ » (سورة البقرة ، 120) . فجعلها ملة واحدة ، و أدخل أهل الكتاب في ولاء واحد ، ضد الإسلام . فوعد الآخرة مواجهة واسعة بين أهل الإيمان و أهل الكفر ، و اليهود بعَدَدِهم و عُدَدِهم أقلُّ و أذَلُّ من أن يشكلوا جبهة تقارن بأمة الإسلام .

وعد الآخرة مواجهة بين الإسلام و الجاهلية ، و لما كان اليهود هم روح جاهلية عصرنا خوطبت روح الجاهلية في القرآن ، و علينا نحن أن نفهم عن الله عز و جل ما جسم هذه الجاهلية و ما كتلتها ؟ من هم الأبناء و ما هي الأموال التي أمد الله بها بني إسرائيل ابتلاء منه لنا بين يدي وعد الآخرة ؟ كيف أصبحوا أكثر نفيرا و أوسع حيلة ؟ كيف تمت الوَلاية بينهم و بين النصرانية و من خلال أي قنوات ؟

لابد من فقه كل ذلك و وعيه سياسيا و اقتصاديا و علميا و صناعيا و ثقافيا و عسكريا استراتيجيا ليمكننا إعداد القوة الملائمة و إعداد الخطة ليوم المواجهة . اليهود بالمفهوم العرقي ينحصر عددهم في عصرنا بنحو اثني عشر مليونا نصفهم يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية . هم بقلة عددهم أهون من أن يُسهروا أعين أمة تعدادها ألف مليون . لكن لما كانت أعدادنا المتكاثرة ، باركها الله بمنه ، أعدادا غثائية لما تستيقظ من سبات و لما تعتصم بإيمان ، كان التفوق النوعي لليهود و تمكنهم من الأموال و من زمام أكبر دولة و أعظمها في العالم عوامل حاسمة في ترجيح كفتهم إلى حد الآن .

اليهود روح الجاهلية ، و الجسم و الكتلة و النفير و النصير و القوة النصرانية المهودة . فبقدر فهمنا لمدى تقمص روح جاهلية عصرنا جسم جاهلية عصرنا نكون أقرب إلى فقه الخطاب القرآني بوعد الآخرة بالنسبة للبشرية ، و أهمية وعد الآخرة في تاريخ هذه الأمة ، و عتبة وعد الآخرة ، و تحدي وعد الآخرة .

ليست " قضية فلسطين " قضية محلية ، بل هي قضية مصيرية . الآن أخذ العرب يدركون خطورة ما لا قِبَل لهم به ، و اقترحوا تنازلاهم للاعتراف بالكيان الصهيوني في " حدوده الآمنة " . و الصهاينة اليهود و المهودون يحلمون بإسرائيل الكبرى ، بإسرائيل ما بين النيل و الفرات ، بل بإسرائيل العالمية التي بشرت ها توراة اليهود .

قضية فلسطين بداية المواجهة الحاسمة بين الحق و الباطل ، بين الجاهلية و الإسلام . مع الجاهلية تَنَبُّؤٌ يهودي بمملكة صهيون الألفية . و مع الإسلام وعد الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه بالنصر المبين ، و بالخلافة على منهاج النبوة ، و يظهر هذا الدين على الدين كله و لو كره المشركون ، و لو كره الكافرون .

مع الجاهلية التفوق العددي و التكنولوجي و المالي و العسكري ، معها الخبرة و الصناعة و التنظيم ، معها السبق الزمني في كل الميادين ، تطرق الآن و تلج عصر ما بعد الصناعة ، عصر المعلوماتية و الفضاء و الإنتاج الأوتوماتيكي و التحكم في الخلايا الوراثية للنبات و الحيوان .

و وراء الركب الجاهلي تتعثر خطانا ، مسبوقين متخلفين ، ممزقة أوصالنا ، مبذرة أموالنا ، مقَطعة أرضنا ، محتلة عقولنا ، واهنة عزائمنا .

سنة الله لا تجامل أحدا ، و حكمه على الغثاء أن لا ينهضوا لجليل من الأمر ما داموا غثاء .

احتلت اليهودية العالمية العقول من خلال الثقافة الغربية الصائلة في العالم . لهم مقاليد الإعلام ؛ الإعلام المرئي ، و المسموع ، و المقروء ، و المخَزَّن في الحاسوبات ، و الطائر على أمواج الأثير مكتظ به الفضاء سائر إلى عصره الذهبي في يوم قريب يستطيع كل من على وجهها أن يسمع و يرى و يتصل بكل برامج العالم . و برامج العالم تتبارى في عرض الكفر و الغفلة عن الله و الفتنة بمباهج الدنيا و لذاها .

إنها مواجهة كونية هائلة بين حق الوحي و " ظن الجاهلية " ، بين أخلاق الإسلام و" تبرج الجاهلية " ، و بين أخوة الناس جميعا و التسامح و الرحمة و بين " حمية الجاهلية " ، بين عدل الإسلام و شورى الإسلام و بين " حكم الجاهلية " .

و أينما قلبت النظر وجدت الروح اليهودية تحرك الكتلة و تتقمص الجسم . اليهود آباء الفلسفة الرائدة ، فلسفة المادية ما بين لبراليتها و جدليتها . ماتت الآن و أصبحت محض هُراء تاريخي إديولوجية

ماركس الذي كان يعيب اليهود و يكتب ضدهم . لكن فلسفته الصراعية العنيفة الإلحادية ، جماع الجاهلية و خلاصتها ، لا تزال تتغلغل و تتقدم و تتوغل ، خاصة في البلاد المتخلفة صناعيا و اقتصاديا . " ظن الجاهلية " كفر بالله ، و ماركس معلم ذلك الظن لهذا العصر . " حمية الجاهلية " قبل الآن كانت تُتصور عصبية قبلية ، أو تكتلا قوميا ، و هي منذ ماركس في تَطور لتصبح لها أبعاد عالمية شمولية في صيغة الصراع الطبقي .

" تبرج الجاهلية " اليهود اخترعوه ، و تلمودهم خزانة لا تنفد ، و لا تزال تُمد أساطيرها بفنون العُهر و الحيوانية و قلة الحياء و التهتك و السخرية بالأخلاق . و فيلسوف العصر في " علم " النفس يهودي اسمه فرويد . صوّر النفس البشرية صندوقا للقمامة ، و محطة إرسال و استقبال للرذيلة . و دخلت أفكاره المعيفة القذرة إلى معاقل " الثقافة " و " الفن " ، و وجهت ، و تحكمت . و فرضت المعايير التي بها يقاس الفرد السوي غير " المكبوت " و الفرد المريض الذي لا تجد غرائزه مسالك لتعبر عن نفسها بحرية .

أما " حكم الجاهلية " فلليهود من تأسيس نظريته و تقنين إجراءاته و تطبيق بنوده النصيب الوافر . قرأنا في فقرات سابقة تبجح اليهود بأنهم آباء الديمقراطية و سدنتها . و الديمقراطية أخرجت اليهود من " الجيتو " المعزول الذي أسكنتهم فيه كراهيتهم للعالمين و اعتزازهم بعرقهم و ابتزازهم للأموال و احتقارهم للأميين . من " الجيتو " أخرجتهم الديمقراطية إلى فضاء المجتمع الفسيح حيث يجدون " الحرية " الكاملة لتذويب سمهم المركز المخَزَّن المُعَتَّق آلاف السنين داخل مساكنهم المغلقة في مياه ثقافة الأمم و عاداتها و سياستها .

و الاشتراكية هم زعماؤها منذ ماركس بعد أن حازوا زعامة البلوتوقراطية و استبداد الأغنياء . في كل ميدان هم الفرسان .

و لفروسية اليهود في كل ميادين الجاهلية ، ظنّها و حميتها و تبرجها و حكمها ، استطاعوا أن يغزوا الولايات المتحدة الأمريكية ، و أن يحتلوا حصونها ، و أن يسكنوا الأرض هنالك سكنى متمكنة قاطنة خافضة رافعة كما تقطن الروح الجسد . لم يحتلوا تلك الأرض بميزات من الشجاعة و الإقدام السافر الوجه كما يفعل الفرسان ، لكن تسللوا رويدا رويدا كما يتلصص اللصوص ، و كلما أنكر مُنكر عليهم أطلقوا صرخات " مجد الاضطهاد " ، و أعادوها مدوية أنهم مظلومو العالم و أن منتقديهم مصابون بالداء الوبيل : عداء السامية .

الآن انتهى زمان التسلل و اللصوصية ، و أصبح لليهود دولتان معلنتان واحدة في نيويورك و أخرى في فلسطين . و أصبحت كتائبهم و منظماتهم و امتدادهم مفاخر معلنة ، محترمة ، صائلة .

قال كتاب فورد : " ينقسم اليهود (في أمريكا) إلى قسمين : أحدهما يمثل السلطان المالي و السياسي و يضم الألمان أمثال أُسر ستيف وسبير و واربورغ و كاهن و لويزن و غوغنهايم ، و هم يلعبون لعبهم بمساعدة الموارد المالية لغير اليهود . أما القسم الثاني فيتألف من اليهود الروس و البولنديين الذين يحتكرون المراتب الخفيفة في التجارة و الصناعة ، و يسيطرون سيطرة مطلقة عليها " .[1]

إلى جانب الأسر و القوميات الأصلية المنظمات التي يندمج فيها الكل و تتضافر الجهود و تنسى الأصول . قال الكتاب : " هنالك منظمتان مهمتان كل الأهمية بالنسبة إلى أهدافهما الخفية و إلى حقيقة ما لهما من قوة ، و هما منظمتا " كهيلا نيويورك " و " اللجنة اليهودية الأمريكية " . و تعتبر المنظمة الأولى أقوى العوامل في حياة نيويورك السياسية ، إذ هي المنظمة التي تفرض اليوم نفوذا ضخما على بقية أرجاء العالم (...) . و هذه المنظمة هي القوة المركزية ، بل هي الحكومة الداخلية التي تعتبر قراراتها قوانين ، و أعمالها تعبيرا رسميا عن أهداف اليهود . و هي تقيم الدليل الواقعي و الكامل على وجود حكومة داخل حكومة في قلب أعظم الولايات الأمريكية و أقواها سياسيا (...) . و هذا يعني بكلمة أخرى أن الحكومة اليهودية في نيويورك تؤلف الجزء الأساسي في الحكومة اليهودية للولايات المتحدة " .[2]

" و " كهيلا نيويورك " هي أقوى و أضخم اتحاد لليهود في العالم ، فهي قلب السلطان اليهودي العالمي الذي تحول إلى هذه المدينة . و هذا هو معنى الهجرة اليهودية الضخمة إلى نيويورك في الحقب الأخيرة من جميع أطراف المعمورة . و هي تمثل بالنسبة إليهم ما تمثله روما بالنسبة للكاثوليك و ما تمثله مكة بالنسبة للمسلمين " .[3]

يصف كتاب فورد وضعية اليهود و تمكنهم و حكومتهم و عاصمة دولتهم منذ نحو سبعين سنة . و الآن تعاظمت المؤسسات اليهودية هناك و استفحلت و قويت ، و هاجر شطر

---

[1] مصدر سابق ص 143 .
[2] مصدر سابق ص 108 .
[3] مصدر سابق ص 109 .

الدولة إلى فلسطين . تفرعت الشجرة الملعونة فرعين ، الجذور هناك في نيويورك و التربة و الغذاء ، و يستغرب الغافل كيف نشأت دولة في فلسطين ، و كأن دولة اليهود ما كانت قائمة من قبل ، و كأن الجهود اليهودية كانت وليدة وعد بلفور الإنجليزي . كلا بل الدولة كانت قائمة في أمريكا و لا تزال ، و هي الحكومة هناك داخل الحكومة ، و الدولة الحقيقية تحرك الدولة البارزة للعيان .

و إنما حرصنا عل الاستشهاد بكتاب فورد رغم بِلاه و تجدد المعطيات و تجاوز الأحداث لما في الكتاب من وصف الحالة ، لأنه وثيقة تاريخية تمتاز بجدية وثائق الحرب ، و بموضوعية الشاهد من أهلها و قربه و اطلاعه . حرب شنها الرأسمالي الأمريكي و حشد لها لفيفا من الخبراء كشفوا عن خبايا الرأسمالية اليهودية و السلطان اليهودي اللذين يزاحمان الأصالة الأمريكية و الوجود الأمريكي . و اسم فورد رمز في تاريخ أمريكا ، لذلك تبقى وثيقته هذه جديرة بالاعتبار الكامل لا يمكن أن يتهمنا أحد بتحيز إسلامي يكتب ضد اليهود بعد احتلال فلسطين .

قبل احتلال فلسطين احتلت نيويورك و أمريكا , و توغل المد اليهودي في كل مجالات الحياة . كانت فعالية اليهود في صفوف العمال لا تقل تأثيرا عن سيطرهم المالية و السياسية . قال كتاب فورد : " كان أثر اليهود على تفكير فئات العمال في الولايات المتحدة كما كان على تفكير رجال الأعمال و أرْبَابِ المهن في منتهى السوء (...) . و يقوم اليهود على إدارة الدوائر الشيوعية و تنظيمها و نشر أفكارها في جميع أنحاء الولايات المتحدة . و توجد هذه الدوائر في شيكاغو و دترويت و كلفلاندور و شنتر و بتسبورغ و نيويورك و فلاديلفيا و غيرها من المدن " .[1]

فرسان الرأسمالية و الشيوعية معا ، ماركس و روتشيلد وجهان لعملة واحدة كما قرأنا قبل من كلامهم أنفسهم .

سيطروا على المدارس و الكليات . قال فورد : " انتشر الإنذار في الكليات انتشار النار في الهشيم ، و قد غدا أسلوب العمل اليهودي معروفا تمام المعرفة . يا له من أسلوب بسيط !

---

[1] نفس المصدر ص 30 .

إن الخطوة الأولى هي " لاييكية " المدارس العامة . و اللاييكية هي الكلمة الدقيقة التي يستعملها اليهود للتعريف بالإجراء الذي يقوم على إعداد طفل المدرسة العامة عن طريق فرض القاعدة عن عدم ذكر شيء يستدل به على أن للثقافة أو الوطنية أية علاقة بالمبادئ العميقة المتأصلة للديانة الأنكلوساكسونية " .[1]

سيطروا على السينما و احتكروها ، و احتكروا بعد فورد صناعة الأفلام التلفزية و امتلاك الشبكات الإعلامية و التوزيع ، و الإنتاج ، و التوجيه ، و صناعة " النجوم " ، و صناعة الأسطوانات و الأشرطة ، و صناعة الموضات الفنية .

و صنعوا و لا يزالون يصنعون بتأثير أوسع منذ عهد فورد حكام أمريكا بما في ذلك الرئاسة .

لا نحب أن نتبنى كل ما يكتبه فورد عن الطائفة المغضوب عليها في القرآن تحريا أن يكون حكمنا على الواقع مطابقا للواقع بعيدا عن المبالغات . لكن شهادة فورد فيما يخص مشاركة اليهود الفعالة المؤثرة الحاسمة أحيانا في صناعة رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية تؤكده الأخبار المنشورة المشهودة عن الانتخابات الدورية كل أربع سنوات . و سواء في مراحل الانتخاب أو بعدها فالرئيس الأمريكي في قبضة اليهود . و ليست الضغوط السياسية المعلنة للوبي اليهودي إلا الجزء الظاهر البسيط للجهاز السياسي المالي الثقافي الإعلامي اليهودي المتحكم في العقول و الرأي العام و القرارات ، و منها عقل الرئيس و رأيه و قراره .

قال كتاب فورد : " و لما كانت الانتخابات و حملاتها تصور دائما على أنها تسلية للشعب و إلهاء له ، فإن ذوي السلطان يسمحون للشعب دائما بأن يظن و أن يعمل و كأنه هو حقا الذي يختار حكومته ، بينما الحقيقة أن اليهود هم الرابحون دائما . و إذا حدث بعد انتخاب رجل أو جماعة أن شق الفائز و الفائزون عصا الطاعة على السيطرة اليهودية فإننا سرعان ما نسمع بوجود " فضائح " و " تحقيقات " و " عقوبات " . و كلها تهدف إلى التخلص من الفائز الذي عصى " .[2]

---

[1] نفس المصدر ص 37 .
[2] نفس المصدر ص 133 .

و قال : " و من المعروف تماما أن إدارة اليهود للحملات الانتخابية الأمريكية تُدار دائما بصورة بارعة ، بحيث إذا فاز من فاز من المرشحين فإن الأدلة تكون متوافرة للطعن فيه في حالة اضطرار سادته اليهود إلى هذا الطعن . و لا ريبَ في أن إعداد هذه الأدلة جزء من الكمال الذي تتمتع به السيطرة اليهودية . و قد دُرِّب الشعب الأمريكي بالطبع تدريبا كافيا للزئير على السياسي أو الموظف العام فور أول نباح يصدر من اليهود " .[1]

في زمانه و مكانه كان فورد و أصدقاؤه يميزون بين النباح اليهودي و الزئير الأمريكي . أما في زماننا و من خارج تلك الأسوار فلا تسمع إلا صوتا موحدا واحدا بعد أن طور اليهود صناعة الرأي العام ، و اندمج الفرع الخارجي للدولة اليهودية بالفرع الداخلي ، و اندمج الاقتصادان و السياستان و القراران و الصناعتان و الصوتان .

إن التحدي اليهودي للإسلام يتمثل في قدرة اليهود على تقمص الأجسام الجماعية للأمم . و هم بعد تقمص أمريكا في طريقهم إلى تقمص أوربا و العالم . فالتحدي أمامنا ليوم الفصال يوم " وعد الآخرة " ليس أن نحارب العالم بعد أن تكون الروح اليهودية قد استولت عليه ، لكن التحدي في أن نقاتل اليهود وراء كل شجر و حجر قتال البأس بينما نستخلص من الروح اليهودية هذه الجسوم الجاهلية ، ندفع شرها بخير الإسلام ، و نذهب ظلمتها بنور الإسلام ، و نُسكت نباحها لتسمع دعوة الإسلام . و ربك سبحانه جل سلطانه قادر على أن تسلم أمريكا و يسمع من هنالك زئير أسد إسلامي . " وعد الآخرة " مقترن بوعد ظهور دين الله على الدين كله و لو كره الكافرون . و الحمد لله رب العالمين .

---

[1] نفس المصدر ص 134 .

التجذر الصهيوني

تطمح الصهيونية العالمية إلى احتلال العالم احتلالا معنويا و حكمه و إملاء الإرادة الصهيونية عليه . فهل لهذا المطمح ما يبرره من مقومات أم أن " بروتوكولات حكماء صهيون " و تخطيطاتهم أحلام و هُراء و عقيدة ألفية أسطورية لا مجال و لا إمكانية لبروزها إلى عالم الواقع ؟

للشجرة الملعونة جذور سارية في الأرض ، ساكنة في أرجاء المعمور . و ليس المشروع الصهيوني مطمحا بعيد المنال ، و لا البروتوكولات برنامجا في الهواء ، بل هناك واقع يهودي عالمي سماه فريق فورد من الباحثين دولة منذ سبعين سنة ، و تلك الحكومة اليهودية العالمية ازدادت تمكنا و قوة و تزداد .

قال فورد : " لا ريب أن اليهودية هي أكثر قوة في العالم تنظيما . فهي تؤلف دولة مواطنوها على نحو من الولاء الخالص غير المشروط حيثما كانوا ، و سواء أكانوا من الأغنياء أو الفقراء . و الاسم الذي يطلق على هذه الدولة التي تنتشر بين الدول كلها هو " جامعة يهوذا " . و الوسائل التي تعتمدها هذه الدولة في تحقيق سلطانها هي رأس المال و الصحافة ، أو المال و الدعاية . و " جامعة يهوذا " هي الدولة الوحيدة التي تمارس سلطانا عالميا ، إذ أن الدول الأخرى لا تستطيع أن تمارس إلا سلطانا قوميا " .[1]

و يذكر الكتاب كيف يتحدُ رأس المال و الصحافة في أمور الطباعة و النشر و الإعلام ، تبرز من خلال اتحادهما موهبة اليهود " الرائعة " لتكوين " وسط سياسي و روحي " يجول فيه السلطان اليهودي جولاته و يكوّن الرأي العام العالمي و يقنع الناس جميعا بأن الباطل الأسود إنما هو حق ناصع . أيّة دولة أعظم من هذه و أي سلطان ؟

و يفصل الكتاب كيف كانت باريس عاصمة هذه الدولة و كيف انتقلت إلى لندن ثم نيويورك حيث استقرت و سكنت . لم يكن لهذه الدولة جيوش في زمان فورد ، فيتحدث الكتاب عن الحماية الكلية التي كان يضمنها الأسطول البريطاني للمصالح اليهودية . أما الآن فجيوش اليهود المنظمة

---

[1] نفس المصدر ص 252 .

في فلسطين طلائع للجيش الأمريكي الذي يمد بالسلاح و ينظم الجسور الجوية إلى فلسطين عند الأزمات ، فتصب التكنولوجيا الحربية الأمريكية في أرض " وعد الآخرة " نفائس صناعتها و ذخائر الطّراز الأول من اختراعاتها .

في العالم كله كانت لليهود منذ عهد فورد أصابع تحرك سياسة الحكومات القومية و اقتصادها و تضغطُ في الاتّجاه الموافق للرغبة الصهيونية . " و تميل جامعة يهوذا إلى تسليم الحكم في مختلف بقاع العالم إلى الحكومات القومية ، إذ أن كل ما تنشده هو السيطرة على هذه الحكومات . و يؤيد اليهودية تأييدا قلبيا استمرار الخلافات القومية بين دول الأغيار (الأميين) " .[1]

" و لجامعة يهوذا الحكومات التي تنوب عنها في كل عاصمة . فبعد أن انتقمت من ألمانيا (في الحرب العالمية الأولى) ستمضي للسيطرة على بلاد أخرى . و قد سيطرت على بريطانيا منذ أمد بعيد ، كما سيطرت على فرنسا و روسيا . و ها هي الولايات المتحدة بتسامحها السليم النية مع جميع الشعوب قد أمنت المجال الفسيح لها . إن جامعة يهوذا هنا " .[2]

كتب هذا قبل أن تمتد اليد اليهودية إلى فلسطين . الدولة اليهودية هناك في أمريكا ، و يغلط الناس حيث يظنون الكيان الصهيوني في فلسطين أداة سياسية و عسكرية في يد الدولة العظمى تؤمن بها مصالحها . الناظرون في العمق يدركون أن العكس هو الصحيح . الدولة العظمى دولة مسكونة ، سكنتها الروح اليهودية من قديم ، فهي تحركها و تقيمها و تقعدها على الوتيرة التي تشاء ، و في اتجاه الذي تشاء ، و بالمقدار الذي تشاء ، و في الزمن الذي تشاء .

و ما سماه خبراء فورد بالتسامح السليم النية مع جميع الشعوب ما هو إلا مظهر سياسي فرضه اختلاط الأجناس النازحة إلى العالم الجديد و ضرورة التعايش . أما اللب البروتستانتي البوريتاني من الشعب الأمريكي فيحمل في قلبه و عقله و عقيدته الولاء غير المشروط لصهيون و الأسطورة الألفية كما رأينا في فقرة سابقة .

و هنا نفصل تجذر هذا الاتحاد بين المشرب البروتستانتي و المشرب الصهيوني في أرض أمريكا . نستفيد من نقول عن كتاب حديث للدكتور فؤاد شعبان تحت عنوان " الرؤيا الصهيونية في التاريخ الأمريكي " .

---

[1] نفس المصدر ص 253 .
[2] نفس المصدر ص 254 .

حمل البروتستانتيون البريطانيون الذين هاجروا أولَ فوج و ثانيه و ثالثه من بريطانيا إلى أمريكا عقيدة " رؤيا صهيون " التي تقول بأن " مملكة الله الثانية " ستنشأ على جبل صهيون آخر الزمان و تستمر لألف عام . حملوها معهم ، و حملتهم هي في مراحل التأسيس و البناء و التمكن ، أملا دائما يحدو الجهود ، و توقانا و رمزا . هربوا من الاضطهاد الديني يسعون لإنشاء المدينة الفاضلة . اعتبروا موطنهم الأمريكي الجديد " إسرائيل " جديدة . وشبهوا أنفسهم في كتاباتهم و خطب رعاة كنائسهم بالقبائل الإسرائيلية التي هربت من حكم فرعون . و رمزوا إلى عبورهم المحيط بعبور اليهود صحراء سيناء إلى أرض فلسطين .

قال أحد زعمائهم الأوائل و يدعى " جون وينثروب " حين قاد أول مجموعة منهم سنة ***1624*** بتاريخ النصارى ما يلي : " لعل الله يريد أن يبلونا بهذه المصائب ، فيدفعنا إلى التوبة من ذنوبنا كما فعل حين حمل قبائل " إسرائيل " من أرض مصر الطيبة إلى فلسطين القاحلة " . و كان هذا الزعيم من الذين نظموا الهجرة و حرضوا عليها . فيقول لأصحابه و هم لا يزالون على الأرض البريطانية : " سنجد إلـٰـه " إسرائيل " يرافقنا في رحلتنا ، و أن عشرة منا سيهزمون ألفا من أعدائنا . سنبني مجتمعنا ، قدسنا الجديدة على تل صهيون ، و عيون الإنسانية متجهة نحونا " .

كان الاسم القديم لمدينة القدس هو " سالم " . فلما نزل المهاجرون و استقروا أطلقوا على أول مدينة رئيسية بنوها اسم " سالم " ، و أطلقوا نفس الاسم على أكثر من عشرين مدينة منها عاصمة ولاية " أوريغون " تحمل الاسم إلى الآن . و سموا مدنهم أسماء أخرى توراتية يهودية ليتذكروا بها " أرض الميعاد " مثل " بيت لحم " و " صهيون " و " جبل الكرمل " في جميع أنحاء أمريكا .

اصطبغت الثقافة الأمريكية منذ نشأتها بالصبغة التوراتية اليهودية الألفية الصهيونية في تسمية الأماكن و في رمزية الحياة و الشعور و التعبير . فأرض الوطن التي خلفوها وراءهم هي أرض الفراعنة الأغنياء ، و هم يهود مضطهدون يسعون في هروبهم للوصول لأرض الميعاد ، يقودهم رجال صالحون كما كان الأنبياء يقودون اليهود الأولين .

و اصطبغ نظام الحكم من أول خطوة بالصبغة اليهودية . قال " جون كوتون " و هو أحد الحكام الأوائل يقترح سنة *1636* نموذجا لدستور الحكم : " لقد فضلت التشريع الموسوي على ديمقراطية أثينا لأني أجد هذه المستوطنة أقرب ما تكون إلى مجد " إسرائيل " ، و شعبها أشبه بشعب الله المختار " .

على نبينا و على موسى و على جميع الأنبياء أفضل الصلوات و أزكى التسليمات . أين الشريعة الموسوية و قد حرف اليهود الكتب و صنعوا الأساطير و أفسدوا عقيدة النصارى الأغرار " المتسامحين ذوي النيات السليمة " ؟

كان " وعد الله " في زعمهم الصهيوني الألفي يسكن خيالهم . قال شاعرهم في تلك العهود الأولى " مايكل ويلفزورث " يعظ قومه : " إن عذاب الله سَيَحِيقُ بالمستوطنين لأنهم نقضوا عهده ، كما عذب قوم إسرائيل . إلا أنه في نهاية الأمر لن يتخلى عنهم لأنهم شعب الله المختار " .

جذور اليهودية كما نقرأ ضاربة في أعماق تاريخ نصارى أمريكا . ضاربة أيضا في أعماق الوعي الأمريكي بحيث أصبحت عنصرا مُكونا للذهنية الأمريكية يحسبها الناس هناك أصيلة و قد نسوا مدخلها إليهم و سريانها فيهم من اليهود . أما اليهود المعاصرون فيدركون جيدا صلتهم القريبة و أبوتهم للصهيونية النصرانية ، و لا يزالون يتبجحون بأن جوهر القيم الأمريكية يهودي ، و أن اليهود هم أعطوا نصارى ذلك البَرّ دينهم . و هذه شهادة واحد من أهلها تُنْبِئ عن كل هذه الحقائق . قال فورد و أصدقاؤه : " و لا يخفي اليهود مطلقا ما يتمتعون به من نفوذ في هذه البلاد . فهم يزعمون أن جوهريات الحياة الأمريكية يهودية لا نصرانية ، و أن من الواجب إعادة كتابة التاريخ الأمريكي للاعتراف اعترافا صريحا بما في أمجاد يهوذا من أفضلية " .[1]

و قال : " يصرون على أنهم هم الذين " منحونا التوراة " ، أو أنهم هم الذين " أرشدونا إلى الهناء " ، و " أعطونا ديانتنا " . و هذا و لا ينفكون عن ترداده دائما بشيء من الغطرسة

[1] نفس المصدر ص 26 .

التي تبعث التقزز في النفس ، و التي تبدو جلية في كافة مطبوعاقم الجدلية " . و يؤكد أصدقاء فورد قائلين : " مع العمل أن جميع هذه المزاعم لا أساس لها من الصحة " .[1]

لا ينفي الكتاب البروتستانت انتشار النفوذ اليهودي في أمريكا فكتاهم كله ما وضع إلا لإثبات هذا النفوذ ، لكنهم يأبَون أن يعترفوا بوشائج القربى بين صهيونية أسلافهم التاريخية الألفية و بين الصهيونية اليهودية الحية الفاعلة . تلك الوشائج العميقة هي التي مهدت الطريق لهذا النفوذ ، عن وعي لا شك من الجانبين ، لكن المكابرة أو مجرد الاندماج حادت بالكتاب عن الموضوعية .

و لنرجع مع الدكتور فؤاد شعبان لنرى كيف عبَّر المهاجرون الأولون عن هُويتهم ، و كيف كانت نسبتهم إلى " شعب الله المختار " شعلة متقدة في ضمائرهم ، و كيف كانت وقائع التوراة اليهودية معيارا و نموذجا تقاس به و عليه أحداث الهجرة إلى أمريكا . كتب الشاعر الأمريكي " تيموش دوايت " أول ملحمة شعرية في تاريخ الأدب الأمريكي إبان حرب الاستقلال عام ***1771*** و عنوانها " الانتصار على كنعان " . و العنوان توراتي يدخل منه الشاعر إلى موضوعه ليقارن حرب التحرير بقتال الإسرائيليين الأولين و انتصارهم . و كتب " جول بارلو " ملحمة أخرى بعنوان : " رؤيا كولومبوس " قياسا على " رؤيا يوحنا " التوراتية و أساطير " سفر دانيال " . و يشبه بارلو في ملحمته رحلة المهاجرين برحلة بني إسرائيل يقودهم نبي الله موسى على نبينا و عليه و على أنبياء الله أفضل الصلوات و أزكى التسليمات . و يزعم بارلو في شعره أن الله بارك المهاجرين إلى أرض " كنعان الجديدة " التي ستتأسس فيها مملكة الإله حتى نهاية الزمان كما بارك المهاجرين مع موسى عليه السلام .

و لم يزدد الأمريكيون إلا شغفا بالشبه الذي بينهم و بين الإسرائيليين بعد أن تم لهم النصر على إنجلترا و استقلوا و أسسوا جمهوريتهم الفيدرالية . و اعتبروا نصرهم ذلك إنقاذا إلهيا لشعب مختار . كتب أول رئيس لجمهوريتهم جورج واشنطون رسالة إلى يهود مدينة سافانا بولاية جيورجيا يقول فيها :

[1] نفس المصدر ص 27 .

" كما خلص الله الإسرائيليين من الاضطهاد في مصر و نقلهم إلى أرض الميعاد ، أراد الله للولايات المتحدة الأمريكية أن تحقق نفس الهدف " .

و نجد التوكيد على الشبه بين الشعبين فاشيا في أدبيات القرن الثامن عشر و ما بعده ، يقارنون وجود الشعب الأمريكي في الأرض بوجود الشعب اليهودي ، و يطمحون أن يكون عطاء " إسرائيل الجديدة " في مستوى عطاء إسرائيل الأم . هذا الروائي الأمريكي الشهير " هرمان ملفيل " يتحدث عن مكانة الشعب الأمريكي في تاريخ الإنسانية يقول : " نحن الأمريكيين شعب خاص مختار . نحن " إسرائيل " هذا العصر . نحن نحمي معبد الحرية من أجل العالم أجمع . تحررنا منذ سبعين عاما فوهبنا الله بالإضافة إلى قارة كاملة أراضي الملحدين كلها . لقد قدر الله لشعبنا أن يقدم للبشرية أمورا عظيمة و لا يشك أحد بأن المسيح السياسي قد نزل في أمتنا ليخلص العالم " .

هذا تطوير ذكي أمريكي لأسطورة " المسيح المخلص " أو " الماشيح " العبري . مسيح سياسي يتمثل في شعب أمريكا و سياستها للسيطرة على العالم بقصد تخليصه . و مشروع الصهيونية العالمية لا يختلف تصورا و لا تخطيطا عن المشروع الذي يناجي ضمير كل أمريكي و الذي عبر عنه المؤلف الشهير .

أما عقيدتنا فهي خروج المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، و نزوله ليحكم بالإسلام و يستأصل الشرك ، و قبل نزوله عليه لسلام " وعد الآخرة " و انتصار جند الله .

من الرمز إلى الواقع

في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر بتاريخ النصارى كان واقع اليهود في العالم وضيعا مهينا . في الوقت الذي كان رئيس الولايات المتحدة الأول و بطل تحريرها واشنطون يتحبب إلى يهود جيورجيا في رسالته كان اليهود المتفرقون في العالم ، يهود الشتات (دياسبورا) يعيشون في مذلة أسفل السلم الاجتماعي . في الوقت الذي كانت فيه الثقافة الأمريكية الوليدة تتغذى بأحلام صهيون ، و المملكة الألفية ، و انتصار " إسرائيل " الجديدة كانت " إسرائيل " الحقيقية تتمرغ في الوحل و الجهل و الرذيلة من كل نوع .

حل يهود الشتات في شتى بقاع الأرض منذ أن أخرجهم الله من ديارهم على أيدي من سامهم سوء العذاب من أشوريين و بابليين و رومان و غيرهم من نصارى الإسبان الذين كروا على الأندلس المسلمة فأخرجوا اليهود من حضن الذمة الإسلامية الهادئ السالم الأمين . و حيثما حلوا تنم دناءتهم عن خبثهم الأصلي فتشمئز من عشرتهم الشعوب ، و يفضلون هم الانطواء على أنفسهم حفاظا على هويتهم و التفافا حول تلمودهم ينتظرون نزول " الماشيح " ليخلصهم .

كان مسكنهم في كل بقعة سكنوها (الجيتو) عبارة عن مكان قذر تتفشى فيه الأمراض و تتراكم فيه الأزبال . و سبحان الله الذي خصهم بالقذارة الحسية كما خصهم بالقذارة المعنوية . و في الحديث النبوي الشريف نهى عن ترك الأزبال تتراكم كما يفعل اليهود . و ما من دارس اجتماعي في كل عصر للجيتو إلا و كان الذي لفت نظره أول شيء تراكم القاذورات .

كان الجيتو في أواخر القرن الثامن عشر سجنا عالي الأسوار له بوابة واحدة يمنع اليهود من مغادرته . و خلف أسوار المهانة كانت أعدادهم المزدحمة تتمرغ في الرطوبة و العفونة و الرذيلة ، منفصلين عن العالم الخارجي ، عاكفين على دراسة التلمود و التوراة و " المدراش " . كانت أجسادهم تعيش

هنا و هناك في الحضيض ، و كانت نفوسهم تحن إلى فلسطين و تعيش بشوق تؤججه الغربة و الحقارة رمزية الخلاص على يد " الماشيح " و قيام الدولة الألفية .

كانت عزلتهم الثقافية أشد انغلاقا من أسوار الجيتو ، و كان اهتمام مدارسهم منصرفا كليا و بتزمت شديد إلى تعلم اللسان المقدّس " لشون هاقدوش " . كان حراما على أحدهم أن ينظر في كتب الأميين ، بل كان تعلم أبجدية الأميين كفرا يستحق عليه اليهودي أن تُحرق عَيْناهُ .

و مر القرن التاسع عشر بتاريخ النصارى ، خطا فيه اليهود خطوات عملاقة خارج الأسوار والعزلة ، و هاجروا بأعداد كبيرة إلى العالم الجديد حيث تلقاهم " التّماسيح " و " النية السليمة " التي نعرف الآن مغزاها و معناها . تلقاهم البروتستانت الذين رأوا على هامة كل يهودي تاج " مجد الاضطهاد " . و رأوا في هجرة شعب " إسرائيل " الحقيقي إلى الأرض الجديدة بركة من السماء توذن بقرب المملكة التي ستسيطر على العالم .

و هكذا أخذ واقع اليهود يتحول من الذلة و العزلة إلى الانفتاح على العالم و الاعتزاز بالانتماء إلى شعب الله المختار . و كانت نهضة يهودية في ألمانيا قادت الحركة الصهيونية اليهودية ، و نظّرت لها ، و فكرت البرنامج و وضعت الخطة .

في مطلع القرن العشرين كان لليهود شأن كبير في إنجلترا ، ارتفعوا إلى القمة و ظهر دزرائيلي رئيس الوزراء . في فرنسا طلع القرن العشرون على قضية " دريفوس " الشهيرة التي تجند فيها جانب كبير من الرأي العام للدفاع عن الضابط اليهودي حتى برأته المحاكم . ارتفعت قضية دريفوس إلى مرتبة القضايا الوطنية الكبرى لا لأنها قضية عدالة ، لكن لأن " مجد الاضطهاد " أعطى لمظلومية اليهودي المحتملة شحنة عاطفية أجاد الإعلام اليهودي إضرام نارها . و في أوربا كلها انتشرت مملكة " روتشيلد " بمصارفها و مشاريعها .

لكن أمريكا كانت مهد النشأة الحقيقية الذي تطورت فيه " رؤيا صهيون " من رمزية بروتستانتية إلى مشروع مشترك يجره اليهود و يدفعه حلفاؤهم بالإمداد المعنوي و السياسي . من حضيض واقع

الجيتو طلع يهود العالم إلى الواقع الذي نراهم معه سادة منتصرين محتلين أرض فلسطين ، طامعين في المزيد ، رافضين حتى التفاوض مع العرب الذين يعرضون على العتبات اليهودية الأمريكية قرارات الحلول التنازلية . و من الحلم اليهودي المكبوت الخامل في الجهل و المرض و قاذورات الأسوار المغلقة تلَقّح حلم " صهيون " الأمريكي البروتستانتي باندفاعة جديدة ، و جرأة جديدة ، و يقين بالنجاح جديد .

التفت النصارى الأمريكيون الصهيون إلى الشرق طيلة القرن التاسع عشر ، يزورون القدس الشريف ، و ينشرون دعوهم التنصيرية ، رجاء أن يتنصر العرب و اليهود جميعا ، و انتظارا لنزول المسيح . كانوا يترقبون قيام مملكة " إسرائيل " ، و يؤسسون الجمعيات لتسهيل إنشائها . بل قامت مذاهب بروتستانتية جعلت عقيدة مملكة " إسرائيل " جوهر دينها ، و مدار نشاطها ، مثل مذهب " المورمونية " و " السببية " و غيرهما .

هذه الجمعيات و المؤسسات و المذاهب كانت تنتظر قيام الساعة و نشوء الدولة الألفية و تعتبر مملكة " إسرائيل " مملكة الإلــٰه . كان الخلاف بين هذه المذاهب يطرح السؤال عن المكان الذي ستنشأ فيه مملكة الإله تلك المزعومة ، ففريق كان يُجيز أن تقوم في أي بقعة من العالم ، و فريق كان يصر على أن " إسرائيل " لا ينبغي أن تقوم إلا على جبل " صهيون " الحقيقي في أرض فلسطين . لذلك كان وَلوع هؤلاء بالشرق ، و زياراهم للدولة العثمانية ، و اتصالهم بيهود الشتات . ساير نشاطهم هذا نشاط اليهود أنفسهم ، و عاصره ، و واكبه . اتحد الرمزان و التحم المجهودان .

" المورمون " اعتقدوا أن مملكة الإله ستقوم في أمريكا ، فهاجروا إلى صحراء " يوتا " من كل الأنحاء ، و أسسوا عاصمتهم " سولت ليك ستي " حيث أنشأوا معبدا ضخما رمزوا به إلى القدس الشريف . و زعم مؤسس المذهب " جوزيف سميث " بأنه عثر على ألواح موسى عليه السلام في أمريكا ، و أن قبيلة من بني إسرائيل هربت من كنعان إلى شمال أمريكا هم الذين أتوا بالألواح و دفنوها إلى أن عثر عليها . و زعم أن الهنود الحمر هم من نسل أولئك اليهود المهاجرين . و صدق طائفة من الهنود مقالته ، و انضووا تحت لوائه .

أما المذاهب و الجمعيات التي كانت ترى أن المملكة الألفية لا مكان لها إلا على جبل " صهيون " الحقيقي فقد انصرفت بهمة ونشاط إلى " التبشير " و التهييء . يقول أحد زعماء هذه الحركة و هو

" مبشر " يدعى " جون باركلي " بعد أن طاف في أرجاء القدس و تفقد نتائج العمل " التبشيري " هناك : " إن مؤسسة التبشير التي تقع بعثة القدس ضمن صلاحيتها تباشر واجباتها في محاولة الوصول إلى أهداف التبشير . و هي مصممة بإجماع و حكمة أن تقدم أول محاولة لخلاص " إسرائيل " و القوم السامين (أي من النسل السامي) الذين تتألف منهم . فالخلاص كما يقول الإله هو لليهود " . و يلخص باركلي أهدافه و أهداف البروتستانتية الألفية قائلا : " يجب أن نوجه جهودنا إلى الهدف الأسمى و هو هداية " إسرائيل " و إعادة تأسيسها . إذ على تحقيق ذلك الهدف يعتمد هدم صروح أعداء النصرانية و خلاص العالم " .

منذ كتب لوثر عبارته البليغة في تمجيد اليهود ، و البروتستانت – خاصة الأمريكيون – يحملون لليهود تقديسا كبيرا . تقديس يعبر عنه كل جيل منهم و كل صنف من زاوية اهتمامه . فالشاعر يتغنى بالرمز ، و الكاتب يتحدث عن الأمجاد ، و المؤرخ و المنصر و الرحالة و السياسي و رجل الشارع .

حُلم " صهيون " و " مجد مملكة الإله " مقترن في الضمائر ، مدفون فيها مخزون ، بهداية اليهود إلى النصرانية و خلاصهم من الاضطهاد ، و جمعهم من الشتات ، و إعادة تأسيس مملكتهم . و ليس هذا الحلم بعيدا عن تماسك الشعب الأمريكي نفسه و قوته و إنجازاته . فالمورمون الذين صاغ لهم متنبِّئُهم " سميث " عقيدة أسطورية مركزة على الأرض الأمريكية قاموا بأعظم الإنجازات ، و حولوا صحراء " يوتا " إلى إحدى أغنى الولايات المتحدة . حلم " صهيون " الأمريكي المحلي كان لهم الحافز الحافل .

أما الحلم الآخر ، حلم الذين ركزوا على الخارج ، على أرض فلسطين و القدس ، فنرى نتائج جهودهم في خدمة سادتهم اليهود .

و من الناس من يعطي أمريكا في تحليله لواقع الاحتلال و سكنى القدس الأهمية الأولى ، معتبرا أن اليهود أداة مُسخرة و كيانا مجعولا لصيانة المصالح الأمريكية الاقتصادية و الاستراتيجية . ذلك الطرح سطحي يعطي لحجم الدولة العظمى و قوتها الظاهرة و تعداد سكانها و وفرة خيراتها و تنوع خبراتها كل الاعتبار ، و يقصي اليهود القليلي العدد من حسابه . بينما العكس هو الصحيح ، أو على الأصح فإن

لحجم الدولة العظمى و قوتها و وجودها المسيطر في العالم أهمية الجسم ، و لليهود و رمزيتهم التاريخية مكان الروح و السيادة .

و لكي نستوعب هذا المعنى جيدا نعيد كتابة عبارة لوثر مؤسس المذهب البروتستانتي الذي تفرعت عنه أو تأثرت به أو انشقت عنه مذاهب أمريكا و كنائسها و جمعياتها و إرسالياتها .

قال : " شاءت الروح المقدسة أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس للعالم عن طريقهم وحدهم (أي اليهود) . إنهم الأطفال و نحن الضيوف و الغرباء . و علينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها " .[1]

ذكرت مرجع هذه العبارات لأن الاستخذاء الشنيع الذي كتبه ذلك الزعيم الثائر تجاه اليهود لا يكاد يصدق . و من هذا التعبير الذي أفلت من رجل كان معروفا بحدته ، أو كتبه بقصد و اقتناع تامين نشأ عند البروتستانت تعظيم للشأن اليهودي " شعب الله المختار. حتى إذا أصبح لهؤلاء الأطفال " المقدسين " الذين كانوا هَمَلا و نسيا منسيا في عهد لوثر مطالب و رغائب و مشروع ، و خرجوا من الجيتو ، و صار لهم تنظيم عالمي و جمعيات و سيطرة ، انبرى " الأضياف و الغرباء " على مائدة اليهود " المقدسة " يتسارعون في الخدمة .

تبلورت في أوائل القرن العشرين فكرة الوطن اليهودي في فلسطين الذي عزز الانتداب البريطاني مسيرته ، و تزعم الأمريكان يهودا و " مبشرين " عملية اقتلاع العرب من فلسطين .

كتب أحد الأمريكان سنة ***1945*** في كتاب : " رحلة الحج إلى فلسطين " ما يلي : " إن أفضل حل لتلك المشكلة (يقصد عودة اليهود إلى فلسطين) هو اقتلاع سكان المنطقة و إحلال عرق أسمى مكانهم " .
و كتب " جون باركلي " بعد عودته من الطواف بفلسطين كتابا بعنوان : " مدينة الملك العظيم القدس كما كانت ، و كما هي الآن ، و كما ستصبح في المستقبل " .

---

[1] عزاه مؤلف " الصهيونية غير اليهودية " للوثر في كتاب : MARTIN Luther :Saemtliche Werke Vol.29 PP.7-46

و الأمثلة كثيرة قبل باركلي و بعده تؤكد أن " رؤيا صهيون " أصبحت جزءا لا يتجزأ من التراث الثقافي و الديني في أمريكا . و لم يكذب اليهود و لا بالغوا في شيء عندما زعموا أن " جوهريات " أمريكا يهودية كما نقل ذلك عنهم كتاب فورد . و تنعكس هذه الجوهريات في الموقف الأمريكي المعاصر انعكاسا مباشرا يترجمه الدعم غير المشروط سياسيا و اقتصاديا و عسكريا و كليا .

عملت " الصهيونية غير اليهودية " ، صهيونية الضيوف و الغرباء ، يدا مع صهيونية أطفال البيت المدللين . و تعاونتا تعاونا وثيقا و اندمجتا حتى لا تتميز هذه عن تلك إلا شكليا لذر الرماد في العيون أحيانا عندما تقتضي الدبلوماسية تلطيف الأجواء . و حلم المهاجرين الأولين بمملكة الإلــٰه لا يزال حيا فاعلا محركا . و هذه بعض الأمثلة .

" بيلي جرهام " اسم ألمع خطيب و منصر في أمريكا منذ أربعين سنة . له دولة داخل الدولة ، و هو المستشار الديني منذ زمان لرؤساء الولايات المتحدة . و ضع " بيلي " هذا حوار فيلم صهيوني سنة ***1977*** ، تقول دعاية الفيلم : " إن إسرائيل اليوم هي شهادة حية على صدق كلام أنبياء العهد القديم و بشارة بعودة المسيح . إن إحياء دولة إسرائيل بقرار الأمم المتحدة لهو حدث إنجيلي وقع في القرن العشرين " . و من جملة الحوار قول مستشار الدولة الأمريكية : " إن الله قد حقق وعده الذي قطعه على نفسه بأن يسمح بتأسيس دولة إسرائيل " .

و نشرت صحيفة " نيويورك تايمز " في ***1 - 7 - 1976*** إعلانا على صفحة كاملة وقعت عليه خمس و مائة كنيسة متحمسة . يقول الإعلان : " إن من يحارب حق إسرائيل في أرض إسرائيل لا يحارب إسرائيل فقط ، بل يحارب الله و التاريخ " .

جهود متواصلة ، و عقيدة مستمرة ، و ولاء لا يعرف الشك . في سنة ***1919*** كان دعم الرئيس الأمريكي ولسون أثقل وزنا من دعم إنجلترا . و في سنة ***1943*** رأى الأمريكيون على شاشة التلفزة ، و هي لا تزال طرية في خطوات ميلادها شديدة الإغراء ، برنامجا دام ساعة ونصف عنوانه : " إسرائيل مفتاح البقاء لأمريكا " . في هذا البرنامج دعا اثنا عشر زعيما أمريكيا مواطنيهم لتوقيع وثيقة أسْمَوْها : " إعلان مباركة دولة إسرائيل " . و وقع عليها أكثر من مليون أمريكي و رُفعت إلى البيت الأبيض .

هنالك دعم بلا حدود للكيان الصهيوني المتمثل دولة في فلسطين . و رغم أن هذا الدعم يخضع لعوامل داخلية و خارجية و ظرفية و مصلحية أيضا ، فإن الباحث المتأني المتأمل يمكنه أن يميز الدافع الأساسي و الجوهري لرؤية صهيون . لم يغبْ هذه الرؤيا لحظة عن الميدان ، و ما تزيد رمزيتها إلا تعمقا في ضمير النصرانية المصهينة كلما حصل اليهود على انتصارات و تمكن في أرض الواقع .

و بالحق أنزلناه

نعود إلى سورة الإسراء لنقرأ كلمة الله الحق المبين على بني إسرائيل . قال الله جل سلطانه : « فَإِذَا جَـآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿ 104 ﴾ وَ بِٱلْحَقِّ أَنْزَلْنَـٰهُ وَ بِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَ مَـآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا ﴿105﴾ » (سورة الإسراء) .

الخطاب موجه إلى بني إسرائيل أن يُجاء بهم لفيفا ليوم وعد الآخرة . و بالحق نزل القرآن بذلك ، و بالحق أنزله الله تقدست أسماؤه . و الخطاب بعد ذلك موجه إلى الرسول المصطفى صلى الله عليه و سلم أنه ما أُرْسل إلا بالبشارة و النذارة .

في السياق الشريف معان متتالية مرتبطة يتبيّنها من أراد أن يدّبّر . فيه أن لبني إسرائيل موعدا ثانيا بعد أن يعلوا في الأرض عُلوا كبيرا و يفسدوا فيها . فيه أن ذلك حق لا ريب فيه . فيه أن البشارة و النذارة يتضمنهما الإخبار الإلهي و التبليغ النبوي .

نرى في واقع هذا الزمان كيف علا بنو إسرائيل علوا كبيرا حتى أصبحوا بشهادة كل من له عقل و اطلاع أعظم تنظيم عالمي يتحكمون في جهاز أكبر دولة و أقواها في العالم . و ما نعت الله تعالى و تقدس علوهم الموعود بالكبر عبثا . و يعلم وحده عز و جل إلى أي مدى سيستمر علو اليهود و إفسادهم فوق ما نشاهد .

نرى علوهم رأي العين لا نرتاب . و بالحق نزلت البشارة بذلك في كتاب الله و النذارة .

يبقى أن نفهم عن الله تعالى ، رجوعا إلى أول سورة الإسراء ، أن النذارة موجهة للفسقة الفجرة المفسدين في الأرض . و أن البشارة معنيٌّ بها " عباد لنا أولي بأس شديد " يدخلون المسجد المقدس كما دخله أسلافهم من قبل .

و يبقى أن نقرأ آيات الله في الكتاب العزيز و آياته جل شأنه في الكون على ضوء سنته تعالى في التاريخ التي لا تتخلف قراءة متزامنة شمولية ، لا نغض الطرف عن جناح من الواقع المنكشف أمامنا و لا ننسى آية من الحق الذي أنزل إلينا .

من آيات الله العظمى في الكون ، بالنظر للمسألة التي تهمنا هنا ، أن يكون اليهود مدفوعين دفعا ذاتيا قويا إلى الالتفاف و الانتظام و الإسراع إلى أرض يعتبرونها – عقيدة ثابتة لديهم – أرض الميعاد . و هي هي أرض " وعد الآخرة " في ديننا و قرآننا . لا ننسب وجود هذا الواقع عندهم إلى صحة ما يَرْوُونه من النبوءات عن أنبياء الله عليهم السلام . فهم محرفون كذابون , لكن ظهور هذه العقيدة الألفية عندهم و عند حلفائهم ، و مكانتها و أهميتها في تحفيزهم ظاهرة عظيمة برزت آثارها في الكون البروز الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة . فإن لم تكن لنا ثقة بروايتهم عن الأنبياء ، على نبينا و عليهم أفضل الصلوات و أزكى التسليمات ، فالنتيجة ماثلة أمامنا ، ناصعة مطابقة للحق المنزل إلينا .

ما كان لأنبياء الله عليهم السلام و هم أمناء الوحي بعثوا مبشرين و منذرين بالحق أن يفتروا على الله الكذب و أن يخبروا اليهود أن دولتهم يوما ما ستكون " مملكة الإله " التي تخلص البشرية . حاشاهم ثم حاشاهم عليهم السلام .

إن رب العزة جل و علا أخبرنا في كتابه الكريم أنه سبحانه رتَّبَ في سُنَّته أن يمهل القوم الكافرين الظالمين ، و أن يملي لهم ، و أن يزين لهم سوء عملهم حتى يروه حسنا ، و أن يكيد عليهم من حيث يحسبون أنهم يكيدون كيدا لمصلحتهم و مكر الله عز و جل و كيده أمتن .

فمن كيده سبحانه و تدبيره المطابق لسنته أن يجد أخلاف اليهود بقايا من أخبار الأنبياء عليهم السلام لم يكتمها أحبارهم الأولون ، منها " رؤيا صهيون " و الوعد الألفي . لم يكتمها الأحبار لكن حرفوها و أولوها ، و هم وحدهم المصدقون في ملة التلمود ، و زخرفوها ، و زينوها ، و أملاها الجيل على الجيل ، و تواصوا بها ، و احتضنوها ، و أعدوا لاستقبالها العدة . حتى إذا جاء الوقت أخرجهم ربنا العلي القدير من عزلتهم في " جيتوات " الشتات ، و جاء بهم لفيفا لوعد الآخرة .

و هم يحسبون أنما اجتمعوا لجميل يُراد بهم . أمدهم الله ربنا بالأموال و البنين كما أخبرنا في كتابه فحسبوا أن تلك الإمدادات كرامة و تنعيم . و عن كل كافر مغتر بما لديه يقول رب العزة تعالى و تقدس : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَ بَنِينَ ﴿ 55 ﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَ ٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿56﴾ » (سورة الإسراء) .

كذب اليهود على أنفسهم إذ صدّق الأخلاف منهم أنه يوما ستكون لإسرائيل دولة ممجدة في السماء . و رافقهم في تصديق المجد الألفي طائفة كبيرة من الملة النصرانية . فلما ظهرت الدولة في الأرض و انتصرت على العرب ، و استمرت منذ أربعين سنة الآن ، و لا يزيدها الاستمرار إلا استقرارا و رسوخا ، تيقن اليهود و من معهم من النصارى المهودين أنهم شعب الله المختار .

فانظر عافاك الله كيف انطوى مكر الله بأعدائه في ثياب النصر و العلو في الأرض و المَنَعَة و كثرة النفير و قوة النصير ، سكنى الأرض و مجد الأرض و العلو فيها و الإفساد أمر إلهي مقضي ، و إرادته الكونية كانت خبرا موحى بها و هي أمام أعيننا الآن ماثلة .

« وَ إِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿ 11 ﴾ » (سورة الرعد) .

يحسب اليهود أن نجاحهم في إنشاء دولة تظهر لهم و للناس الذين لا يقيمون وزنا إلا للمعايير المادية منيعَةً حصينة راسخة القدم في السياسة العالمية معضدة معتمَدَة مدججة بالسلاح مضمونة المستقبل الآن بعد أن أصبحت تصنع القنابل الذرية و الهيدروجينية و تصنع الصواريخ الحاملة الضاربة .

يخيل لليهود و لكل غافل عن سنة الله تعالت قدرته ، غافل عن سنته جل و علا ، غافل عن مكره و كيده المتين و استدراجه ، أن الدنيا أصبح زمامها في قبضة اليهود و حلفائهم ، يمثل الأمريكيون ، و هم نصير الصهيونية و نفيرها ، الشطر الأرجح في ميزان القوة العالمية ، فلا يظهر في أفق الغافلين القريب و لا البعيد ما يُبرّر أملا في أن ترجح يوما كفة المسلمين عباد الله فيمكن تصور دخولهم إلى المسجد المبارك حوله يجوسون خلال الديار و يقتلون عدو الله و عدوهم وراء الأشجار

و الأحجار تتنكر لهم و تتظاهر عليهم حتى هذه المخلوقات . كيف يصح عند الغافلين عن الله أن تتظاهر الأشجار ، عدا شجرة الغرقد و هي شجرة اليهود ، و تنطق و تميز بين اليهودي و غير اليهودي ؟ ثم إنْ صدّق الغافل بمعجزات الأنبياء و كرامات أولياء الله المجاهدين فكيف يتصور خروج الأمة الإسلامية السادرة في غثائيتها ، و تخلفها العلمي و الصناعي و تمزقها ، و تحكم الفاسقين من أبنائها في مصيرها ، و تبرز في العالم قوة لها وحدة و شوكة تضاهي القوى العالمية ، و تتحدى إرادتها المُجمعة على بقاء " إسرائيل " و الصلح مع " إسرائيل " ، المعسكر الاشتراكي لا يقل اقتناعا بذلك و حرصا عليه من المعسكر الغربي ؟

إن الذي أخرج اليهود على مدى قرنين من الزمان يهود " الجيتو " إلى مجال السياسة العالمية حتى أصبحوا نجمها اللامع قادر سبحانه أن يخرج الأمة الموعودة بالعُقبى من ورطتها . من سنته سبحانه أن يفعل ذلك ، و من الحق المُوحى به المنزل إلينا المقروء في كتابه أن يفعل ذلك . بشرط سنته في التاريخ ، و في إطارها لا خارجه ، و لا استثناء منه ، و لا رَوغانا عنه . إلا ما شاء الله جلت عظمته من خصوصيات اختص بها الأمة المرحومة بعد بلاء يصيبها إلى حين بلوغ الكتاب أجله .

إن الذي أخرج يهود خيبر ليوم حشرهم و إجلائهم ، و هم كانوا يظنون أن حصونهم مانعتهم من الله ، قادر لا يزال على خذلان يهود هذا العصر و حلفائهم ، قادر على نصرة أمة الإسلام المستضعفة في الأرض كما نصر محمدا عبده صلى الله عليه و سلم و صحابته رضي الله عنهم . من حضيض الجاهلية رفع سبحانه بالإيمان و الجهاد أولئك الأعزة ، من تشتت قبلي و جهالة و فوضى رفعهم حتى تفوقوا في زمن مطوِيٍّ لهم على أعتى و أقوى دول ذلك الزمان .

كذلك وعد سبحانه أن تكون بعد الكبوة التاريخية نهضة ، أن تكون بعد الحكم العاض و الجبري خلافة ثانية . من الفتنة ينقذنا المولى القوي العزيز كما أنقذ أسلافنا من الجاهلية ، إن سمعنا ما أنزل إلينا كما سمعوا ، و عبدناه سبحانه العبادة الكاملة كما عبدوا ، و غيرنا ما بأنفسنا كما غيروا ، و احترمنا ناموسه و سننه و أسبابه الموضوعة في الكون كما احترموا .

و إن شاء جلت قدرته خسف الأرض بمن شاء ، و زلزل الأرض بمن شاء ، و أهلك من القرى و الحضارات المُزيّنة الظان أهلها أهُم قادرون عليها ما شاء بما شاء . كل ذلك من سنّته . فعل ذلك بعاد و ثمود ، و بإرَمَ ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، و بفرعون ذي الأوتاد . و ما قراءتنا في القرآن لتلك المثلات مدعاة للتواكل و الإيغال في الأحلام إن كنا من ذوي الألباب . بل نعد القوة كما أمرنا و لا نخرج من حسابنا فعله سبحانه الذي لا يتقيّد ، و يأتي سبحانه و تعالى أعداءه من حيث لا يحتسبون .

من كان يحسب بمنطق التاريخ أن فلول اليهود في " جيتوات " العالم مشتتين تكون لهم هذه الكائنة الباهرة في أقل من قرنين ؟ و في نفس المدة تَنْقَهر و تندثر الدولة العثمانية شوكة الإسلام المجيدة ، و تنسى و تصبح أثرا بعد عين .

ساقت القدرة الإلهية بني إسرائيل إلى حيث نراهم من المكان و المكانة و التمكن ليقوموا بأعمال الشيطنة و التخريب في العالم . و زين لهم الشيطان قرينهم أعمالهم و صدهم عن السبيل لما أعرضوا عن دين الله و حرفوا فخذلهم الله و غضب عليهم و مسخهم و جعل قلوبهم قاسية أشد قسوة ، لكي يكونوا جرثومة " داء الأمم " و بُؤرة الجاهلية و مصدر الفتنة و خلاصة الكفر .

تلك سنة له سبحانه معروفة أن يُقَيّض لأعدائه شياطين من الجن و الإنس ، و أن يسلط بعضهم على بعض .

جاء اليهود لموعد الآخرة لفيفا بمقتضى قانون إلهي من صميم سنته تعالى ، لكن لا يبصره من عشا عن ذكر الرحمان . صدقوا التَّنَبُّؤَ الألفي ، و سادوا على ضوئه . فإن كانت ثمة نبوءة في الموضوع فهي أثارة من علم حرفها الأحبار . و إن كان حرفها الأحبار فعملهم شيطنة . و الشيطنة شأن خسيس يكل الله عزت قدرته دوره لمن غضب عليهم و أضلهم و أعمالهم . قال تعالى : « *وَ مَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ* ﴿ 36 ﴾ *وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ* ﴿ 37 ﴾ » (سورة الزخرف) . و قال عز من قائل

في سياق الإخبار عن خذلانه جل شأنه لأعداء الله : « *وَ قَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَـآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَ ٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿25﴾* » (سورة فصلت) .

زين شياطين الجن لأحبار اليهود ما بين أيديهم من متاع الدنيا ينالونه بالرئاسة ، و ينالون الرئاسة بتوجيه الخلق إليهم حتى يصبح الخلق لهم عبيدا من دون الله . و زينوا لهم ما خلفهم من تراث الأحبار الذين حرفوا من قبلهم كلام الله .

و زين الأحبار لليهود ما بين أيديهم من " رؤيا صهيون " و ما خلفهم من أسطورة كونهم " شعب الله المختار " .

و زين اليهود للنصارى المصهينين ما بين أيديهم من الحلم الألفي المقترن تحقيقه بهداية اليهود و رجوعهم إلى القدس و ما خلفهم من كرامة الجلوس حول مائدة الأسياد كما يجلس الكلاب . و قد جاء في التلمود ما يلي : " إن الأعياد المقدسة وضعت لإسرائيل و لي للأغراب و الكلاب " . لهذا اعتبر لوثر نفسه و أتباع مذهبه غرباء و ضيوفا كالكلاب على مائدة أطفال البيت .

تزيين في تزيين . مكر الله حين يخذل أعداءه ، و دور الشيطنة الذي برَّ فيه شياطين اليهود الشيطان الأكبر نفسه . فقد اخبر الله تعالى عن الشيطان الرجيم أنه يعرف الله و يخافُ الله حتى بعد أن سقط عن المرتبة العالية التي كان فيها حين دعي مع الملائكة ليسجد لآدم فأبى و استكبر و كان من الكافرين . قال الله تعالى عن الشيطان في عمله مع مشركي قريش قبيل معركة بدر : « *وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَ إِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَ ٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿48﴾* » (سورة الأنفال) .

الشيطان يعرف الله و يخافه ، أما شياطين اليهود فجرأتهم على الله لا نهاية لها . و هم لا يستكبرون على الخلق فقط و يعتبرونهم كالكلاب ، بل تكبروا على الله عز و جل ، و على أنبيائه . في يدنا الخبر الصدق عن ذلك في القرآن إذ حكى الله تعالى قولهم : « يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ » (سورة المائدة ، 64) ، و قولهم لعنهم الله : « إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَـآءُ » (سورة آل عمران ، 181) . و في كتبهم الطوام مثل قول أحدهم : " اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء " . و قول آخر كتب حوالي سنة *1590* بتاريخ النصارى : " إن من يقرأ التوراة بدون المشنا و الغمارا فليس له إلـٰه " .[1]

و في تلمودهم ، أسفار الغمارا ، قبحهم الله : " إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها و لا تغييرها و لو بأمر الله . و قد وقع الاختلاف يوما بين الله و بين علماء اليهود في مسألة ، و بعد أن طال الجدال تَقَرَّرت إحالة المسألة إلى أحد الحاخامات الربيين ، و اضطر الله (تعالى) أن يعترف بخطئه بعد حكم الحاخام المذكور " .

لولا حماقة هذا الكلام السافل التي تنم عن جهل لا ينتهي لما تحملنا نقلها .

يقول الربي مناحم : " إن الله يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلها في السماء . و أنه يجب الالتفات إلى أقوال الحاخامات أكثر من الالتفات إلى شريعة موسى " . جل الله و الصلاة على محمد و موسى و أنبياء الله و السلام و البركة .

شيطنة الشيطان الجني لبني آدم لإغوائهم عن طريق الله . أما شيطنة اليهود فطعن في الذات المقدسة . فأيهما أخبث و ألعن : إلحادُ الماديين الجاحدين وجود الله أم إزراء اليهود بالربوبية و طعنهم في الألوهية ؟ و من هذه الشيطنة و ذلك الإلحاد تتكون " الثقافة " اللادينية الهاجمة على النصارى و علينا من خلالهم ، و تتكون " الثقافة الدينية " التي يتزعمها اليهود في العالم بهذه الخلفيات الشيطانية . و ليس " وعد الآخرة " بالمكانة العظمى التي يعطيها القرآن إن كان صداما عسكريا فحسب . بل " وعد الآخرة " أن يجيء الحق المنزل في القرآن ليزهق الباطل ، كل الباطل ، بذهنيته و روحه

[1] أنقل هنا عن كتاب : " اليهود في موكب التاريخ " ص 467 – 468 .

و قِوامِه المادي . و يجيء الحق المنزل علينا المحفوظ برعاية الله تعالى و عنايته ليزهق باطل الجاهلية ، كل الباطل : ظنه و حميته و تبرجه و حكمه و تزيينه الشيطاني . و إنها لكبيرة إلا أن يسدد الله و يؤيد و يبارك و ينصر .

ظننا بربنا عز و جل ظن المومنين المحسنين ، و يظن اليهود و من في ركابهم بربهم ظن السوء ، لا جرم أن يؤول أمرهم بورا . دمرهم الله و أهلكهم .

و كيف لا يخزي الله و هو عزيز ذو انتقام قوما استهانوا بمرتبة الألوهية و سخروا ؟ نذكر من قاذوراتهم في كتابنا ليَصَّعَّد في قلوبنا الغضب لله تعالى و لحُرَمه . لا نكون على مستوى " وعد الآخرة " و لا على مقتضى سنة الله إن واجهنا حميتهم الجاهلية بحمية قومية ، و واجهنا ظنهم التلمودي و هم به متشبثون بظن من فكر العصر و ثقافته ، و واجهنا سفالتهم بنخوة بشرية . إنما نكون في المستوى و المقتضى إن كان غضبنا خالصا لله ، و إن حملنا في قلوبنا و عقولنا و أخلاقنا القرآن ، و إن ارتفعنا عن كل السفالات لعزة الإسلام .

هاكم إخواني و أخواتي القراء مزيدا من سفالات يهود و قاذوراتهم ، كرمكم الله ، لتغضبوا معي لله رب العزة . يقول التلمود إن الله جل و تعالى أخطأ حين خلق القمر أصغر من الشمس ، فلما احتج القمر أذعن الله له و اعترف بخطئه و قال : " اذبحوا ذبيحة أكفر بها عن ذنبي لأني خلقت القمر أصغر من الشمس " . و في التلمود ما لا يحصى من الادعاءات أن اليهودي أفضل من الملائكة لأن اليهودي جزءٌ من الله ، تعالى الله .

و يصف التلمود اشتغال الرب في يومه فيقول : " يقسم الرب النهار إلى اثنتي عشرة ساعة . في الساعات الثلاث الأولى يجلس الله و يدرس الشريعة . و الساعات الثلاث التالية يدين الشعوب . و في الساعات الثلاث التالية يغذي العالم بأسره . و في الساعات الثلاث الأخيرة يَلعبُ مع لافياتين مَلك الأسماك " .

و في التلمود أن الله جل و علا يرقص " و أول رقصة رقصها الرب كانت مع حواء بعد أن برَّجها و زيَّنها و سرَّح شعرها بنفسه " .

ألا ساء ما يزرون !



الفصل الثالث

الصحوة الإسلامية

بصمات جاهلية

عندما نُلقي في وجه الأعداء غضبا لأنفسنا ، ننتقم لهزائمنا ، لا نتجاوز رد الفعل المتخبط العاجز . الغضب لله يقتضي محو البصمات الجاهلية من عقولنا و نفوسنا و نظام حكمنا و عادات سلوكنا و أخلاقيات تعاملنا مع بعضنا و مع العالم ، و مع عدونا و صديقنا . ثم نعيد التركيبة على منهاج النبوة .

فلاحنا في الآخرة مشروط بأن نكون عبادا لله فرادى ، نجاحنا في الدنيا و ظهورنا على العدو مشروط بأن نكون عبادا لله جماعة . فالتركيبة المطلوبة في التربية و التحزب لله سبحانه و التعبئة للجهاد هي التركيبة التي نصبح بها مومنين مخلصين صادقين متحررين من كل رِقٍّ للدنيا ، و للهوى ، و للشيطان ، و للشيطنة الجاهلية . متطهرين من شوائب الفتنة و من " داء الأمم " .

إنه قد كثرت الأصوات المتحدثة عن الإسلام ، المعجبة بالإسلام منذ بضع سنوات بعد أن طردت الثورة الإيرانية الشاه و كان نموذجا للطاغوت المحصن وراء دروع الجيش و العون الأمريكي ، تحيط به الأبهة و الحرس ، و يمارس السلطة المطلقة لا يُرد له أمر . و تعالت عبارات الإعجاب و الفخر ببطولة المجاهدين في أفغانستان ، نصرهم الله ، و فدائية " الحالة الإسلامية " في لبنان التي أزعجت اليهود و أبطلت خطتهم في لبنان و اضطرتهم للانسحاب .

كلٌّ يتحدث عن الإسلام و " الصحوة الإسلامية " ، هؤلاء من داخل الصحوة و أولئك من خارجها . و تكاثرت التأويلات ما بين إسلام سياسي ، و إسلام جهادي ، و إسلام يساري . و من خارج الدائرة الإسلامية تأويل واحد ، هو أن " التزمت " و " التطرف " و " الإرهاب " أخطار تهدد الغرب الجاهلي و الشرق و أمن العالم و سلامة الحضارة .

رأى الملاحظون ، المعجبون منهم و الأعداء و أهل البيت الإسلامي أيضا ، نتائج حمل الشعار الإسلامي ، و نتائج التكبير و ذكر العلي القدير . و للاسم الأجلّ حرمته عند الله ، و للشعار الإسلامي قداسته و للانتساب للإسلام عزة يفيضها رب العالمين على من لاذ بجنابه العزيز .

لكن هذه الظاهرة الإسلامية المعجبة لقوم ، المزعجة أشد الإزعاج لأعداء الإسلام ، ما هي إلا تباشير صبح بدت في الأفق ، و نمَّت أشعتها عن أن الشمس هناك خلف الأفق ، عرفنا اسمها ، و فَرِحنا بسفرائها من النور الذين سعوا بين يديها . لكن حقيقة الشمس لا نعرفها إلا بكمال بزوغها . و كمال بزوغها حين تصبح الأمة ، في معظمها أمة قرآنية سنية ، حين يسطع الإيمان عقيدة ، و خطابا معبرا ، و عملا صالحا في قلوب العباد ، و عقولهم ، و نظامهم في الحكم ، و العدل ، و توزيع الأرزاق ، و نمط العيش ، و طهارة المجتمع ، و نظافة الأخلاق ، و العلم بأسرار الكون ، خبايا الطبيعة ، و القدرة على صناعة وسائل القوة ، و تدبير التكنولوجيا ، و خوض غمار الحياة الدولية .

هذا السرد الطويل تَفْصيل لمطلوباتنا الحيوية لنكون أمة مرعية الجانب ، مهيبة الخطا ، نافذة الكلمة في العالم . و هي أيضا مطلوبات الإيمان ، لا نكون عبادا لله بدون أن نحصل على هذه المواصفات و نتحلى بهذه الخصلات من خصال الإيمان . بدون ذلك يبقى الرِّق لغير الله تعالى مضروبا علينا .

سرد طويل للمطلوب منا أوردناه بعد سرد أطول لانبساط عدونا في الأرض ، و تمكنه فيها ، و سكناه معاقل القوة ، و المال ، و السياسة ، و الصناعة ، و الإعلام ، و كل آفاق الدنيا .

مطلوبات حق ، و استعلام عن العدو و مواقعه و انتشاره و تغلغله و مشروعه حق . لكن خطر المقابلة يهدد وعينا و فهمنا . لاسيما و نحن الأمة المستضعفة في موقف اضطرار و دفاع ، و في زحمة من أمرنا لا تترك الأحداث المفجعة لنا زمنا لترتيب أنفاسنا .

المقابلة و ضرورة المواجهة و المناجزة تشغلنا عن واجب التميز ، و تكدر نظرتنا ، و تقلب موازيننا . ففي أحيان كثيرة نتقدم بالإسلام إلى أنفسنا ، سواء كنا من أهل البيت أو من المعجبين و المعلقين ، و كأنه " بديل حضاري " . و بما هو بديل حضاري فلابد أن يكون متفوقا على المُبدل منه . فلابد أن يكون الإسلام أضمن للحرية من اللبرالية ، و لابد أن يكون العدل الإسلامي أوْفَى بمقصود الإنتاج و التوزيع من النظام الاشتراكي ، و لابد أن تكون الشورى نظام حكم أصلح من الديمقراطية ، و لابد أن يُكسبنا الإسلام أجنحة نطير بها عاليا عن حضيض " التخلف " ، و لابد أن

يكفل لنا الإسلام بمزاياه " الحضارية " كل مقومات الكرامة ، و " التقدم " ، و الازدهار ، و الرفاهية ، و " العطاء " الثقافي و الفني .

عند المقابلة و ضرورة المواجهة نقف وجها لوجه أمام النموذج الجاهلي المتفوق بمادياته و صناعته و علومه و اختراعه و تنظيمه و سلاحه و ماله فنبصر أنفسنا في مرآة الغرب الجاهلي ، و نقدر التحديات الواقعة علينا بالمعيار الجاهلي ، و نتأهب للمواجهة و المناجزة بأهبة معاكسة لأهبة الجاهلية ، مماثلة لها تماما كما تتماثل الصورة المنعكسة في المرآة مع النموذج .

و إذا القضية آخر الأمر قضية أرضية ، و إذا الصراع صراع أرضي ، و القيم أرضية ، و الوسائل أرضية ، و الأهداف ، و الخُطة ، و الاستراتيجية ، و التكتيك . و إذا بالكاتب من أهل البيت الخجول " بغيْبيات " إسلامه ، و إذا المعجب الفخور بانتمائه لأمة " صنعت التاريخ " و تصنعه في شُغُلٍ لعرض " الشخصية الإسلامية " ، و " الهوية الإسلامية " ، و " النظام الإسلامي " و المجد السابق ، و الأمل اللاحق . و لا ذكر في كل ذلك لله ، و لا للآخرة ، و لا لمعنى وجود الإنسان في الأرض ، و لا للجنة و النار ، و لا للثواب و العقاب ، و لا للنبوءة و الرسالة ، و لا للأمانة الباقية في أعناق الأمة أن تبلغَ رسالة الرسول الخاتم صلى الله عليه و سلم المبشرة المنذرة .

الدوافع أرضية صراعية في فهم الجاهلية و خطابها و ممارستها ، و الدنيا للدنيا ، و المجد للقومية و للعرق ، و المِحراب التاريخ ، و القانون قانون التاريخ ، و القبلة التاريخ ، و المستقبل لمن غلب ، و لا غلبة لمن تعرقل خطاه بقايا الماضي ، و غيبيات الماضي ، و مخلفات الماضي . الدنيا تطور ، و التقدم حق لمن تحرر من عوامل التخلف . " و ما يهلكنا إلا الدهر " !

هذه الدهرية الجديدة السارية في الهواء ، و الماء ، و الجو الثقافي ، " المعروفة " عند العقلاء ، المفروغ منها ، المتواضع عليها ، زعزعت منا العقيدة ، و حلت منا ما كان مربوطا من عرى الإسلام ، و فتقت ما كان مرتوقا من شعب الإيمان .

في سردنا الطويل آنِفاً لمطلوبات الإسلام منا كي نكون في مستوى العبودية لله ، و نحصل على المؤهلات التي ترجح بها كفتنا في ميزان سنة الله ، و يقبل ترشيحنا أنفسنا و أجيال أمتنا لمنصب خلافة الله ، سبَّقْنا مطلب أن " يسطع الإيمان عقيدة و خطابا معبرا و عملا صالحا في قلوب العباد " . و تلا هذه المقدمة القلبية الإيمانية ذيول و توابع ممتدة في العقل و نظام الحكم و العدل و توزيع الأرزاق إلى آخر السرد .

سبَّقنا المطلب القلبي لنشير ، و نحن في خضم استعراض الواقع الجاهلي ، و لنذكر بأن أصل الجاهلية و الفتنة و " داء الأمم " و الغثائية و ما ينتجُ عن هذه الأسْواءِ و الأدواء إنما هو مرض القلوب و فسادها .

نقف في هذه الفقرة لنذكر بأصل الداء و لكيلا ننْحرف مع الفكر السائد السطحي الذي يحسن أن يسرُد مطالب النهوض بالمسلمين على نمط التحليل المادي ، و قد يعرض لذكر العقيدة و إصلاح القلب ، لكن يصف هذا الإصلاح جنبا إلى جنب مع باقي الإصلاحات .

المعجبون بالإسلام الثوري يفعلون ذلك ، و " اليسار الإسلامي " أيضا . و الأدهى و الأمرّ أن تجد على فكر بعض أهل البيت الإسلامي أنفسهم بصمات التحليل المادي و التصنيف المادي و الوصف المادي للداء و الدواء . ذكرُ الله و شرعه في التحليل " الإسلامي " المسطح ، و ذكر الآخرة و مصير الإنسان ، و ذكر الثواب و العقاب ، و ذكر القدر الإلهي و علاقته بجريان الأحداث ، و ذكر القلوب و جيشان الإيمان فيها أو جفافها منه ، و ذكر الفتن التي تعرض على القلوب و تنكت فيها حتى تسوِّدها ، يبقى في الغبش . تترك في الغبش كل الغيبيات و يهبط " الدين " إلى السطر مع الكلمات الرفيعة الثمن في سوق الثقافة مثل " الأصالة " و " الذاتية " و " الشخصية " و " التراث " .

نقف في هذه الفقرة بعد أن استعرضنا التغلغل الصهيوني طويلا لنذكر بأننا في هذا الكتاب نتتلمذ للقرآن وحده . و نخضع لسلطة السنة المطهرة باذلين الجهد لكيلا تطغى اللغة المحملة في هذا العصر بالماديات على خطابنا . نقف و قد درسنا شطر الجاهلية الغربي الأمريكي من زاوية التصرف

الإلهي بقانون سنة الله تأهُّباً لدراسة الشطر الآخر من الجاهلية العالمية المعاصرة شطر المعسكر الاشتراكي . وقفنا لننفض عن العقل و القلب ما قد يكون عَلِق بهما أثناء استعراض الفاحشة اليهودية و الكيد اليهودي و الكفر اليهودي و الشيطنة اليهودية من غبار الفتنة ، و من الغضب النفسي ، و من بصمات العصرية و الحداثة . وقفنا لنتطهر من ظلال الفكر الذي ينظر إلى ذاته في مرآة العدو و هو مشغول في المقابلة و المواجهة و المناجزة ، فلا يبصر إلا الانعكاس و " البديل " و الضد .

وقفة تأهب . و وقفة تطلع من وسط الركام الفتنوي و غبش الفكر و عَشا القلب إلى أفق شرقي عزيز مشرق عند مطلع الشمس الجغرافي بالأنوار المتألقة منذ الفجر لشمس الإسلام .

عنَيتُ أفغانستان ، و جهاد أفغانستان ، و فدائية أُسْدِ الله في أفغانستان ، و حياة الإيمان في أفغانستان ، و عبق الطيب من أنفاس شهداء أفغانستان ، و كرامة الله لأوليائه المقاتلين في سبيله بأفغانستان .

سنة الله في التاريخ و وعد الله بالآخرة يتداولان الإسلام و الجاهلية انحطاطا و ارتفاعا و انتصارا و هزائم . و الدور علينا لما حلت الفتنة ، و سيطر الوهن ، و تسلطنت الغثائية ، و سكن اليهود الأرض ، و علوا فيها ، و أفسدوا فيها بعد أن أمدهم الله بأموال و بنين و جعلهم أكثر نفيراً .

فهل المعسكر الاشتراكي ، و هو الجناح الشرقي للجاهلية ، من نفير اليهود ، و هل سكن اليهود تلك الأرض ، و هل أثروا في أهلها ، و هل استبطنوا فيها العقول و النفوس ، و هل شيطنوا في تلك الجهة كما شيطنوا في الجهة الأخرى ؟

أسئلة نرجع إليها إن شاء الله في الفقرات المقبلة بعد توجهنا لمشرق الإسلام الكريم العظيم في أفغانستان .

يجعل المفكرون العرب ، و أدوات الإعلام العربية ،قضية فلسطين مِحْور اهتمامهم . و يساهم العرب مساهمة شائنة ظنينة خسيسة في التعتيم على أخبار أفغانستان ، و جهاد أفغانستان ، و إباء أفغانستان . و تغطي الثورة الإيرانية و صراعها مع القومية في العراق و الخليج على قضية أفغانستان كما تغطي عليها " الحالة الإسلامية " في لبنان .

إن كانت الثورة الإيرانية زوبعة أطارت لب أعداء الإسلام بما حملته من شعارات إسلامية ، و بما أذلت " الشيطان الأكبر " ، و تحدته في شجاعة نادرة ، و صمدت في وجه التحالف العربي القومي ، فهي في حساب سنة الله غمامة تحمل خيرا إن شاء الله الهادي إلى سواء السبيل . و في الغمام غموضه و شوائبه .

و إن كانت الأحزاب و الطوائف الإسلامية في لبنان رفعت رؤوس العرب الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بما حققته من انتصارات مُشرقة على جيش العدو الإلهي ، فهي في لائحة " وعد الآخرة " مناوشة لا تعدو قدرها من الأهمية . كما لا تكون الشرارة و قد وَمضَتْ ومْضَةً أو وَمَضات دلالة على أن هنالك نارا تنضج الطبيخ و تدْفِئ المقرور و تصهر الحديد .

لكن أفغانستان جبهة الإسلام المجيدة ، و أشعة شمسه الطالعة ، و نموذج صفائه و بهائه . على مِحَك ذلك المجد يُختْبر العرب و المسلمون ، أعني الحكام عليهم ، فتجدهم سنة الله مثالا للوهْن لما جبُنوا عن الإسراع إلى أفغانستان بعد استسلامهم للعدو اليهودي ، و تجدهم سنة الله مثالا للغثائية ، و تجدهم سنة الله مطبوعين بطابع الفتنة و الجاهلية ، على قلوبهم و عقولهم بصمات منهما لوثت ما كان فيه أهلية للصفاء ، و زادت في سواد ما كان خبيث الأصل قَذِر المنبت .

و تجد سنة الله في المومنين من جند الله بأفغانستان القابلية و الاستعداد لتَنَزُّلِ نصره تعالى و بركاته و رحماته . تلك طائفة من المومنين حق الإيمان ، بقوا أقرب إلى الفطرة في ذلك الجناح القاصي ، قليلي التلوث لقلة الاحتكاك بالحضارة الجاهلية . قريبين بسبب ذلك من وجدان الهوية الإسلامية عند المصادمة و المقابلة و المواجهة . لم يكن لهم رصيد من " الثقافة " الحديثة إلا بمقدار ما يطلعهم على نتنها و وثنيتها ليشمئزوا منها .

فَلَمَّا التحموا بالعدو الروسي و حلفائه فزعوا إلى الله ، و أسندوا ظهرهم إلى الله ، و تحرروا بالمسارعة إلى الموت و اقتحام حِماها من كل عبودية لغير الله .

و كما كان لغمامة إيران و حالة لبنان وقع في العالم و دوِيٌّ و ردود فعل جاهلية متسلسلة متوالدة ، فقد كان لجهاد أفغانستان أبلغ الأثر على مسلمي العالم ، خاصة على السبعين مليونا أو يقربون من المسلمين في آسيا الوسطى ، تحت الاحتلال الروسي و خلف الأسوار الشيوعية .

إن " وعد الآخرة " ، و قد ذكره الله عز و جل في سورة الإسراء مرتين ، حدَث ضخم ينتظره المومنون . ليس موقعة جزئية و لا معركة جانبية كما يحسب العرب المكبوتون المغلوبون في فلسطين . قضية الإسلام واحدة ، واجهتها الصدام المحتوم مع الجاهلية . و ما فلسطين و أفغانستان إلا مقدمتان لوعد الآخرة . و اليهود فص الجاهلية و روحها .

من بركات الجهاد

فلسطين و أفغانستان و لبنان بُقع صغيرة على خارطة سنة الله و جغرافية وعد الله . و الجهاد سنة الإسلام مآله أن يكون مواجهة كونية شاملة . لا أقصد الصراع المسلح و إن كان القتال ضرورة عند الضرورة . ليس القتال عند الضرورة إلا وازعا ثانويا ، و الدعوة إلى الله هي رسالة الإسلام للبشرية . لكن القتال في سبيل الله بركة شاملة .

بالقتال تحت راية الإسلام أنهى المسلمون في لبنان الأسطورة اليهودية القائلة بأن جيش " إسرائيل " لا يهزم ، و أرْدَتْه الكرة الإسلامية من نشوته بالانتصارات التي أحرزها ضد العرب في سنوات الاحتلال و في سنة " النكسة " ***1967*** بتاريخ النصارى .

و بالقتال تحت راية الإسلام أنهى المومنون المجاهدون في أفغانستان أسطورة كون الجيش الأحمر قوة عالمية لا تقهر . تحت هيبة هذه الأسطورة عاش المسلمون المحتلون داخل أسوار الإمبراطورية الحمراء منذ سبعين سنة ، و هم الآن يستيقظون و يراجعون إسلامهم ببركة جهاد المومنين الأفغان و على ضوء انتصاراتهم .

المنطقة في القوقاز و آسيا الوسطى في تحول سريع و عميق ببركة الجهاد الأفغاني . شارك المسلمون المحتلة أرضهم خلف الستار الحديدي في الحملة الشيوعية على أفغانستان شتاء ***1979*** بتاريخ النصارى في مطلع القرن الخامس عشر ، و كأن مطلع أشعة فجر الإسلام في تلك الربوع كانت على موعد مع مطلع القرن . كان الجنود الأوزبيك و التادجيك و سائر تلك الشعوب الإسلامية الأصل قد ربتهم الشيوعية الحاكمة منذ نعومة الأظفار على الولاء لروسيا و التنصل من الدين . و لم تحتفظ الأجيال الناشئة هناك منذ ثورة أكتوبر ***1917*** إلا على آثار غامضة من الشعور بالانتماء للإسلام ، ممتزجا ذلك الشعور بالانتماء القومي و الثقافي للشعوب المحلية ، ممتزجا بالكراهية الدفينة الموروثة للغاصب الروسي المستبد بالمناصب العليا المسير فوق الرؤوس المحلية لدفة الحكم .

فلما دخلوا أفغانستان مع الحملة الأولى اصطدموا بالمجاهدين من بني جلدتهم ، يتكلمون بلغاتهم ، و لا يخضعون للروسي الذي كانت هيبته تملأ النفوس ، و لا يخافونه ، و يحاربونه ، و يهزمونه . و سحبت روسيا الجنود من أصل مسلم لما رأت أنهم يتعاطفون مع الأفغان المجاهدين ، و يتفاهمون ، و يهربون أحيانا من الجيش الأحمر إلى صف الأحرار .

فلما رجعوا إلى أوطانهم حملوا معهم أخبار العزة الأفغانية ، و حملت إليهم إذاعات إيران و الصين و باكستان باللغة الفارسية الواسعة الانتشار و بالتركية و بلهجاتهم المحلية أخبار العالم الخارجي و أخبار الثورة الإيرانية التي أذلت " الشيطان الأكبر " . فرجع الشباب إلى كبار الشعب يتعلمون عن الإسلام الذي أصبح رمزا للعزة ، و أملا في الكرامة ، و ميزة ترفع عن المَتَحَلِّي بها ربقة المهانة كما رفعتها من أعناق الإيرانيين و الأفغان .

كانت الطرق الصوفية بنظامها و التفاف أعضائها حول قيادات محلية ، و بفضل روحانيتها العميقة ، و بفضل انتسابها إلى جناب الحق سبحانه و تعالى أخيرا و قبل كل شيء ، قد حافظت على وجودها ، و صمدت أمام إعصار الإلحاد الشيوعي و التلحيد الممنهج المبرمج ، و المذابح المتتالية منذ سنة ***1921*** .

الطرق السائدة في تلك الربوع هي القادرية و النقشبندية و الجشتية ، و طرق أخرى . و يقدر الخبراء عدد أعضاء الطرق الصوفية الآن ما بين الثلاثمائة و الخمسمائة ألف . و هي نشيطة سريعة الامتداد هذه السنوات .

ليس المكان هنا مناسبا للنقد الطرقية و ما يتعلق بها أحيانا من بدع و خرافات و ترّهات . لكن الصوفية واقع إسلامي هناك و في كل مكان ، و هم وحدهم هناك صمدوا و صبروا و حافظوا .

و تلقحت الحركة الإسلامية ، و هي حركة تستحق الاسم بكتلتها المتنامية و حيويتها المتزايدة ، بما تَسَرَّبَ وراء الستار الحديدي قبل غزو أفغانستان و خاصة بعده من أدبيات إسلامية و بالخصوص كتب الإخوان المسلمين رضي الله عنهم على شكل كتب تترجم أو تسجيلات تنتقل بشغف و سرية من يد ليد . و يسمي السوفيات هذه المنشورات و التسجيلات التي لا تتولاها الدولة و لا تعترف

بها و لا تحبها بكلمة " سامسدات " ، و تعني إجمالا المناشير التلقائية . و لهذه السامسدات رواج هائل و قبول تام في كل الأوساط الاجتماعية ، الشعبية منها و المتعلمة . بل إن من بين أعضاء الحزب الشيوعي البارزين من ينتمون خفية للطرق الصوفية ، و هي إلى حد الآن التنظيمات المعروفة ، و من أساتذة الجامعات من يروج للفكر الإسلامي بنشاط .

ببركة الجهاد الأفغاني انخرق الستار الحديدي الفاصل بين أفغانستان و المناطق الإسلامية داخل الإمبراطورية الحمراء . فلا يزال كثير من الجنود المسلمين يستخدمهم الروس في سياقة الشاحنات الغادية الرائحة بالتموين و المعدات إلى الجيش الغازي . و هؤلاء البسطاء ، و بساطة مراتبهم العسكرية تدل على أنهم أقرب إلى الجذور الشعبية الإسلامية يغدون و يروحون من أفغانستان إلى قومهم بكل جديد طري من أخبار البطولات الإسلامية التي تلهب الحماس ، و أخبار هزائم الجيش الروسي و جبن الروسي و استسلامه ، و هي أخبار تشْفي الغليل . و يغدون و يروحون بالمنشورات التي يطبعها المجاهدون باللهجات المحلية المشتركة عبر الحدود تشرح الإسلام ، و تربط السياسة بالدين ، و تستنهض همم الإخوة المستعمَرين المحتلين منذ سبعين سنة ليجددوا عزماتهم و يتذكروا رجولة أسلافهم المغاوير الذين قاوموا غزو روسيا القيصرية على مدى ثلاثة قرون . لم تَلِنْ لهم قناة و لم تَخْبُ لهم جذوة .

و للمجاهدين نصرهم الله و أيدهم حملات فدائية داخل التراب الروسي . حملات مظفرة بالانتصار العسكري ، مظفرة من كونها تمكن أهالي المناطق الإسلامية من مشاهدة أبطال الإسلام ، و شم رائحتهم ، و سماع أخبارهم الباهرة . ما كان غائبا من المعاني الرجولية ، ترويه الرواة و تتلقفه الآذان المتلهفة و القلوب العطاش ، يحضر إلى عين المكان ، و يملأ رُواؤه و مجده الأسماع و الأبصار .

إنها دعوة مباشرة ، و التحام مباشر ، و اتصال بعد انفصال ، و تعليم حي بالنموذج الماثل أمام الناس و بالكلمة المكتوبة و المسموعة . و كل ذلك من بركات الجهاد .

لم تكن روسيا الحمراء عندما غزت أفغانستان تحسِب أنها ستلقى مقاومة البَتَّةَ ، و لا حسبت أنها ستقع بهجمتها تلك المستكبرة في الأرض ، المستعلية بعَدَدِها و عُدَدِها ، في فخ نصبته الأقدار الإلهية للدب الروسي .

شعب مكون من قبائل متخلفة بالمعايير المادية ، متنافرة تعطي ولايتها للعصبية العرقية و اللغوية و الجهوية ، كل ما يُحسب بالأرقام و المنطق طولا و عرضا و عمقا ينطِقُ بأن هذه المُزَغَ البشرية المتناثرة المتباطئة في عشائريتها و أميتها لا تصمد لأقوى جيش في العالم يوما أو بعض يوم . فأحرى أن تواجه الجيش الأحمر القوي أعواما و تُذِلّهُ و تمرغ سمعته و كرامته في التراب ، و تُسبب له الخسائر الفادحة في العتاد و الأنفس .

يقول الصوفية الطيبو الأنفاس كلمة حكيمة من كلماتهم : " الملك لا يحمل عطاياه إلا مطاياه " . مغزاها و إشارتها أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرا خلق فيه الاستعداد لتلقي الخير . هذا النّصر الذي أنزله الله على عباده المجاهدين في أفغانستان ما كان ليتجلى بهذه النصاعة و هذا الاستمرار رغم النفوق المادي الساحق في جانب الروس لولا أن أظهر الله معنوية فائقة ساحقة في جانب المجاهدين . ميزان القوة المادية بين أعظم دول الدّنيا جندا و أوفرهم عُدة و أسبقها صناعة حربية و أمضاها قرارا حكوميا و أشرسها و أكثرها غطرسة و بين جماعات و أفراد ما في أيديهم من المقومات المادية ما يستحق الذكر إلا كما تستحق الذكر الذرة ، و هي أصغر أنواع النمل ، إذا ذكر أعظم مخلوق في عالم الحيوان . لكن لما حمل الأفراد من علماء المسلمين في أيديهم القرآن وجددوا في قلوبهم نية الجهاد في سبيل الله ، و حملت الجماعات الإسلامية ، أصلح الله ذات بينها ، المصحف الشريف و النية الربانية الشريفة تداركت الغيرة الإلهية العباد المستضعفين ، و ربط المولى القوي العزيز على قلوب نبضت بالولاء له الخالص ، و تفتقت عن الإيمان الفدائي ، و لبّى السيد العظيم دعوات رجال و شباب و صبيان و نساء لما لهجت الألسنة بالتكبير و التهليل ، و تحدثت بالحديث الطيب عن معاني الجهاد ، و عن واجب الجهاد ، و عن جزاء الجهاد ، و عن الجنة تشتاق إليها الأنفس ، و عن لقاء الله الكريم تشتاق للقائه الأرواح .

و من العلماء الذين قادوا الحركة و أطروا الشعب ، و من الجماعات التي نظمت و نفذت ، امتد الإيمان ساريا كما تسري الحياة إلى قلوب الشعوب الأفغانية و القبائل المنتشرة ، فصلحت النيات

و بصلاحها صلح الكل ، و بصلاحها انتقلت المواجهة مع العدو الهاجم من معاني المقاومة الشعبية القومية المعتادة المشتركة بين بني البشر إلى معاني نصرة الله و الدفاع عن حوزة دين الله و بذل المال و النفس في سبيل الله .

لم يكن هنالك أهليَّة تُرى و تُقدر أن ينهض أفغان السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر لعمل عظيم جسيم يدوِّي صداه في آفاق العالم و يشغل الحديث عنه الخاص و العام ، و تُدْرِج كيفياته القتالية الأكاديميات العسكرية في برامجها للدراسة و التعجب ، و يقلب حساب الشرق الجاهلي الذاهل المذهول بما لقي من بأس ، و حساب الغرب الجاهلي بما اكتشف من مكنون القوة الإسلامية القاهرة التي لا تغلب و التي سمع الناس عن أصداء فاعليتها في الفترات المتألقة بنور الجهاد في تاريخنا .

لم تكن هنالك أهلية بادية و أراد ربك أن يظهر إكرامه لهذه الأمة الموعودة بحسن العقبى في الدنيا و الآخرة فصنع سبحانه الأهلية ، و أبرز المكنون . و حملت عطايا الملك مطاياه . تنزَّل النصر على قلوب تطهرت و نيات خلصت . من آيات خلوصها العظمى بعد الانتصارات الميدانية توالي الكرامات الخارقة للعادة . بلغنا خبرها عن السلف الصالح بالتواتر منذ زمان الصحابة رضي الله عنهم ، فالإيمان بها عقيدة المسلم و هي اليوم تبلغنا من جبال أفغانستان و ودياها بالتواتر و الاستمرار ، أول من يعجب منها و ينبهر من تظهر على أيديهم . ثم يذكرون الله شاكرين أنعُمه الباهرة و يذكرهم العلماء العارفون بالله و بسنة الله فتزيدهم الخوارق إيمانا ، و تزيدهم فدائية ، و تصبح الشهادة في سبيل الله ، بعد أن شاهدوا كيف تتعطر أجسام الشهداء بطيب الجنة ، مطلبا غاليا ، و الجنة مأْوى مرغوبا فيه و الحياة الدنيا مهرا دنيئا لكرامة الآخرة ، و التعامل مع الله عز و جل صادقا خالصا و هو سبحانه الحاضر نصره ، الملازم ذكره ، الموعود جزاؤه ، الساطعة آياته قرآنا يتلى و بارقات في الآفاق .

إن صنع الله الملك الحق سبحانه الاستعداد في من يريد لهم حمل أمانته سنة من سننه . هؤلاء رجال و نساء من قريش و من قبائل العرب ، أي شيء يذكر كانوا قبل البعثة المحمدية ، و التربية المحمدية ، و الهجرة المحمدية ، و التعبئة المحمدية ، و الزحف المحمدي ؟ أي شيء كان أبو بكر بن

أبي قحافة ؟ أي شيء كان عمر ؟ و عثمان ؟ و علي ؟ و طلحة و الزبير ؟ و أبو عبيدة ؟ و سعد و سعيد ؟ و خديجة و عائشة ؟ و أم سلمة و أسماء الصديقية ؟ أي شيء كان خالد بن الوليد ؟ و سعد بن أبي وقاص ؟

لما شاء الله عز و جل أن يغدق عطاياه على ذلك الجيل بعث رسولا من رسله ، هو أكرمهم عليه سبحانه . و بعث رجلا يوحى إليه ، و يأتيه الملك من دون الناس ، و يخبر بالغيب ، و يعلم وجود الخالق سبحانه و وحدانيته و ألوهيته و دينه ، خارقة كبيرة من خوارق التاريخ ، ما المعجزات إلا ذَيْلٌ لها و نتيجة و تفسير و تأييد .

كذلك لما أراد الله الملك الحق أن يقرأ المسلمون مقدمات ظهور الإسلام مع تباشير القرن الخامس عشر أظهر " آيات الرحمان في جهاد الأفغان " كما يقول الدكتور عبد الله عزام أحسن الله إليه .

و حملت عطايا الملك مطاياه . كل من سبقت له من الله الحسنى من هؤلاء الجبليين القبليين الأميين سمع نداء الظلائع الإسلامية المنظمة من خارج بأذني رأسه ، و سمع نداء الإيمان بأذن قلبه من صميم قلبه . و لما لم يكن في نداء الخارج لوثة قومية ، و لا شائبة " تقدمية علمانية " ، و لم يكن في نداء القلوب شبهة فلسفية ، و لا نزغة ثقافية فنية ، كانت التلبية كلية . جاء المتطوعون حافية أقدامهم ، خَمْصَى بطونهم ، ممزقة ثيابهم ، معهم المُدَى و العصى في الأيام الأولى ليس معهم من أسباب القوة شيء .

و محا الله عز و جل من قلوب مرشّحيه لحمل الأمانة الدوافع العصبية ، و ألف بين القلوب . و طوى سبحانه المراحل ، و لخص لنا في النموذج الأفغاني المصغر للاطلاع و الاعتبار مراحل التربية و الإعداد ليكون لنا هذا النموذج تعليما مجتمعا متقاربا ملخصا في الزمان و المكان و الحجم لما ينبغي لنا و يطلب منا لنستحق أن نكون مطايا الملك لعطاياه الكبرى . هذا التلخيص الإلهي سنه من سننه تعالى ظهر بعد النبوة في عصور مثل عصر نور الدين بن زنكي و صلاح الدين . فترة موجزة في عمر التاريخ أنجز فيها المسلمون صورة وحدة ، و نصرا على الصليبية الأولى . و نرجو من المولى الكريم أن لا يتلوَ ملخص أفغانستان فتور همم و انحلال وَثاق كما تلا نهضة نور الدين و صلاح الدين رضي الله عنهما في الصالحين . و نرجو من كرمه سبحانه أن يرفع عموم الأمة بالإعداد البعيد المدى إلى استحقاقية استقبال " وعد الآخرة " إنه قريب مجيب .

ورطتهم في أفغانستان

بكل وسيلة و لغة يحاول أعداء الإسلام و المداهنون المنافقون من بني جلدتنا أن يوهموا قادة الجهاد الأفغاني أن اللعبة الدولية اكبر منهم ، و أن التفاوض الأمريكي الروسي هو المخرج من الورطة . ورطة ، لكن ورطة من ؟

أول من غاص في وحل الورطة الأفغانية الروس ، الدولة العظمى العادية بخيلها و رَجلها و خُيلائها ، فالورطة ورطتها . و نرجع إلى الورطة الرئيسة قريبا إن شاء الله .

تورطت الدولة العظمى الأخرى ، الولايات المتحدة الأمريكية ، و انكشف نفاقُها و انتهازيتها و ازدواج سياستها الهيمنية . ففي الوقت الذي تتزعم فيه الحملة على الإسلام في عُقر دار الإسلام فلسطين القدس ، نراها تبدي غيرةً عجيبة على الشعب الأفغاني المظلوم ، غيرة الذئب حين يسبقه الذئب إلى فريسة كانا يَهُمان بها . و يرتفع الاحتجاج الأمريكي في أروقة الدبلوماسية العالمية و في الإعلام الداخلي و الخارجي . و يُكثر التلفزيون الأمريكي من عرض الصور عن وقائع الجهاد الأفغاني و عن انتصارات المجاهدين لتشغل هذه الصور مكانا في ذاكرة الجمهور الأمريكي كانت تشغله صور هزائم الأمريكان في حربه العدوانية على فتنام منذ ما يقرب من عقدين من الزمان .

و تورط من جراء الهجوم الروسي و رد الفعل الأمريكي الانتهازي ، و ببركة الجهاد تأييدا إلهيا قبل كل شيء ، حلفاء أمريكا من العرب و العجم لما سايروا السياسة الأمريكية و تحدثوا باسمها و ساندوها فيما يخص " الحل السلمي " الذي تتفاوض عليه الدولتان الجاهليتان الكبريان في جنيف . لعبة بين الدولتين المعاديتين للإسلام توهم الرأي العام الدولي أن روسيا تريد الانسحاب ، و خلف الستار تهيأ الأجواء لحل يُبقي على مصالح الدولتين . مصلحة روسيا أن يبقى " الرفاق " الشيوعيون فوق اللُّجة و أن تصبح أفغانستان بعد الانسحاب الروسي دولة " محايدة " مثل دولة فَنلندا . دولةً أسيرة تابعة للروس في سياستها الخارجية ، مشروطة الاستقلال ، على أمل أن يعيد " الرفاق " من الداخل تهييء " ثورة " حمراء أخرى تكون أحسن

حظا . و مصلحة أمريكا أن لا تقوم في أفغانستان دولة إسلامية بحال ، و أن تشترك كل الأطراف في قطف ثمار الجهاد الباهر ، فيكون للعلمانية صوتها بعد انسحاب الروس ، و يتصدر في الدولة " إسلاميون " مُدَجّنون لا يكونون في إباء آيات الله في إيران و صلابتهم و تمنعهم على " الشيطان الكبر " .

و تورطت الثورة الإيرانية و انكشفت مذهبيتها و مصلحيتها الضيقة لما خذلت المجاهدين السنة ، و منعتهم تسهيلات الحدود ، و قصرت عونها على الشيعة الذين لزموا ما يشبه الحياد و المهادنة مع الغزاة الروس . لإيران حجتها في هذا الخذلان ، تتقدم بأنها في حرب طاحنة ، و أنها مطوقة ، و أنها لا تستطيع تحدي العملاقين العالميين في نفس الوقت . و هذه حجج تُضعفها و تُفتّتُها واقعة الانحياز المذهبي ، و التحالف الرديء مع نصيرية سوريا أعداء الله و رسوله سفّاكي دماء المسلمين . لا يُقبل من إيران الثائرة الاعتذار بأن الحلف مع سوريا هو البديل الوحيد عن العزلة وسط عالم مجاهر بالعداء مُجمعٍ على حرب الثورة . و لئنْ كان لمواجهة ثورة إيران عدوَّ الإسلام البعْثي في العراق ما يبررهُ في أعين المسلمين ، و هو كون البعثية كفر ، فإن الحلف مع البعث الآخر النصيري يزيِّف هذا التبرير .

تورطت إيران ف موقفها من جهاد الأفغان ، و هذا التوقف دخن في نية الإيرانيين يُرى رأي العين ، و لَوْثة شائِنة يُؤكد شينها و يُسود معالمه الحلف مع النصيرية الذين أضافوا إلى حقدهم الموروث على الإسلام حقدا قِوامه القومية البعثية . في أوائل الانقلاب البعثي النصيري منذ ما يقرب من عشرين سنة كانت إذاعة النظام من دمشق تذيع شعارات الكفر صريحة هائجة مسعورة :

" آمنت بالبعث ربا لا شريك له   و بالعروبة دينا ما له ثاني "

و تذيع هتاف :

هات سلاح و خذ ســـــلاح   دين محمد ولى و راح !

فكيف تدافع إيران الثورة عن إسلاميتها و يدها في يد من سفكوا دماء المسلمين آلافا مؤلفة في حماة ، و هتكوا الأعراض في السجون ، و عاثوا في الأرض فسادا ما مثله فساد منذ فساد أسلافهم القرامطة ؟

ورطة و شناعة ! كيف غطت النسبة النصيرية ، و هي الرابطة المذهبية الشيعية ، " بمَزاياها " التكتيكية على النسبة البعثية في حساب قوم جعلوا العداء لبَعث العراق استرتيجية حربهم و محور دعايتهم ؟

انفضحت ثورة إيران أمام الجهاد الأفغاني ، و ظهر للعيان الفرقُ بين صمود إلى الله و رسوله في سبيل الله و رسوله ، و بين صمود ثوري في دوافعه و مساره دَخْن و خوض و شوائب فتنوية ثقيلة . لا تقل فدائية الثوار الإيرانيين شجاعة عن فدائية المجاهدين في أفغانستان . بل إن دموية القتال الثوري بطش و فتك نادر مثالهما في التاريخ . و بالمقارنة بين نورانيَّة الإيمان و روحانية حُب الاستشهاد في أفغانستان و بين الغمرة الشيعية و الاستبسال المتفاني في إيران يظهر لنا إلى أية جهة تُشير إصبع العناية الإلهية لتتبع الأمة مدارج الصعود من هوة الفتنة إلى ذرى العقيدة الصافية ، و البذل الجهادي الخالص للمال و النفس في سبيل الله . تزكية الله سبحانه و تعالى للجهاد الأفغاني آية واضحة في الآفاق و الأنفس . الفئة القليلة تمرغ في التراب أنف أكبر قوة عسكرية في العالم ، و الكرامات الجلية التي كتب عنها الشيخ عبد الله عزام ، و شهد بها الخاص و العام ، و أصبحت حديثا متواتراً . و تستمر الثورة الإيرانية ، سددها الله و هداها ، في الصراع الدموي . لو بذلت ثورة إيران عشر معشار جهودها بالنية الخالصة التي يتحلى بها إخوان الصحابة في أفغانستان ، لو عادت الكفر من حيث هو كفر سواء كفر البعث العراقي و النصيري ، لكان للامتحان الذي تمر منه الأمة جميعا مخرج آخر . أستغفر الله من " لو " و توابعها .

و تورط ببركة الجهاد الأفغاني الحكام على رقاب المسلمين لما سكتوا عن الجهاد ، و كتموا أخباره ، و أغلقوا أبواب الاطلاع عليه ، و حاصروا كل نأمَة تنطق بمجد الجهاد . فَعَلُوا ذلك مخافة أن تسمع الأمة الحديث الحي عن الإسلام الحي و الإيمان الفاعل ، فتَنْتَفِضَ الأمة من سبات " الإسلام " الرسمي ، و تنفُض غبار " الإسلام " المعلب المحنط ، و ترفض استبداد الحكام القاعدين عن الجهاد ، المقعدين عنه ، الموالين قلبا و قالبا للأعداء .

و تورط طائفة من علماء القصور و آخرون من المتزمتين الحرفيين الجاهلين لما رَأوا أفراد الأمة و مؤسساتها الخاصة تهب لنجدة المجاهدين و تكتتب لبعث المؤونة و العون ، فأفتوْا بأن مساعدة الأفغان " المشركين " لا تجوز شرعا ، لأن الشرك و الكفر ملة واحدة .

حكم هؤلاء الجهلة التافهون بأن الأفغان مشركون ، عمموا الحكم بعد أن صَنعوه صُنعا معتمدين على ما بلغهم من أن بعض عوام المجاهدين يحملون التمائم و يزورون الأضرحة و ينتسبون للمشايخ .

من أدرى هؤلاء المحترفين في المهنة الرديئة مهنة تكفير المسلمين بالجملة و تبديعهم بدون تمييز أن عملهم التخريبي عندما يخطبون على المنابر قائلين " نحن لا ننصر مشركا على كافر " أنهم بكلمتهم هذه الكبيرة يحادون الله و رسوله و يحاربون أولياء الله و رسوله ؟ أم أن دينهم عليهم هين و آخرتهم أهون ؟

لقد غطى رب العزة و الجلال و الإكرام على ما يُمكن أن يكون هنالك من صغائر . غطَّاها بفضله سبحانه و كرمه و عفوه . و شهادته سبحانه للمجاهدين في الآفاق بالنصر و في الأنفس بالكرامة و النورانية و الصفاء الروحي و الشوق إلى لقاء الله براءة قدسية أنَّى لعويل " المكَفراتية " البؤساء أن يُسمع طنينه بجنب فصاحتها ، و أنى لكدورات أهوائهم البشرية و ظنهم السيئ المُدخن أن تنال عند الله و الناس إلا جزاء الخيبة و الخزي .

ثم أن التمائم موضع خلاف ، لم يجمع العلماء على حرمتها إلا إن اشتملت على رموز سحرية أو كلمات شرك . و زيارة الأضرحة منها السني المرغوب فيه ، و البدعي المشبوه ، و المحظور المكروه . و من المشايخ الذين ينتسب إليهم المجاهدون الأفغان ، و أغلبية المجاهدين صوفيون ، أئمة هدى و معلمون ناصحون . لا يضير النسبة إلى المشايخ عموما وجود ترهات هنا و هناك ، و وجود متمشيخين كذابين ، و آخرين راكدين على تُراث يحرفونه أو يزورونه ، و يستغلون المنصب و السمعة ، و يَبْتَزُّون الأموال . فأين النَّصَفَة يا أيها المكفرون ؟

غطى الله سبحانه على كل ذلك بذيل مغفرته ، و شفع عموم الصفاء و الإخلاص ، و سلامة العقيدة و النيات ، و صلاح الأعمال في خصوص ما يمكن أن يكون هنالك من دخن فتنوي و كدورة مردها إلى

جهل العامة و قلة أهل العلم الذين يجلسون إلى المسلمين في مساجدهم و ملتقياتهم ليعلموا و يرشدوا . لو كان للمكَفراتيَّة عقول تعقل و قلوب تفقه للبوا النداء و هبوا إلى أفغانستان . و لو تواضعوا و استمعوا بالقلب لتعبير المجاهد عن إيمانه بالله وحبه لله و شوقه إلى الله لعلموا أي مدرسة هي مدرسة الجهاد الحي ، لا الجهاد الكلمة التي تُقرأ في النصوص ، و تُشرح بالنقول ، و يعلق عليها ، ثم يأوي كل إلى دفء فراشه ، و أمن بيته ، و رفاهية مرافقه ، و راحة نفسه ، و موتها ، و سفاهتها ، و قزامتها ، و هوانها على الله .

و تورط طائفة من الإسلاميين لما امتنعوا في مرحلة من مراحل الجهاد عن دعم المجاهدين بحجة أن القيادات الأفغانية متفرقة متخاصمة ، أو بحجة أن علماء و شخصيات من دول النفط تساعد المجاهدين . و لو كان التمييز ملَكَة لهؤلاء المتورطين ، و كانت مراتب الأشياء منضَّدة في أذهانهم لعلموا أن ما يمكن أن يكون من خلاف بين فصائل الجهاد أمر طبيعي ، و أنه صائر بحول الله إلى ذوبان من تأثير ضرورات المواجهة للعدو المشترك ، و من تأثير الاتصال و الائتلاف الحاصلين من التعاون اليومي من قريب و في ظروف عصيبة تفرض التآخي عمليا مثلما يفرضها الشرع دينا . و لعلموا أيضا أن دعم الجهاد ، و الانتصارات الناتجة عن دعمك الخارجي ، من أهم ما يقرب الشقة بين المختلفين . بينما يكون خذلانك البارد المُفلسف مدعاة للفشل ، و بالتالي لمزيد من الفرقة .

و لو كان التمييز و معرفة مراتب الواقع و الحكمة العملية سمة من سمات المنتقدين القاعدين لعلموا أن وقوف علماء و شخصيات و أغنياء من دول النفط و غيرها إلى جانب الجهاد عمل صالح يرضاه الله تعالى و يرضاه الرسول صلى الله عليه و سلم و المومنون . فإن خلطوا مع هذا العمل الصالح ، تأوُّلا أو خطأً أو عمدا ، أعمالا سيئة فعلى الأمة أن تستفيد من الأعمال الصالحة كلما قدرت ، و أن تردع الشر متى صنعت قدرةُ العزيز الجبار ثم تحزبُ الأمة لله عز و جل يدا قوية بها تستطيع أن تغير المنكر و تُقِر المعروف . ما كل عالم يقطن في بلدة ظالم حكامها من علماء السوء . و ما كل غني من المسلمين قارون ملعون ، و الفتنة عامة خلطت الأبيض بالأسود ، و أتاحت أن يكون في الأمة هذا التفاوت الشنيع الفظيع في الامتلاك ، و أتاحت أن تتمزق الأمة إربا إربا ، و قطرا قطرا ، في كل ربع من ربوع دار الإسلام التي

أرادها الله تعالى وحدةً دويلة هزيلة يأكلها بالمخالب و الأنياب المحلية مترفو الجاهلية ، بينما يموت جياع أفغانستان و يتأوه جرحى أفغانستان لا يجدون اللقمة و لا المأوى و لا الدواء و لا اليد الحانية المواسية .

في الوقت الذي يتوانى فيه المُعذّرون من أعراب هذا الزمان ، الذين يقعدون عن مساعدة إخوانهم بهذه الحجة أو تلك ، تنشط الإرساليات التنصيرية و تهرع إلى أفغانستان لتعلم إن استطاعت البائس الفقير أن النصرانية تجود حين يبخل الإسلام .

تمر حوادث أفغانستان ، و يتوج الجهاد إن شاء الله العظيم رب العرش العظيم بالنصر المؤزر . و تبقى الدروس للأمة تقرأها لتخرج من الفتنة .

حوادث أفغانستان ، و جهاد الليوث الأفغان ، و قعود القاعدين ، و تورط المتورطين ، امتحان و تمحيص و محك . قال الله عز و جل في كتابه الحكيم في سياق ذكر غزوة بدر و انتصارها : « وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿ 36 ﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ » (سورة الأنفال) . أعاذنا الله و إياكم من أن نكون ركام جهنم أو أن نكون كَمّاً ميتا من حقه أن يبتر من جسم الأمة . و قال تقدست أسماؤه : « وَ نَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿35﴾ » (سورة الأنبياء) .

الجهاد امتحان نتائجه مُبصرة في الدنيا منتظرة في الآخرة . و تمييز الله جلت حكمته الخبيث من الطيب فرز في الدنيا للدنيا ، و فرز في الدنيا للآخرة . جزاء الخبثاء في الدنيا الخزي و في الآخرة هم ركام جهنم . و للطيبين إحدى الحسنيين ، أو الحسنيان معا ، دنيا و آخرة ، عزة في الدنيا و كرامة في الجنة .

من بركات الجهاد ، و من دروس التورط بالقعود عن الجهاد ، و من تباشير المشاركة من خارج أفغانستان في الجهاد ، أن أصبح الجهاد فعلا ماثلا مستمرا يحياه آلاف المومنين ، و يقرأ عنه و يشاهد صورهُ و أفلامه ملايين المسلمين حيثما تسرب إليهم من خلال الحصار الإعلامي المضروب خبر . أصبح الجهاد واقعا في حياة الأمة ، و شاء الله أن يطول سنوات ليتغلغل الوعي به ، و يتزلزل الشك فيه ، و ينتشر

الإخبار به ، و تصطبغ بصبغته النفوس العالية ، و تتشوق إليه القلوب الناشئة في حضن الصحوة الإسلامية المباركة . و شاء ربك أن يكون جهاد أفغانستان تمييزا و تمحيصا ، و أن يكون عيِّنة رائعة على أعلى و أسمى و أبرك مستوى تحدث عنه القرآن و نقلته إلينا السنة أو جاء به الإخبار و سجله التاريخ .

تحديات الجاهلية

شاء ربك أن يكون غزو الروس لأفغانستان تحديا كبيرا في حياة الأمة . و كانت الاستجابة رائعة و الحمد لله و له المنة . و كانت استجابة الأفغان الفطريين فضحا لتقاعس غيرهم و تورط من تورط و تشكيك من شكك . و يأتي تحدي الجاهلية للإسلام في أفغانستان جناح دار الإسلام ليضاف إلى تحد آخر ، غزو آخر ، في قلب دار الإسلام فلسطين . و يضاف تحدي اللاييكية في لبنان إلى ذلك . و تحدي القومية الذي قسم باكستان دولتين . و التحدي العسكري الذي هزم شوكة الإسلام العثمانية . و تدخل كل هذه التحديات في جوف التَّحدي الأوسع الأعمق جذورا في تاريخ فتْنَتِنَا ، ألا و هو تمزق الوحدة الإسلامية إلى أن أصبحت في عصرنا دار الإسلام خرابات مشتتة .

و يلف كل هذه التحديات و يغطيها و يفسر جزءا مهما من أسبابها ، لا كل أسبابها ، امتحان المسلمين بتفوق الغرب الحضاري الذي رأينا في مرآته عندما هجم مستعمرا أنفسنا فاكتشفنا أننا أضعف قوة ، و أقل حيلة ، و أوهى تنظيما ، و أعجز من أن نقاومه عسكريا ، أو نستغني عن صناعته و علومه و نسابقه و نطوي الزمان لنكون في مستواه علما و صناعة و نظاما و بأسا . و باحتكاكنا مع الاستعمار و ذوقنا مرارته ، و بتوغل الفكر الاستعماري مع البضائع الاستعمارية في بلادنا و عقولنا ، و بالإيحاء النفسي و العقلي الذي يفرضه القوي على الضعيف بالمخالطة و الممارسة و التعليم و الثقافة رسخ عند أجيال منا أننا متخلفون .

و التخلف المادي الحضاري الصناعي العلمي من جانبنا بديهة من البدائه الأولية . كل شيء ينطق في حقنا بكلمة " تخلف " : الأشياء ، و انعدام الأشياء ، و الأحداث ، و المال إن كسبناه فبذرناه أو افتقدناه ، فاضطررنا لرهن حريتنا لاقتنائه ، و حالتنا الاجتماعية ، و تبعيتنا السياسية ، و هزائمنا العسكرية ، و فساد إدارتنا ، و سوء تدبير شؤوننا ، و الاستبداد الطبقي بيننا ، و الظلم الشنيع في الحكم و في قسمة الأرزاق بين العباد ، و هَوَانُ المرأة و بؤسها ، و تشرد الطفولة ، و حقارة الإنسان

و تحقيره ، و أميتنا التكنولوجية رغم وجود الآلاف المؤلفة من بنينا و بناتنا الحذاق ، و استمرارنا عيالا حتى في أبسط حاجياتنا مثل التغذية على الغرب .

هذه الأدواء التي سردناها على غير نظام ظواهر تسميها البداهة الحسية تخلفا إذا قارنا ما عندنا بما عندهم . و يسمي لنا جهلنا بمن نحن و ما تاريخنا و ما رسالتنا إلى العالم العلاج " تنمية و تقدما " . و يصرخ بنا من كل أطراف العالم نداء التنمية . التنمية ضرورة حيوية ، التنمية جوهر المطالب ، التنمية هي الهدف الأسبق ، و الجواب الأوحد عن كل التحديات .

سمى لنا جهلنا بمن نحن ، و أي شيء نريد ، و ما هي رسالتنا في الحياة ، واقعنا " تخلفا " و مطلبنا " تنمية " . و سماها لنا الفكر العالمي ، و الاتجاه العالمي ، و الحقائق الاقتصادية العالمية ، و المقارنة بين أنفسنا و بين ما حققته أمم العالم أو بدأت في تحقيقه أو تعمل جاهدة على تحقيقه .

و تأتي ثورة إيران القوية ، و جهاد أفغانستان العظيم ، و مقاومة المسلمين في جنوب لبنان ، و انتفاضات الحركات الإسلامية في ربوع العالم الإسلامي لتذكِّرنا بمن نحن ، و ما موقعنا من خارطة العالم ، و تاريخ العالم ، و لتضرب بطولات الشارع الإيراني ، و مثالية المجاهد الأفغاني ، و فدائية المسلم اللبناني ، الأمثلة الرائعة للهوية الإسلامية المستردة .

و يفرح المومنون بنصر الله ، و يكبرونه سبحانه ، و يحمدونه على أن أظهر لنا و للعالم أن في الإسلام بقية بعد أن كان الجميع يظنون أن الإسلام قد أُنْهك و اسْتُؤْصل ، و أن ركب الحضارة الغربية قد انخرطت فيه الإنسانية كلها ، و أن الكلمة كلمة الحضارة و الصناعة و ميزان القوى ، و أن لا مكان تحت الشمس لهوية لا تنتمي إلى قيم الحضارة المادية العالية اللواء بمنتوجاتها ، و اختراعاتها ، و طموحاتها إلى الفضاء ، و رسوخ قدمها في الأرض .

فرح المومنون ، و يفرحون ، و حُقَّ لهم أن يفرحوا ، بظهور القوة الإسلامية . و حمدوا الله الحنان المنان بما وفق . لكن هل كفى الله المومنين القتال الجوهري بإكسابهم النصر في معارك هنا و هناك ؟ هل يكفي ملخص أفغانستان و درس إيران و انتفاضة لبنان لغير إيقاظ المسلمين من سُباتهم و الزَّجِّ بهم في

ميدان الجهاد الطويل النفس البعيد المدى ، ألا و هو جهاد إعادة البناء كله ، و توحيد دار الإسلام كلها ، و الجواب عن التحدي في شموليته و امتداداته النفسية و الفكرية و العلمية و العملية و الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية ؟

يُخيل لبعض السذج من المسلمين أن انتصار ثورة إيران ، و مثالية جهاد أفغانستان ، و بطولة فدائيي لبنان خاتمة الجهاد ، و موعد حلول البركة على الأمة ، و علامة رضي الله عز و جل عنها ، و نقطة الانتهاء للبأس الشديد الذي عانينا و نعاني .

لا تزال حال الأمة كما كانت ، بل تزداد سوءا و ترديا يوما بعد يوم . و ما طلائع الصحوة الإسلامية و ومضات النصر في أفغانستان و غير أفغانستان إلا معالم في الطريق ، في أول الطريق ، في بداياتها .

يقدم إلينا التصور المادي و المقارنة المرآتية أدواءنا تخلفا ، و يصور لنا العلاج تنمية . و الطريق الصحيح أن نعلم أن التخلف المادي الصناعي إلخ مظاهر خارجي لمرض مزمن اسمه الفتنة . و الفتنة وليدة الجاهلية . فإن لاحقنا التنمية تاركين الإسلام وراء ظهورنا فإنما نتوغل في الجاهلية .

بداية الطريق الصحيح أن ندخل التحديات البادية في الآفاق في معادلة واحدة إلى جانب الفساد الواقع في أنفسنا ، و أن نتعلم من سنة الله المقروءة في القرآن و من سنته الحية أمام أعيننا في تاريخ أمس و اليوم أن الله تعالت قدرته لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

التحليل المادي لما بنا لا يتحدث كلمة واحدة عن الجاهلية ، لا يعرف الجاهلية لأنه لا يعرف الإسلام . لا يعرف الجاهلية لأنه هو الجاهلية . هو الجاهلية بظنها و حميتها و تبرجها و حكمها . لا يعرف الإسلام لأنه لا يعرف الله ، و لا يهتدي في دنيا بضائعه و تنميته و اختراعاته سبيلا لأنه لا يعرف الآخرة .

لسنا بحمد الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه ، ممن يطيل في البكاء على الأطلال و على الدماء المسلمة المسفوكة في الحرب المجنونة المفتونة بين البعث و إيران . فما هي أول قارورة كسرت في الإسلام على فداحتها و حجمها . لكنا نطيل الأسف على طمس ذكر الله و ذكر الآخرة من " ثقافة " المسلمين .

إن التحدي الشامل العام الذي يَلُفُّ كل التحديات و يصبغها بصباغه هو هجوم الجاهلية على الإسلام في عُقر الدار بالقوة العسكرية ، و في معاش الناس بالوفرة الاقتصادية . و في كل نائبة تنوبنا و داهية تحل بيننا يُنسينا المعاشُ المعادَ ، و تنسينا الجاهلية الإسلام ، فتحتلنا الجاهلية ، أبعد و أعمق مما كانت تحتل ، ظنا و حمية و تبرجا و حكما .

و يُهيب بنا نداء العناية الإلهية بصوت الجهاد في أفغانستان لنذكر الله و الآخرة و الجنة ، و لنطلب الشهادة ، و نتجرد من الدنيا ، و نبرأ من أصل الداء و جذر الفتنة و خطير البلاء : الوهن ، و هو حب الدنيا و كراهية الموت .

هذا الصوت المترجم عن نداء العناية الربانية يُدرج فهمنا لأحداث الجهاد في السياق الإسلامي سياق سنة الله ، إن نحن سمعناه بأذن القلب و أذن العقل معا . و إن نحن قرأنا من تسجيله في ضمائرنا و وقعه علينا آيات الله في الآفاق الأفغانية و الآفاق المتورطة في نفس الوقت الذي نقرأ فيه آيات الله في نفوسنا .

يندرج فهمنا و وعينا في السياق الإسلامي إن تدبرنا ملخص أفغانستان و إن تلقينا درس أفغانستان و ما يواكبه من أحداث الصحوة الإسلامية باعتبارها جميعا حروف لها رمزيَّة عالية و دلالة ماسة في الجملة المفيدة التي هي كلمة الله في كتابه المنزل .

الجملة القرآنية المفيدة تنْبئ عن النبإ العظيم ، تنْبئ عن خلق الله عز و جل السماوات و الأرض و ما فيهن للإنسان ، و تنبئ عن خلق الإنسان في الدنيا ليمتحن فيها و يحشر بعد الموت ليثاب أو يعاقب خالدا في الجنة أو النار . و مغزى هذه الجملة القرآنية أن الله عز و جل خلق الكون جميعا ليكون مسرحا يجول فيه الجن و الإنس حتى يعلم الله عز و جل من أفراد الجن و الإنس من استقام و عبد الله و عرف الله و رجا الله و خاف الله ، و من انحرف إلى طريق الشقاوة فجحد الله ، و كذب النبيئين ، و عبد هواه ، و استكبر في الأرض ، و طغى في البلاد ، و ظلم العباد .

في الجملة القرآنية كلمة تحدد وظيفة الإنسان المومن بالله الكامل الإيمان الراقي في ذرى الإحسان كما تحدد مرتبة الأمة المكونة من المومنين ، العابدة لرب العالمين عبادة جماعية بتحزُّبها لله ، و حملها رسالة الله ، و حفظها لأمانة رسل الله . و هذه الكلمة هي " الاستخلاف " في الأرض .

فما موقع الجهاد الأفغاني من إعراب الجملة القرآنية ، و ما حظه من هذه الكلمة ؟

الجهاد الأفغاني فاعلية في الأرض قوية ، اكتسب الفاعلية التي أذهلت الملاحظين من معاني السماء و من حضور الآخرة و من ذكر الله . فموقع الملخص الأفغاني من إعراب جملة القرآن الحكيمة و حظه من كلمة " الاستخلاف " تعلق النفوس المومنة بالسماء . فإن استيقظ الإيمان في نفوس المسلمين في الأرض من فعل صدى هذا الصوت العلوي ، و ارتفعت الهمم ، و عظم في القلوب أمر الله ، و غلب حبه تعالى و حب لقائه على حب غيره ، و غلب هم الآخرة على هم الدنيا ، و تجردت الأفراد و الجماعات من عوائق الارتقاء في مدارج اقتحام العقبة الإيمانية الإحسانية إلى الله ، فقد دخلت نفوسنا في السياق القرآني . و يبقى علينا بعد ذاك حساب الأرض و لوازمها و ضروراتها و ثقلها . يبقى حساب الآفاق الكونية التاريخية المتحجرة في المجتمعات المسلمة المفتونة و خارجها على شكل أنانيات و عادات و ذهنيات .

كلمة " استخلف " مثل كلمة " استعمر " وردتا في القرآن بصيغة فعلية تتضمن حرفي السين و التاء . و يقول النحاة إن السين و التاء في صيغة استفعل تدل على الطلب . ففعل استخلف في قوله تعالى :

« *وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَ عَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ* » (سورة النور ، 55) .

يعني طلب منكم أن تكونوا خلفاء . و في قوله جل شأنه حكاية لخطاب نبيه صالح عليه السلام قومهُ :

« *ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا* » (سورة هود ، 61) .

يدل فعل استعمر على طلب الله عز و جل من المومنين أن يعمروا الأرض و يصلحوا فيها و يبتغوا فيها من فضل الله .

في موجز أفغانستان أعطى الله القوي العزيز بعنايته أهلية خاصة ، بارقة ، محدودة في الزمان و المكان ، خاصة بأزمة هدد فيها العدو الباطش بإبادة المسلمين ، خاصة بوقت الاضطرار الأقصى التي يستجيب الله تعالى فيها الدعاء و يكشف السوء و يجعل الصالحين خلفاء في الأرض بعد النصر .

بعد انجلاء الكربة ، نسأل الله عز و جل أن يهلك الكافرين ، هل ينتظر المسلمون في أفغانستان و في كل الأوطان أن يجعلهم الله خلفاء في الأرض دون أن يتخذوا بكسبهم و عمل يدهم و تنظيم عقلهم من الأسباب الأرضية ما يعطيهم الكفاآت المعقولة البشرية العامة ليكونوا خلفاء لله في الأرض يعمرونها و يصلحونها ؟

بعد غوث الله الرؤوف الرحيم لعباده النازل بركة من السماء في زمن الاضطرار حين لجأوا إليه و دعوهُ و تجردوا للموت في سبيله ، و بعد النصر في معارك القتال ، لا بد أن يتخذ المسلمون بأسباب الأرض و بحساب الأرض و في إطار سنة الله التي لا تحابي أحدا ما يؤهلهم للتمكن في الأرض و تمكين دين الله في الأرض . فما المومنون موعودون بالاستخلاف ، و هو طلب ، إلا بشرط أن يقرنوا الإيمان القلبي بالعمل الصالح العقلي الجوارحي التنظيمي السياسي إلخ . و ما المومنون موعودون بالنصر في " وعد الآخرة " إلا إذا كانوا " عبادا لنا أولي بأس شديد " . فالعبودية معنى قلبي و روحاني و البأس الشديد له وسائل اتخاذه الأسبابية الأرضية الكونية . ثم إن الله تعالى لا يريد منا إن استخلفنا في الأرض أن يمتعنا بزهرة الدنيا للدنيا ، لكنه يريد أن يصطنعنا لنمكن لدينه . يريد أن نتمكن في الأرض لنعمل للآخرة في حق أنفسنا فرادى و في حق كل جن و إنسان نُبلغه رسالة الله ليعبد الله و يعرف الله .

بالتعرض لفضل الله و بركته عبودية ، و بإعداد القوة كما أمرنا اجتهادا و كسبا و عملا بالعقل و اليد ، تجتمع فينا الكفاآت الإسلامية الإيمانية الإحسانية لنجيب على تحديات الجاهلية إجابة مسلمة مومنة محسنة شاملة عامة في كل الميادين . اجتمعت في مجاهدي أفغانستان كفاءة روحانية عالية باللجإ إلى الله و الشوق إليه و اقتحام الموت ، و كفاءة مادية ضعيفة ، فبارك الله هذه بوجود تلك . و يكون النصر خاصا ، محليا ، لا يعدو ميدان القتال ، و إن كان وقعه المعنوي واسعا يتعدى الحدود و ينتقل في ضمير الأمة .

و إن كان لعبارة " عالمية الجهاد " التي ينادي إليها مجاهدو أفغانستان معنى فهو أن تنتقل الروحانية الجهادية فتعم الأمة ، و أن تسير سيرها في الأنفس فتشفي من الوَهْن و هو حب الدنيا و كراهية الموت . و عندئذ يمكننا أن ننظر فيما عندنا من وسائل و ما نحن بحاجة إليه منها ، و نحن على تمام الوعي بمن نحن ، و ما غايتنا ، و ما دستورنا ، و ما نموذجنا ، و ما مطلبنا في الدنيا للدنيا ، و ما رغائبنا من الدنيا للآخرة .

عندما يعرف المومن المفرد و المومنة عبيدَ من هم ، و يعيد المسلمون التعارف بينهم على أساس أنهم عباد الله مكرمون لا عباد المستبدين و المستكبرين في الأرض ، و يقاومون الجاهلية كل من موقعه ، و بأقصى طاقاته ، عندئذ يكون موقع الأمة في زمانها هذا من إعراب الجملة المفيدة القرآنية لاحقا بموقعها في سنة الله ، آخذة ببركات السماء ، متخذة لأسباب الأرض ، حاضرة في الدنيا ، داعية إلى الله و الدار الآخرة ، ناطقة بلسان القوة المرئية إلى الإيمان بالغيب ، مترجمة بلغات الأرض المنطوقة و المرئية و الكمية و النوعية و الاقتصادية و الدبلوماسية عن نداء السماء ، حامية وحدتها و وجودها و المستضعفين في الأرض قاطبة بيد السطوة و البأس الشديد . لا يكون على الناس إكراه في الدين ، بل دعوة و إقناع ، و لا يكون عليهم إكراه عن الدين و صد عن سبيل الله و الأمة موحدة قوية .

هذا معنى الاستخلاف في الأرض ، معنى مطالبه و معنى طريق السير إليه . و كما صدر أمر الله تعالى الذي لا يُرد بإرادته الكونية لبني إسرائيل أن يسكنوا في الأرض و يفسدوا فيها مرتين و يَعلو فيها علوا كبيرا ، و قد كان ، فكذلك نقرأ وعده لنا بالاستخلاف ، و هو فعل إلهي إن لقي استعدادا منا ، و نقرأ " وعد الآخرة " ، و نقرأ ظهور الإسلام الموعود ، و نقرأ الخلافة الثانية على منهاج النبوة . و نقرأ ذلك في القرآن الكريم و السنة المطهرة .

في هذا الكتاب قرأنا و سنقرأ إن شاء الله كيف تكثفت الجاهلية ، و اعتُصرت عصارتها ، فتمثلت في جرثومة مفسدة هم اليهود . فمن كان يحسب أن قضية فلسطين و قضية الصهيونية قضية آنيَّة مقطوعة الوصل ، قاصرة الدلالة عن مجمل سير التاريخ البشري ، و تاريخ الإسلام ، و نظام الكون ، فما عرف سنة الله ، و ما قرأ القرآن القراءة الفقهية .

إن كان من تفاصيل " وعد الآخرة " أن نقاتل اليهود وراء الحجر و الشجر إلا شجر الغرقد ، فإن " وعد الآخرة مواجهة بين الإسلام كله تمثله الأمة المستخلفة بعد خلاصها من الفتنة و تحررها من كل عبودية لغير الله و بين الجاهلية كلها يمثلها السم الجاهلية اليهودي الساري في الأرض الساكن فيها كلها .

و قبل وفاء الحجر و الشجر لنا و خيانة شجر الغرقد ينبغي أن نبدأ المواجهة بروح الجهاد التي أطلت علينا في أفغانستان . ينبغي أن نعد العدة الروحية التربوية التنظيمية المتحزبة لله رب العالمين وحده لا شريك له لنحرر الأقطار واحدا واحدا من " حكم الجاهلية " حتى تتوحد دار الإسلام . ينبغي أن تتوحد الأمة على الأخوة في الله و الولاية في اله و الجهاد في سبيل الله لا على " حمية الجاهلية " . ينبغي أن تسود الأمة أخلاق الطهارة و التوجه لله و الآخرة لا ثقافة العهر و " تبرج الجاهلية " . ينبغي أن يكون إيمان الأمة بالله و بركاته السماوية ، متناسقا مع إيمانها بسنَّته و أسبابه الكونية ، خارقاً الكون المرئي المُحس ببصائر القلب ، منفتحا على الغيب و الآخرة .

هذه مطالب عامة ينبغي أن تتجسد في أعمال عينيَّة . ينبغي أن نروض العلوم و التكنولوجيا و علم التنظيم حتى تُسلم كلها لرب العالمين . و هي مسلمة له في نفسها بالفعل إذ هو سبحانه الخلاق العليم . لكن خيالنا المريض يصور لنا أنها بضاعة كافرة لما رأيناها في قبضة الكفار من دوننا ، سبقونا إلى امتلاكها حين ظفِروا بأسرار قانون الله في الكون . بُرْؤُنا من هذا الوهم كفيل أن يزيل صعوبات ترويض المخترعات ، ما هو حاصل منها و ما ينتظر أن نخترع نحن ، لخدمة الإسلام و هي الآن لا تعرف إلا خدمة الجاهلية و أغراض الجاهلية .

كان الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي يمثل التكنولوجيا بحصان قوي و يريد للمسلمين أن يركبوا هذا الحصان . و إنه لحصان في غاية القوة ، من فرط قوته أنه الآن جامحٌ بالحضارة الغربية و العالمية التابعة جموحا منكرا . يقودها هو و يركبها إلى غير وِجْهة . و لن يروِّضها لخدمة الإنسان في رحلته من الدنيا للآخرة إلا أمة لها وِجهة و غاية و ضوابط للسير .

قبل خيانة شجر الغرقد لا بد أن نحقق وحدتنا بالإسلام ، و نكسب العلوم و الخبرة و الصناعة بالإسلام ، و نحقق العدل في الحكم و العدل في قسمة الأرزاق بالإسلام ، و نحصل على التنمية و الكفاية و القوة بالإسلام ، و نعبئ الشعب المسلم بالإسلام ، و تكون ثقافتنا إسلاما ، و استراتيجيتنا إسلاما ، و ليلنا إسلاما ، و نهارنا إسلاما ، و سياستنا إسلاما ، و اقتصادنا إسلاما ، و حضارتنا إسلاما ، و دعوتنا إسلاما ، و رسالتنا للعالم إسلاما .

بذلك نكون رحمة في الأرض نحمي أهل الأرض من بطش الجاهلية . و نكون إكْسيراً نشفي الإنسانية من سم الجاهلية الساري الجاري ، عروقه اليهودية ، و جذوره و شجرته .

و إلى الحديث عن ملابسات جهاد أفغانستان نعودُ بحول الله . و من بعد ذلك إلى الحديث عن ملابسات الشيوعية الفاتكة ، المدخولة الموبوءة أيضا باليهودية . فما خرجنا عن موضوعنا .

" شفافية " و انكشاف

كتب الرئيس الفرنسي دوجول : " إن فرنسا صُنِعت حول تحديات كبرى " . و هي نظرية المؤرخ الإنجليزي طوينبي الذي يعتبر التحديات في تاريخ الأمم حوافز لنهضتها . و يمكن اعتبار ذلك في تاريخ القوميات بأوربا . تتسلط قومية على قومية فتلتف هذه على نفسها لتقاوم ، و يكون التفافها و مقاومتها و ما تبعثه الحروب في النفوس من عواطف قوية عوامل ليقظتها . و نعتبر ذلك في يقظة القومية العربية ، فلا نجد ما وقع من تحديات على العرب صنع من العرب شيئا يُذكر في تاريخنا القريب . ذلك لأنَّ الشعوب العربية في صميمها شعوب مسلمة ، هويتها الإسلامية أعمق من شعورها بالانتماء العرقي . أو قُلْ بلغة الإسلام : إن الله تعالى منذ أذهب عن هذه الأمة عُبِّيَّة الجاهلية و حميتها ببعثة محمد صلى الله عليه و سلم ، و تربيته و جهاده ، تقلصت الجاهلية إلى رُكن مظلم في نفوس المسلمين . و يحاول منذ نحو قرن أعداء الإسلام في دار الإسلام أن يثيروا ذلك الظلام ، و أن يبعثوه ، فنجحوا في إضرام فتنة القومية العربية و التركية إلخ على صورة القوميات الأوربية ، لكنها " كاهر يَحْكِي انتفاخا صولة الأسد " ، لأن الجاهلية الأوربية كل متناسق ، ما الحمية القومية إلا عنصر مؤلّف من عناصرها ، بينما الحمية العربية و التركية و ما إلى ذلك عنصر غامض في وسط المسلمين ، و الفتنة نائمة لعن الله موقظها . ماذا فعلت القومية العربية إزاء تحدي فلسطين ؟ سلمتْها !

و يأتي تحدي الغزو الروسي على أفغانستان أقصى ما يكون التحدي ، فيفزع جند الله الذين كانوا قد تحرروا من الفتنة و يرفعون شعار الإسلام ، و تتبعهم القبائل ، و خلال الجهاد ، و بأخلاق الجهاد و روحانية الجهاد نرى الالتفاف حول راية التوحيد يفتت شيئا فشيئا النعرات القبلية و هي فتنة جاهلية ، من مخلفات الجاهلية ، و تغير اتجاهها ، و تحوِّل الانتماء القَبلي من كونه سندَ شقاق إلى كونه إطاراً عمليا تنظيميا ليهب هؤلاء و أولئك و يتنافسوا في الخيرات و يتسابقوا إلى مغفرة من الله و رضوان و جنة عرضها السماوات و الأرض أُعدت للمتقين .

و ما تنتظر الأمة في أصْقاع دار الإسلام إلا قيادات تنشر راية الإسلام ليصبح حزب الشيطان من أمثال طراقي السفاح و حفيظ الخائن و بابراك كارمل الثعلب و نجيب البليد زَبدا طائش الوزن يلفظه بحر الأمة و لو تَثَقَّل بأكبر دولة في العالم .

جهاد أفغانستان أوقد المصباح المضيء في ضمير المسلمين من تلك الأرض الطيب أهلها ، و كل من وفد على المجاهدين يقبس في الحين بالمخالطة و المعاشرة و المشاركة ، و يكسب إيمانا و رجولة . و الوافدون يتكاثرون بحمد الله و منهم عرب . فإذا رجع كل إلى قومه بعد النّصر ، حققه الله لنا كاملا ، أوقد المصابيح من حوله . و إنها لعالمية جهادية يومئذ بفضل الله تنتقل بمقتضاها الصحوة الإسلامية نُقْلَة نوعية .

في كل بلد إسلامي صحوة إسلامية ، و تنظيمات ، و جمعيات ، و شخصيات مومنة بادية الغيرة على الدين ، و علماء ساكتون تحت القهر أو الخوف الموروث أو التبلد . و النقلة النوعية المرجوة من " عالمية الجهاد " أن يرتفع إيمان الجميع ، و وعي الجميع ، و ثقة الجميع بالله ناصر المستضعفين فلا تبقى الحركة الإسلامية معارضة عاجزة متسترة في زوايا السرية أو ناطقة بشيء قليل أو كثير من الصراحة . المرجو أن تتضاعف فاعلية الحركة بالتلقيح الروحي " لعالمية الجهاد " المنبثقة من أفغانستان و غيرها من المكان .

لا نعني أن يعمد كل تنظيم إلى حمل السلاح يقتل البر و الفاجر معتبرا الشعب الخامل جاهلية و كل حاكم نوعا من بابراك كارمل . بل نعني أن تظهر فاعلية جند الله في خطوة للصدع بالحق ، و الجهر بكلمة التوحيد ، و التحزب المنظم الطويل النفَس لله تعالى ، و التصدي بحذر للمحاولات القومية الانقلابية . فلا ننس أنّ التنظيمات العلمانية القومية انقلابية ، و بالانقلاب العسكري جثمت النصيرية الكافرة على صدور المسلمين في سوريا شام الإسلام و الإيمان حررها الله .

بين أن تبقى الحركة الإسلامية معارضة سرية مقطوعة عن الأمة معتمدة وسائل القوة ترمي الحابل و النابل ، و بين أن تنافس الدولة الجاثمة على امتلاك الرموز المعنوية المهمة الماسة بقضايا الساعة الكبرى في نظر الشعب

مُنادِيةً بالعدل و الشورى نداء قوليا اختيار ثالث لا يمكن أن يحدد إلا محليا ، و باعتبار الزمان و المكان ، و العاملين مع الإسلام أو ضده ، و ضرورات هؤلاء و أولئك ، و مرحلة فساد المفسدين و صلاح الصالحين .

كانت القاعدة لشعبية ميتة في أفغانستان ، ميتة على الأقل صماء عن سماع نداء الإسلام . فأحياها مثال طلائع الإسلام المنظمة و مثال علماء الإسلام الذين انضموا و التقى صدق الدعاة بشفافية قلوب الأمة . و ذهب الله بريح الشيوعيين الذين كانوا أقوى التيارات تنظيما بما لا يقاس . و في بلاد المسلمين حزب وحيدٌ عشائري ، كالحزب البعث التكريتي في العراق و الحزب البعثي النصيري تقوده قبيلة حافظ الأسد لا حفظه الله . تجد بلادا أخرى عليها حكام عشائريون دون حزب منظم ، و أخرى فيها أحزاب " ديمقراطية " . و تجد في مثل لبنان فوضى عشائرية تمثل أحط ما تنزل إليه الحمية الجاهلية و أعنف و أفتك و أخزى .

في بلاد الإسلام ، على رقاب المسلمين ، حكم من هذا النوع أو ذاك ، و في جميعها تَتَغَشَّ التنظيمات الموازية القاعدة الشعبية ، و تقمع الدولة القاعدة بالجاسوسية و أجهزة " الأمن " و التخويف ، و تغتال عنها الحقائق بالكذب الإعلامي ، و تعتصر في السجون زهرة شباب المُعَافَى من داء الخمول ، و تستقطب بالترغيب و الترهيب و الرشوة و الحيلة كل ضمير حي ، و تشتري الضمائر ، و تستغل تفوقها التكنولوجي و المالي لتفرض " استقرارا " سلطويا فتاكا يوهم الشعب أن الدولة القائمة هي الضمان الوحيد ضد الفوضى و " إرهاب " الإخوان المسلمين الذين يقطعون الأيدي و يسفكون الدماء لو حكموا .

كل هذا السحر الذي ذكرناه في جملة طويلة طولَ عنائنا أبطله الجهاد الأفغاني . و أثبتت التجربة الثورية الإيرانية أن المعممين يستطيعون بناء هياكل جديدة للدولة دون أن تنهار الدولة ، بل تزداد قوة و صمودا .

بطل سحر الساحر و تلخص من جهاد أفغانستان أن المومنين هم الرقم الأول المتفوق بما لا يقاس في ميدان القتال ، و في ميدان لف الشعب و قيادته و تنظيمه . و أثبتوا عمليا و فعليا ما كان نية و رجاء في ضمير الحركة الإسلامية . و نرجو من الله العلي القدير أن يمهد أمام جنده طريق البناء لتحصل التنمية بالجهاد ، و التصنيع إلخ .

أما الروس الغازون فهم خائفون أشد الخوف من " عالمية الجهاد " . خائفون أن يبطل سحرهم القمعي في التراب المحتل كما بطل في أفغانستان ، خائفون على قاعدهم داخل التراب السوفياتي حيث يُتوقع بعد عشر سنوات أن يبلغ تعداد المسلمين سبعين مليونا ، أي ما يقرب من ثلث سكان الاتحاد السوفياتي .

خرق الجهاد الأفغاني الحدود إلى الأرض الإسلامية المحتلة . و لفت الجهاد أنظار العالم إلى الغزو الروس . و تنبه من يعانون التعسف الشيوعي في الداخل و من يراقبونه من خارج . و جاء كل هذا في مرحلة دقيقة في تاريخ الشيوعية و هي مرحلة تطليق الشيوعية طلاقا باتا يشهد على بتاته الزعيم الروسي جورباتشوف ، و يعلنه ، و يخطط لما بعده ، و يعاني من المعارضة لخطته .

تنبهت القوميات داخل الاتحاد السوفياتي و تجرأَتْ ، فيتظاهر التتار علَناً وسط الساحة الحمراء بموسكو مطالبين بالرجوع إلى بلدهم بالقرم ، و يضرب العمال في المصانع ، و يلبس " المنشقون " جلود النمور مطالبين بتغيير الدستور السوفياتي بعد أن حررهم سياسة " الشفافية " الجورباتشوفية من المعاقل و مستشفيات الأمراض العقلية .

سماها جورباتشوف سياسة " الشفافية " أي سياسة التحول من الاستبداد الحزب الوحيد ، و قمعيته ، و عدم دستوريته ، و كتمه للحقائق عن الشعب إلى اشتراكية لبرالية ديمقراطية متفتحة . و شاء ربك أن ينكشف الروس بالهزائم الشنيعة في أفغانستان فينشغل الدب الروسي أيما انشغال . سياسة " الشفافية " أذاعت أرقاما اقتصادية أخْبَرَت المواطن الروسي أن مستواه المعاشي يقل بأربعين في المائة عن مستوى المواطن الأمريكي . و أخبرته أحداث أفغانستان التي أصبح الإعلام الرسمي ينشر بَعضها أن الموتى تُعد بالآلاف ، و أن الخسائر المادية أصبحت لا تطاق .

و يدخل عَبْرَ الحدود نفَس الجهاد و روحانيته ، و يستيقظ المسلمون المحتلون منذ سبعين سنة . فيكتشفون ضعف العملاق الذي كانوا يكرهونه كراهية شديدة لا يمنعهم من ترجمتها إلى عمل عدائي إلا خشيتهم الشديدة . و أصبح أمام أولئك المسلمين أفق أمل فتحه الجهاد ، و أصبح في يدهم مفتاح هويتهم الضائعة و ولائهم التائه و هو الإسلام . و أخذوا ينشطون من عِقالهم و يخرجون من البوتقة

القمعية الإرهابية التي كانت جَمدقمم في كيانات معزولٍ بعضها عن بعض لا تكون إلا " جمهوريات قومية " لا علاقة بينها إلا كونها أقساما من الإمبراطورية الشيوعية .

و تتوالى الأحداث التي يمكن رصدها من خارج لتدل على أن تغيرات عميقة تجري هنالك . فالمجاهدون يعلنون باستمرار غزواتهم داخل الأرض الإسلامية المحتلة قديما ، و مظاهرات المسلمين المحليين في ألْمَاآتا في بدايات سنة ***1987*** تسربت أخبارها و اعترف بها الإعلام الروسي ، و اعترف أيضا بل أعلن إعلانا تنحية مسلمين على كل المستويات من مناصب المسؤولية في الحزب و الإدارات المحلية و المركزية آخرهم تنحية حيدر علييف (أواخر أكتوبر ***1987***) الذي كان عضوا في المكتب السياسي و هو أعلى مجلس في الدولة .

و يتعالى صراخ الإعلام الروسي منددا بمن يسميه " السّفْلة القوميين " و " الطفيليات " و " العناصر المعادية للمجتمع " . و هي مصطلحات إديولوجية معناها جميعا " المسلمون " . هؤلاء " القوميون السّفلة " إلخ أصبحوا الآن كثرة تتكاثر في أوساط الطلاب و المثقفين و أطر الدولة كما هم كثرة في الأوساط الشعبية تتكاثر و تنمو بنمو الجهاد في أفغانستان شعورها بعزة الإسلام ، و افتخارها به ، و تصميمها أن يكون مستقْبلها مع الإسلام المنتصر على الحدود في أفغانستان و إيران .

و تهتم الدولة السوفياتية بما يجري من يقظة إسلامية أشد الاهتمام بعد أن أدركت أنها تورطت تورطا خطيرا دون أن تحسبَ حسابها يوم هجمت على أفغانستان و في حقائبها بابراك كارمل . فهي تحاول بكل الوسائل أن تستر فضيحتها في الخارج كما تحاول أن تكتم أنفاس الصحوة الإسلامية في الداخل . و بينما هي تتفاوض في جنيف مع أمريكا ، بواسطة وسطاء ، و تتفاوض معها خارج جنيف بدون وسائط لتتفق على " انسحاب " يحفظ ماء الوجه ، نراها لا تقصر في أجهزة دعايتها عن ثلب المجاهدين بأنهم مرتزقة أمريكا . و نراها تنشط دبلوماسيتها الرسمية و غير الرسمية لتكثف العلاقات و تحسنها مع العالم الإسلامي لتنسي المسلمين المحجورين المضغوطين ما تمارسه من حرب إبادية على إخوانهم في أفغانستان .

و قد عهدت الإدارة الروسية إلى المفتين الرسميين في الاتحاد السوفياتي ، و هم أربعة ، مهمة التنقل بين عواصم المسلمين لتبليغ وجهة النظر الشيوعية ، و عهدت إليه بتنظيم مؤتمرات إسلامية داخل

التراب الإسلامي المحتل ، آخرها حتى كتابة هذه السطور مؤتمر باكُو عاصمة أذربيجان في أكتوبر سنة ***1986*** بتاريخهم . و يحاول الروس أن يستغلوا ما عند المسلمين قاطبة من تعظيم لتاريخ بخارى و سمرقند ، و ما عندهم من استئناس بتاريخ الإسلام وراء النهرين و بالأسماء اللامعة في تاريخ الإسلام ، فيحيطون هذه الأماكن و تلك الأسماء باحترام مزيف منافق ، و يصحبون الزوار المسلمين إلى ضريح الإمام البخاري ليترحموا على الماضي المجيد ، و ينسوا الحاضر المؤلم لروسيا الحقيق بتوفيق الله جل و علا بإعادة تلك الأمجاد .

أخرج السوفيات من صندوق العجائب في خزانة التَّنْويم الإديولوجي تكتيك استعمال الدين عند الضرورة لكسب مؤقت . فهم يتظاهرون بأنهم أصدقاء الإسلام ، و أنهم ورثة محافظون على التراث الإسلامي في آسيا الوسطى و القوقاز . و يلزمهم تظاهرهم هذا بتنازلات هي في حد ذاتها ورطة أخرى كبيرة و كسب كبير للإسلام و المسلمين . للأحداث منطقها ، أو قل بلغة القرآن : « *إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا* ﴿ *15* ﴾ *وَ أَكِيدُ كَيْدًا* ﴿ *16* ﴾ *فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا* ﴿ *17* ﴾ » (سورة الطارق) . فلكي يعطوا برهانا على حسن نواياهم الذئبية للإسلام ، و لينسوا من في داخل الحدود من المسلمين جهاد أفغانستان اضطرّوا لترسيخ الإسلام الرسمي ، فأخذوا يبنون مساجد جديدة ، أو يفتحون منها ما كانوا أغلقوه و حولوه متاحف و ثكنات . و أخذوا يستجيبون أكثر مما كانوا يفعلون لمطالب المفتين الرسميين ، و لا نستبعد أبدا أن يكونوا كلهم أو بعضهم من أهل الخير ، فيسمحون بمعاهد لتعليم العربية و الدين و تخريج أئمة المساجد .

و كل هذه التنازلات الاضطرارية الإعلامية تفسح المجال أمام " عالمية الجهاد " ، و تبني لها القواعد ، و تكون لها الرجال .

و تتواكب هذه التنازلات مع مراجعة جورباتشوف للعقيدة الشيوعية و النظام الشيوعي باقتراحه و سياسته " الشفافية " فيُتَاح للمسلمين التتار ، لمن بقي منهم بعد إبادة ستالين لسكان شبه جزيرة القرم و تهجيرهم و تشريدهم ، أن يتظاهروا جهرة في الساحة الحمراء في قلب العاصمة حتى يسمع العالم كله صوتهم .

و قد نجح التكتيك الروسي في تحريض الغرب ضد المسلمين بقصد و بدون قصد عندما أعطى أمريكا فرصة التبجح بأنها نصيرة المجاهدين الأفغان كما تزعم هي و كما يؤكد الروس . و في هذه الدعوى مصلحة للطرفين ، إذ بتصوير الجهاد للرأي العام الروسي بأنه إرهاب نظمه الأمريكان ضد " الرفاق " ينفي الروس عن أنفسهم تهمة تسعير الحروب العدوانية . و يتفرغ الأمريكان لقمع المسلمين و حركتهم الإحيائية في كل بقاع الأرض بعد أن تستعرض عونها المزعوم لمن تسميهم نفاقا و ذَرّاً للرماد في العيون باسمهم المناسب : " المجاهدين " .

اتضح من نجاح الجهاد الأفغاني و من انتصار الثورة الإيرانية على الحدود للمسلمين المحتلين ، كما اتضح لهم من تراجعات الدولة الشيوعية ، أن الإسلام قوة عظيمة أعظم من الماركسية اللينينية . و اتضح لهم أن الجيش الأحمر ليس بالقوة التي لا تقهر و أن المسلمين قادرون على إذلال الشيطان الروسي كما يدل على ذلك جهاد أفغانستان ، كما هم قادرون على تحدي " الشيطان الأكبر " كما تدل الثورة الإيرانية التي زعزعت أركان نظام كان قويا معززا تحمله أمريكا و تدعمه ، و حطمته ، و أقامت بدله دولة ثابتة البنيان راسخة الأساس .

و في انتظار النصر المبين بإذن الله تجد روسيا الشيوعية ، الراجعة من شيوعيتها إلى شيء يسمى " الشفافية " ، نفسها في الطريق المسدود ، غائصة في ثلوج أفغانستان ، متورطة في الهزائم ، ظافرة بالفضيحة و الخزي . و ما ربك بظلام للعبيد .

قواعد الإسلام

أقصد بقواعد الإسلام الوجود العددي المكثف المنبث في قارات الأرض الذي يمكن أن يحمل مشروع إحياء الدين و مشروع الجهاد من أجل تحرير المسلمين و وحدتهم . و ليس شرط العدد و الكثافة و الانزراع المحلّي ذا معنى البتَّةَ إن لم تتلق هذه الأعداد التربية على قواعد الإسلام الخمسة و شعب الإيمان البضع و السبعين و مدارج الإحسان و السلوك التي لا يعلمها إلا الله . و لا يكون للكثافة العددية فاعلية إن لم ينتظم المومنون على كلمة و فهم و قيادة و رابطة قلبية قوية .

في شتى أنحاء المعمور قواعد للإسلام على شكل أقليات تتفاوت تنظيما و نضجا . أقليات يقظة متحركة تحمل نفس الهم في الجملة ، و تقرأ نفس الكتب ، و تتنفس نفس الهواء الإيماني ، و تتجاوب بدرجة ما مع الأحداث الإسلامية في العالم . و لعل أكثر ما تجاوبت معه بلا تحفظ جهاد أفغانستان . كان لثورة إيران وقعها المفاجئ الكبير على قواعد الإسلام ، لكن ما تلا من ظهور المذهبية التي أدت إلى التحالف العلني مع أعداء الإسلام سفاكي دماء المسلمين النصيريين خيب كثيرا من آمال المسلمين السنة ، و هم السواد الأعظم ، و هم قواعد الإسلام .

رأينا في الفقرات السابقة كيف تم الالتحام بين المجاهدين الأفغان و بين " قواعد الإسلام " داخل التراب السوفياتي . و المسلمون تحت الاحتلال الأحمر يمثلون أهم قاعدة إسلامية عددا و كثافة محلية و أهمية استراتيجية خارج الدول المسلمة اسما و رسما . فهم نموذج من جوانب شتى نرجع إلى النظر في ماضيهم بعد حين إن شاء الله .

في الصين قاعدة إسلامية أخذت تستعيد حريتها و نشاطها بعد هلاك الطاغية ماوتسي تونغ و إيقاف ثورته الثقافية التي ذاق منها المسلمون الأمرّين . و هم أزيد من خمسين مليون نسمة . هم في الغالب يفهمون التركية لغة الأغلبية من مسلمي روسيا المتخمين المجاورين . و اللغة و الجوار قنوات أساسية لمرور " عالمية الجهاد " .

و المسلمون في الهند ذخر عظيم للمستقبل إن شاء الله .

في دول البلقان ، خاصة يوغوسلافيا و بلغاريا ، أقليات إسلامية تسببت يقظتها في اضطهاد مجدد عليها . و هم حماهم الله ، قاعدة للإسلام في تلك الربوع .

في إفريقيا أقليات إسلامية لا تكاد تخلو منها دولة . و الإسلام هناك ينتشر و الحمد لله رغم جهود التنصير الكبيرة الغنية بالأموال و التنظيم و الوجود المكثف الساعي بالإحسان و الإسعاف الصحي و التعليم و الرشوة المشروطة ليرتد الناس عن الإسلام و يتردّوا في النصرانية ففي كل دولة إفريقية قاعدة للإسلام .

في كل دولة من دول العالم بصفة عامة قواعد متناثرة ، أو أفراد ، أو نهضة حقيقية و مراجعة للإسلام كما هو الحال في الأندلس ، أو اهتمام بالإسلام ، أو محطات للدعوة و مساجد أسسها الدعاة المجاهدون مثل جماعة التبليغ " تحريك إيمان " أيدهم الله .

في أمريكا الجنوبية نويات هنا و هناك ، و في كندا . و بركة الإخوان المسلمين في هذا المجال عامة شاملة زادهم الله نورا على نور .

و أهم دولة بزغ فيها نور الإخوان ، و عم بالفضل و الإحسان ، و ثبت في الأرض و عطر عبقه الزمان دولة الولايات المتحدة الأمريكية .

من جند الله و كتائب الإسلام ، من الإخوان المسلمين و غيرهم من كتائب الدعوة ، من استوطن البلاد ، و منهم الزائرون من طلبة و تجار . منهم من لجأ من سوريا و مصر و البنان منذ حصائد عبد الناصر في الإخوان و مذابح النّصيرية ، و الحرب الأهلية العشائرية في لبنان الذبيحة ، ذبحتها الجاهلية الداخلية و الخارجية ، و غلبت فيها المكايد الحلفية المارونية الصهيونية القبلية العصبية .

تمركز الدعاة في أمريكا و بنوا المساجد و اخذوا يستقطبون في مدراسهم و مؤسساتهم أبناء المسلمين المهاجرين قبلهم إلى تلك الأصقاع ، و أبناء الأبناء ، و أحفاد الأبناء . و استقطبوا أيضا أمريكيين مُهْتدين يتزايد عددهم و ينمو باركهم الله كما ينمو في أوربا .

و تجمع الدعوة في مراكزها و مؤسساقا هناك جهود شباب إسلامي من عرب و باكستانيين و أتراك و صينيين و فلسطينيين و أفغان و من كل مكان . و هذا في حد ذاته مكسب كبير ، أن يتعارف الشباب و يتآلفوا و يتفقهوا في الدين لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . و تتلاقح القلوب ، و تتفاهم العقول ، و تصحح النيات ، و تتجدد العزمات . و نحن على درب " عالمية الجهاد " سائرون بإذن الله .

كما هي مكسب كبير هجرة العمال بكثافة من بلاد المسلمين إلى الدول المصنعة في أوربا . تَلَقَّى الدعاة هناك العمال ، فهم يعلموهم و يحيوهم بحياة الإيمان في دار الغربة ليرجع كل منهم في عطلة السنة أو بعد التقاعد إلى قريته و بلدته و أسرته يحمل معه أنباء الإسلام الحر ، و بشارة الأخوة الإسلامية ، و يُفيقَ من سبات القرون قوما كبسهم الظاغوت المحلي و غطى على عقولهم و أفئدهم غبار الخمول . مأساة أبناء العمال في بلاد الغربة مأساة تُدمي القلوب . فكثير منهم يضيع . تحتوشهم المدرسة الغربية و يبتلعهم المجتمع الجاهلي . إنا لله و إنا إليه راجعون . و كم من نقمة في طيها نعمة . إن الله بالغ أمره .

ليس المكان هنا مناسبا لمناقشة أسباب هجرة العمال المسلمين إلى بلاد الكفار ، و لا مكان البحث عن مشروعية ذلك . نحن نتحدث عن الواقع ، و هو بلاء الله . و ما دون بلائه سبحانه بالخير و الشر جرائم المسؤولين الذين يقودون الأمة داخل حدود دار الإسلام ، فتزْداد الأمة فقرا و عوَزا ، و يزداد المسلمون حاجة إلى التماس الرزق خارج الحدود . فهم و نحن في قبضة الضرورة ، أي في قبضة القدر الإلهي الذي يصرف الأمور ، إلى رشاد بحول الله .

في الولايات المتحدة الأمريكية قاعدة إسلامية مهمة جدا . تكون إن أذن الله ذو الجلال و الإكرام مدخلا للإسلام هناك عندما تصل إلى سِنِّ الرشد ، و عندما تدركها العناية الإلهية بوصل حبلها بالدعوة الحق . هذه القاعدة الصائرة السائرة إن شاء الله إلى الفلاح و الصلاح هم الأمريكيون السود . يبلغ عددهم ثلاثين مليونا أي نسبة *12* في المائة من سكان الولايات المتحدة الأمريكية . عدد ضخم و نسبة لا يستهان بها .

لا يزال سوادهم الأعظم متمسكا بنصرانيته . و لا يزال اسم مارتن لوثر كنغ زعيمهم المغتال منذ نحو عشرين سنة رمزا يُعبئ جهودهم السياسية و يستند إلى أمجاده و نضاله ضد التعسف الأبيض خلفاء كنغ الذين يطمع بعضهم في الترشح للرئاسة ، و هو المسمى جس جكسون .

لكن الإسلام فاش في السود ، و الملتزمون منهم بالإسلام نحو أربعة ملايين . و التزامهم بالإسلام يأخذونه مأخذ الجد في حدود معرفتهم للإسلام .

كان الذي بدأ نشر ديانة مخلوطة تخليطا منكرا ملفّقة تحت تسمية " إسلام " رجل سمى نفسه و سماه أتباعه الذين كانوا يقدسونه : إلْيَا محمد . هلك هذا الرجل منذ نحو عشرين سنة . و عُرِف أتباعهُ باسم " المسلمون السود " . و كان لهم تأثير قوي سياسي و اجتماعي و اقتصادي . و هم الآن بعد أن أخذوا يتعلمون الإسلام الحق برغبة و صدق يزدادون قوة تنظيم و قوة تأثير . أبى الله الهادي إلا أن يكون ابن إليا محمد و خلفه على التنظيم من بعده رجلا صادقا . فقد حج و بحث عن دينه ، و تفقه ما شاء الله . و يرجى لتلك الأمة الصلاح . آمين .

و من الأمريكيين السود آخرون دخلوا في دين الله عن غير طريق إليا و حزبه . منهم شخصيات ذات شهرة مثل الملاكم محمد علي . و إسلام سودان أمريكا ممزوج ، لا يزال ، بالشعور القومي و الثورة ضد البيضان الذين استعبدوهم قرونا و أهانوهم . فهم يفهمون الإسلام دينا للملونين لا غير ، و لا يقبلون في صفهم البيضان ، و قبلتُهم إفريقيا موطن الأجداد ، يحجون إليها لإحياء الجذور و تصحيح الأنساب و الانتساب إلى أرض غير تلك الأرض التي سفكت فيها دماؤهم و بيعت فيها بالثمن البخس جداهم و جدودهم .

و هم آخر الأمر إن شاء الله قاعدة للإسلام ، يوم يفقهون سمو الرسالة الإسلامية ، و عمومها ، و ما تحمله من وعود الدنيا و الآخرة للبشرية . و هم في حاجة لصحبة و تربية و عناية خاصة ملازمة حنون .

قد يقفِني البعض هنا لينبهني إلى أن تفاؤلي بتحول هذه الأقليات يوما ما إلى قواعد مشعة فاعلة تُبنى عليها الخلافة الثانية العالمية تفاؤل مُغْرِق في المبالغة . فأذكر منبهي بأن سنة الله في كونه تدّخر للشاكين مفاجآت ثم لا يشكر الله ارتيابهم . و إن معنا ما لا نتردد لحظة في صدقه من وعد الله بظهور هذا الدين على

الدين كله و لو كره المشركون . و معنا وعد رسوله الكريم صلى الله عليه و سلم بظهور الخلافة الثانية و دخول الإسلام لكل بيت حجر و مدر . و أذكره بأن " وعد الآخرة " قد هيأ الله سبحانه له اليهودية و شيطنتها فسكنهم في الأرض ، في جحور " الشتات " و الجيتو ، ثم هيأ لهم انطلاقا من مآوي الحقارة و النذالة أسباب الإمداد بالمال و البنين و النفير الكثير الأكثر . فكيف لا يكون أهوَن عليه سبحانه تعالت حكمته أن يظهر دينه انطلاقا من هذا الإسكان القديم العهد و الحديثه ، و ابْتِنَاءً على وجود أقطار إسلامية يحررها من الحكم الجبري إن شاء متى شاء كيف شاء بعونه و بأيدي المومنين . و يُعلي الشأن سبحانه ، و يبسط الرزق ، و يهب القوة ، و ييسر أسبابها ، و يوحد الأمة ، و يحيي القلوب ، و يشفي من داء الأمم . يُقال " هذا أهون على الله " في موطن الجدل و التذكير للغافلين . جل الله أن يُعجزه شيء في الأرض و لا في السماء . « وَ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ ٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿67﴾ » (سورة الزمر) .

" قواعد الإسلام " نراها تُبْتَنى هنا و هناك على شكل حركة إحيائية داخل الأقطار المسلمة ، و على شكل أقليات قديمة في بلدان الكافرين و المشركين ، و على شكل تكتلات مهاجرة رافقها أو لحق بها الدعاة . و هي في زيادة و نمو باركها الله . و وجودها و انزراعها في الأرض يرجى من كرم الله أن تكون رحمة للعامين ، و أن تكون كرامة لخير أمة أخرجت للناس ، كما أن أمره الكوني تعالى و تقدس لبني إسرائيل أن يسكنوا الأرض كان و لا يزال نقمة و بلاء ، و موعد اللقاء بين الجاهلية و الإسلام موعد فصل . ساقَةُ الجاهلية يومئذ طلائع الصهيونية الساكنة في فلسطين متميزة بصلفها و خُيلائها و علوها الكبير في الأرض . و قلب الجيش الجاهلي يومئذ النفير الكثير الأكثر ، و جناحاه الطائشون من بني البشر السائرون في ركاب الجاهلية .

و جند الله أخذ في التعبئة منذ الآن . تعبئة للمدى الذي يعلم الله توقيته . تعبئة لأجل مسمى . ليست المناجزات التي تم بها طرد الاستعمار إلا مرحلة تمهيئية ، و كلها حفزها حافز الإسلام ، ممزوجا ذلك

الحافز بشيء من الشعور الوطني القومي . ليس سقوط شوكة الإسلام المجيدة السلطنة العثمانية إلا تمهيدا في الأرض لبناء جديد . « مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ » (سورة آل عمران ، 179) .

ليس الخلاء الذي أعْقَبَ سقوط " الخلافة " العثمانية رحمهم الله ، و تألم له المسلمون ، و تأسفوا أسف العاجز ، إلا إخلاء إلهيا و ابتلاء من سنته تعالى بعد أن شاخ ذلك الصرح و انشرخت أركانه و داخلته الفتنة حتى حاكى دخنها في نواحي كثيرة دخان الجاهلية و ظلامها . فكان لا بد أن تَنهدم تلك القاعدة البالية ، و تنظف التربة من النظام المهلهل ، و تهجم سحابة الكفر في حملة جديدة على يد أتاتورك في تركيا و على غيره من الذرية غير الصالحة من العرب و العجم في كل مكان .

ليست المناجزة الباهرة الأنوار في أفغانستان ، و لا الثورة الإيرانية البالغة القوة ، و لا فدائية من قاوموا اليهود من المسلمين في جنوب لبنان إلا نَبَراتٍ متقطعة حروفا هجائية كما يحاول الصبي النطق بها فلا يكاد يُبين . نبرات و حروف من منطوق الجملة القرآنية المفيدة و مفهومها .

و من عموم الفتنة و كآبة الحال و حضيض الانحطاط الفتنوي تبني القدرة الإلهية ، بقدر مقدور و قضاء مقضي و أسباب ظاهرة و أخرى لا يعلمها إلا هو ، قواعد جديدة كما بنت القواعد الأولى انطلاقا من انحطاط جاهلي و كآبة جاهلية و عموم جاهلي . ذلك « لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿37﴾ » (سورة الأنفال) .

و ذلك أدعى أن تكون قواعد الخلافة الثانية و بناؤها و أحوالها و وعدها أشد متانة و أرْسَخَ قدما و أحب إلى القلوب و أمكن أساسا بمقارنة ما انهدم بما هو مطلوب أن يبنى ، و مقارنة ما فقد بما هو مطلوب أن يوجد ، و مقارنة الغثائية الموروثة برجولة تتجدد لنا على صورة الرجولة الأولى ، و الوجود الأول و البناء الأول . و بالنفور الكلي من الفتنة تستعيد الأمة حيوية جيل الصحابة الذين نفروا من الجاهلية . و نحب الله و رسوله كما أحبوا ، و نحب الإيمان و المومنين كما فعلوا ، و نكره الكفر و الكافرين و الفتنة

و أسبابها أن نعود إليها أو إلى ما يؤدي إليها كما كرهوا هم الكفر و العودة فيه . و تلك المشاعر و النيات و المواقف المتميزة من أكبر علامات الإيمان ، و أدل الدلائل على مذاقات الإيمان ، و أقوى الحوافز على سلوك مسالك الإيمان ، و أصلح البواعث على عمل أهل الإيمان ، ذروة سنام الأعمال الصالحة الجهاد في سبيل الله .

روى الإمامان و الترمذي و النسائي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « *ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان (عند النسائي : حلاوة الإيمان) : من كان الله و رسوله أحب إليه مما سواهما . و من أحب عَبْدا لا يحبه إلا لله . و من يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنْقَذَه الله منه كما يكره أن يقذف في النار* » . صدق الله و رسوله . ربنا آتنا من لدنك رحمة و هيئ لنا من أمرنا رشدا .

قاعدة ممتازة

داخل التراب المُسَفْيَتِ قاعدة للإسلام مهمة جدا تتميز بمؤهلات كبيرة .

كان المسلمون يسمون هذه المنطقة التي دخلها الإسلام منذ القرن الثاني للهجرة بلاد ما وراء النهر . و النهر هو جيحون الذي يسمى الآن أموداريْا , فمن ميزات القاعدة عراقتها في الإسلام .

من ميزاهّا أهّا تشبه الأندلس السليبة أعادها الله دار إسلام و سائر الأرض , تشبهها في أن أهل ما وراء النهر حكموا مُعظم البلاد الروسية ثلاثة قرون ، ثم كر عليهم الكفر و عاشوا تحت وطأته منذ نحو أربعة قرون و نصف و لا يزالون ، و تعرضوا مثلما تعرض المسلمون في الأندلس لأنواع الاضطهاد ليستحبوا الكفر على الإيمان . و تمتاز محنة المسلمين في ما وراء النهر عن محنتهم في الأندلس ف كون علماء المسلمين و أفاضلهم و قادهّم هاجروا من الأندلس فضعفت الأمة هناك و قتل من قتل و تستر من تستر بينما لم يهاجر من بلاد آسيا الوسطى و القوقاز إلا النادر لأن البلاد أحيطت بسياج حديدي تحت الاستعمار القيصري ثم الشيوعي . و هكذا صمد العلماء و المشايخ و استماتوا في الاستمساك بدينهم و لا يزالون إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا . نرجو من كرمه تعالى أن يكون أمر حياة الأمة و انتشار الإسلام و انتصاره في روسيا انطلاقا من تلك القاعدة الممتازة الصامدة ، و في الأرض جميعا انطلاقا من " قواعد الإسلام " التي تمهد بها يا مولانا يا ملك يا وهاب يا قوي يا عزيز لتظهر دينك على الدين كله كما وعدت و وعدك الحق .

تمتاز القاعدة الإسلامية في داخل التراب المُسَفْيَتِ بأن إخواننا هنا جُرِّعُوا كأس الاضطهاد في الدين حتى الثمالة ، خاصة منذ سبعين سنة على يد الشيوعيين الذين لم يعرف تاريخ الجاهلية لونا أشد قتامة و لا عنفا أشنع فظاعة منهم . و كيف لا و مذهب الصراعية و التطاحن و سحق الطبقات الاجتماعية بعضها بعضا مذهبهم . تعلموا الصراعية و البطش و احتقار الحياة البشرية و عداوة الدين و مبارزة الألوهية بالنكران و الإلحاد من اليهودية السارية فيهم شعروا أو لم يشعروا ، علمهم المذهب و وضعه يهودي ممتاز من بين كل يهود التاريخ هو ماركس . و إلى اليهودية نرجع بعد حين إن شاء الله ، فالمواجهة الدائمة المستقبلية المحتومة بين الإسلام

و الجاهلية تتوسطها اليهودية و الشيطنة اليهودية و الفلسفة اليهودية و الكيد اليهودي . و سنرى قريبا بإذن الله مدى تأثر التاريخ الشيوعي و الفكر الشيوعي و العنف الشيوعي بالصراعية اليهودية لندرك أن فلسطين رقعة ضيقة لا تصح أن تكون مسرحا للمواجهة الحاتمة و إن صح أن تكون بؤرة لها .

في فلسطين جمع الله بني إسرائيل لفيفا بعد أن أدوا دورهم الشيطاني في إفساد الأرض بعد أن سكنوها كما يسكن الشيطان ابن آدم يجري منه مجرى الدم . جمعهم ليوم موعود ، « وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿47﴾ » (سورة الحج) . و العلم عند الله تعالى بالمقادير و التواريخ . و هو سبحانه بصدد نشر " قواعد الإسلام " في الأرض لتستعد الأجيال بعدنا لتلقي رحمته بتعميم دينه ليُحق الحقَّ عَزَّ و علا و يبطل الباطل و لو كره الكافرون .

و من تدبير حكمته البالغة سبحانه أن تجر الشيوعية جرّاً بكتلتها الحاضرة و سلطانها الغالب و إدارتها الإكراهية التخطيطية شعوب ما وراء النهر المسلمة إلى عصر الخبرة و التكنولوجيا . فمن بين الشعوب المسلمة جميعا يمتاز المسلمون المستعمرون هناك بانمحاء الأمية و ارتفاع المستوى التعليمي و وَفرة الخبرة و عدد الخبراء و الاستحكام في التكنولوجيا المتطورة المتنوعة . هنالك كون أعداء الإسلام ، لمستقبل الإسلام إن شاء الله ، أُطرا عالية الأهلية . « وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ ٱللَّهُ وَ ٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿30﴾ » (سورة الأنفال) .كونت الشيوعية تلك الأطر بحسابها و بعناية خاصة لتصبح الثقافة و العلم و التكنولوجيا شُغلا بديلا عن الدين . و كان لها ما حسبت استدراجا قدريا . حتى إذا ظن أهل ذلك الكفر أنهم قادرون على محو الإسلام من تلك الربوع ، جاء الله " بعالمية الجهاد " الأفغانية و بالمنبهات الإيرانية و بما شاء من هداية ليس دونها و دون الناس حجاب ، متى حكم بذلك من له العزة و الجبروت سبحانه ، ليتكشف الشباب المُسَفْيَت و الأطر المذخورة لغد الإسلام بحول الله أن الإسلام شرف ، و أنه قوة ، و أنه عزة ، و أنه هو الحق ، و الهوية الحق ، و الطريق الحق ، و المذهب الحق .

و من قاع التكفير الإكراهي الإقناعي الفلسفي الإلحادي يتطلع المسلمون المصنّعون النامون إلى نور الإسلام . من قاع ظلمات الجاهلية الحمراء الجهنمية يطلع المسلمون في تلك الآفاق ليعتنقوا دينهم اعتناقا جديدا و يحرصوا عليه حرصا شديدا بعد أن عرفوا بالمقارنة و التجربة ما هو الإسلام و ما هي الجاهلية . و بذلك يكونون إن شاء الله أشباه الصحابة في كون الصحابة خرجوا من الجاهلية السوداء المطبقة إلى الإسلام فكان حب الله و رسوله و حب الإيمان و أهل الإيمان و كراهية العودة في الكفر سمتهم الغالبة ، عرفوا طعم الإيمان بعد أن عرفوا طعم الكفر ، و ذاقوا حلاوة الإيمان يقارنونها بمرارة الكفر ، و رحمة الإيمان استراحوا إليها من عنائهم السابق في مجتمع الكراهية و الصراعية و ظن الجاهلية و حميتها و تبرجها و حكمها .

و يشاء الله عز و جل أن يميز " قاعدة الإسلام " في جبال القوقاز و سهول تركستان و مدن الإسلام العريقة في سمرقند و بخارى بوجود مشايخ و علماء مربين حافظوا على جذوة الإيمان و صبروا على دينهم كالقابض على الجمر فهم خميرة صالحة زادها الله صلاحا .

و إن دراسة صمود آباء و أجداد هؤلاء المشايخ و العلماء و المجاهدين أمام الغزو الروسي قديمه القيصري و حديثه الشيوعي يعطي صورة عن أساليب الغزو الجاهلي الاستعماري الذي عم دار الإسلام ، كما يعطي صورة عن حيوية الإسلام و قدرته على المقاومة . هذه الدراسة تعطينا صورة مركزة ممتازة عن أساليب غزو الجاهلية للإسلام و غزو العصرنة و الإلحاد للإيمان . ينبغي أن نَتَنبَّه لدرس تاريخ المحنة هناك ، و درس عمقها ، و ما صحبها و يصحبها من بلاء ، و ما حملته نقمتها في طيها من وعود بالنفور المتوقع من الجاهلية للإسلام ، و ما يحمله حاضرها من بَصَمَتً بالغة الأثر بدأ محوها عجل الله به ، و ما يعنيه انتهاؤها المطلوب من كرم المولى بالنسبة للإسلام في روسيا و في العالم .

بدأ الاستعمار تلك البلاد العزيزة منذ سنة *1552* بتاريخ النصارى . و إعزازنا و حبنا لنبي الله عيسى على نبينا و عليه و على سائر أنبياء الله أفضل الصلوات و أزكى التسليمات لا ينسينا أن قراءتنا لتاريخ أنفسنا

بالتقويم النصراني عوض التقويم الهجري فتنة لاصقة بنا منذ أحالتنا سنة الله إلى مقاعد التأديب ، و سلمنا بلاؤه ، نعوذ بجلال وجهه و نستغفره و نتوب إليه ، إلى مقارع التمحيص .

ينفي الشيوعيون أنهم تمادوا في الحفاظ على الإمبراطورية القيصرية التي ورثوها بعد ثورة أكتوبر منذ سبعين سنة . و يزعمون أنهم حرروا الشعوب من الاستعمار . و يرفضون أصلا أن يعترفوا بأن ممارساتهم التي سندرسها قريبا بحول الله شيء آخر غير كسر القيود و تنحية الأنقاض التي تخلفت في روسيا الأم و فيما يسمى الآن بالجمهوريات السوفياتية عن تاريخ الفيودالية القيصرية و الاستعمار القيصري .

من الأنقاض التي يزعم الحمر الشيوعيون أنهم جاءوا لتنحيتها الدين الذي يفصل بين الشعوب و يمنعها من تحقيق آمال الطبقة الكادحة و توحيد جهودها . و يزعمون أن الشعب الروسي أخ أكبر في أسرة الشعوب واجبه أن يوجه و يرشد لا أن يفرض رأيه .

و وجد الثوار الحمر بعد انتصارهم على القيصرية في موسكو " رفقاء " محليين من أبناء المسلمين كانوا في انتظارهم ، انخرطوا في حزبهم منذ أزمان ، و مهدوا الأرض و غطوها بشبكة تنظيمهم . تماما كما يحدث في أفغانستان حين هب الروس بالجنود الزاحفة لنجدة " الرفاق " من حزبي " خلق " و " برشام " .

و مسيرة الشيوعية في تلك الأرض طويلة سرت نظريتها و حُماها و حميتها إلى الأجيال المعجبة بالغرب في طشقند و بخارى ، كما سرت إليهم في إسطانبول و أنقرة في تركيا ، و إلى طهران و تبريز في إيران ، و إلى كل بلاد المسلمين في تفاوت زمني . صاحبت الثورة الشيوعية موجة التغريب أو لحقتها أو أغارت عليها لتزيدها تَجَذُّرا .

كان في بلاد ما وراء النهرين حركة تغريب تسمى " الجديد " قامت في وجه حركة إحيائية سلفية قادها علماء أفاضل . و كان صراع انتهى بانتصار الثورة الحمراء و حضور " الأخ الأكبر " الروسي القيصري الذي كان يسمح* بتعدد الأديان ، و يفرض بالنار و الحديد دين الإلحاد و المادية الذي يقضي بإفناء جرثومة كل دين بإفناء علماء الدين .

* ربما نسي المؤلف وضع كلمة (لا) و يكون المعنى : الأخ الأكبر الروسي القيصري الذي كان لا يسمح بتعدد الأديان ... (الناسخ)

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتاريخ النصارى ، ويْحَ المسلمين حتى التاريخ مستعمر ! عاش عالم كبير من تتار قازان . و التتار يسمون أنفسهم أتراكا و لغتهم التركية . اسمه شهاب الدين مرجاني (مات في ***1889***) كان هذا العالم يدعو المسلمين إلى إسلام متسامح متفتح ، و كان له وعي كامل بضرورة تسلح المسلمين بعلوم العصر يومئذ . لم يكن غائبا عن زمانه و لا حرفيا مقلدا . و كان ينصح المسلمين بتعلم لغات أوربا و تكوين أبنائهم في مدارس الروس ليكونوا أقْدَر على مقاومة الاستعمار الروسي .

و من بعد شهاب الدين مرجاني تابع المسيرة تلامذته من أمثال القاضي رضاء الدين فخر الدين أوجْلو و الشيخ جار الله بيجي ، و بقي فخر الدين أوجلو طافيا في أعاصير التغريب و القمع الثوري ، لم يلق ربه إلا في سنة ***1936*** بتاريخ النصارى . و هو آخر كبار العلماء في تلك البقاع غفر الله لنا و له . و قد خلف مؤلفات كثيرة في الفقه و السيرة و التاريخ .

كان هؤلاء العلماء المتفتحون – على غرار السيد أحمد خان في الهند و علماء التجديد في تركيا و إيران – يحاولون أن يجدوا صيغة للجمع بين ضرورتين : حفظ الدين ، و ضرورة اكتساب علوم العصر .

و حصل في بلاد التتار ما حصل في البلاد الأخرى ، إذ مهد هؤلاء " المجددون " غفر الله لنا و لهم الطريق أمام موجة التغريب . كانوا يظنون حركتهم حركة لحفظ الدين ، فإذا بها تنزلق و تصبح فتحا واسعا لكل الأبواب و النوافذ التي هجمت منها الثقافة الغربية و الفكر الغربي ، و زحفت جحافل الإلحاد و جنوده قدَما قدماَ من تساهل " المجددين " إلى مواقع الجُرأة على الدين ، ثم إلى مرحلة الاستخفاف بالدين ، ثم إلى وقاحة التنكر للدين ، ثم إلى كفر أتاتورك و أمثاله في بلاد ما وراء النهر الذين حاربوا الدين و قتلوا علماء الدين .

لم تأت سنة ***1905*** بتاريخ النصارى إلا و قد تمكنت أقدام " الجديد " على حساب " القديم " الذي كان يمثله العلماء الأفاضل الذين فتكت بهم الثورة فيما بعد . علماء " القديم " الذين حاربتهم الشيوعية بلا

هوادة و لا انتظار كانوا يرون الكفر كفرا لا تسامح معه ، و يرون الضلال ضلالا لا سبيل إلى الانفتاح عليه . فَوُصِمُوا قبل الثورة الحمراء بأنهم حرفيون متزمتون ، و سيقوا بعد الثورة إلى مصارعهم رحمهم الله .

و تفرع من مدرسة شهاب الدين و فخر الدين الذي عُيِنَ مُفتيا رسميا تحت النظام الشيوعي بعد انتصار الثورة سنة *1922* قضاة و مفتون مثل بابا خانوف أحد المفتين الأربعة الرسميين في هذه السنوات .

هل هؤلاء المُعممون المسلمون سفراء روسيا غير الرسميين الذين نشاهد صورهم في وسائل الإعلام خونة لدينهم ؟ لا نظن ذلك لحظة . و إنما هم بقايا من جيل من العلماء فاجأهم الغرب بحضارته المتفوقة و هالهم تخلف المسلمين المادي فاجتهدوا في منهاج لاستدراك الفوات . و أخطأوا و وقع الانزلاق . و ركب الذراري الجاهلون بالإسلام من أبناء المسلمين موجة التغريب حتى بلغ الأمر إلى ما نرى . و لا راد لقضاء الله .

و من ذلك الانزلاق الذي طُويت صحفه إلى عودة إرادية للإسلام نشاهد تواصلها و اطرادها . و من جملة من يساهم في هذه العودة المفتون الرسميون في الجمهوريات الإسلامية . فمن جانب تستعملهم الدولة الروسية و الحزب الحاكم لتحسين صورة روسيا في الخارج ، و تبتعثهم في سفارات ثقافية " إسلامية " هنا و هناك ، و ينظمون المؤتمرات الدعائية . و من جانب آخر يستغلون مناصبهم لصالح المسلمين إذ يبنون مزيدا من المساجد و المدارس و يكونون أفواجا تتكاثر من الخطباء و الأئمة . و الله غالب على أمره . و لكن أكثر الناس لا يعلمون .

عاش إذن المسلمون في بلاد ما وراء النهر مأساة الانسلاخ التدريجي عن الدين طيلة القرن التاسع عشر الميلادي كما عاشها المسلمون في تركيا و المملكة العثمانية كلها بالتبعية و إيران و بلاد العرب . لم تكن للعلماء التقليديين المحافظين على الموروث الصادقين نيةً أو الموالين للأمر القائم أيةُ دراية بالعصر و لا أي إدراك للخطر المحيط بالمسلمين من جراء التقدم الصناعي و العسكري و التنظيمي في أوربا و من جراء تخلف المسلمين في هذه الميادين . و كانت هذه الطائفة من العلماء عارضت الإصلاحات و التنظيمات العسكرية ثم القانونية التي أحدثها " خلفاء " آل عثمان من عهد سليم الثالث و محمود في اوائل ذلك القرن محاولة منهم أن تلحق تركيا و المملكة العثمانية و تجاري الدولة الأوربية التي كانت تناصبها أشد العداء . فما انتهى القرن إلا

و قد انتصرت طائفة التجديد من علماء " التفتح " و " التسامح " . و في السرية و الخفاء تكونت تنظيمات سرية على منوال التنظيمات الماسونية التي كانت منتشرة في تركيا مثل جمعية " الاتحاد و الترقي " التي تربى في أحضانها أتاتورك و على غرار التنظيمات القومية و الشيوعية التي يمثل الفرع البلشفي في بلاد ما وراء النهر نموذجا منها ممتازاً .

و سنرى بحول من له الحول كيف انهارت القواعد العتيقة أمام هجمة " الجديد " الخادم لضرورة المجاراة للعصر ، و هي كانت و لا تزال حيوية .

خلاصة الاستعمار

من يقرأ تاريخ الاستعمار الروسي لبلاد آسيا الوسطى و القوقاز الإسلامية فكأنما يقرأ ملخصا مجملا لمأساة المسلمين في كل مكان . يمتاز الاستعمار الروسي هناك بطول مدته و بالأثر البالغ الذي أثره الإكراه الشيوعي في المجتمع المسلم . فكأنما هي خُلاصة للدرس كما هو الجهاد الأفغاني ، لنبحث فيما بين الخلاصتين عن معاني سنة الله عز و جل التي تخفض و ترفع تربية لقوم يذّكرون .

إن المد الغربي و انتفاضة أوربا منذ القرن الثامن عشر منذ أخذت تتصنع و تتفوق ماديا و عسكريا على المسلمين لم يجدا في طريقهما إلا إمبراطورية عجوزا هي " الخلافة الإسلامية " شوكة المسلمين و درعهم القوي بحق و تحقيق لمدة قُرون . إمبراطورية فقد آل عثمان القائمون عليها بالوراثة الملكية فضائل أجدادهم الأشاوس فتحولوا إلى كسروية " الباب العالي " ، و تلاشت قوتهم و قدرتهم على التنظيم و التصنيع لمواجهة الأعداء ، فنعتتهم أوربا بالنعت الشائن " الرجل المريض " بعد أن كانت هيبتهم تفرض الاحترام الكامل .

و هجم الاستعمار على بلاد المسلمين حتى عمتها عساكره ، و عمتها مدارسه ، و سادتها قيمه و عاداته . حتى إذا انسحب الاستعمار أمام المقاومة الوطنية القومية الإسلامية ترك الاستعمار " نخبة " من المتخرجين في مدارسه حكمت البلاد . كانت القوة التي طردت الاستعمار تتكون في تآلف هجين من الدوافع الإسلامية عند القاعدة الشعبية هي بقايا الموروث من إسلام الآباء و الأجداد ، و من الدوافع الوطنية التي حمستها الشعارات لدى الشعب ، و من الشعور القومي الذي تعلمته " النخب " بالاحتكاك مع المستعمر ، و استوردته بالذهنية المرآتية العاكسة لفعل الاستعمار ، المستعيرة منه ، المتتلمذة له .

و على يد الاستعمار مدة حكمه المباشر ، و خصوصا على يد نسل الاستعمار من الذرية المغربة بعد انسحاب الاستعمار ، فُرضَت على المسلمين ثقافة الجاهلية و نماذج الجاهلية و عادات الجاهلية . و صارعت هذه المستوردات ما كان في المكان من قيم سابقة ، و اختلط الأمر ، و ازداد شعور الناس

تَهَجُّنا ، و عقولهم ، و نمط حياتهم . و مالت ملامح المجتمع المسلم بعد الاستقلال السياسي إلى الشبه أكثر فأكثر بالعنصر المستورد . و طغت الملامح الجاهلية في المدارس و الجامعات و الشارع و البيت و الإعلام و العادات و العلاقات الاجتماعية و أسلوب الحكم و الإعمار . و امتازت " النخب " المغربة عن الشعب ، و ارتمت في أحضان الاستعمار الجديد ، و تفردت بالثروة و السلطان ، و فقرت السواد الأعظم من الأمة .

بعد المقاومة الوطنية القومية الإسلامية في معارك " التحرير الوطني " بدأ التفكك و التهجين يتخذ أسلوب الإكراه المباشر ، يفرض أخلاف الاستعمار بين ظهرانينا ما يشاؤون ، متحكمين لا يخشون ملامة تائهين " ببطولاتهم " في قيادة حروب و معارك " التحرير الوطني " . و هكذا فرض أتاتورك بعد " انتصاره " على الحلفاء إلغاء " الخلافة " العثمانية رحمها الله ، و فرض الأبجدية اللاتينية ليصبح القرآن و الإسلام غريبا عن الأجيال الجديدة ، و قتل العلماء ، و أرغم المسلمين على طرح العمامة و اعتجار البرنيطة ، و قنَّنَ في مكان الشريعة الإسلامية القانون الجنائي الإيطالي ، و القانون الشخصي السويسري ، و القانون التجاري الألماني . و هكذا ألغى في سنوات قليلة مجد القرون الذي بناه أبطال آل عثمان رحمهم الله رحمة واسعة .

و على إثر انسحاب القوات العسكرية للاستعمار انتشرت ألوية عساكر الغرب الثقافية في طول البلاد و عرضها ، و بواسطة " النخب " المغربة من خلال وساطتهم العالية المستوى ، من موقعهم في سدة الحكم و التعليم و الإدارة و المال و التجارة ، و توطدت الإديولوجيات الغربية فوجهت الحياة العامة و غزت الحياة الخاصة و شوهت رسم المجتمع . قومية و اشتراكية و ثقافة و فن و حرية و " حياة " و متاع و حضارة . كل أولئك ينافي الإسلام و يزحزحه عن مكان الصدارة و يعبث به و يسخر .

و الآن بعد عشرات السنين من عبث المغربين بمشاعر الأمة ، انكشف المسرح عن خيبة أمل عميقة : أحلام عبد الناصر ، و هزائمه الشنيعة ، و ركوع خلفائه من بعده أمام اليهود ، و تردي الأوضاع الاقتصادية ، و فساد الإدارة ، و اطرادُ " التقدم " التنموي ... إلى الوراء ، وفشل خطط التصنيع ، و التبعية للغرب الجاهلي أو الشرق الجاهلي ، و المديونية الرهيبة ، و العجز عن توفير الغذاء ،

و المرض ، و فساد الذمم و الأخلاق ، و تحول الخوة و إيتاء ذي القربى و التكافل التي كان يعرفها المجتمع المسلم إلى أنانية و كراهية ، و انحلال الأسرة ، و فشو الزنا و شرب الخمر . و القائمة طويلة مديدة ، قائمة " ملخص " نتائج الاستعمار .

يقول المحللون الغربيون و إخوانهم من الماديين من بني جلدتنا : إن موجة الصحوة الإسلامية تستمد طاقتها و قدرتها على الاستمرار و الامتداد من السخط العام على فشل المحاولات القومية الاشتراكية . فهي في نظرهم " بديل " إديولوجي لمواجهة الغرب بعد أن فشلت الإديولوجيات المستوردة في الوفاء بوعودها . و لعل في كلام هؤلاء بعض الصواب ، جزء مهما كان سطحيا من الصواب . أما نحن فنرى في عودة الإسلام قبل كل تحليل و بعده منة إلهية هي مظهر من مظاهر سنته العزيزة ، و هو سبحانه يقبض و يبسط ، و بلاؤه للعباد سائر على إرادة حكيمة بالغة . له مقاليد السماوات و الأرض .

و من إزاء القرآن و بمنظار سنة الله و آياته في الأنفس و الآفاق تظهر لنا ظاهرة الاستعمار ، و طغيان أخلاف الاستعمار ، و توالي الفشل ، و استرخاء الأمة ، و فساد ما فسد أبعادا للغثائية . و الغثائية هي المرحلة الدنيا المتناهية الانحطاط في دركات التدهور الفتنوي . و للغثائية علاج وصفته السنة ، و للفتنة مواصفات أجمَلَها الكتاب العزيز و فصلتها السنة ، و للخروج من ورطة اختلاطنا بالجاهلية ظنّاً و حمية و تبرجا و حكما منهاج بسطه الكتاب المقدس و عينته زمانا و أسلوبا السنة المطهرة الشريفة .

و هذه هي " خلاصات " تعليمية نقرأها في أنفسنا و في الآفاق : خلاصة " عالمية الجهاد " الأفغاني ، و حصيلة الاستعمار في بلاد المسلمين عامة و في أحضان الشيوعية خاصة . فإذا كنا تلاميذ نجباء لسنة الله المقروءة في الكتاب و السنة المنشورة في الكون و التاريخ فسنُبصِر ، مستبشرين مستغفرين منيبين إليه سبحانه طامعين في عفوه و نصره دنيا و أخرى ، كيف ردتنا أعمالنا و ما كسبت أيدينا أسفل سافلين لنغُوص في حَمْأة الجاهلية و نشرب كؤوس الهوان مُتْرعة حتى تأتي رحمة الله و هدايته فَنَهبَّ للصلح مع الله و نحب الله و رسوله ، و نكره الجاهلية و الكفر بالله ، و نُعِدَّ ما استطعنا من قوة كما أمر الله ، و نجاهد في سبيل الله ، و نتعرض لموعود الله و بشارة رسول الله ، راجين واثقين في الله ، خائفين من

مكر الله ، محترمين لسنة الله ، من سنته سبحانه أن يفوز في الدنيا و الآخرة أهل لا إلـٰـــه إلا الله . اللهم اجعلنا من أهلها . ربنا آتنا من لدنك رحمة و هيِّئْ لنا من أمرنا رشدا .

و الآن ننظر بحول الله ماذا كان مسار الإخوة المسلمين في بلاد ما وراء النهر ، و كيف كانت الحصيلة ، و ما هي الخصوصيات المميزة ، و ماذا ينتظر من كرم الله تعالى الوهاب ثم من قواعد الإسلام في قلب بلاد الكفر الأحمر .

كان المسلمون في بلاد ما وراء النهر إمارات و قبائل شتى . منهم من دخل الإسلام منذ القرن الثاني الهجري و أسسوا حضارات راقية ، و منهم من دخل الإسلام حديثا في القرن الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين . فهم المتحضرون و الرحل و الجبليون . أهم هذه الشعوب و أكثرها عددا شعوب التركستان . بلادهم نصف صحراوية و هم ينقسمون إلى سكان مقيمين أتراك و هم الأوزبكيون و إيرانيين و هم التادجيقيون و وجودهم هناك كان و لا يزال مكثفا .

كان التركستان قبل الغزو الروسي ثلاث إمارات إسلامية مستقلة راقية الحضارة : إمارة بُخارى و إمارتان في بلاد الكوكند على رأس كل منهما ملك يسمى " خانا " ، أولاهما إمارة فرغانة و الثانية إمارة خِيوَة . هذه الإمارات الثلاث التي استولى عليها الروس هي وريثة دول قوية سبقتها ، مثل الإمبراطورية التيمورية و الإمبراطورية الشيبانية اللتين شيدتا حضارة ما وراء النهر ، و خلفتا مدُنا رائعة واسعة الأثر و الذكر في تاريخ الإسلام برجالها و مدارسها و علومها و حضارتها مثل مدينة بخارى و سمرقند و طشقند و خُجَند .فلما تفتّتت الدول الكبيرة و تجزأ ترابها و وهنت قوتها أصبحت مثل المماليك المتجزئة في الأندلس المنحطة عن الدولة الأموية القوية القابلة للغزو و الاستعمار .

و كما كانت الدولة الموحدة في الأندلس قبل التجزئة دولة مرعيّة الجانب ، شديدة الشكيمة ، تحكم الناس و لا يحكمها الناس ، كذلك كانت الدول القوية في عواصم بخارى و طشقند و سمرقند في عهود التأسيس تحكم جزءا كبيرا من بلاد روسيا . كانت " الجحافل الذهبية " و هم جنود التتار الأتراك يحكمون تلك الديار الكافرة لمدة ثلاثة قرون .

حتى إذا أخذ الانشقاق يهدد وحدة البلاد و سرى الوهن رجع الكفر هاجما . الفرق بين " الرجعة " النصرانية على ملوك الطوائف في الأندلس و بين رجعة الروس أن نصارى الأندلس أجْلَوا خيرة المسلمين المغلوبين و نصَّروا البقية الباقية و أبادوها و أفنوها ، بينما بقي المسلمون المغلوبون في بلاد ما وراء النهر صامدين إلى يومنا هذا ليكونوا إن شاء الله قاعدة انطلاق إسلامي جديد .

بدأ الغزو الروسي سنة *1552* في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية المجيدة في أوج عظمتها و قوتها . و سقطت مدينة قازان العظمى عاصمة إحدى الإمارات التتارية في يد إيفان الملقب بالرهيب لشدة بأسه و وحشيته . و تلا ذلك سقوط إمارة أسترخان .

كانت الجيوش الروسية بقيادة إيفان الرهيب تعتبر حرب المسلمين حربا " مقدسة " و يسمون المسلمين بازدراء " البوزُرمنين " تحريف اسم " مسلمين " .

و توقفت الحرب طيلة القرن السابع عشر الميلادي . ثم انحدرت الجيوش الروسية مغتنمة فرصة القتال بين الإخوة التتاريين فتوسع الروس شرقا و جنوبا . و كانت تلك الجيوش الرهيبة بالغة الوحشية و البطش بالمسلمين ، يتذكرها المسلمون القازاقيون باسمها الذي أطلقه عليها أجدادهم : " المصيبة الكبرى " .

في سنة *1848* تم القضاء على جحافل التتار بعد أن دمر الروس تدميرا شاملا إمارة القرم التي كانت يوما ما جوهرة حضارية و شوكة عسكرية .

بعد ذلك استولى الروس على بلاد التركستان فسقطت طشقند سنة *1865* ، و سقطت بخارى سنة *1868* حين أمضى خانُها ، أي ملكها ، عهدا يضع مملكته تحت حماية القيصر . في سنة *1873* سقطت مملكة خيوة ، كما سقطت مملكة كوكند سنة *1876* و كانت هذه المملكة أشد أعداء الروس . فلم يبق بعد سقوط كوكند إلا الاستيلاء على بلاد التركمان . و انتهى كل شيء سنة *1881* للميلاد .

و بدأ الاضطهاد القيصري لمن سماهم " بوزرمنين " بمحاولة دمجهم في المجتمع الروسي . و قد كان الروس و لا يزالون يعتبرون ثقافتهم أعلى الثقافات لا هوادة عندهم في ذلك . فحاولوا أن يفرضوا لغتهم و دينهم الأرثودوكسي على المسلمين المغلوبين . و مارسوا على الشعوب المسلمة أشنع الضغوط

لينصَّر المسلمون ، تماما كما فعل نصارى إسبانيا بعد غلبتهم . الخَطَّانِ الاضطهاديان هنا و هناك متوازيان تماما . لولا أن اضطهاد النصارى الإسبان نجح في ترحيل خيرة المسلمين ليتفرغ لمن بقي منهم فيبيدهم ، بينما حالت الكتلة الكبيرة لمسلمي ما رواء النهر دون بلوغ الروس مآربهم . و صدق الله : . و قامت النخبة من علماء المسلمين و خيارهم تقاوم تحت الاستعمار غزوات التنصير و غزوات التَّرْوِيس مثلما قاوم أسلافهم من العلماء و المشايخ الغزو الروسي العسكري . هؤلاء نهضوا للمقاومة بوسائل توعية الأمة و تكتيل جهودها لرفض سياسة الاستعمار ، و الأسلاف حملوا السلاح و قادوا الجيوش .

و بحملات التنصير و الترويس ازداد المسلمون كراهية و بغضا لكل ما هو روسي . هذا البغض لا يزال كامنا في الصدور رغم مرور قرن كامل على نهاية الاحتلال الروسي . و الإسلام المستيقظ على صوت الجهاد الأفغاني و الثورة الإيرانية يعطي لذلك الغضب الدفين المزمن وسائل للتعبير عن نفسه ، نرجو أن يتحول غضبا لله فينصر الله رب العزة من شرفهم بحمله . فإن كراهية العودة في الكفر ، و هي طعم الإيمان ، شرط مشروط ، و كراهية الكفار لكفرهم جزء من ذلك الطعم . لا مجرد الغضب البشري الانتقامي .

كانت كراهية الكفر و أهله هي التي حملت علماء أجلة على قيادة المقاومة عسكريا أثناء الزحف الروسي . كانت المشايخ الصوفية ، و لا يزالون ، هم حاملي مشعل الجهاد . من المشايخ النقشبندية الشيخ منصور الذي قاد سكان القوقاز الجبليين في جهادهم منذ سنة ***1784*** . و كان أعظم قادة الجهاد في القوقاز شيخا نقشبنديا اسمه الإمام شامل . قتل في الجهاد رحمه الله سنة ***1856*** . و لم يضع السادة النقشبندية العظماء السلاح إلا في سنة ***1859*** بعد جهاد قرن كامل بدأ بالشيخ منصور و انتهى بالإمام شامل . أعلى الله مقام تلك الأرواح الطاهرة .

كان لعلماء ما رواء النهر و مشايخها ، خاصة النقشبندية ، إشعاع علمي روحي كبير نجد انعكاسه في شهادة عالم رباني من أكابر صلحاء الهند و صوفيتها ، لقبوه مجدد الألف الثانية و لقبوه " الإمام الرباني " لعلو مكانته عندهم . و هو رحمه الله يعترف بالفضل الكامل لمشايخ ما رواء النهر . و قد عاش رحمه الله على رأس الألف ، و توفي حوالي سنة ***1032*** للهجرة فهو معاصر لشيوخ شيوخ منصور و شامل ،

ماجدا عن ماجد . رحم الله الجميع . قال الإمام الرباني أحمد السرهندي الأفغاني رحمه الله : " من لا يشكر الناس لا يشكر الله . إن حقوق علماء ما وراء النهر و مشايخها شكر الله تعالى سعيهم في ذمة أمثالنا العاجزين المتأخرين . بل في ذمة كافة أهل الإسلام في بلاد الهند (...) فإنا قد اكتسبنا الاعتقاد الصحيح على وفق آراء أهل السنة و الجماعة كثر الله أمثالهم في الأمصار من تحقيقات هؤلاء الأكابر . و حققنا صحة العمل بموجب أقوال العلماء الحنفية رضي الله تعالى عنهم من تدقيقاتهم . و سلوك طريقة الصوفية العلية قدس الله أسرارهم في هذه الديار مستفاد من بركات تلك البقعة الشريفة " .[1]

ماذا بقي من القيادات الإيمانية بعد سبعين سنة من استشهاد الإمام شامل رحمه الله ؟ تلك البلاد العتيقة التي أعطتنا معاشر الأمة أفذاذا من العلماء و المحدثين و الفقهاء و المشايخ عم خيرهم البلاد طولا و عرضا و بلغ و يبلغ الأجيال إلى يوم القامة ، ماذا بقي فيها بعد أحصدت معارك الجهاد زهرة العلماء و الأمناء ؟ بلاد الإمام الأعظم البخاري وطِئَها الكفر و أباد العلماء .

مهما كان الاضطهاد القيصري و قد كان فظيعا ، فهو شيء لا يكاد يذكر بجانب الإبادة الشيوعية الوحشية . و أشد ما كانت الوطأة على العلماء و المشايخ . و العلماء و المشايخ اليوم في أفغانستان و داخل التراب المحتل قادة الجهاد و أئمة المقاومة .

كان شاعر الإسلام محمد إقبال رحمه الله يقول : " إذا بقي الأفغان بقيت الجبال و بقيت كلمة الله و الملك لله " . و يقول في شعر آخر : " اجتمع إبليس بأعوانه و نصحهم قائلا : لكي تُدمِّروا غيرة الشعب الأفغاني على الإسلام أخرجوا العلماء من جبالهم و وديانهم " .

و من تلك الجبال و الوديان خرج الشيطان الروسي مُبلسا مجللا بالخزي و العار بعد أكثر من ثمان سنوات صب فيها من كل ما عنده من أصناف الأسلحة . و الحمد لله و له المنة و له الشكر . أكتب هذا أواسط رمضان ***1408*** بعد أن أمضى الروس اتفاقية جنيف على الانسحاب من أفغانستان . و ما أخرجته شجاعة الأفغان و إن كانوا هم الأبطال . و لا سلاح أمريكا الذي جاء متأخرا ، و لا دبلوماسية ما

---

[1] *مكتوبات الإمام الرباني ج 3 ص 132 – 133 .*

بين العملاقين المتنافسين على الهيمنة العالمية المتصالحين على توزيعها . و إنما أخرجهم بعد عناية الله و نصره لمن نصره جهاد قاده العلماء الربانيون . و نرجو من كرمه سبحانه أن يؤيد حزبه الغالب في ميدان النار و الصواريخ في معاناتهم للجهاد الأكبر ، جهاد النفس لبناء الذات و توحيد ذلك الشعب الذي تتربص به دوافن الفتن الموروثة القارة الساكنة .

الصراعية اليهودية الماركسية

لما نفرغ من اليهود و اليهودية ، و كيف نفرغ منهم و هم اللعنة المجسدة و المثل المضروب لنا في القرآن و في سنة الله عز و جل في شأهم : « *لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَ ٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿ 14 ﴾* » (سورة الحشر) .

و في هذه الفقرة ننظر إن شاء الله إلى صلة ما بين اليهودية و الماركسية اللينينية الثورية ، بَدْءاً بملاحظة أن المتمذهبين بالصراعية الطبقية الدالة على أنَّ بأسهم بينهم شديد قاتلوا المجاهدين الأفغان من قراهم و حصوهم المحصنة زمانا ، و من وراء جُدُر المعاقل القارة و الدبابة و الطائرة ، ثم هزمهم الله تعالى كما هزم بني النضير يهود خيبر . و نرجو من جلاله أن يهزم على أيدي المجاهدين العزل " أطفال الحجارة " في فلسطين ، يهود النسل و العقيدة و القومية ، كما هزم اليهودية الماركسية اللينينية العاتية في الأرض ، و يخزيها كما أخزاها .

فساد القلوب و قساوها سمة لاصقة بكل يهودية كما فصلنا في الفصل الأول من هذا الطتاب . و لكل قوم من شدة البأس فيما بينهم نصيب بقدر ما معهم من فساد قلبي و قساوة . و دَع الروس يراجعون حساهم ، و يصلحون إديولوجيتهم على خط جورباتشوف و " شفافيته " و " بيريسترويكاه " . فلن يضير المسلمين من مكر عدوهم ذاك غدا إلا مثل ما ضاره لمدة ثمان سنوات خرج بعدها من جبال المسلمين يجرُّ أذيال الخيبة و يتحمل تبعات اليقظة الإسلامية في التراب المُسَفْيَت تراب ما وراء النهر حيث ليوث من العلماء الربانيين كانوا في جهاد ، و حيث أحفادهم اليوم و غدا بإذن الله يرابطون و قد غذهم " عالمية الجهاد " الأفغاني بمثال و نموذج و روح و أمل . لن يضير المسلمين مكر غيرهم ، إنما يضيرهم ما يترسب في القلوب تُراثاً و ما يعتريها نائبَةً من فساد القلوب و غلبة العصبيات و قلة الإيمان و ذكر الله الذي به تطمئن القلوب و تطهر و تزكو . ها هم إخواننا الأفغان منتصرون في الجهاد الأصغر ، و ليس صغيرا في نفسه بل هو معجزة لنبي هذه الأمة صلى الله عليه و سلم وزهرت في هذا الزمان

منورة بالكرامات الجلية و الخوارق المذهلة . هو جهاد أصغر و انتصار أصغر بالنظر إلى ما يطلبه الحال منهم وشيكا من إقامة دولة تتوحد في غطارها جهود أحزاب و قبائل و طوائف و مذاهب و لغات و مصالح . كل ذلك في وجه عدو يتربص على الحدود ، و في وجه نظام عالمي إن كان يعطي فجوة ما بين العملاقين من تنافس ، فهو نظام جاهلي شديد المراس كاره للإسلام و أهله . فبأي إسلام يتحرك مجاهدو الأمس و اليوم و غدا ؟ بإسلام انفعالي مكبوت ينفجر في وجه العدو و الصديق كانفجار الثورة الإيرانية الكاوية ؟ أم بطمأنينة المجاهدين الأولين مع رسول الله صلى الله عليه و سلم الذين كانوا رحماء بينهم أشداء على الكفار ؟ و أنى لنا إيمانهم و لم نهاجر هجرتهم ، و لا نصرنا الله و رسوله و المومنين نصرتهم ، و لا تلقينا تربيتهم ؟

نموذجان متقابلان : جماعة المهاجرين و الأنصار رضي الله عنهم الذين ألف الله بينهم على يد رسول كريم و في أحضان تربية ربانية ذكروا فيها الله و اليوم الآخر . و جماعة يهود قساة القلوب فاسدوها و مفسدوها بما نقضوا ميثاق الله و جحدوا و كفروا بآيات الله و قتلوا الأنبياء بغير حق و تغلفت قلوبهم عن ذكر الله حتى طبع عليها الله . فمن لنا بتأليف رباني و تربية ربانية حتى نكون أشداء على الكفار اليوم رحماء بيننا عندما نرجع إلى الديار لرفع الأنقاض و بناء الذات ؟ أم من لنا بغسلة تطهرنا من أوْضار الفتنة و هي ركام بعضه على بعض ، و ران على القلوب ، و دَخَن في العقول و الأنفس ، و نقص في الأموال و الثمرات يسمى بلسان العصر تخلفا و عجزا عن الإنتاج ، و قصورا في الخبرة ، و فقرا مدقعا في الرجال بعد أن استشهدت زهرة الرجال ؟ أهي صراعية من عند أنفسنا و من صنف عرفه تاريخ المسلمين الذين ما سفك أحد دماءهم مثلما سفكوا دماء أنفسهم ؟

نضرع إلى الله عزت قدرته و عمت رحمته أن لا يتجدد لنا هناك في أرض أسد الله إلا ما ينسينا فواجع المجازر في حرب المسلمين الموزعين أشلاء دامية في حدود العراق و إيران و في جبال لبنان و أوديتها و خيام اللاجئين إليها . و الدعاء و التضرع سبب من أقوى الأسباب في سنة الله .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين و منعني واحدة . سألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها .

و سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها . و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » .

و روى الإمام مالك في الموطإ بسند صحيح أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال لعبد الله بن عبد الله بن عتيك : " هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن (رسول الله صلى الله عليه و سلم) فيه ؟ (أي في مسجد بني معاوية في قرية من قرى الأنصار) قلت : نعم ! قال : فأخبرني بهن . فقلت : دعا بأن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم و لا يهلكهم بالسنين أعطيهما . و دعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمُنعها . قال : صدقت ! قال ابن عمر : فلن يزال الهرج إلى يوم القيامة " .

و الهرج شدة القتل ، و هو ما نراه في عصرنا كما رأته كل العصور قبلنا . و ندعو الله عز و جل ، و قبلتنا في مستقبل الإسلام الخلافة على منهاج النبوة الموعودة المنشودة ، أن ينتهي هرج الفتنة في عهد مستقبل الخلافة الثانية كما كف هرج الجاهلية في الخلافة الأولى و في النبوة من قبلها ، و أن يذيقنا نعمة التراحم و حقن دماء أنفسنا و صيانة أعراضها و أموالها و قيمها ، و يديمها علينا و على الأجيال المقبلة آمين .

لن تألونا اليهودية العالمية ، و لن يألُوَ إفرازها المتجسد في الصراعية الماركسية اللينينية ، إفسادا و مكرا . و لقساوة قلوبنا من قلة ذكر الله و ما تعطيه هذه القساوة من بأساء بيننا أشد إفسادا . لئن كانت النصرانية المصهينة الأمريكية أهم دعامة لدولة اليهود في فلسطين فإن الماركسيين لا يقلون تعاطفا مع اليهود و دعما لهم ، كانوا و لا يزالون . هنالك علاقات تاريخية متينة بين يهود و الماركسية و دولة الروس . الناظر من أسافل التاريخ و " موضوعية " التحليل المادي لا يرى علاقة بين مذهب ماركس و منهجية لينين و بين اليهودية . أما القارئ في سنة الله فيكفيه أن يعلم أن اللعنة اليهودية يظهرها رب العزة على من شاء من بني إسرائيل حتى و لو كان ابنا عاقا لقومه متنصلا من عقيدتهم . على أن ماركس لم يكن هذا و لا ذاك .

لليهود الذين كانوا مع لينين جند الثورة و الصراع الطبقي جذور تاريخية عميقة في روسيا . كانت أعدادهم ضخمة في روسيا القيصرية . و قد خصّصت لهم السلطة القيصرية أقاليم لا يخرجون منها ، يمثلون فيها أغلبية السكان مثل القرم و بيسربيا و دوقية وارسو (فرسوفيا عاصمة بولندا الآن) .

و تسرب اليهود في شرق روسيا القيصرية و غربها حتى أصبحت من دول أوربا التي تشتمل على النسبة الكبرى من اليهود .

و لم يزل اليهود يشاركون في النشاط الثوري ضد النظام القيصري منذ سنة **1880** بتاريخهم إلى الثورة البلشفية سنة **1917** مرورا بثورة **1905** . و شاركوا في اغتيال إسكندر الثاني سنة **1881** . و كانت انتقامات السلطة القيصرية منهم و ملاحقاتها إياهم سببا لهجرة كثير منهم إلى أمريكا و أوربا ثم منها إلى فلسطين . فهذه لُحمة واصلة بين يهود فلسطين و يهود المنزل الأول ، روسيا و ممتلكاتها . ثم إن لهم مع الثورة الروسية الكبرى و حكومتها و إديولوجيتها أوثق الوشائج . فقد تآمروا مع الروس الساخطين على قلب نظام الحكم القيصري و كان لأمثال زنوفييف و راديك و زوجة لينين القِدْح المعَلَّى في النشاط الثوري . ثم في التصفية الصراعية للتّناقض الطبقي . و احتل اليهود في قيادة الثورة و تنفيذها مكان الصدارة . " و لقد أدت نسبة اليهود الكبيرة بين رجال الإدارة في حكومة الثورة البلشفية سنة **1918** ، و بين صغار الموظفين و الكتبة كذلك ، إلى أن يربط الملاحظون الأجانب ربطا وثيقا بين اليهود و بين الشيوعية " .[1]

و لا يألو اليهود " الديمقراطيون " في بلاد الغرب اليوم يهونون من شأن مشاركة بني جلدتهم في الثورة الشيوعية ، كما يهون من ذاك الشأن الكتاب الروس أنفسهم على عهد ستالين و من بعده لينسوا دور الزعيمين اليهوديين تروتسكي و زنوفييف و يبرزوا زعامة ستالين .

لليهود مزايا أخرى أبلغ أثرا و أعمق أصولا في عمليات بلبلة الأفكار و إثارة النفوس و النفخ في الغضب و تأجيج العداوة بين بني البشر و إشاعة الفرقة و البأساء و الصراع بين الناس . إن كان وجودهم التاريخي العددي أشخاصا خلف الثورة الروسية محل مكابرة و إنكار و تدليس لأغراض سياسية طارئة ، فإن وجود الروح الجاهلية اليهودية خلف كل عنف جهنمي ، و خلف كل كراهية للإنسانية ، و خلف كل قساوة قلب مدمرة و تآمر دنيء مفلسف أو ساذج حقيقة شهد بها الله خالق كل شيء في كتابه ، و شهدت بها سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم و جماعته المباركة ، و تشهد بها نصوص اليهود أنفسهم .

---

[1] *اليهود في موكب التاريخ لصابر عبد الرحمن طعمة ص 415 .*

في تلمودهم النجس : " أن الله (جل الله و تقدس) صارعه يعقوب بن يوسف (عليهما و على نبينا و إخوانهم أفضل الصلاة و السلام) فصرع يعقوب ربه " . أستغفر الله العظيم رب العرش العظيم .

في تملودهم النجس : " أن الله خلق غير اليهود بالصورة البشرية إكراما لليهود . لأن غير اليهود وُجدوا لخدمة اليهود ، ليلا و نهارا بلا ملل . و لا يوافق أن يكون خادم الأمير حيوانا له الصورة الحيوانية . بل يجبُ أن يكون حيوانا له الصورة الإنسانية " .

يقول تلمودهم النجس : " اقتل عبدة الأوثان ، و لو كانوا من أكثر الناس كمالا " . و يقول : " من يرفع وثنيا من حفرة وقع فيها فإنه يُبقي على الرجل من عباد الأوثان . لذلك إذا سقط وثني في حفرة فاسدُدْها عليه بحجر كبير " . ثم يضيف إلى ذلك : " يجب عليك أن تمنع عنه كل وسيلة يمكنه استعمالها في خروجه من الحفرة . لأن النسر بن ميمون (أحد أحبارهم) يعلم : محرم عليك أن تأخذك الشفقة على وثني . بل عندما تراه قد تدهور في نهر أو زلت به قدمه فكاد يموت ، أجهز عليه و لا تخلصه " .

في عرف الدين الهمجي يعتبر كل من ليس يهوديا حيوانا و وثنيا يجب معاملته بالاحتقار و القسوة و العنف . لا جرم أن تكون فلسفة اليهودي ماركس و ممارسة زوج اليهودية كروبسكايا رفيق تروتسكي و كامنيف و زنوفييف و راديك و غيرهم من بني إسرائيل تستمد المبدأ الصراعي و القسوة و احتقار الحياة البشرية و الوَلوع بسفك الدماء . تغطي الفلسفة الماركسية " العلمية " همجية الأصل بالتحليل المادي التاريخي الذي يفصل تكون الطبقات و تطورها و ضرورة إنقاذ الطبقة المسحوقة من براثن الإمبريالية و البرجوازية . و ما وراء الواجهة في نظر من يقرأ في سنة الله إلا الاستخفاف بالبشر و القسوة و العنف المنصبة من ميزاب التلمود المكتوبة من محبرة الأسفار النجسة .

عدنا لليهود لعنهم الله لنبين كيف امتثلوا للأمر الكوني الإلهي الذي لا مرد له : « *وَ قُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَٰءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ* » (سورة الإسراء ، 104) . فسكنوا روسيا قبل الثورة و بعدها ، و منها و من ممتلكاتها انتشروا في الأقطار . سكنوا بواسطة فلسفة اليهودي عملاق الفلسفة المادية الألماني

الملحد أرض عقول الساخطين على الظلم في الأرض . لعنة الظلم ارتفع ضدها لعنة النداء إلى الصراع الطبقي الذي يخفي الحقد اليهودي و القسوة اليهودية من وراء كذا و كذا حجاب . و لا يظنن القارئ أن الطبقية و العلو في الأرض اختراع اختص به ماركس ، بل هو واقع في حياة البشر ، و هو صورة متعددة الأطوار في تاريخ البشر ، ناشئ عن داء الأمم الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه و سلم بأنه : " البطر و الأشر و التحاسد و التباغض و التناجش حتى يكون البغي " . و أخبر صلى الله عليه و سلم أن داء الأمم سيصيب أمته من بعده .

و قد ضرب هذا الداء الوبيل أطنابه بين ظهرانينا ، و حلت بنا المصيبة الطبقية و الظلم . و حل في أدمغة أجيال من بني جلدتنا اقتناع أن لا دواء من هذه المصيبة إلا الماركسية اللينينية أو نسخة منها سموها " اشتراكية قومية " تقدمية . و إنه لتحد كبير . و إنها لمواجهة لا نقول إن أوانها قد فاتَ منذ خابت التجارب الاشتراكية في بلاد المسلمين حتى نعالج الداء من جذوره التي وصفها رسول الله صلى الله عليه و سلم بأنها داء الأمم بالعلاج الذي وصفه و هو الخلافة عل منهاج النبوة و ما يلازمها و يسبقها و يواكبها من تربية و شورى و عدل و إحسان ، و ما يلزمها خاصة من تعميق الإيمان حتى تبرأ القلوب من الدخن و الغفلة و الظلامية و يدخلها نور الله . و عندئذ فقط يكون وعد الله و رسوله أن لا يظهر على هذه الأمة عدوها من خارج دِرْعاً نحتمي به ريثما نغير ما بأنفسنا من كراهية لبعضنا و شدة على أنفسنا لنصبح رحماء بيننا أشداء على الكفار . و ذاك شرط ارتفاع البأس من بيننا . مناط الداء القلوب ، و شفاء القلوب شرط البُرء . و القسوة اليهودية الجاهلية تغشانا متسللة و تهددنا . و ما الفلسفات المستوردة و المذاهب إلا غُلالات تلبسها إلينا الجاهلية لتغرنا عن ديننا .

في توراة اليهود في سفر التثنية الإصْحَاح *20* ما يلي من تعاليم للمحارب اليهودي : " حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح و فتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير و يستعبد لك . و إن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها . و إذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بالسيف . و أما النساء و الأطفال و البهائم و كل ما في المدينة

كل غنيمتها (...) و أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك ، فلا تستبق منها نسمة ، بل تحرمها تحريما (تقتّلها تقتيلا) .

يطول بنا لو حاولنا جمع النصوص الهمجية لنستدل على أن أصل القسوة و الصراعية يهودي . و ما لنا نذهب بعيدا و اليهود أنفسهم يعترفون أن البلشفية الثورية من صنع أيديهم ، كما يعترفون أن لهم ضلعا في ثورة فرنسا من وراء قناع الحرية و المساواة و الإخاء . بين يدي نصوص في الموضوع أشح على الورق من نقلها و على وقت القارئ .

و هذه شواهد التاريخ تدل على ما لليهود من يد في توزيع المذهب الصراعي و تأييده و تأسيسه . كان في حزب المنشفيك ، و هو شِق الأقلية في الحزب الشيوعي الروسي قبل الثورة من اليهود أكثر مما في حزب لينين " البلشفيك " . و هذا ما يفسر انتقام ستالين من اليهود سنة ***1936*** من تاريخهم ، ذلك الانتقام الذي شمل الأطباء اليهود و الأطر اليهودية . و لم يُكَرِّه لستالين خصومه الثلاثة البارزين تروتسكي و كامنيف و زنوفييف و لم يقتلهم فيما بعد ليهوديتهم ، بل لمنافستهم إياه على الزعامة . و قد كان قبل الثورة في المنشفيك و البلشفيك أقسام خاصة باليهود . و في سنة ***1920*** نظم البلاشفة المنتصرون حملة لصالح اليهود ضد الكنيسة الأرثوذوكسية و ضد " المتنطعين " . و لا شك أن كراهية الشعب الروسي الأصيل لليهود هي المعنية بالتنطع . في أواسط العشرينات عارض الزعماء اليهود تروتسكي و كامنيف و زنوفييف سياسة ستالين التي ورثها عن لينين في شأن التعامل الاقتصادي بالأساليب الرأسمالية بعد فشل المحاولة الاشتراكية الأولى ، (سياسة ***NEP***) . و مع ذلك فقد أعطى ستالين أراضي لليهود ليكونوا " قومية " خاصة بهم لها حقوقها الكاملة .

و حاول ستالين إقامة " جمهورية قومية يهودية " في بيروبدْجان فشلت . حتى إذا غضب ستالين على الأنتلجنسْيَا ، و جلها من اليهود ، و سفك دماءهم انتقاما و جنونا ، لم تنسه روسيته عطفه على الصهيونية . و هو واضع نظرية القوميات و واضع قانون القوميات منذ عهد لينين . هذه النظرية تحدد القومية بامتلاك الأراضي . فلما طرد اليهود العرب من فلسطين سنة ***1948*** بتاريخ هزائم العرب انتظر

ستالين و الحزب الشيوعي الوليد السفاحي للإديولوجية اليهودية أن تصبح دولة " إسرائيل " ملحقة روسية . فسبقهم الأمريكان .

و لم يمنع ذلك من مداومة الروس على التعاطف مع اليهود أساتذتهم في الإديولوجية الصراعية رغم تظاهرات مصلحية آنيّة يستقبلون فيها رئيس منظمة التحرير الفلسطينية و يمدونه بالسلاح على مقياس ما تقتضي المصالح المشتركة التي تعقد صفقاتها تحت الشعار المنافق من الطرفين ، شعار التقدمية و التضامن الاشتراكي . الآن كيف توازي روسيا ، و هي في مخاض الجورباتشوفية ، استراتيجيتها الثابتة مع تكتيكها بعد أن برز الإسلام في فلسطين على يد " أطفال الحجارة " ؟

الاستراتيجية الثابتة لروسيا هي الدعم المستمر لدولة اليهود أحباب الفكر أنْسباء الجاهلية . جروميكو وزير خارجية روسيا يومذاك أعلن عشية تأسيس دولة اليهود أمام هيئة الأمم المتحدة ما يلي : " لقد أيدنا خلق الدولة اليهودية . فنحن نصر على الاعتراف الكامل بها ، و حمل المم المتحدة على تنفيذ ذلك ، و جعل هذه الدولة حقيقة ثابتة " . و قال جاكوب مالك المندوب السوفييتي لدى الأمم المتحدة يومذاك في مجلس الأمن سنة *1948* بتاريخ الهزائم : " لقد وُجدت " إسرائيل " لتبقى حيث مواطن أجدادها (...) و لن يتخلف الاتحاد السوفياتي عن تقديم العون لإسرائيل و لحركات التحرر العربية التقدمية " . هكذا ! " لتنظيف الوسط العربي من الاستعمار و الرجعية " .

معنى هذا أن روسيا كانت تراهن على أن تكون يداها في الشرق الأوسط يد يمنى هي " إسرائيل " و يد يسرى هم " الحركات العربية التقدمية " . أي أنها اعتمدت على اليهودية القومية الممثلة في بني إسرائيل جلدة و نسبا من جهة ، و اعتمدت من جهة أخرى على العرب المهودين إديولوجيا و هم لا يشعرون .

و نصل إلى جورباتشوف المرشح لإصلاح الدولة السوفياتية . صرح هذا " المصلح " لأحد الرؤساء الشرق أوسطيين قائلا : " إن غياب العلاقة بين موسكو و إسرائيل لا يمكن اعتبارها علاقات طبيعية . و إن الاتحاد السوفياتي يعترف بحق إسرائيل في السلام و أمن كيانها في المنطقة " .

وعد الآخرة أذان من الله لهذه الأمة يوم تصبح أمة عباد الله خالية من كل شرك بارئة من داء الأمم .

و قد رأينا في هذا الفصل كيف تكتَنِف الصحوة الإسلامية بشائر النصر اللائحة من أفغانستان كما تكتنفها تهديدات اليهودية الساكنة في الأرض غربا على شكل تنظيمات تحتضنها النصرانية المصهينة ، و شرقا على شكل إديولوجية القسوة و الصراع هي قوام العملاق الروسي المترنح من اللطمة القدرية التاريخية في أفغانستان ، و هي لطمة لها ما بعدها بالنسبة لنا و لهم . نسأله عزت قدرته النصر المبين .

النصرانية الصليبية و دولة الفاتكان

إذا كانت الصلة بين اليهودية و الماركسية صلة أصيلة قديمة مكشوفة و كانت الصلة بين اليهودية و البروتستانتية المصهينة مكشوفة ، فإن التضامن الصهيوني الكاثوليكي وليد التغييرات الكنسية لمجمع فاتيكان الثاني منذ نيف و عشرين سنة .

بصراحة يكشف الصلة بين الماركسية الصراعية و اليهودية كبار المنظرين اليهود ، فيقول موشي هس أحد رواد الصهيونية (***1812 – 1875***) : " إن الفكر الماركسي برغم كل شيء فكر يهودي ، و إن الأممية دعوة يهودية " . و يقول هارمان كوهن الصهيوني (***1842 – 1918***) : " الماركسية جهد يهودي عصري لتحقيق غاية التوراة " . حتى يجيء فيلسوف " الثورة الهامشية " اليهودي هربر ماركوس (***1898 – 1979***) فيعلن الحاجة إلى : " ثورة طلابية ثقافية تستند إلى فلسفة تقدم على دعامة من الماركسية و الفرويدية ، و هما من أشد الفلسفات المعاصرة التصاقا باليهودية " .

من أي منعطف و من أي نافذة أطللنا على التاريخ البشري قديمه و حديثه وجدنا بني إسرائيل في بؤرة الأحداث شغلوا الإنسانية زمان شتاهم في الأرض و يشغلونها الآن بعد أن جاء الله بهم لفيفا ليوم " وعد الآخرة " . يتنافى عددهم مع كثافة ذكرهم في القرآن الكريم فيخال الغافل عن الله أن بني إسرائيل حدث تاريخي انتهى و أن القرآن مجرد سجل للتاريخ القديم . و بمجرد البحث " الموضوعي " العلمي يجمع لفيف هنري فورد منذ سبعين سنة الوثائق التي تثبت أن " اليهودي العالمي " هو مرض الكرة الأرضية عامة و مرض أمريكا خاصة . و من إزاء القرآن يُتاحُ لنا عمق النظرة وسعتها لنتبين في من لعنهم الله و غضب عليهم و مسخهم مناط " داء الأمم " و محطته و جرثومته و وباءه المنتشر .

كانوا من قبل ألد أعداء الكنيسة الكاثوليكية ، يتهمهم النصارى بصلب السيد المسيح عليه و على نبينا و إخوانهما أفضل الصلاة و أزكى السلام . و يرون في كل يهودي قاتل ربهم . ضلال بعضه وفق بعض . فبنو إسرائيل كفروا بالمسيح عليه السلام و هموا فعلا بقتله ، و حاكموا بالفعل صورة

شبهها الله تعالى لهم بالمسيح عليه السلام ، و صلبوها . و النصارى ورثوا أناجيل مدسوسة محرفة فيها قصة صلب المسيح . و نحن نقرأ كتاب ربنا العزيز المحفوظ فنجد أنه تعالى يقول عن اليهود : « وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَ مَا قَتَلُوهُ وَ مَا صَلَبُوهُ وَ لَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ » (سورة النساء ، 157) . لم يقل لنا أن الشخص الذي قتلوه و صلبوه شبه لكل من رآه . إنما قال " شبه لهم " أي لليهود خاصة .

و الدليل على هذا ، الموثق المكتوب ، هو إنجيل بَرْنَبا الذي أنكرته الكنيسة الكاثوليكية في مجمع نيقيا في القرن الرابع الميلادي . و نفوا صحته و أخفوه فهو اليوم نادر الوجود . و كنت قرأت نقولا من هذا الإنجيل تطابق تماما أحسن القصص القرآني ، تطابق الحق و تصف كيف دخل العساكر الرومان على السيد المسيح عليه السلام و هو مع حوارييه يتقدمهم الخائن يهودا إسكاريوت الذي دلهم على المخْتَبَإِ . فإذا العساكر يمسكون بيهودا و يقولون له : " أنت هو " . و الحواريون يتعجبون لأنهم يرون يهودا بصورته الحقيقية ، و يهودا يحتج ، و العساكر يسحبونه و يذهبون به إلى حيث لقي مصيره .

هذا الإنجيل تخفيه الكنيسة و تنكره ، و تحتفظ بأناجيل أخرى فيها من الخرافات ما لا يطيقه عقل بشر سوي . و تخفي الكنيسة إنجيل برنبَا لما فيه من ذكر واضح لبعثة محمد صلى الله عليه و سلم المرتقبة . و تحتفظ بأناجيل التزوير . و في هذه الأناجيل آثار الدس اليهودي واضحة . و لا عجب فهم الاختصاصيون في هذه المهنة الخسيسة كما ذكر الله رب العزة عالم الغيب و الشهادة في كتابه المبين كما رأينا في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

إننا نُكْبِر الحواريين أنصار عيسى عليه السلام و أنصار الله أن يكون في شهادتهم لو احتفظ بها سالمة إلا الحق و الصدق . و ما نجده في أسفار النصارى منسوبا إلى الحواريين تحريف واضح .

نسبوا إلى بولس قوله : " أنا رجل يهودي طرسوسي فِيلِيقي من سكنة بلد ليست بالحقيرة " (أعمال الرسل *21* – *39*) و يُسجن بولس مع أصدقائه ، في زعم الوثائق الرسمية للكنيسة ، فيغير الانتماء و يزعم أنه رومي : فقال لهم بولس : " إنهم جَلَدونا علانية بلا إقامة برهان و نحن روميان ،

و ألقونا في السجن " (أعمال الرسل 16 – 35) . و ادعى عليه اليهود مرة ، في زعم الوثائق الرسمية ، قال : " و إن لم يكن مما يدعي علي به هؤلاء شيء فلا يستطيع أحد أن يسلمني إليهم ، و إلا أستغيث بقيصر " (أعمال الرسل 25 – 10 – 13) . و في مكان آخر يناقض الالتجاء لقيصر ، قال بولس ينصح أصحابه : " فهل يتجاسر أحدكم إذا كانت له مع غيره مناقشة أن يتحاكم إلى الظالمين لا المقدسين ؟ ألم تعلموا أن المقدسين يحكمون على العالم ؟ (...) أو لم تعلموا أنا سنحكم على الملائكة " (الرسالة الأولى من بولس إلى أهل كورنتيوس 6 – 10 – 13) . ألا يذكرنا هراء الحكم على الملائكة بترهات التلمود ؟ و كيف ينطق بهذا البهتان حواري عيسى عليه السلام ؟

تلوّنات و نفاق و اغتنام فرص . خصال يهود اندست في وثائق الكنيسة . و انتهت فيها تعاليم نُسبت إلى مؤسس النصرانية عندهم و ناشرها خارج فلسطين بولس . يقول معلمهم هذا ناصحا إخوانه بالتعاون مع الحكام : " فلتنقد كل نفس لكل ما يتسلط عليها من الأقدار . لأنه لا اقتدار إلا من الله (...) فمن يخالف الأقدار فهو يخالف الله (...) لأن الرؤساء ليسوا خوفا للأعمال الحسنة ، بل للأعمال القبيحة " (رسالته إلى الروميين 13 – 1 – 3) . و ينصح العبيد بالاستسلام فيقول : " و أما أنتم أيها الخدمة فأطيعوا مخدوميكم الجسمانيين بالخشية و الارتعاد و خلوص نيتكم كما تطيعون المسيح . فامتثلوا إرادة الله بصحيح قلوبكم لا بمرآة العين (...) فاخدموهم بحسن الإرادة كخدمة الرب " (رسالته إلى أهل فسوسي 6 – 5 – 7) .

أين نحن من دين الله و هو الإسلام الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة و السلام ، و هو إفراد العبودية لله تعالى ؟ أخبرنا الله عز و جل أن النصارى : « ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَ رُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَ مَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَ ٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ 31 ﴾ » (سورة التوبة). و ذهنية الخضوع للأحبار و الرهبان ذهنية يهودية رأيناها سابقا في هذا الكتاب عندما عرضنا تعلق اليهود بما يقول كبراؤهم و ما يأمرون و ما يكتبون .

لا تتسع هذه الصفحات لنفحص كيف ارتمت النصرانية في أحضان قيصر و اتخذوا شعار الشرك : " ما لله لله و ما لقيصر لقيصر " . يهمنا هنا أن نقف عند تعليم نُسب إلى بولس أن يخدم النصراني أربابه " الجسمانيين " كما يخدم ربه " الروحي " بكل قلبه و إخلاصه ، " بالخشية و الارتعاد " . من هنا تأصل تقديس القَس و الخضوع للكنيسة و قبول خرافاتها . تلك الخرافية التي انبنت عليها سلطة الباباوات حتى أصبحت الكنيسة دولة مهيبة الجانب يدين لها النصراني بالولاء الروحي ، و يدين بالولاء الجسمي لقيصر الزمان و المكان . و تفرع عن هذا البناء الشّقّي لائيكية التفريق بين الدين و الدولة . و اللائيكية وباء مذهبي جاءنا عبر قنوات النصرانية الكاثوليكية من تلك اليهودية المعلمة المندسة في كل مكان و آن .

و انبنى على الخرافية في عقيدة التثليث التي يتفرد قسيس الكنيسة و رهبانهم وحدهم من بين سائر البشر بفهم " أسرارها " العجيبة الغريبة سلطة احتكار الكنيسة لتفسير الدين ، و متابعة كل فكر حر يريد أن يفهم ، و ما نتج عن ذلك من تاريخ محاكمة العلماء الذين نطقوا بغير ما تقره الكنيسة . و من هنا كان " الفصام النكد " في أوربا بين العلم و الدين . لأن الدين كما تفهمه الكنيسة دين مزور لا يقوم أمام العلم الصحيح . و وفد علينا في بلاد الإسلام ، و تبناه المغربون من بني جلدتنا ، خبر ذلك الخصام فسحبه الأغرار منا و المفسدون على الدين الصحيح المحفوظ .

المعاصرون من اليهود " المتنورين " يفتخرون بأن ما في تلمودهم من أقاصيص سخيفة مغرقة في البلادة هو قمة الشعر و الخيال . أما الكنيسة الكاثوليكية فمنذ المجمع المسكوني المسمى " فاتكان الثاني " المنعقد سنة *1956* ، فلم تراجع من عقائدها إلا عقيدة أن اليهود قتلوا المسيح عليه السلام . فأصدر البابا أمره ، و أمره عند الكاثوليك هو الأمر يغير العقيدة كيف شاء متى شاء ، بأن اليهود أبرياء من ذلك الدم . و دعا فاتكان الثاني إلى حوار واسع مع الأديان في مقدمتها الإسلام .

عند علماء الاجتماع اصطلاح و نظرية تسمى " النشاز المعرفي " . مفاده أن ما نعتقده و نجزم به إذا ما ثبت أنه غير صحيح فإننا نشعر بألم شديد . و لا يخفف عنا هذا الألم إلا انتشار ذلك الاعتقاد الخطإ في الناس حتى يشاركونا ما بنا . و لعل الكنيسة في محاولتها منذ فاتكان الثاني التخفف من تزمتها القروني

تريد أن يدخل الهواء الخارجي إلى بلاطها ، و أن تجد في حوارها مع الإسلام و المسلمين نسمات حق تتشبث به ، و يعطيها جلوسها على مائدة الحوار مع أهل الحق مصداقية تفتقدها .

و في مقابل ما يعطي الكنيسة جلوسنا معها للحوار ينصب علينا نحن من ذلك الخزّان الخرافي المستمد من المجاري التحريفية اليهودية ما يطمئن المتألمين من " النشاز المعرفي " . إن كان ثَمَّ متألم .

في هذه الفقرة و التي تليها بإذن الله نتحدث عن علاقة الكاثوليكية بنا و باليهود ، و الكل متماسك . و إلى اليهود نرجع بعد حين إن شاء الله بعد أن نقول كلمة عن الحوار المقترح من جانب الكاثوليك .

إن الحوار نوع من المبارزة و نوع من التعاون و نوع من التعاهد . الأكثر ذكاء و شطارة و مهارة عملية هو الذي يفوز بالغُنم و يكون الغُرم على الآخر . و بدهاء من له تجربة القرون في كل الصفات التفاوضية قرر المجمع المسكوني لفاتيكان اثنين أن يُدرب قساوسة ذوي كفاءات عالية للتفتح على المُحاور و إظهار الاهتمام بما يقول ، في نفس الوقت الذي يظهر فيه بمظهر التسامح وسعة الأفق ليلتمس طريقا إلى العقول و الأنفس ليحبب للناس النصرانية . و يزعم الكاثوليك طالبو الحوار أن ليس هناك فرق جوهري بين النصرانية و الإسلام و أن نقط اللقاء كثيرة .

في سنة *1979* عقد مؤتمر حواري في قرطبة أعادها الله للمسلمين لدراسة موضوع " محمد و عيسى ملهمان للقيم الاجتماعية المعاصرة " . و كتب الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر رحمه الله تنبيهات " ودية " موجهة للنصارى بصدد الموضوع . أولها أن المسلمين خالفوا و يخالفون عقيدة راسخة في الجو اليهودي الوثني في شأن عيسى عليه السلام و يعتقدون أنه روح الله و كلمته و نبيه بينما رماه اليهود و أمه الصديقة بالعظائم . و يسأل الشيخ : " فماذا فعلت النصرانية ؟ " . التنبيه الثاني يشير إلى عداء النصرانية للإسلام و إلى حملات التبشير المغيرة على بلاد المسلمين لِيُنَصَّر المسلمون بالقوة و الإغراء في كل مكان في العالم . ثم كتب الشيخ رحمه الله عن حال الأقليات الإسلامية التي تعاني ضغط النصارى و حربهم كما هو الشأن في الفلبين ، و بسط أسسا يمكن التفاهم على أرضيتها ، منها أن يحترم النصارى رسول الإسلام محمدا صلى الله عليه و سلم كما يحترم المسلمون عيسى عليه السلام ، و أن يعترف

النصارى بفضل المسلمين عليهم إذ كانوا و لا يزالون يثبتون دعائم النصرانية باعترافهم و تبجيلهم للمسيح عليه السلام ، بينما النصارى لا يألون جهدا في الدس على الإسلام و الكيد و البهتان ، لاسيما عن طريق مستشرقيهم المتبحرين في فن التحريف .

في الوقت الذي تمد فيه الكنيسة يدا مشبوهة لحوار يشبه المبارزة هيأت له مختصين عالي الكفاءة ، تمد الكنيسة لليهود يد العون غير المشروط . في تاريخ *24 / 6 / 1985* أصدرت اللجنة المختصة بالعلاقات الدينية في الفاتكان وثيقة فيها : " إن هدف الفاتكان هو إحياء التراث المشترك للنصرانية و اليهودية اللتين يتعذر الفصل بينهما . و تشجيع التعاون المتبادل بينهما على كافة الأصعدة ، و خصوصا مجال التربية الدينية لإحياء التراث الديني المشترك " .

في شهر أغسطس من سنة *1985* بتاريخهم عقد أول مؤتمر صهيوني كاثوليكي في مدينة بازل السويسرية حضره أزيد من ستمائة قس و مفكر نصراني رفعوا صوتهم بالاعتراف بإسرائيل دولة و بالقدس عاصمة لها . في شهر أبريل سنة *1984* زار البابا بولس الثاني البيعة اليهودية في روما و التقى بحاخامها إليوطاف . و كانت زيارة تاريخية خفت فيها ساعية راغبة إلى بيت اليهودية في الوقت الذي نرى رؤساء المسلمين ، بل الرؤساء على رقاب المسلمين من حكام العض و الجبر ، يسارعون إلى زيارة البابا في معقل شرفه ، و يخطبون وده ، و يبعثون سفراءهم لاستشارته أو ليستمطروا من " قداسته " تصريحا حول القدس .

أما اليهودية الصهيونية ، سواء منها السافرة أو المقنعة ، فلا تتنازل للكنيسة الدولة ، بل يبلغ التعبير عن احتقارها للنّصرانية ذروته في هذا العصر . بين يدي كتاب لجماعة تمثل أكثر جماعات النصرانية المصهينة نشاطا في أمريكا و العالم هي جماعة " شهداء يهوه " . و يهوه هو الاسم العبري للرب . عنوان الكتاب " الدولة العالمية المستقبلية " .

لا يُخفي " الشهداء " المعاصرون علاقتهم و حبهم " للشهداء " التاريخيين و هم اليهود ، في صفحة *24* كتبوا : " في سنة *1513* قبل تاريخنا (يعنون تاريخ النصارى) أنقذ يهوه " خادمه " ،

أي شهداءه ، و يمكن أن يعيد هذه العملية على نطاق أوسع . في تلك السنة أنقذ إسرائيل من الإمبراطورية المصرية التي كانت القوة الأولى في العالم " .

و يمضي الكتاب يبشر بدولة صهيون الألفية الموعودة . و يبشر بعودة المسيح الذي يصفه بأنه وارث داود و يتساءل : " هل ستحتل القبائل الإسرائيلية الاثنتا عشرة المنسولة من لحم إبراهيم و يعقوب و إسحاق و دمهم المكانة الأولى في دولة المسيح المبعوثة آخر الزمان لمدة غير محدودة حين تكون كل الأمم خاضعة لهم بصفتهم رؤساء للعالم ؟ " .[1] ثم نكشف في الصفحة التالية و ما بعدها عن " أسرار كانت مكتومة " مؤداها أن " الإسرائيليين الروحيين " هم الورثة الموعودون . و يلعب على نصوص من إنجيلهم المنسوب ليوحنا و يُؤَوِّل ليثبت آخر الأمر أن الورثة هم ليسوا يهود النسل ، بل هم " اليهود من الداخل " الذين حصل لهم " ختان في القلب " .

و لا يلبث الكتاب أن يأتي بنصوص من الإنجيل المنسوب لماتيو يعلن أن علاقة ظهور المملكة الإسرائيلية " ظهور الشيء القذر " في الأماكن المقدسة . و لا يعين هذا " الشيء القذر " بل يترك القارئ مسؤولية " الاستبانة " بعد أن زوده في الصفحات من قبل بأوصاف مقذعة في حق منظمة الأمم المتحدة و الكنيسة الكاثوليكية .

و القارئ الفطن يدرك لماذا تكره الصهيونية المقنعة و السافرة منظمة الأمم المتحدة التي تصوت فيها الأغلبية من " العالم الثالث " لتدين إسرائيل و عدوانها على حقوق الإنسان .

الكتاب يعلنها كراهية شديدة لعالمية الكنيسة الكاثوليكية و عالمية الأمم المتحدة . و يعتبر هاتين العالميتين العامل المزدوج للفساد في الأرض ، كما يعتبر دولة إسرائيل " السماوية " الموعودة " الروحية " من النسل الروحي لإبراهيم و يعقوب و إسحاق ، عامل إصلاح الأرض ، تتحول الأرض في عهدها إلى جنة .

---

[1] ص 106 .

الكنيسة الكاثوليكية عاهرة ، يستشهد الكتاب بالنصوص " المقدسة " لإثبات ذلك . هاك اسمع خطاب المُحاور الصهيوني " النصراني " للنصرانية المتفتحة ، حديثة العهد بالتفتح ، في الفاتكان . قال يحشر الكاثوليكية في زمرة الفرق الضالة (و كل فرقة غير الفرقة المتطرفة في صهينتها فرقة " شهداء " ضالة) : " في حضن الكنائس الكبيرة توجد فرق خارجة عن الأصل . في النصرانية وحدها ألف فرع أو أكثر . و كيفما كانت خلافات هذه الطوائف فكلمة الرب تعتبرها منتمية إلى إمبراطورية واحدة ، هي إمبراطورية الدين المزيف " . و يضيف ليميز الكاثوليكية عن غيرها مستندا إلى نص من سفر التنبؤات : " المرأةُ التي تراها رَمزٌ للمدينة التي لها سلطان على ممالك الأرض " . يقصد بذلك في تأويله للنص المسرود مدينة الفاتكان التي يسميها بابل الكبرى " .

و يقول عن كنيسة روما : " إنها أمّ العواهر التي ولدت عواهر كثيرة آوثها في ماخورها . و هي اليوم تشرف منظمة الأمم المتحدة " .

أي تخريب هذا تقوم به الصهيونية المقنعة في بيت النصارى المعتمد ؟ بل أي تخريب تقوم به الكنيسة – الدولة في كيان المسلمين في الوقت الذي تمد يد الصلح لليهود . إنهم ملة واحدة علينا ، يد واحدة كما أخبرنا ربنا تعالت قدرته : « *وَ لَن تَرْضَىٰ عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَ لَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ* » (سورة البقرة ، 120). قال : " ملتهم " بالإفراد لم يقل ملتيهم .

التنصير

بعد أن نعرف بما عرف الله عز و جل أن ملتهم واحدة نبحث عن معيار و حكم لنعرف تفاوت الملة الكافرة في كراهيتنا و الكيد لنا ، عسى أن نُبقي فضاء لحوار ممكن مع النصارى . قال الله تعالى : « ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ » (سورة المائدة ، 82) . قال المفسرون رضي الله عنهم : إن المقصود بالنصارى هنا أولئك الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه و سلم من بعد نصرانيتهم لما عرفوا الحق . و آيات أخرى تصنف طوائف النصرانية و تنسب إلى بعضهم رحمة في القلوب هي عكس ما شهد به القرآن الكريم على اليهود قساة القلوب ، قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة . قال الله تعالى عن أتباع المسيح عليه السلام : « وَ جَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَـآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿27﴾ » (سورة الحديد) .

ما بين تخصيص المفسرين و عموم المنطوق القرآني ثم تفسيقه لكثير من النصارى فجوة و فضاء نبقي بهما على شبهة أن يكون في النصارى الصليبيين المثلِّثة الكافرين شبهة رحمة . و لعل وجود رهبان و راهبات يتفانون في خدمة أهدافهم المشبوهة تفانيا غريبا في أعشاش فقراء العالم و خدمة المرضى و المجذومين يبرر تمسكنا بشبهة الشبهة .

ثم نفرك أعيننا و نفتحها على الحقائق البلجاء ، حقائق الكره الصليبي المتأصل المتجذر للإسلام ، و حقائق التجنيد النصراني ، البروتستانتي منه و الكاثوليكي ، لتنصير المسلمين استمراراً في الغزو الصليبي .

أفضل من يحدثنا عن عداء النصارى للإسلام رجل أوربي عاش في أوربا و عرف ذهنيتهم حق المعرفة ، ثم اهتدى للإسلام و اعتنقه و أتانا بشهادته الثمينة . إنه محمد أسد الذي كان يسمى ليوبولد فايس عندما كان

يهوديا في بلاد النمسا . و اعجب إن شئت من صنع الله تعالى لرجل يهودي العرق تلقى الإسلام باقتناع و صدق فتلقاه المسلمون بصدق ، و ارتفعت قيمته بينهم ، حتى أن أبا الحسن الندوي أحد أكابر الدعاة الحكماء في هذا العصر يضعه جنبا إلى جنب مع شاعر الإسلام إقبال ، و يعتبر فكره للإسلام ، على قلة ما كتب ، مساهمة غالية .

قال محمد أسد : " إن التجارب التاريخية (للغرب) اصطبغت اصطباغاً شديدا بعداوة غريبة للإسلام . و هدا أيضا إلى حد ما إرْثُ أوربة من اليونان و الرومان " . نقف قليلا لنذكر بالنقول السابقة في هذه الصفحات و المنسوبة لبولس مؤسس المذهب النصراني و ناشره في الغرب . قرأنا ذلك النص الذي يأمر العبيد بطاعة الأسياد طاعتهم للمسيح . و قرأنا النص الذي أعلن فيه بولس أنه رومي . و بالجملة فخروج النصرانية من مهد الرسالة المسيحية المبنية على الزهد و التبتل و البساطة إلى الأوساط الأرستقراطية الهلينستية و الرومية حرفت الرسالة و أشبعتها بواردات فلسفية وثنية جعلت منها مزيجا من الفكر مناسب تماما ليكون إديولوجية استعبادية استكبارية يتبناها قياصرة روما . و هكذا تبنى قسطنطين القيصر الرومي النصرانية في القرن الرابع . و هكذا رضعت أوربا لبيان حضارتها من تلك المزجة ، فهي تتحدث دوما عن ثقافتها " اليهودية – النصرانية " و عن حضارتها " الإغريقية – الرومانية " ، لا حاجز و لا تباين . فما في النصرانية من وثنية و عبادة للصور و التماثيل إرث إغريقي مثل ما فيها من فلسفة تتحدى كل منطق بخرافيتها . و ما في الكنيسة النصرانية و ربيبتها الحضارة الغربية من احتقار للشعوب و استعباد ، لاسيما للمسلمين ، مردّ جزء منه إلى الإرث الروماني الاستعماري . و جاءت الحروب الصليبية في بداية القرن السادس من تاريخنا ، ثم طرد المسلمون الزحف الصليبي على يد المجاهدين الكبيرين محمود بن زنكي السلجوقي و صلاح الدين الأيوبي الكردي فأثّلت عداوة فيهم لنا متجددة .

يقول محمد أسد : " إن اليونانيين و الرومانيين نظروا إلى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدنون . أما كل من عداهم ، و على الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر الأبيض المتوسط ، فقد كان اليونانيون و الرومانيون يطلقون عليهم اسم " البرابرة " (أي المتوحشون) . و منذ ذلك الحين و الأوربيون

يعتقدون أن تفوقهم العنصري على سائر البشر أمر واقع . ثم إن احتقارهم إلى حد قريب و بعيد لكل ما ليس أوربيا من أجناس الناس و شعوبهم قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدنية الغربية " .

" و فيما يتعلق بالإسلام لا تجد موقف الأوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان و الثقافات ، بل هو كره عميق الجذور يقوم في الأكثر على صدود من التعصب الشديد . و هذا الكره ليس عقليا فحسب ، بل يصطبغ أيضا بصبغة عاطفية قوية (...) حتى إن المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام . و يظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يُمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته . (...)

" إن سببا واحدا (لهذا التعصب و الكره) يمكن أن يعزى إلى الإرث الذي قسم العالم آنذاك إلى " أوربيين " و " برابرة " ، و أما السبب الثاني و هو أشد صلة مباشرة بالإسلام ، فيمكننا أن نتتبعه إذا ولينا أبصارنا شطر الماضي ، خصوصا إلى تاريخ العصور الوسطى . إن الاصطدام العنيف الأول بين أوربة المتحدة من جانب و بين الإسلام من الجانب الآخر ، أي الحروب الصليبية ، يتّفق مع بزوغ فجر المدنية الغربية . في ذلك الحين أخذت هذه المدنية – و كانت لا تزال على اتصال بالكنيسة – تشق سبيلها الخص بعد تلك القرون المظلمة التي تبعت انحلال رومية (...) إن الحروب الصليبية هي التي عينت في المقام الأول و المقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو . و لقد كانت تلك الحروب حاسمة في ذلك لأنها حدثت في أثناء طفولة أوربا ، في العهد الذي كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة أخذت تعرض نفسها ، و كانت في طور تشكلها .

" و الشعوب كالأفراد ، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التي تحدث في أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهرا أو باطنا مدى الحياة ، و تظل تلك المؤثرات محفورة حفرا عميقا ، حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية في الدور المتأخرة من الحياة و المتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها " .[1]

---
[1] الإسلام على مفترق الطرق ص 52 – 56 .

في طفولة أوربا هبت شعوب بكاملها في حماس ملهب ضد الإسلام . و اليوم لا نسمع من ذلك الغرب المعاصر الأوربي الأمريكي إلا أصداء كراهية مضاعفة و علائم هبة جديدة ضد " التطرف الإسلامي " . اليوم أصبحت كلمة " إسلام " في أذن الغربيين مرادفا للإرهاب و الخطر الداهم و الهم الأول . وليست أحداث اختطاف الطائرات و حجز الرهائن بالتي سببت هذا الكره الجديد ، إنما أيقظت هذه الأساليب ، التي ندينها بشدة لأن ديننا لا يقر بوجه إذاية الأبرياء ، مرضا دفينا رضعه الغرب في مهده .

و ليس الخطاب العدواني و الكيدُ للإسلام في عصرنا إلا إعادة للخطاب الكنسي ضد الإسلام ، و تحريضا على الإسلام ، و هو خطاب تردد في آفاق الغرب منذ بابا أُرْبان الثاني الذي سعَّر نار الغارة الصليبية الأولى و لم تزل أصداؤه تتردد إلى أن علت في عصرنا الحملة الإعلامية و السياسية و الدبلوماسية و الاقتصادية ضد الإسلام الذي يريد تحررا و عزة و حرية . تعلو صرخات الحملة الصليبية الجديدة المتجددة على كل شعار إسلامي حر ، و على حركة إسلامية حرة ، حاشا " الإسلام الأمريكي " السامع المطيع ، إسلام " الدول المعتدلة " . و يغض الصليبيون الطرف عن الطبيعة الإسلامية للجهاد الأفغاني نظرا لما يمثله هذا الجهاد بالنسبة إليهم في المواجهة مع روسيا . فلا بأس أن يَتَتَرّس المرء بعدوّ من عدو .

افتتحت الحروب الصليبية بالخطاب التاريخي الذي ألقاه البابا أُرْبان الثاني في مؤتمر كليرمونت الذي دعا إليه حكام أوربا و نبلاءها الذين كانوا مشتغلين في حروب طاحنة بعضهم ضد بعض . قال : " أيها المسيحيون ! إن تلك الأراضي المقدسة بحضور شخص المُخلِّص (أي المسيح) فيها ، و تلك المغارة المرعبة بفادينا ، و ذلك الجبل الذي عليه تألم و مات ، و ذلك الضريح الذي تنازل لأن يدفن فيه ضحية للموت ، كلها أصبحت ميراثا لشعب غريب ، و غاب كل بهائها الأصلي . و هياكلها قد خربت ، و أشعة نورها الساطعة تحولت إلى ظلام حالك (...) و هي تستحق الندب و البكاء الشديد (...) و لم يعد لله من معبود داخل المدينة المقدسة (...) لقد آن الأوان أن تحولوا ضد الإسلام تلك الأسلحة التي اتخذها فريق منكم حتى الآن ضد فريق آخر لأخذ الثأر عن إهانات ضد البشر ، بل عن إهانات صادرة ضد إلهه . و ليست هي لاكتساب مدينة واحدة ، بل هي إقليم آسيا بجملتها مع غناها و خزائنها

التي لا تحصى . فاتخذوا محجة القبر المقدس ، و خلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين الكفار . و أنتم املكوها لأنفسكم ، فهذه الأرض ، كما قالت التوراة ، تفيض لبنا و عسلا . فإذا انتصرتم على أعدائكم فالملك الشرقي لكم ، يكون لكم قسما و ميراثا ، أما إذا قتلتم فلكم المجد لأنكم تموتون في المكان الذي مات في يسوع المسيح " .

تحريض ممزوج بالتطميع في الأراضي الخصبة الواسعة التي تفيض " لبنا و عسلا " و بالتأليب الديني على " الكفار " المختلسين .

بعد خطاب البابا الصليبي بنحو تسعمائة سنة ، و في الثلاثينات من هذا القرن بحسابهم ، انتخب المنصّرون البروتستانت رئيسا لجمعيتهم قسيسا اسمه زويمر . فقام يخطب في مؤتمر عقد بالقدس خطابا فيه نفس العناصر : الحرب الدينية و الاستعمار . قال يخاطب جند التنصير : " أيها الأبطال و الزملاء الذين كتب لهم الجهاد في سبيل المسيحية و استعمارها لبلاد الإسلام (...) ! أحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل المقدس (...) لقد أديتم الرسالة على أكمل وجه لم يفطن بعضكم للغاية الأساسية فيه (...) مهمة التبشير التي ندبتكم الدول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن هذا هداية لهم و تكريم . إنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة له بالله ، و بالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها . و بذلك تكونون أنتم بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية . و هذا ما قمتم به خير قيام . و هذا ما أهنئكم عليه " .

كتاب اليهود و النصارى بكل فرقهم كتاب واحد ، " العهد القديم " الذي استشهد به بابا الصليبية في خطبته الملتهبة . و ملتهم واحدة رغم المنافسات الظاهرة و الاستعلاء اليهودي . و في وجه الإسلام الصاحي يُمثل كيد يهود و غزوها و بأسها الشديد في فلسطين الجانب الظاهر للحلف ضدنا ، بينما تقوم النصرانية ، بروتستانت و كاثوليك ، بغزْوٍ تنصيري لا يقل نكاية فينا من غزو اليهود المسلح

و كيدهم المبيت . و قد حذرنا ربنا الكريم الرحيم بنا من جهود الكفار و قتالهم إيانا ليردونا عن ديننا .

قال جل من قائل : « وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا » (سورة البقرة ، 217) .

في سنة *1930* بتاريخهم نشر فرنسي يسمى لوشاتلي في مجلة فرنسية استعمارية تسمى " مجلة العالم الإسلامي " مقالا في عدد خاص يكشف فيه عن نشاط المنصرين البروتستانت في بلاد المسلمين ، و قصده أن يلفت انتباه المنصرين الكاثوليك إلى تقصيرهم في مهمتهم .

ترجم مقالات لوشاتلي الأستاذان محب الدين الخطيب و مساعد اليافي و نشراها في كتاب بعنوان " الغارة على العالم الإسلامي " . و قد شجع على نشر الكتاب أمير البيان شكيب أرسلان رحم الله الجميع . و لا يزال الكتاب يعطي صورة واضحة لنظام التنصير و أهدافه و أساليبه . و سنعطي نقولا منه تطلعنا على الأصول المنهجية للتنصير في هذا الوقت الذي تحررت فيه الدول الإسلامية من الاستعمار المباشر لتسقط في استعمار جديد يمثل فيه الحكام عليها من بني جلدتنا المطية الذلول للعدو كما يشير إلى ذلك كتاب " الغارة " .

إن حركة التنصير لا تزداد إلا قوة و وسائلها لا تزداد إلا فعالية . فالقوم اليوم مجهزون بأساطيل من الطيارات ، و بشبكة قارة من الجامعات و المدارس ، و بمعاهد لتخريج المتخصصين و بميزانيات لا تقارن في إمكانياتها إلا مع بعضها ما بين بروتستانت و كاثوليك : أيهما أغنى ، و أيهما أكثر نفيرا و أسخى يدا . في الوقت الذي نهض بعض المحسنين من المسلمين لجمع رأسمال لتمويل جمعية إحسانية عالمية مقداره مليار دولار نرى المنصرين من الفئتين ينفقون سنويا من الدخول القارونية للكنيسة و من تبرعات النصارى السخية أضعاف هذا المقدار .

و في الوقت الذي نقرأ فيه عن أفراد قلائل من علماء الأزهر و غيره تمكنوا من الاستيطان في بلد إفريقي ، يزف إلينا الخبر كأنه بشرى في أقصى الأهمية نسمع عن أفواج القساوسة المدربين الذين يتكلمون لغة القبيلة المحلية ، و يندمجون معها ، و يعيشون معيشتها البدائية ، كل منهم معلم و طبيب و صديق و محسن مبسوط اليد حاضر للخدمة .

بهذه الأساليب و هذه الوسائل استطاع المنصرون من الفئتين أن ينصروا ملايين من المسلمين و أبنائهم المشردين من جراء الفاقة و المجاعات و الحروب المحلية في إندونيسيا و إفريقيا . و تتسرب كلمة المنصرين مع البريد و من خلال الإذاعات التي يغطي نداؤها ليل نهار أنحاء المعمور إلى عقر دار الإسلام في عواصم الدول المسلمة شعوبها .

لسنا نقصد هنا التظلم مما يصيبنا و لا كشف ما هو مكشوف لكل قارئ يفتح المجلات الإسلامية الغنية بأخبار الغارة الصليبية . إنما نقصد أن نشير إلى الموضوع في سياق الحديث عن اليهود و النصارى ، و نكاية اليهود و النصارى فينا ، لنتابع القرآن الكريم في إكثاره من ذكر اليهود و النصارى و المشركين ، و لنقرأ من إزاء القرآن سنة الله التي جعلت خط سير هذه الأمة موازيا للوجود اليهودي النصراني الشركي دفاعا و مدافعة و دفعا إلى " وعد الآخرة " ، ثم ظهور الإمام المهدي عليه السلام ، فنزول عيسى ابن مريم عليه السلام الذي يقتل الخنزير ، و يكسر الصليب ، و يقيم الدين الحق ، بعد أن وجدها ممتلئة عدلا و قد كانت ممتلئة يوما طويلا جورا . و قصدنا أن نعثُر في كتاب ربنا و سنة نبينا على المفاتيح التي تفسر لنا غثائيتنا ، و تشرح لنا المنهاج الواضح لسلوك به نستحق الخلافة في الأرض ، و هي وعد الله الحق المُنْجز لنا متى أذن الله و آن الأوان و اتخذنا الأسباب .

قال لوشاتلي في كتاب الغارة : " إن لنتيجة إرساليات المبشرين في بلاد المسلمين مزيتين : مزية تشييد و مزية هدم (...) و الأمر الذي لا مرية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير الذي أخذ يدخل على عقائد المسلمين و مبادئهم الخلقية في البلاد العثمانية و مصر و بلاد أخرى هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه " .[1]

لا نقر الفرنسي الصليبي على تحليله بعد ستين سنة من كتابته ، و بعد أن عاشرنا الحضارة الغربية و عانينا منها و من حملة التنصير المستمرة لنقارن . أيتهما حملت إلينا الأخرى ؟ أيتهما اعتمدت على الأخرى في فتح بلادنا و كسر شوكتنا ؟ أيتهما هدت و أيتهما هدمت و أيتهما شيدت صرح التفقير

[1] نفس المصدر ص 8 .

و التغريب و التكفير ؟ إنها عملية واحدة و إن تعددت وُجوه الجند المغير ، و تنوعت أساليبه . و ما رُوح الغرب الهاجم بحضارته المتألقة المتفوقة المسلحة الثرية إلا الروح الاستعمارية الصليبية التي قرأنا بنودها في خطبة بابا الحرب الصليبية الأولى . و ما الفلسفة المادية ، و الإباحية ، و الماركسية ، و اللائكية اللادينية إلا إفرازات يهودية نصرانية تجسدت في كيانات استعمارية كارهة للإسلام سميت يوما ما فرنسا و إنكلترا و هولندا و إسبانيا ، و هي هي لا تزال ، تحمل علينا عصا التطويع و التجويع و الترويع بقيادة كيان أكثر تصهينا و أشد مراسا . إنه كيان مزدوج ، ذلك المصهين من أصوله المشتركة مع يهود أعني الولايات المتحدة ، و ذلك المصهين حديثا عن قناة يهودي الفلسفة الصراعية ماركس . و في ركاب الحضارة الغربية المادية ، كالسائس و الخادم و كالآمر المخطط أيضا ، عملت إرساليات التنصير عملها و لا تزال تعمل .

و مما مهد للعملية برمتها اضمحلال الدولة العثمانية شوكة الإسلام ، رحم الله تلك الوجوه على ما كان . قال لوشاتلي : " من المحقق أن الإسلام (في عصره بعد سقوط " الخلافة العثمانية ") يضمحل من الوجهة السياسية . و لن يمضي وقت طويل حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية" .[1]

و كان . بيد أن الأسلاك الاستعمارية لم تكن لتخدش إلا ظاهر جسد الإسلام لو لم تكن تلك السلاسل تصفيدا للأمة و شلا لحركتها ريثما يتم حقن أجيالها بالفكر الغربي الصليبي . و قد كان من بين الكاثوليك طائفة تنصيرية ، هي طائفة اليسوعيين ، هي الجيش النموذجي ، كان و لا يزال منذ أربعمائة و خمسين سنة . " الجزويت " و هو اسم الطائفة بلغتهم دولة قائمة وسط دولة الكنيسة ، تربطها بها معاهدات ولاء لا غير . و يسمى رئيس الطائفة جنرالا إشارة إلى النظام العسكري . و من الجزويت خرج مستشرقون و مكتشفون و رواد إدخال النصرانية في الصين و الهند و بلاد إفريقيا و بلاد العرب . كان الآباء اليسوعيون في لبنان أول من أدخل الطباعة لبلاد العرب ، و نشروا مع الأناجيل المترجمة و رسائل التنصير مجموعات من كتب العربية و قواميسها .

---

[1] نفس المصدر ص 10 .

و يعتبر الجزويت ، العرب منهم و العجم ، أنفسهم جيش يسوع المسيح عليه السلام ، مهمتهم التعليم ، تعليم النصارى في بلاد النصارى ، و تعليم الم يحملون إليها مع ثقافة الغرب " بشارة الخلاص " .

و من تغلغل الجزويت في البلاد الأوربية ، و نتيجة لنجاح مدارسهم التي كانت تخرج علية القوم ، أنه كانت لهم دالّة و كلمة مسموعة عند الحكام ، يستظهرون على القاصي و الداني بما معهم من أسرار الكبار يطلعون عليها في كرسي الاعتراف عندما يجلس إليهم الأمير و الرئيس ليعترف بذنوبه حتى تغفرها له الكنيسة . و لنمر مرّاً سريعا على خرافات الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تبيع صكوك الغفران مسبقا ، و تغفر الخطايا ملحقا ، لنرجع إلى الغارة .

مع مهارة الجزويت و أضرابهم من طوائف التنصير الكاثوليكي يحس لوشاتلي أن البروتستانت أطول يدا و أمضى سلاحا . قال : " و ليس من المستغرب – و نحن نبدي إعجابنا بأعمالها (أي الإرساليات البروتستانتية) – أن نُلح على مزاحمتها و مسابقتها خصوصا و أن السيطرة على أهم الأسواق البشرية صارت متوقفة على هذه المزاحمة و المسابقة " .[1]

قِفْ عند عبارة " الأسواق البشرية " إن كنت من الوقافين ، ثم اعلم أن المسابقة و المزاحمة على سوقها الغثائية قائمة على قدم و ساق ، بيد أن البضاعة لا تزداد إلا رخصا و هواناً على نفسها و على الناس .

انتخب مجمع الإرساليات البروتستانتية في أول القرن القسيس زويمر ، فقام خطيبا سنة ***1911*** في مؤتمر لهم بالهند يشكر الله على بوادر دخول الحضارة المادية ديار الإسلام و على حدوث التغييرات التي أدخلها آنذاك على نظام الدولة العثمانية حزب الاتحاد و الترقي الذي يقوده اليهود . قال زويمر : " شكرا لله على حدوث هذه الانقلابات في غرب آسيا (بلاد المسلمين) ، فكانت موجبة للإعجاب و الاستغراب ، و أبادت معالم التجسس و أقامت الحرية على أنقاض الاستبداد " . ما يسميه تجسسا و استبدادا هو يقظة السلطان عبد الحميد رحمه الله الذي كان لليهود و المنصرين بالمرصاد ، رفض بيع فلسطين لأولئك ، و ضرب الحصار على أرض الإسلام لكيلا يدخلها هؤلاء . قال زويمر :

---
[1] *نفس المصدر و الصفحة .*

" و صار التجول في البلاد العثمانية و العربية و الفارسية غير ممنوع . و أصبح عبد الحميد سجينا في سلانيك . و ارتبطت المدينة بدمشق بواسطة السكة الحديدية ، و هذا يمثل تسهيلا لتنقل أعضا الإرساليات " .

قال : " و أنيرت الأنوار الكهربائية على الروضة النبوية . كل هذا يعد بعصر جديد في تاريخ آسيا الغربية و إفريقيا الشمالية " .[1]

انتبه إلى ذكر الكهرباء في الحجرة الشريفة و إلى ما ترمز إليه . إذ يعتبر كبير المنصرين دخول الحضارة المادية لتلك البقاع المشرفة إيذانا بمزيد من الاضمحلال للقيم الإسلامية ، و مزيد من التبعية ، و مزيد من الانبهار بنور الكهرباء عن نور النبوة . و هذا ما حدث بالفعل .

بعد إسقاط " الخلافة العثمانية " لانت قناة المسلمين ، و غاب " التجسس و الاستبداد " الحميديان ، و أشرعت الأبواب أمام المنصرين و المستعمرين على مصراعيها . و هنا كان انتصار جيوش الغرب على ألمانيا و حليفتها تركيا نصرا مباشرا للمنصرين الذين اقتحموا بلاد الإسلام يرحب بهم مصطفى كمال أتاتورك و أضرابه في كل مكان ، تحت شعار الحرية .

قال أحد القساوسة البروتستانت : " لم يسبق لنا أن رأينا الإسلام لينا و ملائما إلى حد تقدير النصرانية بقدرها . و هذه فرصة ثمينة ينبغي لنا انتهازها " .[2]

و قد زوَّدَ زويمر المنصرين بعصارة تجاربه في كتاب له نقل عنه لوشاتلي هذه التوصية التي تُعد تحولا استراتيجيا لأساليب التنصير . قال : " إن أكبر حجة كان المنصرون يدعمون بها أعمالهم منذ مائة سنة كانت لاهوتية دينية محضة . أما الآن فقد أصبحت أعمالهم مشفوعة بأسباب اجتماعية . و كان يُنظر في سابق الأيام إلى المنصرين نظر قوم يشنون حربا صليبية ترمي إلى التنصير فقط ، فتحولت الأفكار ، و صارت الأعمال التنصيرية تشف عن فكرة الإصلاح الاجتماعي ، و عن رفع شأن الشعوب غير النصرانية " .[3]

---

[1] نفس المصدر ص 56 .
[2] نفس المصدر ص 65 .
[3] نفس المصدر ص 91 .

و منذ زويمر تقدم الأسلوب التنصيري ، و اتخذ التطبيب و التنمية ، و الخدمات الاجتماعية خاصة التعليم، و المساعدات و الإغاثة و توزيع الطعام ، مقدمة مادية إنسانية لعرض اللاهوت في " الأسواق البشرية " بضاعة مغرية .

نختم هذه الفقرة بشهادة تقدير و احترام و اعتراف أدلى بها الشهير بلفور الذي اقترن وعده لليهود أثناء الحرب العالمية الأولى بكل الأحداث التي أدت إلى قيام دولة إسرائيل التي جاء الله تعالت حكمته فيها باليهود لفيفا ليوم " وعد الآخرة " . و هكذا يلتقي في رسالة رجل نصراني إنجليزي اهتمام بنصرة اليهود و استنصار المنصرين . و إنها لملة واحدة يا من يسمع عن الله .

قال بلفور في خطبته أمام مؤتمر تنصيري عقد في نبرج بإنكلترا سنة ***1910*** :

" إن المنصرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة . و لولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيرا من العقبات . و على هذا فنحن في حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط و العمل لما فيه مصلحة المنصرين " .[1]

و قد استعملت كلمة " تنصير " مكان كلمة " تبشير " التي استعملها المترجمان ، و جرى على استعمالها العرب تبعا للنصارى العرب الذين سبقوا إلى إحياء العربية العصرية ، بل إلى صنعها ، كانوا و لا يزالون . و إننا لبحاجة في غد الإسلام و خلافته على منهاج النبوة إلى شبهة قوية من جانبنا من قبيل حسن الظن و من قبيل الرفق و رعاية الحقوق الشرعية لنتعامل مع الأقليات النصرانية في بلاد الإسلام على أساس أنهم أقرب لنا مودة من اليهود . و لكل إن قبلوا كما نقبل حق الرعاية و حرمة الإنسانية قبل قتالنا اليهود خلف الشجر و الحجر و بعده . « *وَ ٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَ لَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿21﴾* » (سورة يوسف) .

[1] *نفس المصدر ص 48 .*

" المؤامرة " على الإسلام

لكل حزب من أحزاب الجاهلية مخططه لا ريب ، و المخططات لضمان مصالح الجاهليين الأقوياء المستكبرين في الأرض على حساب الشعوب الإسلامية بتضامن و تعاون مع حكام الجبر و القهر و المكر السيِّئ بَيْن ظهرانَيْنا أمر واقع . لكن المكر السيِّئ من جانب المستكبرين لا يكاد يخصنا بخاصة باعتبارنا مسلمين رغم الكراهية المتجددة عند الغرب للإسلام و أهله منذ الثورة الإيرانية ثم تفاقم الأمن الدولي من جراء الاختطافات و الرهائن .

ثم إن من طبيعة التدافع على المصالح بين البشر أن يمكر القوي بالضعيف ، و أن يقترن الاستكبار في الأرض بالمكر . تلك سنة الله تعالى في خلقه , قال الله تعالى يخبر عن قريش كيف كانت تعتذر عن جاهليتها بانعدام رسول خاص بها : « وَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ جَـآءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَـآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿ 42 ﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَ مَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَ لَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿ 43 ﴾ » (سورة فاطر) .

و سنة الله أن يرجع مكر الماكرين المستكبرين عليهم متى تحقق في الممكور بهم من المستضعفين شرط الإيمان و العبودية الخالصة لله تعالى ، و قوامها السلوكي أن يغيروا ما بأنفسهم .

في كتاب الله عز وجل ذكر لسنة الله ثلاث عشرة مرة كلها تُديل المومنين من الكافرين و المنافقين ، مثل قوله تعالى : « لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَ ٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَـآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ 60 ﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُواْ أُخِذُواْ وَ قُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿ 61 ﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَ لَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿ 62 ﴾ » (سورة الأحزاب) .

و قوله جلت عظمته و شد انتقامه على أعدائه بيد أوليائه يخاطب المومنين الأولين من المهاجرين إلى

رسول الله صلى الله عليه و سلم و الأنصار لدعوته المجاهدين في صفه : « وَ لَوْ قَاتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا ﴿ 22 ﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَ لَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿ 23 ﴾ » (سورة الفتح) .

إن تفسير التاريخ و تبرير الهزائم التاريخية بوجود مؤامرة ينم عن ضعف في إدراك الواقع ، و ينم عن عجز في الميدان يتطلع العاجزون معه إلى المخبإ المستكين كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : « قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا » (سورة المائدة ، 22) .

من طبع العدو أن يكيد لعدوه ، و من أساليب القتال أن يمكر به و يخادعه . فإن لم ندخل في حسابنا هذا و استكنا إلى غموض " المؤامرة " ندس فيها عُقولنا و نتخذها أنشودة للبكاء و النواح فلن نجد فرصة للالتفات إلى السبب الحقيقي لهزائمنا ألا و هو الغثائية الناشئة عن " داء الأمم " .

القوي يُخطَبُ وُدّه ، و يُساوَم في سوق الدبلوماسية على تنازلات متبادلة ، مرعي الحرمة مهيب الجانب . أما الضعيف فلا وزن له عند العدو و لا عند الصديق . و إلصاق عاهاته " بالمؤامرة " تمويه زائد للحقائق . كيف لا تأكلنا ، و نحن الغثاء الزَّبَدُ تتلاعب به الرياح و الأمواج ، سوائم الجاهلية ؟ أم كيف تعف الأمم عنا و نحن المأدبة و الأَكَلَة محلقون حول القصعة نَهِمُونَ ؟

نشر رئيس تحرير جريدة " واشنطن بوست " ذات الأثر البليغ في سياسة الولايات المتحدة الأمريكية كتابا السنة الأخيرة كشف فيه أسرار جهاز المخابرات المركزية الأمريكية . و ذكر كيف كان الرئيس الأمريكي يُمول عملياته العسكرية من خزانة بعض دول البترول العربية كلما عارض الكونغرس مشروعه . دولة قوية ، و ديمقراطية تحد من سلطة الرؤساء . فكان سفير ذلك البلد الغثائي أهله يحضر ملايين الدولارات بمجرد تلقي طلب الأسياد . و تمكر الدولة العظمى بشعوب مستضعفة في أمريكا الوسطى ، يحالفها حكام الجبر علينا .

أين " المؤامرة " هنا ؟ و على من وقع التآمر ؟ لا يبلغ قدر ذلك الحاكم الجبري على المسلمين أن يعد متآمرا على أمته . الأمة نائمة لا تنهض لتأخذ على يد الظالم . و الظالم و ما في يده من خيرات المسلمين طُعمة سائغة للملتقط ، مكشوف أمرها . و من شأن المؤامرة أن تبقى سرا محفوظا . فما يتآمر علينا إلا أنفسنا التي نشِبَ فيها الوهن ، و عشش و فرخ ، ألا و هو حب الدنيا ، و كراهية الموت ، و الحرص على الحياة ، أي حياة . ذلك الحرص الذي وُسِمَ به بنو إسرائيل . قال الله تعالى : « وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَـٰوٰةٍ » (سورة البقرة ، 96) .

الفقه الإسلامي للقضية هو أن التآمر من طبع المستكبرين ، سنة ماضية ، و أن التآمر لا يفسر ما بنا من ويلات ، بل ما في ذاتنا من " داء الأمم " هو الذي يستدعي التآمر علينا ، و يشجعه ، و يجعله ممكنا ، و ينجح خططه . و الجواب عن تآمر عدونا علينا هو أن نأخذ حذرنا كما أمر الله تعالى من المنافقين في صفنا ، و من الغادرين من بني جلدتنا ، ثم من المكر السيِّئ الذي يدبره علينا العدو الخارجي .

في الفصول السابقة من هذا الكتاب ألحت إلحاحا طويلا على وجود " روح " للجاهلية ، و وصفت مناطها و تجسدها في التاريخ ، و تطورها ، و كيف سكنت الأرض ، و كيف انتشرت فيها و تنظمت ، و كيف تجمعت ، و كيف تسربت إلى حياة البشر عامة في مظهر الصهيونية الصريحة ، و في شكل النصرانية المصهينة ، و في شكل النصرانية الحليفة ، و في شكل الصراعية الدولية ، و الفلسفة المادية ، و الرأسمالية التي ترمز إليها دولة روتشيلد و النظام الربوي العالمي ، و الإعلامية التي يسيطر على أجهزتها اليهود . فلا تجد في الأرض قوما إلا و لامستهم هذه الروح لِماساً ، أو تقمصتهم تقمصا ، أو سمنتهم سكنا . الصين المتقلبة ما بين أحضان ماركسية اليهود و رأسمالية تبحث عن آلتها التمويلية في مصارف الغرب التي يهيمن عليها اليهود و حلفاؤهم مسكونة بهذه الروح . نيكاراكوا الصغيرة و كوبا في أمريكا الوسطى تتبنيان الماركسية للتحرر من سيطرة أمريكا المصهينة ، فالروح الجاهلية ثاوية هناك طوعا و كرها . هنا وهناك في العالم لم توجد تكتلات ثورية ، أو ثقافية تقدمية ، أو متطرفة تعتنق الماركسية التروتسكية ، أو دوابية محضة ، إجرامية محضة تزرع المخدرات و تسوقها و تفسد في الأرض .

بوجه أو بآخر تجد الروح الجاهلية تسير و تعلم من قريب القريب و بعيد البعيد . و الحضارة الغربية ، و هي التجسد العام لتلك الروح ، ما هي باعتراف أهلها أنفسهم ، إلا إفرازا للثقافة اليهودية – النصرانية و التراث الإغريقي الروماني .

ألححت على هذا التناسل و التسرب في الأرض و التشرب لأقول لمن يقرأ الأحداث مفرقة ، و لا يعرف قانون سنة الله تعالت قدرته و جلت حكمته ، أن القرآن الكريم ما خصص لذكر اليهود و النصارى ذلك الحيز الضخم قَصا لتاريخ مضى و انقضى ، و لا لمجرد العبرة بالغابرين ، و إنما فعل لهدايتنا إلى المسار الذي يجب أن نتبعه أفرادا للفوز بالنجاة في الآخرة ، و أمة لنفوز بالاستخلاف الموعود ، و إقامة دين الله في الأرض على منهاج النبوة ، تلك الخلافة الثانية التي يراها غيرنا بعيدة و يراها من يقرا سنة الله و يثق بوعد الله و بشارة رسول الله قريبة .

و الأرض و من فيها من الشعوب جسم تتصارع على التحكم فيه روحان . إحداهما في الفترة الراهنة هي الحضارة الغربية التي تعد هي نفسها أول عنصر في تركيبها اليهودية عندما تتحدث عن ثقافتها اليهودية – النصرانية . و الروح الثانية لا تزال في أفق العالم ناهضة من سباتها القروني ، و تسمى في الوقت الراهن " الصحوة الإسلامية " .

حدثنا القرآن عن قرى الماضي من عاد و إرم و ثمود و سائر الأقوام .

فما بال القرآن لم يحدثنا عن الدول العظمى المستقبلة مثل إمبراطورية الإنجليز البائدة . و إمبراطورية جنكيزخان قبلها ، و الإمبراطورية الروسية أو الأمريكية بعد ذلك ؟ ما بال القرآن يحدثنا عن اليهودية و النصرانية و الشرك و الاستكبار و الاستضعاف و المكر السيِّئ و النفاق ، و عن المعاني المضادة من إيمان و تقوى و إسلام و إحسان و جهاد و لا ذكر للوقائع العينية ؟

الجَهل بما هو القرآن ، و خلوده ، و حقه ، و عمومه ، و إحاطته بشؤون الدنيا و الآخرة ، و بشؤون الملك و الملكوت ، و السماء و الأرض ، و الماضي و المستقبل ، و الخالق و المخلوق ، و المرسلين و المرسل

إليهم ، و الملائكة و الجن ، و الدواب و الأنعام ، جعل الغافلين عن لله تعالى يتخذون هذا القرآن مهجورا كما تتخذ أساطير الأولين .

ليس القرآن كتاب تاريخ ماض أو مستقبل حتى يفصل تعاقب الدول إلى يوم القيامة ، بل هو كتاب هداية لك باعتبارِك فردا ، و لنا باعتبارنا امة ، نمضي جميعا من دار البلاء و الامتحان إلى دار الجزاء و البقاء . و في القرآن كل المفاتيح اللازمة للفوزين ، الفوز الفردي و الجماعي . و ما تركت السنة النبوية ، صلى الله على محمد و آله و صحبه ، مظهرا من مظاهر الجاهلية في غيرنا و من مظاهر الفتنة و تقلباتها فينا إلى يوم القيامة إلا أشارت إليه .

جاءت الهداية القرآنية و التفصيل السني النبوي حديثا متوازيا عن أحداث الآفاق و الأنفس ، حديثا متشابكا ، متداخلا ، متضامنا ، مفتوحا لإمكانيات اجتهادك أنت و جهادنا نحن طاعة لله و رسوله ، و اجتهادا في تحري الصواب ، و تلمسا لمطابقة أمر الله الشرعي مع أمره الكوني ، و مطابقة كسب العباد لقدر الرب عز و جل . كل ذلك في مسؤولية تامة تلتقي مبادراتها بتوفيق الله تعالى إن صدقنا و آمنا و بدلنا ، أو بجزاء ما كسبت أيدينا إن خالفنا و عصينا و نسبنا إلى غيرنا ما هو من عند أنفسنا .

بعد هذا نلتفت إلى ما يُدبره العدو لنا فعلا و ما يخطط و ما يمكر . و لعل الاعتبار الديني في حسابهم لا يأتي في المرتبة التي تعطيها كل دولة لمصالحها الخاصة و حسابها التكتيكي ضمن أحلافها و قوتها أو ضعفها و نفوذها الاقتصادي و العسكري و السياسي ، و ضمن حالة استقرارها الاجتماعي و الإديولوجي .

في حدود هذه المصالح و ضمن ضغوط هذه المعطيات يتصرف أعداء الإسلام لإلحاق الأذى بنا و إبقائنا في الحضيض كي يتأتى لهم الاستمرار في أكلنا . إنهم لا يألوننا خبالا ، و دوام عنتنا ، قد بدت البغضاء من أفواههم و ما تخفي صدورهم أكبر .

و لئن كان الحقد الصليبي القديم متغلغلا في أحشاء الحضارة الغربية لِما رضعت من لبان الكره للإسلام و هي لا تزال في مهدها ، فإن حقد الصيغة الجديدة للحضارة الغربية ، أعني الدولة الماركسية في روسيا هي الآن بصدد تجرع كأس مريرة كأس هزيمتها النكراء التي ألحقها الله رب الجلال بها في أفغانستان على يد من

بعثهم من جنده . و تجيء هذه اللطمة المدوية في عهد تحاول فيه الدولة العظمى أن تعيد بناء هياكلها من جديد، و مراجعة فلسفتها الصراعية و نظامها الاقتصادي و الاجتماعي ، تفاديا للركود و الجمود اللذين يهددانها تجاه تقدم التصنيع في الغرب الأوربي الأمريكي ، و تفاديا للانهيار الخلقي و الفساد الإداري و هبوط مستوى الإنتاجية ، و هي أدواء داخلية أفرزتها سياسة الدكتاتورية الطبقية و البيروقراطية الثقيلة المركزية و يأس تلك الشعوب من كل خير يأتيها في جو الشيوعية الخانق .

و يشاء الله تبارك اسمه أن يكون أول من يسمع نداء جورباتشوف لتخفيف الضغط على الحريات القوميات المائة التي تكون أقليات داخل التراب المسفيت . و يأتي نداء جورباتشوف في وقت سمع فيه و يسمع إخواننا المسلمون المحتلة أرضهم في القوقاز و التركستان و أذربيجان و سائر تلك الأراضي الإسلامية نداء الروح نداء الجهاد النازل كالغيث يحيي الأرض بعد موتها من جبال أفغانستان .

آخر ما بلغنا من خبر روسيا ، و هي تعاني محنة التجدد المرجو الممتنع و محنة الهزيمة الفاضحة ، أن المثقفين المتمردين الذين أخرجهم جورباتشوف من السجون و مستشفيات المجانين في سياق تجديده قد أعلنوا تأسيس حزب المعارض أسْموْهُ " الاتحاد الديمقراطي " . و هو توجه نحو التعددية الديمقراطية التي ترفضها المبادئ البلشفية و يتمناها الناس وراء الستار الحديدي الآخذ في التخرق ، و يتوقون إليها ، و يسارعون إليها اليوم ف روسيا كما حاولوها و يحاولونها في بولندا منذ ثمان سنوات .

و آخر ما وصلنا أيضا من خبر هناك أن الحكومة الروسية أخذت تنفذ أوامر الحزب البلشفي بتشديد الحصار على المسلمين داخل التراب السوفياتي للقضاء بكل وسيلة على النهضة الإسلامية ، و قتل روحها المنبعثة الوثابة المستجيبة لأصداء النصر المبين .

إن الله جلت عظمته يهيِّء للمسلمين ظروفا تمكنهم من مقاومة كل تآمر . يشغل سبحانه العدو بما لم يكن له في الحسبان . في " دائرة معارف الثقافة الشيوعية " المنشور من عشرات السنين التنبيه إلى أن : " الإسلام أخطر الأديان الرجعية ، يبذل قُصارى جهده ليكون في خدمة المستغلين

و الإقطاعيين و الرأسماليين . و يقدم العون للاستغلال . و هو دين جامد حقود على الحضارة و التقدم ، و خصم عنيد للاشتراكية ، و يناهض التحركات التحررية " .

هذا الحكم القديم على الإسلام كان و لا يزال الغذاء الفكري و الخط المذهبي الذي تربى عليه تلامذة ماركس من بني جلدتنا المتصدرين لمعارضة الأنظمة الرجعية في بلاد المسلمين التي نسميها نحن الحكم العاض و الجبري كما سماها رسول الله صلى الله عليه و سلم نبوءة حق و صدق . فماذا سيكون الحكم الشيوعي على الإسلام ، و الشعار الشيوعي على الإسلام بعد لطمة أفغانستان العظيمة ؟

إن " قواعد الإسلام " داخل التراب المسفيت و في أمريكا و من بين " المهاجرين " إلى أوربا ملاحقة للزرق المنهوب في بلادهم يواجهون عداء واحدا ، و كيدا واحدا لوحدة العدو الروحية الثقافية ، ألا و هو العدو المستكبر في الأرض ، له عشرات الوجوه و الأشكال و الأنظمة و اللغات : أعني الجاهلية الغربية بشقيها اللبرالي و الاشتراكي ، و بعناصرها المؤسِّسة اليهودية النصرانية ، و بوثنيتها الإغريقية و كبريائها الموروث من الرومان .

قضية المسلمين على المدى الطويل قضية تناقض أساساً قضايا المصالح المؤقتة التي مكنت مثلا المجاهدين في أفغانستان من دعم حقيقي جاء من أمريكا و هي تساوم غريمتها و شقيقتها الروسية على تقسيم مقبول للعالم إلى مناطق نفوذ .

قضية المسلمين على المدى الطويل هي الوحدة و القوة و إقامة الخلافة الثانية على منهاج النبوة كما كانت الخلافة الراشدة على أسس الشورى و العدل و الإحسان . و على وقع خطوات التاريخ الذي يكوره مكور الليل على النهار و مكور النهار على الليل تتعرف إلينا سنة الله الرحيمة بنا من خلال الفجوات التي بين مصالح العملاقين ، و من خلال ضغوط المصالح و الظروف السياسية لكل دولة و كل تحالف ، و من خلال الثقل المهول الذي تتحمله كل دول العالم ، بل كل فرد فرد من بني الإنسان ، أعني ثقل التهديد النووي لمصير الإنسانية . و تتعرف إلينا سنة الله الرحيم بنا آخر المطاف من خلال البلاء الواقع على المستضعفين في الأرض و على المسلمين خاصة من جراء المجاعات و النقص من الأموال و الأنفس

و الثمرات ، و بشر الصابرين . و يسمي لسان العصر هذا النقص " تخلفا " ، لأن العصر ينظر بمنظار التحليل الغربي المادي الماهر في إدراك الأسباب و تسلسلها و قيامها و قعودها ، الغافل عن مسبب الأسباب جلت عظمته .

قضيتنا على المدى الطويل و قضايانا على المدى المباشر المُلح مرتبط نجاحها ، رغم كيد الكائدين و رغم المكر الاستكباري السيِّئ ، بتغيير ما بنا . و ليس تغيير ما بنا مسألة فقه جدلي لتجديد المفاهيم و الاستغراق في الفلسفة حول " الإسلام و العقل " ، " الإسلام و الغرب " ، " الإسلام و الديمقراطية " ، " الإسلام و كذا و كذا " . إن كان للتنظير أهميته في الحُداء المشجع للصحوة المباركة المهيِّئ للفهم الواسع فإن تغيير ما بنا مسألة عملية ، مسألة تعميق الإيمان في القلوب ، و تعبئة أهل الإيمان بدافع إحساني عميق ، و تربية جند الله في خندق الجهاد تربية عملية بدل " التربية " المعلبة الثقافية .

عمق تناقض قضية الإسلام على المدى الطويل مع قضية الجاهلية و وجودها في الأرض و تمكنها لا يكون له كِفاءً إلا عمق التغيير الإيماني لدى الفَعَلَة المجاهدين لنصر تلك القضية العظمى . التحدي الآفاقي الذي يواجهنا على المدى الطويل لا يقوم له إلا تغيير أَنْفسي يزيل ما تراكم على فطرتنا من ركام ، و يجدد ما بَلي في قلوبنا من إيمان ، و يُقَوم ما اعوج من توجهات ، و يحيي ما فَنِي من مروآت ، و يستصلح ما في أيدينا من كفاآت ، و يصطنع ما نحتاجه منها ، و يجمع القوة ، و يقيم العدل ، و ينصف المظلوم ، و يهيِّئ الآفاق البعيدة المشرقة الموعودة بمغالبة التحديات المباشرة التي يعُدها التحليل المادي تخلفا له أسبابه و علاجه و نظرياته و نسميه نحن بلاء و نقصا مظهره الغثائية و سببه " داء الأمم " و ما ينتج عنه من بغي ، و علاجه الصلح مع الله ، و إدراج ما يعطيه التحليل العقلي من وصف للواقع و ما يوصي به من علاج في سياق نهضة روحية علمية إيمانية إحسانية تقتحم العقبات ، و تلبي نداء الله في سننه الرحيمة ، و تستمطر نصر الله الذي لا يتخلف متى توفرت الشروط السُّنية في المكان .

إن جهاد أفغانستان و نصره المبين ، و ثورة إيران أصلح الله شأنها ، أدخلت الإسلام وسط المعركة العملية ، و أدخله " أطفال الحجارة " الذين يخرجون من المساجد مفعمة قلوبهم إيمان لينفجروا في وجه العدو غضبا فاعلا باذلا للمهج بعد أن ظل الغثاء الفلسطيني يتخبط في عجزه و خلافاته آمادا .

و يفرض الدخول في المعركة العملية تحمل أعباء إقامة الدولة ، و تسييرها ، و كنس الأنقاض الموروثة ، و صنيع غائبة مقوماته ، و علاج لأمراض المجتمع المعقِّمة لكل جهد ، المعوقة لكل سير ، و القضاء على البغي القروني و مخلفاته من تفاقم الطبقية و ما يجري في ركابها من مواكب الجهل و الفقر و المرض .

تطبيب المريض و تعليم الجاهل و إيجاد الشغل للعاطل و السكن للمشرد ، و سائر الهموم اليومية لكل دولة و إدارة و حزب حاكم ، لم تعد مهمات بعيدة عن الإسلاميين منذ ثورة إيران و نصر أفغانستان صانه الله . لم يعد هناك الإسلام معارضة تقذف اللعنات في وجه الأجهزة الحاكمة بمعزل عن كل تبعة إلا تبعة المحاكمات و السجون و الإعدامات التي تشرف الضحية و تنبه الأمة إلى بطولة الدعاة ، بل أصبحت تلك المهمات و تلك الهموم مسؤولية حالّة على أكتاف الإسلاميين .

لم تعد " المؤامرة " على الإسلام دسا خفيا و مكرا مبيتا هناك ، منفّذا هناك ، نقرا عنه في المجلات و نبحث عن مصدره الماسوني التنصيري ، بل أصبح المكر السيِّئ تعاملا يوميا مع أحداث الحرب ، و السلاح ، و المال ، و التجارة العالمية ، و التصريحات ، و اتخاذ المواقف الدبلوماسية ، و إعلان النيات ، و التفاوض على المصالح ، و التنازل و المساومة ، و مواجهة الأزمات الطارئة ، و وضع السياسات الحكومية ، و استخدام الرجال ، و استعبادهم ، و مراقبة عجلات الدولة ، و خيانة الخائن ، و خطأ المخطئ ، و ضجيج السوق ، و ارتفاع المؤشرات الإحصائية ، و انخفاضها ، و أخبار الداخل و الخارج ، و تحديد الأولويات ، و تنفيذ الكليات و الجزئيات .

الإسلام يعود للميدان . و السؤال هو : هل ننضوي تحت ظل سنة الله لنستحق رعاية الله و موعود الله ؟ هل ننتهج سنة رسول الله لنأمنَ العثرات في سيرنا في الميدان ؟ هل نسيرُ على منهاج النبوة لنهيِّئ الخلافة الثانية متأكدين من أن الأمر ليس تاريخا أهوج صراعيا لا معنى له بل الأمر سنة الله ، تعطينا معنى وجود الإنسان و معنى دفع الله الناس بعضهم بعضا في مسار مُقدَّر من لدن حكيم خبير ؟



الفصل الرابع

من الشكوى العاجزة إلى الوعود الناجزة

قل هو من عند أنفسكم

شباب الصحوة إلى الرجولة

ناموس الأسباب

المروءة و الخلق

القومة

الخلافة الثانية

قل هو من عند أنفسكم

نشرت جريدة " الرائد " الهندية الإسلامية فقرة من بيان " سرايا الجهاد " ، و هي من أبرز الفصائل الإسلامية المقاتلة بالحجارة في فلسطين . قال البيان : " إن المجاهدين الإسلاميين في الأراضي المحتلة يشكون إلى الله لم ذوي القربى . فهو أشق و أقسى من لم العدو . و نضيف أن معتقلينا بالمآت في السجون . و عملياتنا العسكرية متصاعدة ، و مقاومتنا الشعبية مستمرة . و أن تاريخنا ناصع بحمد الله ، و ماضينا أبيض تلطخه فقط حمرة دماء الشهداء . و خطنا واضح وضح القرآن الكريم و السنة المطهرة ، و الإعلام يملأ الأسماع حول " الظاهرة الأصولية المتعامة في الأراضي المحتلة " . و رغم ذلك فإننا نفقد الدعم و العون الإسلامي ، و نفقد العناية بشؤون الشهداء و الجرحى و المعتقلين ، و نفقد التنسيق و التشاور " .

و قرأت استجوابا مع مفتي أهل السنة و الجماعة في فلسطين يشكو فيها أن كل فريق من الفرقاء المتصارعين في لبنان الكئيبة يجد عونا و نصيرا إلا أهل السنة و الجماعة .

و في أفغانستان قاتل أسد الله عدو المسلمين بوسائل فقيرة ، لم يأتهم عون من المسلمين إلا ما أبلاه " الإخوان المسلمون " من البلاء الحسن ، و إلا تبرعات أثرياء الخليج التي عوّقتها طائفة من المفتين بغير علم وصموا المجاهدين الأفغان بأنهم : " مشركون يقاتلون كفارا " ، و لا يجوز في زعمهم الآفك أن يصرف مسلم درهماً ليساعدهم . و ما كان من عون رسمي من بعض الدول في بلاد المسلمين فمن قبيل الحساب السياسي أو خدمة المصلحة العليا للحليف الأمريكي .

السواد الأعظم من الأمة ، و هم من أهل السنة و الجماعة ، قد يتجاوبون عاطفيا مع الجهاد الإسلامي ، في حدود ما يسمح لهم الحصار الإعلامي الرسمي و التعتيم من الاطلاع لكنهم لا يدرون ما واجبهم ، و لا إلى أية جهة يصرفون وجوههم .

الأقلية القليلة من الشباب الصاحي إلى إسلاميته متفرق شذر مذر ، كفرقة الفصائل المجاهدة في أفغانستان ، كفرقة اللاحق في الساحة على السابق ، و المنتقد على العامل ، و " المعتدل " على

" المتطرف " ، و المكفر على المبلغ ، و القضاة على الدعاة . في كل قطر و بلدة ، و على الساحة العامة حيث ترتفع أصوات عدة لتدعي أنها الدعوة العالمية الوحيدة .

لنترك إلى رحمة الله في حينها أمر السواد الأعظم ، و إلى نقمة من عنده جلت عظمته أو بأيدينا أمر الظلمة و ممثلي الاستكبار العالمي بيننا و على رقابنا . و لنلتمس حدود مسؤولية العاملين للإسلام و المجاهدين في سبيل الله عن حالهم و هم يختلفون في الاجتهاد ، و يتخاذلون في الميدان ، و يتدابرون ، و يتقاتلون كما يتقاتل في هذه العشر الأواخر من رمضان في لبنان " حزب الله " الشيعي مع " أمل " الشيعية قتال عادٍ و إرَم ، هؤلاء يسندهم نظام سوريا النصيري ، و أولئك تسندهم إيران الإسلامية ، و الدولتان حليفتان حلف دخن و مكر . و الشباب المتحمس لدينه المحصل على أسلحة النار و الدمار يخرب و يدمر استجابة لنَزَوات شخصية فردية ، أو خدمة لتقلبات مزاجية لدى الرؤساء ، أو سيرا مع ناعق جديد ، أو تنكرا لحلف عقد بالأمس فحدث اليوم من الوسواس الخناس أو هب من ريح الإفلاس ما ينقضه . و من فوق الشباب المتحمس قيادات لا تتحكم في مقادات الأنفس القاسية من عدم ذكر الله ، الضيقة من الإعراض عن ذكر الله المنكبة على تدبير حركة الدنيا في غفلة عن الآخرة ، و عن الله . أو كافرة صريحة الكفر كالنصيرية المجرمة العاتية في سوريا .

إن الأسباب الآفاقية الكونية للكوارث النازلة بنا معشر الأمة هي نفس الأسباب التي تركّزُ بأسها على العاملين للإسلام المجاهدين لنصر قضيته . و إن العوامل الأنفسية الواغلة في الأمة هي نفس الأسباب الناهشة في نفوس العاملين للإسلام الآكلة لإيمانهم ، القارضة لمروآتهم ، الموهنة لرجولتهم . و متى لم يعالج المترشحون للانضواء تحت راية لا إلـٰـه إلا الله الطامعون في الانخراط بصف جند الله ما بهم من رزايا نفسية قلبية ورثوها من البيئة و لم يتلقوا تربية تطهرهم منها ، فإنهم لن يكونوا إلا طبعة منقحة من المجتمع الغثائي . و يكون المرشحون طبعة غير منقحة متى لم يتخل المرشحون عن أوبئة أخرى لا تقل فتكا بالإيمان و المروآت لقِفُوها من الميدان حين غطت عنهم القضايا النفسية الضيقة القضية الكبرى ، و حين أنساهم التنافس و التحاسد مع الصف الآخر التنافس الأخوي في الخيرات ، و التسابق الأخوي إلى مغفرة

من الله و جنة عرضها السماوات و الأرض ، و حين شغلتهم مسؤولياتهم اليومية عن تدبير شؤون الجماعة مسؤوليتهم الأولى عن تدبير أنفسهم بما يصلح شأنها الباطني ، و يغسل أدران الخطيئات ، و يصحح النيات ، و يعلي الدرجات ، و يكفر السيئات ، و يقرب من عَلِيّ الذات و الصفات ، سبحانه و تعالى عما يشرك المشركون ، و عما يظن الجاهلون .

إن لم تتباين أخلاق أهل الدعوة و الجهاد عن أخلاق الدهماء العامة حتى تكون لها مغايرة كما كانت أخلاق المهاجرين و الأنصار مغايرة لأخلاق الأعراب على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و إن لم يتجدد إيمان الدعاة المجاهدين حتى يكون مُطالعا لإيمان الجيل القرآني النبوي الأول ، و إن لم يكن هم الله و هم الآخرة حاضرا عندهم كما كان حاضرا عندهم ، و إن لم يكن حب الله و رسوله حياتهم كما كان حياتهم ، و أمر الله و رسوله و طاعة الله و رسوله إمامهم كما كان إمامهم ، و الذلة على المومنين و الشدة على الكافرين سمتهم كما كان سمتهم ، و ذكر الله و تسبيحه و دعاؤه و مناجاته غذاءهم كما كان غِذاءهم . أترك للقارئ الجواب عن الشرط في أول الجملة ، و هو أسلوب قرآني بليغ . إن لم يكن ذلك كذلك فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، إن الله على كل شيء قدير .

رجعت في هذه الفقرة إلى التربية ، و ضرورتها القصوى ، و تصحيح المفاهيم التي تطلق جزافا عجافا حتى يسمى كل من التحى و تزيى و تمثل رجل دعوة ، و حتى تُسمى من وضعت الخرقة حول وجهها مومنة متحجبة لمجرد المظهر الآفاقي ، و المخبر الأنفسي يعلمه الله .

ما كل من حمل السلاح مجاهد و لو رفع شعارا ، ما دام الشعار الإسلامي لا ينبعث من سويداء قلبه صادقا يحيي معاني " في سبيل الله " . في سبيل الله . في سبيل الله . قل لي : ما هي سبيلك أنت صائر إلى الله قهرا و وهو القاهر فوق عباده يتوفى الأنفس حين موتها . فهل أنت سائر إليه طوعا ، متقرب إليه طاعة و سمعا ، بالفرض و النفل ، بكرة و عشيا ، من آناء الليل و أطراف النهار

سر شقائنا فينا أيها الأحباب ، و إن أول العلاج أن ندرك المحنة علما ، و أن نكتشف سر تخاذلنا فينا ، كامنا كمون النار في الحطب .

قابليتنا للاستعمار جعلت الأمة لقمة سائغة للعدو ، جهلنا بالدين جعل مهمة المحرفين و المنصرين سهلة . سكوتنا عما يكيد بنو جلدتنا بين ظهرانينا مكنت " المؤامرة " علينا من النجاح .

و كذلك هشاشة إيمان الراجعين إلى الإسلام في ركاب الصحوة المباركة يعرضهم لالتقاط أوبئة جديدة تضاف إلى بقايا ما جاؤوا به من التراث الفتنوي .

ما أمثل الإيمان في تجدده في القلوب إلا كنبتة نأتي بفسيلتها من أرض الداعي نستنبتها في أرض المدعو المستجيب . فإن كانت الجماعة الداعية و أشخاصها و قادتها و " مربوها " إنما معهم نبتة صفراء من فعل صقيع التبلُّد القروني لم يجدوا دِفْئاً لإحيائها حتى تخضر و تصبح زرعا يعجب الزراع ، أو كانوا إنما معهم ريح إيمان و " ثقافة إسلامية " و معرفة بالكتب و النصوص ، و مهارة في تحليل الواقع الآفاقي ، فأحْرِ بالوافد على الجماعة المسَوِّد لصفها بأعداده أن يكون نسخة باهتة من الفسيلة الواهية .

لست أستهين بالصحوة الإسلامية . كلا و الله . بل أعدها طليعة في غبش الصبح لشمس الإسلام و الخلافة الثانية غدا إن شاء الله . لا و لست ممن يشكك معاذ اله ، و لا ممن ينابذ أحداً من المسلمين إلا بحق و في حدود الحق أرجو اله . و ما أشير إليه من أدواء هي بقايا " داء الأمم " و مخلفاته و مستَجدَّاته موجود في نفسي لا أبرئها . و ما أُلِح عليه من الأسبقية القصوى للتربية هنا بعد أن أسريت مع القارئ المومن ليلا طويلا في أقبية سنة الله الآفاقية و سطوحها و امتدادها إنما أقصد به أن نعمق الإيمان في الأنفس حتى نلحق بالصالحين ، و نرقى إلى درجة العبودية لله عز و جل فنفوز في دار البقاء ، و تكون جائزتنا المعجلة الحسنى التحرر من الرق الآفاقي و التصدُّر لوعد الآخرة ، و الاستحقاق للخلافة في الأرض .

و إن طلائع الحق و النور في كل مكان تؤذن إن شاء الله بذلك . و إن من بين هذه الطلائع أشخاصا ربانيين ، و إن من بين الأضلع و الحنايا الخفاقة بحب الله هنا و هناك لقلوبا منورة بذكر الله و حب الله و اتباع رسول الله ، إيمانها إن شاء فسائل حية محيية تؤتي أكلها بإذن ربها .

في خنادق القتال بأفغانستان كان جند الله يسمعون في قلوبهم ترجيع القرآن أصفى مما يسمعون اهتزاز الانفجارات . و في خندق الموت ، و الآخرة قيد شبر ، و التوكل على الله ملء الصدر ، و الشوق إلى لقائه نداء قلبي لاذع ، و نبضات الجسم كله تحفز إلى الجنة ، و الدماء تنز ، و الشهيد بجانبك تضوع منه رائحة المسك ، لم يكن إلا الصدق و الإيمان و الثبات . و كان كل ذلك قمة . نرجو الله عز و جل أن يعمم تلك الروح على هذه الأمة لتكون " عالمية الجهاد " هي الفسيلة الشائعة لا الإسلام الثقافي المعلب .

لا أستهين بالغضب المكبوت على الظلم و الذي انفجر في إيران تحت راية الإسلام ، لكني أخشى الغوائل الأنفسية . و ليس من أخف هذه الغوائل أن تُسترخص الأرواح و أن يكون الدم رمزاً . أخشى غائلة مسؤولياتنا التي حذر الله عز و جل منها لما خاطب المومنين بعد هزيمة أحد ، و هم من هم و نحن من نحن ، في قوله تعالى : « أَوَ لَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿165﴾ » (سورة آل عمران) « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَ لَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿44﴾ » (سورة يونس) .

و قال الله تعالت حكمته عن السبب الغيبي القدري لهزيمة أحد : « وَ مَا أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿165﴾ وَ لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ » (سورة آل عمران) . كانت الهزيمة إذن قضاء سابقا متزلا في ظروف مقدرة تقديرا بإذن الله و لغاية سامية هو ابتلاء الله العباد ليميز المومنين من المنافقين ، و الخبيث من الطيب . ليعلم الله هؤلاء من هؤلاء ، ليس عن جهل بهم أستغفر الله لكن لإقامة الحجة عليهم و لإثبات أنه من عند أنفسهم . لهم إرادة فاختاروا سلوكا أدى إلى الهزيمة لما عصوا أمر القائد .

أخشى غائلة البلاء الإلهي للعباد ، و أن تحل بالناس عواقب مخالفاتهم و كسبهم السيِّئ .

قال الله تعالى : « وَ نَبْلُوكُمْ بِٱلشَّرِّ وَ ٱلْخَيْرِ فِتْنَةً » (سورة الأنبياء ، 35) . و قال عز من قائل :

« فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿63﴾ » (سورة النور) .

أخشى تلك الغوائل و أن يكون في صفوف العاملين للإسلام بقايا بغْي مما جاءوا به معهم من ماضي الغفلة ، أو تجدد عندهم من أثر الرجوع إلى الغفلة بعد التوبة الأولى و الصحوة الأولى . قال الله عز و جل : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ » (سورة يونس ، 23) و البغي نتيجة من تغلغل " داء الأمم " كما قرأنا في الحديث الشريف .

يا أيها الناس ! إنما بغيكم على أنفسكم . تسأل المقاتل الإيراني و القائد و الأمير : لماذا تتحالفون مع النظام النصيري الذي أجمعت الأمة على كفرهم ، و أنتم من أجمعوا على ذلك ؟ فيقول : ألم تعلم أن " آية الله " فلان قضى في الاتصال بهم سنوات حتى شيعهم ، فهم أصبحوا شيعة منا و إلينا .

و ينتشر البغي ، و تسفك الشرذمة النصيرية دماء عشرين ألف مومن و مومنة في حماة في وقت كانت أعلام النَّصر في إيران تخفق على هتافات إسلامية . فعلى من تقع دماء حماة الزكية ؟ " منا و إلينا " قوم ظلمة فاجرون شر ما خلق الله لمجرد وَهْم مُتَطاير أن مُعمما زماناً ما كان يحاول تشييعهم . و هذا لعمري ما يفقد الحليم حلمه . و قد فقده الداعية الكبير احد علماء المسلمين الشيخ الجليل سعيد حوى فكتب عن الشيعة الإمامية كتابة تقذف حُمَماً ، لم يترك دَخَنا مما هنالك إلا أضرمه ، و لا آثارا من آثار الفتنة التاريخية و وثائق الخبال العقدي و التخريف إلا نبشه و نشره . غفر الله لنا و له ، و عفا عنا و أحسن إلينا . و إنه لا حول و لا قوة إلا بالله . و إنا لله و إنا إليه راجعون .

إن سَمحْنا لأنفسنا بالانفعال لا نضبطه و سِرْنا مع مستفزات المواجهة الحالية على مستوى من حرارة الغضب عالية ، و لم نضع أعمالنا في ميزان العدل و العفو و الأخوة ناظرين إلى مستقبل الإسلام

الطويل المدى لا إلى مواقع أقدامنا الملغمة ، فلن نزيد الفتنة إلا اشتعالا ، و لن نزيد البغي إلا انتشارا ، و لا " داء الأمم " و هو وباء تعانيه الأمة كافة إلا توطُّناً في الصفوف الحية الصاحية .

كتب الشيخ الجليل من العراق مقالات تكفر الشيعة ، و الحربُ بين إيران الإسلام و نظام البعث القومي على أشد ضراوتها الدموية . فأين تبصر الحق و لو كنت الحليم الرشيد في قطع الليل المظلمة هذه ؟

من عند أنفسنا لا ريب ما حدث من خلاف أدى إلى انشقاق الأمة سنة و شيعة . من عند أنفس طائفة منا أن أثرت رجة انتقال المر من الخلافة الراشدة إلى الملك العضوض ، و أثرت عدوانية الحرب الباغية على أمير المومنين علي عليه السلام ، و أثر مقتل الحسين رضي الله عنه . و من عند أنفس طائفة أخرى ، و هم السنة ، و هم الجماعة ، و هم المحافظون على استقامة العقيدة و صفائها ، و هم جسم الأمة و غيرهم أطرافها ، أن أذعنوا للانقلاب الأموي و سموه خلافة ، و قعدوا على أطراف ذلك البلاط و ما تلاه من بلاطات يحافظون على جوهر الإسلام يحمونه بظهورهم بعد أن انتقضت عرى الإسلام و اختصم السلطان مع القرآن . من عند أنفسنا كل ذلك ، ثم هو ابتلاء من الله و فتنة لن يخرجنا منها إلا تغيير النفس و الكف عن البغي .

أفئِن استفزتنا فظاعة مجازر حماة ، و هالتنا أنهار الدماء المسلمة في هذه الحرب الباغية بين المسلمين نفقد صوابنا ؟ إن الإسلام دين الله أعظم من كل كارثة ، و مستقبل الإسلام الموعود أزهر من أن تخدش النكبات و الخطايا منا و الأخطاء في عزه المنتظر المطلوب تهفو إلى سلامه و عدله و هدايته الإنسانية .

أخطأ الشيعة أخطاء طويلة حين عاشوا في أقبية السرية و الكبت مدى قرون و أصيبت عقائدهم بكدوم لكثرة ما بكوا حسينا حبيب رسول اله صلى الله عليه و سلم . و نخطئ نحن خطأ قاتلا إن لم نعط لظروف تاريخ الفتنة حقها و نتسامح للحفاظ على مستقبل الوحدة الإسلامية حين ينضوي الشيعة ، و هم طائفة صغيرة ، تحت اللواء الوحدوي . غدا ، في مائة عام ! و حين تنفرج عنهم غُمة الحصار الحالي الذي تضربه عليهم دول العالم عامة و دول العرب خاصة . و حين تنقشع عن ذاكرتهم و عن قلوبهم و أنفسهم و عقولهم غمامات الاضطهاد القروني و مظلومية آل البيت عليهم السلام . و هم يحبونهم

و يحبون الله و رسوله ، و يجتمعون لقراءة الدعاء النير الذي لقنه أمير المومنين الإمام علي كرم الله وجهه لكُمَيْل أواهين باكين متوسلين . و إنه لجسر من الرحمة هذه الربانية الخاشعة في تجمعات الدعاء و البكاء .

يبقى على علمائنا نحن السنة و الجماعة و على ذوي الأحلام الراجحة و النظر البعيد أن يلتمسوا من الحكمة و الصبر جسرا لعلاج التدابر و التناثر و المنكرات من العقائد التي استمر غليالها قرونا في مرجل التعزيات في حسين ، و النحيب على مقتل حسين ، و الغضب على يزيد الفاسق على لسان الثقاة من هذه الأمة . نحتاج لتغيير ما بأنفسنا ، معشر الأمة من جماعة سنية و طائفة شيعية بتلك الرحمة المشتركة و هذه الحكمة المنشودة ، من إحَنٍ و مِحن . لن نقبل أبدا أن يذكر أبو بكر و عمر و عثمان أحباب الله و خلفاء رسوله إلا بمثل ما يذكر به رابعهم الراشد الإمام علي . و لن نقبل الروايات الواهية الخرافية أحيانا نتخذها مرجعا . لكن كيف يمكن التفاهم على حق و لا سير إلى مستقبل ما دام من لبارزين في الساحة السنية من يقدس " الخلافة الأموية " و يفخر بأمجاد " الخلفاء العباسيين " يصدق أحلامه و أوهامه ، و يقلد سلفنا من العلماء الذين عاشوا المحنة و دارَوْها درءَ السيئة بالحسنة حين سموا ذلك الحكم خلافة ، و حموا السنة و وحدة الأمة بظهورهم و ظاهر اعترافهم لأن ذلك الحكم العاض كان شوكة الإسلام لا شوكة للإسلام غيره .

كيف نبني جسورا و كيف نسير إلى مستقبل " وعد الآخرة " و الخلافة على منهاج النبوة و نحن نصدق الأوهام و نُقَلّد العلماء الأولين الذين كانوا كالأيتام في مأدبة اللئام ، و نكذب الخبر الصحيح و الحق النجيح الذي اخبر به المعصوم صلى الله عليه و سلم أنها تكون خلافة ثلاثين سنة . ثم يكون ملكا عاضا ؟

يحق لإخواننا الشيعة أهل لا إلـٰـه إلا الله و أهل محبة آل بيت رسول الله أن ينفروا نفورا من كل داعية و فئة تنصب النموذج الأموي الباغي أمامها ، و تهفو إلى إعادته ، و تحن إلى أمجاده و أن يتوجّسُوا من " علماء " القصور كما نتوجّسُ . يحق لهم أن لا يثقوا بكل فئة لا ترى في يزيدات العصر نسخا ليزيد الأول ، و سببا مباشرا لمحنة الأمة ، و طاغوتا ما أنزل الله به من سلطان . و على إخوتنا الشيعة بعد هذا

أن ينظروا إلى القضية من الزاوية الأخرى فيقدروا قدر الدعاة و الفئات العاملة للإسلام و هم في قبضة اليزيدين و تحت مراقبتهم .

هلم نكن جميعا قرآنيين نتأمل من إزاء القرآن تاريخ فتنتنا لنبصر كيف تسلسلت الأحداث بالأمة ، و كيف نشأ الخلاف ، و كيف اعتدى على المشروعية الراشدية المعتدون ، و كيف أذعن من أذعن ، و كيف اختفى في التقية من اختفى ، و كيف تنشأ العاهات في المختبئ في ظل السرية ، و كيف يتنازل عن بعض الحق من برز لخارج و تعرض لضغوط السلطان و بطش و تقلب الحدثان .

هلموا نحافظ على الرحم الإسلامي ، و نصلها ، و نأس الجراح ، و نؤسس لمستقبل الخلافة الثانية على الأُسّ الأول قبل أن تنشب الفتنة فينا أظافرها و أنيابها ، و قبل أن يصرعنا قدر الله امتحانا و جزاء لما كسبت أيدينا صرعة الهزائم المنكرة التي ما كدنا نستبشر بومضة واعدة بالنهوض منها في أفق إيران الثائرة تحت راية الإسلام حتى فاجأتنا أحلاف إيران و أخطاء إيران ، و تصلب إيران المذهبي ، و اضطهاد الثورة الإيرانية لعلماء السنة و الجماعة و مساجدهم و كتبهم و مدارسهم في إيران . و ما إلى ذلك كثيرا نعتذر لبعضه لظروف التحول ، و ثقل الأعباء ، و الحرب مع البعث ، و المؤامرة العالمية ، و نأسف أشد الأسف عندما نرى انسياق القيادات الإيرانية مع الحماس الشعبي الثوري الذي يخيل للشيعة أنهم هم الأمة لا غيرهم ، و أن مذهبهم هو الحق لا غيره ، و أن إمامهم هو الإمام لا غيره ، و أن كلمتهم هي الكلمة الفصل .

في الساحة السنية عمل إسلامي أصيل ، غرس البنا رحمه الله و رفع مقامه و غرس العلماء الدعاة غيره . في هدوء و تأن و عبر عراقل متعددة يسير هذا العمل ، من ثماره ، من شجرة غرسها البنا طيب الأنفاس تلقحت حركة أفغانستان ، و جهاد أفغانستان ، و نصر أفغانستان ، أكمله الله بوحدة المجاهدين و تشييد الدولة القطرية الإسلامية الرائدة ، لتكون معلمة على طريق الوحدة . آمين .

لا يغْتر من تنجذب به الحواس ، و يسطو به الحماس ، بقعقعة السلاح ، و هتاف الحناجر ، و زمجرة الغضب الذي أطاح بالشاه ، فيحسب أن الآفاق الإيرانية هي المنتهى و المبتغى و النموذج .

إن انفراد الثورة الإيرانية بالوجود قبل نصر أفغانستان ضخم من شان الشيعة و غَوى شبابا من أصول سنية للتشيع ليكونوا ثوريين . الآن جاء إبان مراجعة الحسابات الآفاقية و فحص العلل الأنفسية لنتعلم جميعا معاشر الموحدين المسلمين ، سنة و شيعة ، أن الله ربنا ، و أن محمدا صلى الله عليه و سلم نبينا ، و أن القرآن كتابُنا لم ينقص و لم يحرف ، و أن الجاهلية الماكرة عدونا ، و أن العزة لله جميعا لا نبتغي العزة بالأحلاف مع الكفار ، و أن الخلافة الثانية أفقنا ، و أن الجهاد في سبيل الله و الشهادة غاية أمانينا ، و أن الطائفة الشيعية طرف منا و عضو في جسمنا ، و عدة لغد الإسلام .

شباب الصحوة إلى الرجولة

إلى الرجولة إن شاء الله هم سائرون ليرشُدوا مع الراشدين . آمين.

أظهر الله عز وجل من خزائن جوده و رحمته بهذه الأمة هذه الأجيال المباركة التي تَنْبِذُ عبادة الطاغوت لتتوجه بآمالها و قلوبها و عقولها إلى عبادة من له الحق و من هو الحق المبين . و قلما تجد في صف العاملين للإسلام كهولا و شيوخا إذا استثنينا الرعيل الأول من الإخوان المسلمين ، و جماعة الدعوة باكستان و الهند ن و مشايخ جماعة الدعوة و التبليغ ، و مشايخ السلفية و الصوفية نفع الله بالجميع .

زرع الله سبحانه في الأرض الغثائية ، و الأرض أرضه ، و حرث الزرع رجال مثل البنا رحمه الله و المودودي أثابه الله و محمد إلياس رفعه الله . بأبي و أمي ذلك الجيل المؤسس الذي زكت بنفحاتهم الأيام ، و بدمائهم الفادية تعطرت الأعوام . بأبي و أمي من أرداهم رصاص فاروق ، و علقوا على مشانق العبد الخاسر ، و عذبتهم الأيدي الآثمة في أقبية الثورة !

هل بقيت بعدهم حُثالة كما بقيت حُثالة بعد أن حصدت الفتنة الأولى أواخر عهد الخلافة الراشدة الأولى و بعدها ؟ أم أن الأمر كله تمهيد لعهد أكثر تنورا و أعمق إيمانا و أبلغ أثرا في قيادة الأمة و تطبيبها و تربيتها و ترشيدها ؟

المتأمل في حال الدعوة و رجالها المتصدرين و شبابها يرى فورانا و توثبا و تعددا و خلافات و نزاعات و انتقادات . و يرى من جاءوا من بعد أولئك الكرام و كأنما نزلوا من مستوى ذلك السقف العتيد ليعيشوا على ذكريات مضت أو ليشتغلوا بتضميد الجراح . و كأنما انقطعت تلك الدفعة الأولى التي خرج منها عبقرية البنا ، و علم عبد القادر عودة ، و متانة سيد قطب ، و غزارة المودودي و سعة أفقه ، و حكمة إلياس ، لا يزال الشيخ أبو الحسن الندوي زكى الله عمره و نداه و باركه يعالج هموم المسلمين في الهند و خارج الهند بالقلب النير و البصيرة و الصبر ، و ربما يكتب أحيانا و يخطب و يعمل و يربي

فيبدو على إنتاجه التلهف على أمر يرومه فيمتنع عليه لخسة الأرض الهابطة عن شاعرية إقبال و مثالية " ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين " .

و لا يزال علماء الدعوة من أمثال الشيخ سعيد رمضان البوطي و الشيخ القرضاوي و فقيه الحركة فتحي يكن و كثير غيرهم ، أمتع الله بالجميع و بارك ، تنبض كتبهم و أعمالهم بروح التوثب و الجهاد .

لكن الركب ربما يكون فات المنظرين منذ ثورة إيران و جهاد أفغانستان ، و أصبح من العسير و من الضروري في نفس الوقت استيعاب المعطيات المستجدة في سنة الله في إطار فكري وضعه المؤسسون رحمهم الله .

هذا هو الشيخ المجاهد عبد الله عزام يستطلع و هو في صف الجهاد عاملا عالما " آيات الرحمان في جهاد الأفغان " . و يصف ما يشاهده من تخاذل المسلمين . و يستنهض الهمم ، كما يصف ما يعيشه من سمو المجاهد و استماتته و صبره و بساطته و قوة إيمانه و ثقته بالله . و يزور دعاة آخرون أفغانستان و يساهمون ، و يرجعون و قد تغيرت نظرتهم لأنفسهم و للأمة و للعالم . و إن لهذا ما بعده من تغيير فكر الدعاة و سلوكهم .

و هذا هو الشيخ سعيد حوى قدوة الكثير من شباب الإسلام يراجع الفكر الإخواني ، و يكمله و يغذيه بعناصر كانت يانعة في عهد البنا رحمه الله ثم ذوت و كاد عودها ييبس . انصرف هذا الرجل الموفق إن شاء الله ، غفر الله له فلتة تكفير الشيعة ، إلى التأليف في موضوع واحد منذ سنوات ، و هو موضوع البحث عن الربانية . الشباب الإسلامي الذي يقرأ عن الكرامات و الخوارق التي يؤيد الله بها المجاهدين في أفغانستان ، و يقرأ كتب سعيد حوى النفيسة عن الربانية و الذكر و العلم و الإيمان و الإحسان كأني به يُفاجأ بحديث جديد لم يعهده بطول ما صالت " الثقافة " الإسلامية و جالت ، و لشدة ما تطاول أهل الجرأة و طوقوا الفكر الإسلامي بطوق متحجر من النصوصية الضيقة " المكفراتية " .

الدعاة كأنهم فقدوا الانطلاق الأول و وضعوا فوق أنفسهم سقفا من خلاله يرقبون الكتاب و السنة ؛ كان ذلك السقف شيخ الإسلام ابن تيمية ، أو حجة الإسلام الغزالي ، أو بليغ الإسلام ابن القيم ، أو مفكرا قريب العهد .

إذا كان الدعاة كذلك فانتعاشهم برَوْح الجهاد في أفغانستان و آيات الرحمان الطالعة من وراء جبال الهِنْدُكُوشِ يُرجَى أن يخرقَ عنهم الحجاب إلى آفاق الرؤية القرآنية النبوية الهادية أنفُسِياً إلى الربانية ، إلى الإيمان و الإحسان و الذكر و الجهاد ، الهادية آفاقيا إلى الخلافة الثانية على خط مستقيم بالثقة في الله تعالى و تبارك و موعوده ، متعرجة ملتوية مشتبكة على خطوط سنة الله و حكمته في الأرض .

أما شباب الصحوة ، كثر الله عددهم و ألهمهم ذكره و حسن عبادته ، فإن وُرودهم على الجماعات العاملة السعيدة بتكثير سوادها يسقي هذه الجماعات جرعات سريعة من الحماس الغُفل ، لا تستطيع هذه الجماعات أن تودعه في قنوات رجولية بالمعنى القرآني للرجولة . و لكل جماعة عاملة شغلها في المواجهة العلنية أو الاندساس ، و لكل منها برنامج لا تَخْرُج منابعه عن الرصيد المشترك للفكر الإسلامي الإخواني المودودي السقف ، و يتسقف الشباب فكرا و روحانية و حركية و تنظيما فيما يسمى " الالتزام " ، فالشاب الملتزم و الشابة الملتزمة يكتشفان أنفسهما وسط جماعة هي المثل الأعلى ، و هي الأم ، و هي الكل . و الكل في قبضة التكتُّل الضروري ، و الحفاظ الضروري على التنظيم ، و صون الشاب " الملتزم " و الشابة من أن يستقطبه الغير .

ملتزم ، ملتزم . كلمة مترجمة اخترعها جان بول سارتر فيلسوف الوجودية الفرنسي . و هو أول من تحدث عن المثقف " الملتزم " سياسيا ، أي الذي تعهد الحزب أو تحزب لقضية .

فما هي قضية الشاب الصاحي لإسلامه " الملتزم " في جماعة ؟

تزاحم كلمة " التزام " الكلمات القرآنية لغة ، و تناقضها روحا ، و تسطحها دلالة . إذا كنت " ملتزما " فالأمر واحد ، و بسيط بساطة التعصب و تكفير المسلمين ، و واضح وضوح الجرائد و المجلات التي أقرأها و من بينها مجلات الأحزاب المتاجرة في الإسلام و جرائدها ، و منشط تنشيط المحاضرات التي أجد نفسي فيها رائعا إذ أشارك ذلك الجمع المنتخب المثقف الرائع كلمات القرآن ، و دلالات القرآن غابت أو تكادُ ، لهذا ترى المشايخ الكرام أمثال الندوي و سعيد رمضان البوطي و سعيد حوى لا يألون جُهدا يذكرون بمعاني الإسلام ، و الإيمان ، و الإحسان ، و التزكية ، و التقرب

إلى الله بالفرض و النفل ، و ذكر الله و تسبيحه آناء الليل و أطراف النهار ، و صحبة الأخيار ، و حب الله ، و حب رسول الله .

عندما أجد نفسي في الخندق في تلك الجبال لا أثر بإزائي للنّخبة المثقفة " الملتزمة " في المحاضرات ، بإزائي مومنون بسطاء كلمة القرآن تَقشعر لها جلودهم و توْجل لها قلوبهم ، فأجد نفسي انخرقت لي تلك الستور الثقافية و تجردت للقاء الله صدقا و حقا ، فذكره تعالى يومئذ و ذكر الآخرة و ذكر الموت أمام عيني تعم كياني .

الشباب الإسلامي كله خير ، و هو أطوع لكلمة الصدق و توجيه الربانية لو وجد كثيرين من أمثال من يبحث الشيخ الجليل سعيد حوى أن يكون لهم و منهم جمعية تلم شعث التربية .

الشباب مرن مطواع للحق . و الأمانة في عنق كل تقي رباني من الدعاة أن يسعى جهده لتستعيد التربية الإيمانية الإحسانية العلمية الجهادية شتاهًا على امتداد القرون الفتنوية الطويلة . تشتَّتَت التربية و انبهمت لتشتت العلم و أهل العلم حتى أصبح علم التربية و وجود مؤهلات خاصة للتربية عطاء و تلقيا أمورا غريبة غربة الإسلام نفسه .

في الشباب خير كثير ، نرجو من كرم الملك الوهاب سبحانه أن يقيض في الجيل الحاضر طليعة تتلقى الربانية من أهل الربانية ، و تتلقى العلم من أهل العلم ، و الحكمة من أهل الحكمة ، و الهمة الجهادية من أهل الهمة ، حتى تكون رَسول الأجيال النيرة من سلفنا الصالح إلى أجيال القومة و الوحدة و الخلافة على منهاج النبوة .

إن الأجيال التي شاخت على نمط من العيش ، و على مذهب و فكر تتخشب على ذهنية جامدة ، و تتحجر ، إلا أن يصهرها خندق الجهاد فيندمج المعمم التقليدي قلبيا و روحيا و حياتيا و مماتيا مع الملبين بصدق و قوة و إيمان و ثبات لنداء الله و نداء رسول الله و نداء كتاب الله .

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« اقتلوا شيوخ المشركين و استحيوا شرخهم »* . قال عبد الله ابن الإمام أحمد :

سألت أبي عن تفسير هذا الحديث فقال : الشرخ الشباب ، و الشيخُ لا يكاد يسلم ، و الشاب كأنه أقرب إلى الإسلام من الشيخ . انتهى كلام عبد الله رحمه الله .

جاء الله تعالت حكمته بهذا الشباب من جهات شتى و من حروث شتى على زرع الله . فهل تستطيع هذه الأجيال الشابة أن تحمل عبء التهييء للخلافة الثانية ؟ هل انتبهت هذه الأجيال إلى موضع " داء الأمم " من حركة التاريخ كلها ، أم هل نَبَّهَهَا منبه إلى النموذجية التربوية في حياة الصحابة الذين نشأوا في حجر النبوة ، صلى الله على سيدنا و مولانا محمد و آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا ؟

لم يبق مكان للنبوة بعد بعثة خاتم الرسل صلى الله عليهم و سلم . و لئن كانت جماعته ، جماعة القرآن من المهاجرين و الأنصار ، عماد الخلافة الأولى فإن أي خلافة ثانية لا يمكن تصورها ما دام لا يوجد جيل على قلب " الجيل القرآني " و رجولته و نورانيته . و من أين يأتي كل هذا إن لم نستلهم كلمة الله الباقية و كلمة رسوله الواعدة لنكون رجالا كما كانوا رجالا ؟ دع عنك كل متخشب و تعال نقرأ القرآن .

قال الله عز و جل في سورة النور : « يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَـآءُ وَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿35﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَ ٱلْأَصَالِ ﴿36﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَ لَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَ إِقَامِ ٱلصَّلَـٰوةِ وَ إِيتَـآءِ ٱلزَّكَـٰوةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿37﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَ يَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَ ٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَـآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿38﴾ » (سورة النور) .

و بعد بضع آيات ذكر الله تعالى فيها خسران أعمال الذين كفروا كأنها ظلمات بعضها فوق بعض قال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلطَّيْرُ صَـٰٓفَّـٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَ تَسْبِيحَهُۥ وَ ٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿41﴾ » (سورة النور) .

تكون هذه الأجيال المباركة إن شاء الله من أهل النور ، و تكون صنوا للجيل القرآني الأول ، و تكون عماداً للخلافة الثانية إن كان كل فرد فرد ، ذكرا أو أنثى ، تتمثل فيه الرجولة التي تمثلت

في الأولين . و وصف الرجال في سورة النور ، وصف أهل الهداية الذين هداهم الله لنوره ، هو أنهم أهل مسجد ، و أهل ذكر و تسبيح بالغدو و الآصال ، و أهل صلاة و زكاة ، و أهل خوف من الآخرة ، و أهل ترقب و رجاء في الله العظيم الكريم أن يجزيهم هناك في تلك الدار الباقية دار الحق أحسن ما عملوا ، و أهل ترقب أن يزيدهم من فضله كما وعد المحسنين .

إن كان فينا أوصاف الرجولة و النورانية ، و كنا مسبحين دخلنا مُكرمين في تناغم كوني مع المخلوقات المسَبِّحَةِ لله كما نسبح في السماء و الأرض ، و اصطففنا كالطير المسبحة ، و أركبنا الله عز و جل هذه الأكوان المسخرة لبني آدم ، و أطاعتنا الطبيعة و هي علينا الآن مستعصية ، نجر أذيال الهزيمة في قافلة إنتاج الغذاء و في قافلة التصنيع ، و التنمية ، و التنظيم ، و الحكم ، و التسلح ، بينما غيرنا ممن لا يسبح الله يركب متن الطبيعة ، و يتحكم فيها ، و يستعلي في الأرض بغير الحق .

سُخرت للآدميين من غيرنا هذه الأكوان لما جلسوا إليها ، و استمعوا ، و تحسسوا ، و تصرفوا بمنهجية التجربة العلمية التي كانت يوما ما زهرة نبتت في حقلنا . أخذوا فسيلتها و غرسوها في أرضهم ، و في عقولهم ، و ألهتنا نحن عنها حروب البأس الشديد بيننا ، و هي حروب بدأت مبكرا و لا تزال قائمة ، و ألهانا عن تجارتها الرابحة تمزق العقل المسلم و عجزه عن النظرة القرآنية الجامعة ، كل ينظر إلى الأنفس و الآفاق من زاويته الضيقة الجزئية .

كان الصحابة رضي الله عنهم في زمان النبوة و الخلافة الأولى يتعاملون في شفافية بالغة مع أنفسهم و مع الناس و مع الطبيعة لبساطة العيش ، و سذاجة الوسائل ، و انحصار الحاجات في الضروريات (ذلك قبل أن يدخل مع الملك العاض الترف الهرقلي و الإسراف الكسروي) . و كان القرآن خطابا موجِّها مفهوما تبينه – لعقول و قلوب لما تستعجم بمخالطة الفلسفة الإغريقية و " الحكمة " الفارسية الهندية – سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم و آله و صحبه . و كان السلوك يُشتق مباشرة من الآيات البينات و الأخبار المبينات .

أما هذه الأجيال من الشباب الصحوة فتستيقظ على عالم تثقله عوامل محدثة ، عوامل ثقيلة ترزح الإنسانية جميعا تحتها و تخصنا نحن المستضعفين في الأرض بأبلغ الرزح و أخسر الرزء . تسمى هذه العوامل : النظام العالمي للاقتصاد ، و ضرورة التبادل التجاري في سوق تتيح فيها لبرالية أوربا و أمريكا للذئب أن يأكل القطيع ، و تتيح فيها اشتراكية روسيا الآخذة في الانحسار من دبيتها إلى الذئبية السائدة في العالم أن تخص بالعطاء المشروط من يقدم الولاء و ينشر الإديولوجية . تسمى هذه العوامل الثقيلة المرزئة سلاحا و حروبا أهلية مسعرة ، و بنكا دوليا ، و رباً ، و صواريخ نووية تهدد الإنسانية بالنهاية ، وبطالة .

تسمى هذه العوامل باختصار تكنولوجية في خدمة الأقوياء ، و للضعفاء المستضعفين " التخلف " و الفقر و المجاعة و الجهل و المرض . كل أولئك تجعل منهم تابعا ذليلا للحضارة المصنعة العاتية ، طوعا و كرها ، بل تشوقا تتحلب معه الأفواه " للحاق بالركب الحضاري " .

تستيقظ هذه الأجيال و حول الكرة الأرضية نطاق من الكواكب الصناعية ، بعضها يهيِّئ غزو الفضاء و نحن كالنمل على الأرض لا جناح و لا قوة ، و بعضها يراقب النمل على الأرض و يتجسس على الخصم و العدو و يبصر كل دَابَّةٍ و كل عسكري و كل حركة على وجهها . و الأدهى من كل ذلك هو كواكب البث التفلزي الذي يجسد التفوق الحضاري الغربي بإلكترونياته المتطورة و إعلامياته الخارقة . المشروع هو " عالمية التلفزة " ليسمع في كل بقعة و في كل بيت صوت الشيطنة ، و لتبصر صور الدعاية للقيم الحضارية الدوابية يزينها الفن و تجلوها الألوان عروسا مغرية . و في الأرض إعلاميات الفيديو و الدعارة الملونة .

هذه الأجيال الصاحية رضعت لبان الإسلام مصا و رشفا من رجال الدعوة الحاملين لميراث الفطرة . فإن لم يتح لها أن ترتوي من اللبان الفطرية لتبلغ الإسلام و تنشر الإيمان و تتعلم الإحسان فإن المرضعات العواهر ، مرضعات الفيديو الخليع و المخدرات و المجتمع الاستهلاكي بعامة ، يسبقنا إلى هذه الأجيال المتكاثرة السائبة في بلادنا .

لابد لهذه الأجيال أن تعرف مهمتها الإحيائية بالضبط . تسود في ثقافة الإسلاميين الأحاديث عن السياسة و الاقتصاد و البديل الحضاري و ما إلى ذلك من الآفاقيات . و إن مواجهة الثقل التكنولوجي و الطوق الإعلامي و الهيمنة الجاهلية في الاقتصاد و الصناعة و العلوم و الفلاحة و كل شيء لا تمكن إلا بالعلم و التخطيط ، و الكتاب و المحاضرة ، و الاجتهاد و الاستنباط ، و التقدم و التعليم ، و إعادة بناء العقل الإسلامي . لكن إن غابت التربية ، و هجرت المساجد ، و تنكرنا للذكر و التسبيح بالغدو و الآصال فلن تكون تلك الرجولة القرآنية أبدا . إن شغلتنا تجارة التعامل مع العوامل الثقيلة المطوقة ، و غفلنا عن أن القوة المطلوب منا إعدادها لنرهب بها عدو الله و عدونا لن تستمسك في أيدي رجال كأولئك الرجال إلا إذا كنا مثلهم ، فنحن ناس من الناس ، يجوز أن نروض التكنولوجيا و نكسب معركة التنمية و نباريهم في السرب الحضاري . لكن أن نبني الخلافة الثانية ، و أن نكسب معركة إحقاق الحق ، و إعادة الإنسانية إلى الفطرة ، و حمل رسالة الهداية و النور للعالمين إلى يوم الدين ، فلا إلا أن نكون من أهل النور لا من أهل الظلمات بعضها فوق بعض ، و لا من أهل الغفلات و التلهي عن ذكر الله و التسبيح بالغدو و الآصال .

إنها الأسبقية المطلقة للتربية . و التربية أبوة و أمومة ، و فطرة يورثها جيل سلم لجيل ناشئ يتعرض للتلقي ، و يقبَلُهُ ، و يمتص ، و يرشف ، و يرتوي .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما رواه الشيخان و غيرهما عن أبي هريرة : *« ما من مولود إلا يولد على الفطرة »* . ثم يقول : *« اقرأوا »* : « *فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَ ٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ* » . زاد البخاري : *« فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »* . و في رواية لمسلم : *« و يشركانه »* . و في رواية للشيخين : *« كما تنتجون الإبل . فهل تجدون فيها جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ »* .

لا جرم أن فعل الوالدين و فعل كل من يقع تأثيره على المولود ، هو الذي يزيغه عن الفطرة و هي إقامة الوجه لله عز و جل على مقتضى الميثاق الأزلي الذي أحقه ربنا سبحانه على بني آدم .

و نوعية الزيغ من تهويد و تنصير و تشريك المذكورة في الحديث لا تَحصر التأثير في هذه الأصناف . و أي نوع من العقيدة و السلوك و الثقافة و الفكر و الحضارة أُنشئ عليها مولود فردا و أُنشئ عليها جيل و ورثها كان مضمونا أن تسري بالوراثة للأجيال اللاحقة .

و هذه هي الغثائية و داء الأمم ميراث في أمتنا ، يمتزج دخنه في دماء هذه الأجيال المفتونة مع لبان الإيمان ، و يتغالب التأثيران . و في دماء الشباب الإسلامي الصاحي مثل ذلك التغالب . فلكيلا يكون هذا الجيل المبارك " يُغَثِّي " أجيالا لاحقة نرجو من الله نور السموات و الأرض أن ينور القلوب بربانية تزكي و تصفي . و ليكون عمل هذا الشباب الطاهر إن شاء الله من كل لوثة عملا صالحا موصولا إلى يوم القيامة غير منقطع لابد أن تتحكم الأيدي المتوشئة في الزمان و توجه المسار ، عارفة مهمتها بالضبط .

يخيل لمن يجلس إلى بعض الإسلاميين ، أو يقرا كتبهم أن شباب الصحوة مدعو للقيام بكل المهمات . فلذلك لا تتميز للشباب الإسلامي مأموريته ، و يقبل على بعض التفاصيل الأخبارية و كأن مهمة كل ملتح و كل متحجبة أن يصبح معلقا صحافيا ، و يقبل على قراءة المجلات و كأن المطالعة هي الدواء لكل داء ، و يتصور لقلة خبرته أن دولة الإسلام سيكون وزيرها و مديرها و تقنيها و حارسها و بوابها لمجرد أنه مخلص و ذو اطلاع على الأخبار .

إن مهمتنا الأولى أيها الأحباب ، اليوم و غدا و بعد غد ، أن نكون روحا سارية في المجتمع موصولة بأجيال بعدنا إلى يوم لقيامة تتحسن نوعية إيمانها و ترتفع همتها الإحسانية جيلا بعد جيل ، و تنتشر ، و تعم .

و لنأخذ في اعتبارنا أن أهل الخبرة و القدرة و الرصيد العالي من التجربة و المعرفة هم غالبية الناس من المسلمين ممن لا يزالون في مرحلة تريث لا يتفتحون للإسلام تفتح هذا الشباب . و إن فيهم الخير الكبير ، فهم من أمة سيدنا و مولانا محمد رحمة العالمين صلى الله عليه و سلم ، لا ينتظرون إلا ظهور الحق لينضموا إلى صف سبق إليه الشرح المبارك .

و لنأخذ في اعتبارنا أن عويصة من العويصات و طوقا من أكثر الأطواق إرهاقا هو عويصة المسؤولية و طوق الأمانة تجاه الأجيال المتكاثرة فيما يسمى بالانفجار الديموغرافي .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما رواه مسلم و غيره عن أبي هريرة : *« إذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو عمل ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »* . فجعل الولد عملا ، و العمل أنت المسؤول عن صلاحه أو فساده . و قال الله عز و جل يخاطب نوحا عليه السلام لما سأله في ابنه : « *قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿46﴾* » (سورة هود) . فجعل الولد من عمل المرء . و ذاك ولد ما قصر والده عليه السلام في إرشاده للخير إلى آخر نفس . فارتفعت مسؤولية الأب العبد نوح ، و بقيت مشيئة الخالق الرب تبارك و تعالى .

من الزاوية التربوية أتحدث و ينبغي في دولة القرآن أن تكون الفتيا لأهل الفتيا . و المرجو من جلال من له الجلال أن يقيض للفتيا في تلك الدولة الموعودة رجالاً كالرجال ، ذاكرين و مسبحين بالغدو و الآصال ، حتى يتأهلوا للأخذ عن الله و رسوله من إزاء القرآن لا من تحت سقف الفقه النوازلي الفردي .

روى الستة غير أبي داود أن جابرا رضي الله عنه قال : " كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم و الوحي يترل " . و في الباب أحاديث أخرى مقتضاها أن الصحابة رضي الله عنهم عزلوا عن نساء السبي ، و أن رسول الله صلى الله على الحبيب و آله و صحبه و سلم لم ينههم عن العزل بِعامة .

و قال مالك و أبو حنيفة و الشافعي بجواز العزل . و قال الإمام أحمد بجوازه عن الجارية و امتناعه في حق الحرة إلا بإذنها .

و راعى فقهاؤنا رحمهم الله في جواز العزل إذن الزوجة الحرة لئلا تتضرر أو تكبت رغبتها في الإنجاب . كما راعى الصحابة رضي الله عنهم مصلحتهم الخاصة في العزل عن السبية مخافة أن تلد فتصبح أم ولد لا تباع . فيا من يرعى مصلحة الأمة !

من زاوية التربية نقول : إن عويصة التضخم السكاني بلاء آخر من الله عز و جل للأمة . فمن قال بضرورة الزيادة في التناسل و التكاثر لتكون لنا جيوش أكثر ، و أيد عاملة أكثر ، فقد غفل عن إخبار رسول الله صلى الله عليه و سلم بأن من سمات الغثائية الكثرة التي لا غَناء فيها . و من كان يظن أن إرضاء الذَّكَر من المسلمين و الأنثى شهوة عابرة يتلوها نسل سائب تربيه الشوارع في غير مسؤولية فلا يدري ما هو العَمل لصالح ، و لا ما معنى كون الولد كسبا لك أنت المسؤول عن تسليمه و صونه مما ينصره أو يشركه أو يغَوِّثه . أم نكون نحن نغَثِّي من بعدنا ؟

على دولة القرآن أن ترفع الإنتاج ليكفي الرزق خلق الله ، لكن مسؤولية الدعوة أن تربي الأبوين على تحمل المسؤولية و رعي الأمانة . ألا و إنه مصير الأجيال و مصير الأمة !

ناموس الأسباب

لما نزل جبريل عليه السلام بالوحي على رسول الله صلى الله عليه و سلم أولَ مرة فزع إلى خديجة فأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، و كان متألها يقرأ قراطيس أهل الكتاب . فلما قص عليه الحبيب ما رآه قال ورقة : " هذا الناموس الذي أنزل الله عل موسى . إن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا " . قال البخاري راوي الحديث : " الناموس صاحب السر الذي يطلعه بما ستره عن غيره " . لكلمة ناموس أصل يوناني ، نوموس بمعنى قانون .

و قد وضع الله عز و جل في كونه قانونا سَبَبِيّاً بمقتضاه تترتب النتائج على المقدمات . و الفاعل الله لا غيره . تأتي النتيجة عند السبب أو معه لا به . فيخرق الله السببية الظاهرة إن شاء متى شاء كما نقرأ في معجزات الرسل و كرامات الأولياء ، و كما نشاهد في عصرنا في " آيات الرحمان في جهاد الأفغان " .

و المومن الذاكر لله المسبح له بالغدو و الآصال لا يجد شِرك الأسباب إلى قلبه سبيلا ، و لا كفر العَمِينَ عن الله الذين لا يرون فاعلا غير الأسباب . و لا يعطل المومن السببية التي هي من جعل الباري جل و علا ، بل يعتقد أن الفاعل المطلق هو القادر المقتدر الحكيم سبحانه ، استعبد الخلق أجمعين في عالم الأسباب بالأسباب ، و مسؤولية العباد عن أفعالهم المكسوبة . عين تنظر إلى القدر و المقدر ، و عين مشتغلة في متابعة التدبير المسؤول .

من الأسباب ما هو مشترك عام على الخلق أجمعين ، آلة اكتسابها العقل و التجربة و الاستفادة من جهود الأجيال البشرية و اكتشافاتها . تتفاوت في ملكة العقلانية الأفراد و الأمم بما تأثل لديهم من جهد منظم موجه .

و من الأسباب ما ملكته القلب ، يستحق من كان قلبه قاسيا لعنة الله ، و يستحق من كان في قلبه الإيمان فردا أو جماعة ، بركة الله و خصوصية الرحمة التي ميز بها الله أهل الإيمان في كل زمان بالأسباب الظاهرة ، و من ورائها ، أو خرقا لها رأي العين .

كنا في الفقرة الأخيرة نتحدث عن الإيمان كيف تورثه الأجيال للأجيال حفاظا على الفطرة ، و كيف تفسد التربية المنحرفة المولود و تهوده و تنصره و تشركه و تمجسه ، نصا ، أو تغثيه قياسا .

أقرأ فيما أقرأ مما يكتبه الإسلاميون ما يفهم منه أن علينا أن نتبع شرع الله و نصطنع الإسلام لنظفر بالمؤهلات الحضارية التي تلحقنا بالركب الحضاري و تعطينا التفوق عليه . و كأن الإسلام مذهبية سياسية اقتصادية عبقرية . و كأنه وسيلة لغاية أسمى و هي أن تكون لأمة الإسلام الغلبة في الأرض و الاستخلاف ، ثم لا شيء . و انطوى ذكر الآخرة في ثنايا ذكر الدنيا . و اختفى مصير المومن و المومنة الأبدي و كل منهما يأتي ربه يوم القيامة فردا لا يُغنيه هناك أن نشأ في حضارة متفوقة إن لم يكن الإيمان و العمل الصالح زاده من هذه الدار .

بعد هذا أقول و بالله التوفيق : إن الإيمان بشروطه و أحكامه و شعبه ، نتحلى به و نذوق حلاوته فرادى و يكون لنا جماعة الباعث و النور الذي يسعى بين أيدينا ، هو المفتاح لهذه الأجيال لتدخل في عداد المخاطبين بالقرآن عندما يقول الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ » . و هو النور الضروري لينتقل العلم الذي يأخذه عقلنا من النقول ، و الفهم الذي يطرأ لعلماء كل عصر ، إلى عمل صالح . و قد غاب عنا جسد الرسول المُبَيِّن الدليل القدوة الذي كان للصحابة هاديا و قائدا . فإن كنا نحن في مستوى إيماني دُونٍ انقطعنا أيضا عن تلقي الهداية من القرآن و من هدي رسول القرآن ، و غبنا عن نور النبوءة ، و عمنا ما يعم " الناس " في خطابه القرآن : «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ » .

و الإيمان أيها الأحباب أتى الصحابة قبل القرآن ، فلما خاطبهم القرآن بالأمر و النهي التكليفي ، و بالاستنفار للجهاد ، وجد المحل مستعدا متجاوبا يتلقى القرآن بنية التنفيذ ، و أهلية التنفيذ ، و شروط الفلاح .

قال سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : " لقد عشت برهة من دهري و إن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن . و تنزل السورة على محمد صلى الله عليه و سلم فنتعلم حلالها و حرامها و ما ينبغي أن نقف عنده منها كما تَعَلَّمون أنتم القرآن . ثم لقد رأيت رجالا يؤتى احدهم القرآن قبل الإيمان ، فيقرأ

ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته ما يدري ما أمرُه و لا زاجِرُه ، و ما ينبغي أن يقف عنده . و ينثُره نثر الدقل " . و الدقل رديء التمر . رواه الطبراني في الأوسط ، و قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح .

الإيمان الذي عليه مدار الأهلية لسعادة الدنيا و الآخرة للأفراد ، ثم لفلاح الأمة و خلافتها في الأرض ، لن تكسبه هذه الأجيال " بالالتزام " المجهول المعنى ، بل تكتسبه بالتوارث المحافظ على الفطرة ، بأبوة و أمومة تحتضن المولود إن كان في الأبوين إيمان ، و بالصحبة و الأبوة الروحية الموروثة جيلا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض و من عليها .

ألا و إن الأمة في هَلَكَةٍ ، و في درَكٍ من مسيرة ابتلاء الله لخلقه عامة و لهذه الأمة خاصة . و لهذه الهلكة أسباب آفاقية تُقرأ في التاريخ الإسلامي ، و أنفسية تُقرأ في تخنُّث المسلمين و ترديهم في " داء الأمم " ، بما كسبت أيدي الناس ، فلله الحجة البالغة ، و بابتعادهم عن الإيمان .

القراءة المزدوجة لسنة الله ، كما تعطيها آيات الله و أحاديث رسول الله تعطينا الصورة السياسية و الاجتماعية و الخلقية و الاقتصادية لمسلسل البلاء ، و أسبابه ، و عوامله ، و مسؤولية كل مسؤول عنه ، و نتائجه ، و عواقبه . و تعطينا أيضا الهداية للخروج من دوامته ، و الوسائل ، و المنهاج ز

إن الله جلت قدرته غني عن العالمين ، و غني عن الأسباب . يداه مبسوطتان بالخير و الرحمة لمن شاء ، و نقمته و جزاؤه لا يتوقفان على واسطة وسيط ، لكنه جل و علا رتب الأسباب في الكون ، و جعل للبسط و القبض أطوارا ، و للنقمة و الجزاء أوانا . و استعبد بني آدم بما ظهر في البر و البحر ، و بما بطن عن الحس ، و بما خفي في الصدور ، و بما تواصل في الدهور ، أو تجدد في العصور من تلك الأسباب ، و بما خص به من ذلك الناموس " الذي يطلعه بما يستره عن غيره " . الناموس جاء بالوحي ، و هو الحق و الصدق . فلنستمع لكلمات الله و رسوله في الآفاق و في أنفسنا ، منا و فينا و علينا .

قال الله تعالى يقص علينا بدء خليقتنا : « وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴿ 61 ﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ

إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿62﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿63﴾ وَ ٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَ ٱلْأَوْلَـٰدِ وَ عِدْهُمْ وَ مَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿64﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿65﴾ » (سورة الإسراء) .

هكذا اقترن البلاء بالخلق ، و سلط الرحمان على بني آدم الشيطان و حزبه ، و أمره أن يستفزهم بصوته و يُجلب عليهم بخيله و رجله و أن يشاركهم في الموال و الأولاد ، و أن يمنيهم وعود غواية و غرور . و أمر الله مُطاع . و ما الشيطان إلا عبد أخزاه الله و شده في عجلة البلاء ، و البلاء حكمة الرحمان تقدست أسماؤه . و من البداية أعْلم الحق سبحانه من يلقي السمع و هو شهيد أن عباده المصطفين لعبودية الإيمان و ولاية الرحمان و مقامات الإحسان لا سلطان عليهم للفاسق عن أمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام .

و انطلق الشيطان يحتنك ذرية آدم و يكيد و يمكر و يغر . احتنك بمعنى ألجمه كما تلجم الدابة في حنكها ، أو أكله كما يأكل الجراد نبات الأرض . كذا قال الراغب الأصفهاني رحمه الله . و كل ذلك يفعل الشيطان لعنه الله ؛ يلجم أولياءه ، و يأكل ممن استجاب له العقل و المروءة و الدين .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من حديث عند مسلم يرويه عن ربه عز و جل : *« و إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، أي على الفطرة و الاستقامة ، و إنهم أتتهم الشياطين و اجْتَالَتْهم عن دينهم ، و حرمت عليهم ما أحللت لهم ، و أمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا »* .

منذ البداية اجتهد إبليس و ذريته و حزبه في احتناك ذرية آدم يحرفهم عن الفطرة جيلا بعد جيل ، و يلجم ما يلجم ، و يأكل ما يأكل ، يجتالهم عن دينهم ، أي يجول بهم بعيدا من دينهم .

فلما بعث الله عز و جل رُسله للخلق يذكرونه بميثاق الفطرة و عهدها ، جعل لكل نبي أعداء من شياطين الجن ذرية إبليس و من شياطين الإنس ، تتعاون الشيطنة الجنية و الإنسية في عملية الاحتناك .

قال الله عز و جل : « *وَ كَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَ ٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَ لَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ* » (سورة الإسراء ، 112) .

و شاء ربك تبارك و تعالى أن يكون شياطين الإنس أسبق في محاربة الفطرة من أبالسة الجن لكونهم ألصق بالجنس و أشبه و أدخل ، كما شاء عز و جل أن يكون الهداة من الإنس ، أنبياء و مربين ، من الإنس لا من الملائكة . و كما كان شياطين الإنس و لا يزالون أعداء الفطرة و ملجميها و آكليها ، كذلك كان المهتدون الهادون و لا يزالون إلى يوم القيامة أولياء الفطرة و محرريها و محييها . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : *« الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل »* . رواه أبو داود و الترمذي بسند صحيح . و قال الترمذي حديث حسن .

أنت على حظ من الإسلام أو الإيمان أو الإحسان و الرجولة النورانية التي قرأناها في سورة النور بدرجة من تصحب و تخالل و تجالس . فإن سبق لشيطنة الإنس و الجن إلى فطرتك بادرة فأنت المأكول . فلينظر أحدكم من يخالل .

هذه هلكة جاءت الأمة من تسليط الشياطين على العباد الذين خلقهم الله كلهم حنفاء و اجتالتهم الشياطين ، بمعنى جالت بهم ، و جاءتها من فساد الفطرة التي يناصبها العدوان العداء و يقتنصانها ، في زمان النبوآت و بعد ختامها .

و هناك هلكة تضافرت على هذه الأمة عواملها مع عامل الشيطنة المحتنكة للمولود و للجماعة عن الجادة الوراثية القويمة المقومة ، ألا و هي هلكة الحكم .

اخرج البخاري أن أبا هريرة رضي الله عنه كان جالسا مع مروان في مسجد النبي صلى الله عليه و سلم بالمدينة ، فقال أبو هريرة : *سمعت الصادق المصدوق يقول : « هلكة أمتي على يدي غلمة من قريش . » فقال مروان* (و هو كان جد الغلمة التي أخبر بهم الناموس قبل ظهورهم) *: لعنة الله عليهم غلمة ! فقال أبو هريرة : لو شئتُ أن أقول : بني فلان ، بني فلان لفعلت .*

فقال الراوي : فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام ، فإذا رآهم غلمانا أحداثا قال لنا : عسى هؤلاء أن يكونوا منهم . قلنا : أنت أعلم » . أخرجه البخاري في الباب الثالث من كتاب " الفتن " باب قول النبي صلى الله عليه و سلم : " هلاك أمتي على يدي أُغَيْلمة سفهاء " .

و فقه البخاري في عناوين تبويبه ، فغلمة قريش في نص الحديث هم أغيلمة سفهاء . بالتصغير و التحقير . و أنت تتبجح " بالخلافة " الأموية ، و تسمي خلفاء من سماهم الرسول صلى الله عليه و سلم غلمة و سماهم أئمة المسلمين سفهاء !

أخرج أبو داود و الترمذي و ابن حبان في صحيحه و غيرهم كثير بسند صحيح عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« الخلافة ثلاثون سنة ، ثم تكون بعد ذلك ملكا »* . زاد الترمذي : *« قال سعيد* (الراوي عن سفينة) *: فقلت له* (أي لسفينة) *: إن بني أمية يزعمون أن الخلافة فيهم . قال : كذبوا بنو الزرقاء ، بل هم ملوك من شر الملوك ! »* .

على هذا الحديث اعتمد الإمام احمد و غيره في تقرير خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة ، حتى قال الإمام أحمد : " من لم يربِّعْ بعلي في الخلافة فهو أضل من حمار أهله و نهى عن مناكحته " .كذا قال الشيخ الألباني في سلسلة أحاديثه الصحيحة .

و روى أبو نعيم في الحلية بسنده إلى معاوية رضي الله عنه و غفر له أن معاوية قال : " أنا أول الملوك " . قال ابن كثير : " و السنة أن يقال لمعاوية ملك ، و لا يقال له خليفة لحديث سفينة : الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا " .[1] فيا أهل السنة كم ذا تتجاهلون تاريخ الإسلام ، و فجعة الإسلام ، و هلَكة الأمة !

و أخرج البخاري في كتاب " الفتن " عن أم المومنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت : *« استيقظ رسول الله صلى الله عليه و سلم من النوم محمرا وجهه و هو يقول : لا إلـه*

[1] *البداية و النهاية ج 8 ص 135 .*

إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ! فتح اليوم من ردم ياجوج و ماجوج مثل هذه - و عقد سفيان ، و هو الراوي ، تسعين أو مائة (بأصابعهم ، كانوا يعقدونها في أوضاع مختلفة يرمزون لكل عدد) *- قيل* (يا رسول الله) *: أنهلك و فينا الصالحون ؟ قال : «نعم إذا كثر الخبث ! »* .

اسمع إن كنت من السامعين : الغلمة هلكة ، و الهلكة علامة خبث !

هما مقتلان في هذه الأمة و في كل أمة : الفطرة إن فسدت و الحكم إن خبث . و ما قامت إمبراطورية الرومان و حضارة أوربا الحالية إلا على استقرار و قوة في الأسرة التي تحفظ القيم و تورثها تقاليد رجولية ، و على استقرار في الحكم و نظام . و انهارت روما لما أترفت الأسرة ثم تلا ذلك انهيار نظام الحكم و سقوط الإمبراطورية . و حضارة أوربا الآن في طريقها للاضمحلال ، على مُكثٍ فلا يغررك تقلبهم في البلاد . علامات الاضمحلال فساد الأسرة مورثة القيم ، و ما يمسك هذه الحضارة إلا نظام الحكم المتمكن الديمقراطي ، و هو إلى زوال .

أما في تاريخ المسلمين فالعروة الأولى التي انتقضت هي عروة الحكم منذ استيلاء الغلمة . و بقيت الأسرة راسخة قرونا و لا تزال إلى حد ما . لم تزل راسخة قبل أن تأخذ رياح الفتنة الحضارية المعاصرة في زعزعتها .

إن مهمة الدعاة و الشباب الإسلامي الصاحي أن يحفظوا ما بقي من فطرة متوارثة ، و أن يجددوا في مسلسل توريث الإيمان ما بلي ، و أن يُلقحوا بالبذور الإيمانية ما عقم .

مهمتهم الدعوة لصلاح النشء و إعادته إلى الفطرة و الاستقامة لله . و الدولة إصلاحها لن يكون إلا انتفاضة عابرة إن تفرغ جند الله بعد أخذ مقاليد المر لتدبير الأشياء بدل هداية الخلق .

شيطنة الجن ، و شيطنة " الفن " ، و شيطنة الإعلام ، و أفلام الْهَوَس ، و الإباحية باسم الحرية ، و تبرج النساء ، و انحلال الأسرة ، و ذهاب الحياء ، و غياب سلطة الأبوين ، و هما يهودان أو ينصران ، أو يشركان أو يمجسان . كل ذلك يتحامل على إفساد محضن الخير . سرقت من الأبوين ذرياتهم الشوارع ، و سرقهم التلفزيون ، و اغتالهم كل شيطان مريد .

روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :

« إن إبليس ينصب عرشه على الماء ، ثم يبث سراياه في الناس . فأقربهم منه منزلة أعظمهم فتنة . فيقول أحدهم : ما زلت به حتى زنى ! فيقول : يتوب ! فيقول الآخر : ما زلت به حتى فرقت بينه و بين أهله (أي زوجته) فيقول : نعم أنت ! نعم أنت ! » .

مُنية كل شيطان من شياطين الإنس و الجن أن تنكسر الأسرة ، و يضيع الأولاد ويتمزقوا . الآن يحصل هذا الضياع و هذا التمزق من جهتين : من جهة تفكك الأسرة الآخذ في التفشي ، و من جهة هيمان هذه الأعداد الغثائية من الأطفال و الشباب بلا مرب و لا مراقب .

نظرتي إلى ما بعد تحرير الأوطان الإسلامية من هلكة الحكم ، و إلى زمان حكم الشورى و تحكيم شرع الله . عندئذ ، و من الآن ، يجب أن تكون الدعوة و أهل الدعوة منصرفين انصرافا تاما لتقويم الفطرة . و مكان المرأة المومنة ، أما و بنتا و أختا ، هو مكان الصدارة . صلاحها في نفسها و تأثيرها في الوسط الاجتماعي ابتداء من بيتها هو صلاح الأمة . المرأة الصالحة هي عماد الأمة . ليس في هذا أية مبالغة ، لأنها حافظة الغيب ، حافظة الفطرة و الأسرة التي يتآمر عليها إبليس و حزبه جميعا . فهي وحدها كفاء لهم و هي متعهدة الأنفس . و ينبغي في دولة القرآن أن تُنصف المرأة من الظلم الشنيع الواقع عليها متراكما كل هذه القرون ، و أن تحرر من الضغط الجاهلي عليها لتصبح صورة للمرأة الجاهلية المتطورة في أطوار السكرتيرة الحسناء ، و المذيعة في التلفزيون ، و المنشورة على صفحات الإشهار الملونة ، و الممثلة ، قمة " الحضارة " المغَنّية و الممثلة .

و على جند الله حوْط عملية إحياء الفطرة ، و تغذية هذه العملية ، و تقويمها ، و تربيتها . رأينا إبليس مع حزبه في مؤتمر ، و قرأنا اهتبالهم بمخرب البيوت . فعلينا رجالا و نساء أن تكون الأسرة المسلمة على اتصال و استمداد بالأسرة التربوية التي تحضن الشباب في جماعات . و لا يفوتنا في نفس الوقت أن نراقب سير الدولة . و للدولة و التقنية و التدبير رجال الخبرة و التجربة . علينا أن نبحث عن هؤلاء الأقوياء ، نضعهم تحت إمرة الأمناء على أمر الله . لنفرغ جهدنا أساسا على بناء

الرجولة النورانية من قواعدها ، من بيوت الله المتصلة عضويا ببيوت المسلمين ، و مدارس المسلمين ، و مؤسسات المسلمين ، و إعلام المسلمين ، و حياة مجتمع المسلمين .

إن لعباد الرحمان دعاء جاء في القرآن يهدي إلى الرشد في توصيل الدعوة بالأسرة ، و في تعاون المومن مع أهله و ذريته . قال الله تعالى عن عباد الرحمان : « وَ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَ ذُرِّيَـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ ٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴿74﴾ » (سورة الفرقان) . تقوى و إيمان و إمامة و بيت فيه قرة العين . هذا من ذاك و ذاك من هذا .

و للدولة في يد الأمناء الأقوياء ، و معهم تحت الإمرة الأقوياء الأمناء ، مهام ضخام . في مقدمة مهامها معالجة الهلكة الموروثة في الحكم ، و معالجة ما خلفت من آثار سلبية في الذهنيات و العادات و الأرزاق من ظلم و عدوان . مهمتها الأولى تعويض حكم المترفين بالحكم بما أنزل الله ، و هو العدل و الإحسان ، أمر بهما و حث عليها .

قال الله تعالى : « وَ إِذَا أَرَدْنَـآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿16﴾ » (سورة الإسراء) . فسق المترفين استكبار في الأرض و صد عن سبيل الله ، و احتواش لأموال المسلمين ، و تحالف طبقي فظيع .

مهمة الدولة الإسلامية أن تعالج مخلفات الفتنة بأسباب مشتركة بين البشر ، و بأسباب الإيمان . للتنمية وسائلها العصرية . و لأهل الإيمان وعد الله الماضي الخالد : « وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَ ٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَـآءِ وَ ٱلْأَرْضِ » (سورة الأعراف ، 96) .

لتوحيد الأمة بعد تحريرها قطرا قطرا من العض و الجبر آليا و مراحل تعتبر الأوضاع السياسية و الاقتصادية و درجة نضج المسلمين . و للتوحيد أوامر إلهية لا مساومة عليها إذ جعل أمتنا هذه أمة واحدة لا تقبل التجزئة اعتقادا و دينا ، و إن قبلته واقعا مرحليا و فتنة . و للتوحيد بعد ذلك زواجر و أمثلة ضربها الله لنا عبرة من سنته إذ قال جلت عظمته و اشتد بأسه على الفاسقين عن أمره يقص

علينا ما حل من هلكة بأتباع الرسل قبلنا بعد كفرهم : « *فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿53﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿54﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿55﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿56﴾* » (سورة المؤمنون) . هكذا كيد الله لأعدائه .

و في هذه الآيات ما يشجع المسلمين القارئين في سنة الله الآفاقية و الأنفسية معا ، البريئين من شرك الأسباب ، لا يحللون التحليل المادي الوضعي الواقعي الغائب عن الله و عن صنع الله و عن مكر الله و عن سنة الله .

إنه سبحانه يُمد الحضارات بالمال و البنين كما أمد بني إسرائيل بذلك و جعلهم أكثر نفيراً . جعل لهم ذلك بلاء و استدراجا و زينة في الدنيا ليكون وقوعهم في صيحة أو صعقة أو حرقة أو خسفة أو ريح صرصر عاتية كما فعل بعاد و ثمود و قوم لوط و غيرهم .

فجوة هائلة تفصلنا عنهم في كل ميدان حضاري صناعي ، لكنهم هم اليوم في هبوط ، و نحن صعودنا متوقف على طاعتنا لله بعد العصيان ، و طرحنا لعوامل الهلكة ، و تحلينا بالإيمان لنستحق الوراثة في الأرض .

سنة الله الخاصة بهذه الأمة أن يجعل لها سببية غيبية لا تحسبها الحاسوبات . الإيمان عُدة ، و الصلاة عدة ، و الصبر عدة . خصال إيمانية هي لنا العون ، و هي لنا السلاح المعنوي و المقوم المعنوي الضروري . قال الله تعالى يخاطبنا ، بل يخاطب من استوفى منا شروط الإيمان فردا و جماعة : « *يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿153﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿154﴾* » (سورة البقرة) .

ثم يقول سبحانه ليسمع القارئ للسنة الإلهية قراءة متكاملة متوازية : « *وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿155﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم*

مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّـآ إِلَيْهِ رَ ٰجِعُونَ ﴿156﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَ ٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴿157﴾ » (سورة البقرة) .

تخلفنا في الاقتصاد و الصناعة و المهارة و المقدرة البشرية و التنظيم و الجدية نقص ابتلائي في الأموال و الأنفس و الثمرات . لا يزاحم هذا التفسير الكوني الجماعي تفسير الورع المومن الفرد عندما يفسر الآيات في نطاقه الشخصي و يردد : « إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّـآ إِلَيْهِ رَ ٰجِعُونَ » . عند المصيبة . إيمان الورع المومن مدار الأمر كله ، و مصيره في الآخرة رهن باستقامة فطرته و صلاح عمله بقطع النظر عما أصابه من بلاء في الدنيا أو نعماء . و تضرع المومنين إلى الله عند نزول البأساء سبب قوي ، و مرغوب ، و مطلوب . قال الله تعالى يخاطب عبده محمدا صلى الله عليه و سلم و يخاطبنا بخطابه : « وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَـآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَـآءِ وَ ٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴿42﴾ » (سورة الأنعام) .

و ما يمد الله به أعداءنا يهود و نفيرهم و ما يمد به كل قوم كافرين من أموال و بنين و حضارة و جنات و عيون و كنوز و نعمة و مقام كريم عطاء ابتلائي أيضا . « كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَ هَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَـآءِ رَبِّكَ » (سورة الإسراء ، 20) .

و للسببية الخلقية سرٌّ قوي الفاعلية في حياة الحضارات و المجتمعات ، نقرأه في القرآن في كل سورة كلما تعرض القرآن للأمم و القرى عامة أو لأقوام معينين .

و نقرأ في الحديث الشريف قانونا ناموسيا يضع أمامنا صورة ناطقة بما ينخر فينا من ظواهر جنتها علينا الأمراض النفسية ، أمراض " داء الأمم " ، ناطقة بما تعانيه الحضارة المعاصرة و كل حضارة من جراء الظلم الواقع فيها و الفاحش و نقض العهود .

روى ابن ماجة و أبو نعيم في الحلية بسند صحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : « يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتليتم بهن ، و أعوذ بالله

أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون و الأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا (تأمل مرض العصر الإيدز أو السيدا كما يقول الفرنسيون) . *و لم ينقصوا المكيال و الميزان إلا أُخذوا بالسنين* (المجاعات) *و شدة المؤنة* (قلة الأرزاق) *و جور السلطان عليهم . و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، و لولا البهائم لم يمطروا . و لم ينقضوا عهد الله و عهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم* (تأمل ضياع الأندلس و احتلال فلسطين و بلاد ما وراء النهر و خراب دولة آل عثمان رحمهم الله) . *و ما لم تحكم أئمتهم بالكتاب الله و يتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم »* .

و التعليق من عندك أيها العزيز !

و روى الترمذي بسند صحيح عن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« لا يرُد القضاء إلا الدعاء »* . و أخرج الإمام أحمد و ابن ماجة و غيرهما عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« و إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه »* .

المروءة و الخلق

روى الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :

« إذا خطب إليكم من ترضون دينه و خلقه فزوجوه . إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض و فساد كبير » .

و روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : *« كرم الرجل دينه و مروءته عقله و حسبه خلقه »* .

و قال في لسان العرب : " المروءة الإنسانية ... و قال الأحنف : المروءة العفة و الحِرفة ... و قال آخر : المروءة ألا تفعل أمرا تستحي أن تفعله جهرا " .

تلخص من هذا أن الخُلق و الدين مقرونان في اعتبار الشرع ، و أن المروءة إنسانية و خلق و عقل و حرفة .

و قد حث الشارع صلى الله عليه و سلم على توخي ذات الدين و الخلق عند الزواج كما حث على توخي الزوج الجامع بينهما ، روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« تنكح المرأة على إحدى خصال ثلاثة : تنكح المرأة على مالها ، و تنكح المرأة على جمالها ، و تنكح المرأة على دينها ، فخذ ذات الدين و الخلق تربت يمينك ! »* .

الخلق عماد ثان في شخصية المومن و المومنة . و أحاديث المصطفى صلى الله عليه و سلم تدل على أنه قد يكون في الرجل و المرأة بعض تدين ، لكن نقصه في ميزان الأخلاق و المروءة لا يؤهله لصلاحية الحفاظ على الفطرة إنجابا و تربية ، و من اجل تحقيق هذين الهدفين شُرع الزواج بالجامع بين الدين و الخلق و الجامعة بينهما .

دين بلا كرم ، هذا لا يصح . عقل بلا مروءة ، هذا لا يتفق . دعوى الحسب دون خلق لا تُقبل .

إن مما ابتُليت به الدعوة في زماننا و في كل زمان ظهور أفراد و تجمعات تتخذ مظاهر التدين ، و قد تشدد في جزئيات التدين ، فترتدي ملابس خاصة و تلتزم ببعض المستحبات التزاما شديدا حتى

يظن الرائي أنها فرائض ، و من وراء المظاهر و الجزئيات فراغ أخلاقي رهيب . كيف نكون مسلمين و أدْنى مقومات الإنسانية و الخلق و العقل لا تتجلى فينا ؟

و مما ابتليت به الدعوة في عصرنا هذه الواجهة الكاذبة أحيانا ، واجهة " الالتزام " . الشاب " الملتزم " لا عليه إن سجل اسمه في سرب " الملتزمين " أن يكون بلا كرم ، و الكرم هو الدين ، و أن يكون بلا خلق و الخلق أخ الدين ، و أن يكون بلا عقل و العقل هو المروءة .

إننا لن نكون مسلمين إن أبطلنا في حساب الرجولة خلق الرجل و المرأة و عقلهما و مروءتهما . أي إنسانيتهما بما تعارفت عليه الإنسانية من شِيَمٍ فاضلة . إن البكائين في المساجد العاكفين على التلاوة و الذكر لَنْ يكونوا هم أهل النور و الربانية إن لم يكن سلوكهم العملي مع الناس ، الأقرب فالأقرب ، سلوكا أخلاقيا مروئيا ، يزِنون بميزان العقل و اللياقة و الكفاءة و الجدوى و حسن الأداء كل أعمالهم .

الإيمان هو الخلق ، و الخلق هو الإيمان . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم من حديث عند الإمام أحمد لعمرو بن عبسة : *« الإسلام طيب الكلام و إطعام الطعام . قلت (يقول عمرو) : ما الإيمان ؟ قال : الصبر و السماحة . قلت : أي الإسلام أفضل ؟ قال : من سلم المسلمون من لسانه و يده . قال : قلت : أي الإيمان أفضل ؟ قال : خلق حسن »* . الحديث .

فإن كان للمتدين الجوف الخالي من الخلق مزية فإنه يقعد بصاحبه عن معالي الأمور . روى الشيخان و الإمام أحمد و اللفظ له عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لم يكن فاحشا و لا متفحشا و إنه كان يقول : *« خياركم أحاسنكم أخلاقا »* . و في الموطإ أنه صلى الله عليه و سلم قال : *«بعثت لأتمم حسن الخلق »* .

و أخبرنا صلى الله عليه و سلم أن الخيرية في الدين لا تكون بالتدين لكن بالأفضلية في الخلق ، خاصة في التعامل مع كنز الفطرة الحافظة عليها أهل الرجل . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم فيما رواه الترمذي عن عائشة بسند صحيح : *«خيركم خيركم لأهله . و أنا خيركم لأهلي »* .

و الخلق الحسن معيار أعطاه رسول الله صلى الله عليه و سلم لهذه الأمة ، و أوصى به ، و ألح في الوصية كيلا يظن المسلمون أن الله يقبل تدينا رهبانيا " سماويا " حتى يكون تعاملنا مع الناس في الأرض مقوَّما بقيم أهل الأرض . و أسرد أحاديث مجردة :

« يا معاذ أحسن خلقك للناس » : الموطإ . *« إن المومن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »* : أبو داود . *« إن من أكمل المومنين إيمانا أحسنهم أخلاقا و ألطفهم بأهله »* : الترمذي . *« أكمل المومنين إيمانا أحسنهم خلقا ، و خياركم خياركم لأهله »* : أبو داود و الترمذي . و الباب طويل . و لاحظ تكرار المخالقة الحسنة مع الزوجة . إن من الظواهر البئيسة عند " المتلزمين " و " الملتزمات " فشل زيجاتهم فشلا ذريعا إلا من رحم ربك . ذلك أن الشابة و الشابة يظنان أن مظاهر التدين هي المكرمة التي ما فوقها مكرمة . حتى إذا وُضعت مروءة الرجل و مروءة المرأة في امتحان التعامل اليومي انكشف الميدان عن رقاعة و عن خفة عقل و عن سائر ما هنالك من لؤم مرده إلى خسة المعدن أو لغياب التربية أو إليهما معا .

أسرد بعض أبواب " كتاب الأدب " من البخاري لنرى أهمية الخلق و المروءة في الدين . و الأدب جزء لا يتجزأ من الإسلام ، لذلك تفرد له دواوين الحديث كتابا خاصا إلى جانب كتاب الصلاة و كتاب الإيمان و كتاب الصيام إلى آخر شعب الإيمان .

قال البخاري : باب البر و الصلة ، باب من أحق الناس بحسن الصحبة ، باب لا يجاهد إلا بإذن أبَوَيْه ، باب عقوق الوالدين من الكبائر ، باب فضل صلة الرحم ، باب من وصل وصله الله ، باب رحمة الولد و تقبيله ، باب حسن العهد من الإيمان ، باب الساعي على الأرملة ، باب الساعي على المسكين ، باب فضل من يعول يتيما ، إلخ .

مائة و ثمانية و عشرون بابا مرصعة بالأحاديث النبوية الموصية بحسن الخلق .

إن من الناس " ملتزمهم " و عامتهم من يعد نفسه مسلما و هو لم يخرج من دائرة النفاق . و الحديث المشهور الذي يحدد علامات النفاق في ثلاث : *« إذا حدث كذب و إذا وعد أخلف و إذا*

اؤتمن خان » يجعل الفيصلَ بين الإسلام و النفاق وجودَ المروءة الإنسانية و الخلق المستقيم و الذمة التي يعتمد عليها لا وجود مظاهر التدين .

روى الطبراني عن الحسن بن علي رضي الله عنهما بسند حسن أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« إن الله يحب معالي الأمور و أشرافها و يكره سفاسفها »* .

يحب الله عز و جل التوابين ، و يحب المتطهرين ، و يحب من يكونون أذلة حسني الخلق على المومنين في نفس الوقت الذي يظهرون شجاعتهم (و هي معلي الخلق) على الكافرين ، و يحب سبحانه الذين يقاتلون في سبيله صفا كأهم بنيان مرصوص . إلى سائر الأصناف و الأخلاق التي يحبها الله و رسوله كما وردت في الكتاب و السنة . و كل هذه الأصناف و الأخلاق قيم عالية في سلم المروآت الإنسانية .

ثم إن الأخلاق العالية المؤهلة للمقامات السَّنّيّة إما تتحقق بالإيمان فتقرب من الله عز و جل ، و إما يبقى من له الأهلية قابعا في كفره كامنة فيه تلك الأهلية . ففي ميزان الإنسانية و المروءة و الخلق يتفاضل الجاهليون فيما بينهم ، و يفضلهم أهل لا إلــٰه إلا الله بالإسلام و الإيمان . لكن معالي الأمور التي يحبها الله تعالى هي إنسانية عالية و عقل راجح و خلق سني زكاها الإيمان .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : *سئل رسول الله صلى الله عليه و سلم : أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمكم عند الله أتقاكم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك ! قال : « فيوسف نبي الله بن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك ! قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم ! قال : « فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا »* .

هذا الحديث يطلعنا عن ناموس إلهي نفيسة معرفته في تقويم التاريخ الإنساني و تمييز المؤهلات التي تتفاضل بها الأمم في المضمار الحضاري و يتفاضل بها الأفراد في الأمة الواحدة . إنه عز و جل جعل الناس معادن بعضها أكثر متانة و أشرف أَرُومَةً و أعلى قيمة من بعض بحساب المروءة و الخلق و العقل و الحرفة كما قال صاحب " لسان العرب " . فإن كان التدين زينة ظاهرة على معدن خَسيس فلن يكون إلا دين نفاق و تظاهر . ثم إنَّ وراء ذلك درجات للخيرية و الرجولة الإيمانية تكون إنسانية

الرجل و المرأة ، و إنسانية الأمة ، و خلقهما و عقلهما و " حرفتهما " ، أي مروءهما في كلمة جامعة ، هي محك التفاضل و الخيرية .

إن الله تبارك و تعالى اصطفى محمدا صلى الله عليه و سلم من أفضل معادن البشرية معدنا و أشرفها محتِداً و أعلاها . قال صلى الله عليه و سلم : *« إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، و اصطفى قريشا من كنانة ، و اصطفى من قريش بني هاشم ، و اصطفاني من بني هاشم »* . رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع . في رواية : *« فأنا خِيار من خِيار من خِيار »* .

و أهَّل الله عز و جل العرب الذين بعث فيهم رسول اله صلى الله عليه و سلم فحملوا رسالته للعالم بمروآت كانت تميزهم في الجاهلية عن باقي الأمم . فلما أسلم العرب تزكت تلك المروآت بالدين ، و تحلت بالتقوى ، و خرج على الناس أمة أخرى طيبة الأصل الروحي الذي جدده الإيمان ، متينة النسب الطيني المعدني . و من بين هذه الأمة أفراد نوابغ في العقل ، متفوقون في العبقرية ، عالون همة ، شامخون كرما ، سادة في الشجاعة و الإباء و حسن الخلق . منهم أبو بكر الصديق ، و عمر الفاروق ، و عثمان ذو النورين ، و علي الإمام ، و العشرة المبشرون بالجنة ، و أهل بدر ، و أهل بيعة العقبة ، و أهل بيعة الرضوان ، رضي الله عنهم و حشرنا معهم ، و جعلنا أهلاً لحمل الأمانة كما حملوا .

كان العرب في جاهليتهم قمة في الأخلاق الإنسانية مثل الفصاحة و الشجاعة و الكرم الفريد بين الأمم و الصراحة في الموقف و النطق و الأمانة و الوفاء و الأنفة و الإباء و إكرام الضيف و حماية الأرملة و اليتيم و بذل النفس حفاظا على الشرف ,

لكن عرب الجاهلية لطول عهدهم بالنبوءة بعد رسالة سيدنا إسماعيل عليه و على نبينا و إخوانهما أفضل الصلاة و السلام انحطوا عن ذروة المجد الذي تؤهلهم له مروآهم . فكانت فيهم الآفات الاجتماعية و الفتك و الغرة على الآمنين و العقائد السخيفة . كل ذلك مع وثنية طمست كثيرا من معالم الرجولة و شوهت وجه المروءة . أودت الصنَمِية بالمروءة و أفسدت الفطرة الآدمية الإسماعيلية شيطنة الجن الذين

كانوا يعبدونهم من دون الله ، و أرْدَتْ المجتمع شيطنة الملإ المستكبر ، و عصبية القبيلة ، و حقد الثارات ، و استعار الحروب ، و نخوة التفاخر بالأحساب و الأنساب .

طهر الإسلام ذلك المعدن من شوائب الشرك الصنمي ، و من طاغوتية الملإ ، و من عُبيّة الجاهلية ، و غسل الإسلام ذلك المعدن و صاغه فحملت الأمة الجديدة رسالة الله ، قوية عليها ، أمينة ، حافظة للفطرة ، حاكمة بأمر الله . حتى إذا ارتدت الجاهلية ردهًا بعد الخلافة الراشدة وفساد الحكم رجعت الجاهلية تخالط الإسلام و تلابسه و تغشاه .

لم تكن الجاهلية غابت عن الميدان تماما . فهذا رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول لأبي ذر رضي الله عنه : " إنك امرؤ فيك جاهلية " . رواه البخاري في كتاب الإيمان : باب المعاصي من أمر الجاهلية . و لما سئل أبو ذر عن سبب ذلك قال : " إني سابَبْت رجلا فعيرته بأمه " .

أرأيت كيف كانت كلمة واحدة نابية سببا في النيل من إيمان الرجل و وصف عمله ذاك بأنه من بقايا الجاهلية في الصحابي الجليل !

من أهم ما يُكدّر الفهم ، و يعتم الفكر ، و يضل حكمنا على أنفسنا و على العالم و الناس ، و من ثم يعرقل خُطانا و يبدد جهودنا ، أن نرى العالم و أنفسنا بمنظار مثالي يمثل لنا الخير هنا محضا صافيا و الشر هناك أسود قاتما . كلمة " إسلام " عندما نطلقها على أنفسنا تزكية للنفس بلا حدود و لا شروط ، و كلمة " الجاهلية " نطلقها على العالم بلا تحفظ و لا تمييز .

خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا . التفقه في الدين بمعنى الفهم و التحلي ، بمعنى العلم المقرون بالعمل الصالح ، يرفع أصحاب الأهليات ، لأن تربتهم خصبة و لأن معدنهم جيد . و يتخطى خالد بن الوليد السابقين الأولين و يقود جند الله إلى الانتصارات لكفاءة في معدنه ، و فضيلة جبل عليها ، و أخلاق خصه الله بها تناسب مهمة القيادة في الميدان . الكرم دين ، و العقل مروءة ، و الخلق حسب . يقدم كرم الأصل و وفرة العقل و استقامة الخلق كل من اكتملت إنسانيته بالإسلام ، و ذاق حلاوة الإيمان ، و أخلص لله رب العالمين بتقى و إحسان .

إن تصورنا لأنفسنا بغرور أخرجنا من حلبة التاريخ ، كنا فيها فاعلين فأصبحنا بضاعة . و إن تصورنا للعالم و الناس و كأن العالم و ساكنيه كومة من الفحم الغث تصور لا يطابق الحقيقة ، فهو بالتالي يزيغ بتقديرنا للأمور و حكمنا عليها ، و يعرض أعمالنا للفشل .

في هذه الجاهلية و أهلها مروآت كثيرة نحن المستضعفين أحوج الناس لتقديرها حق قدرها و للاستفادة منها و تعلمها .

عندما نرفض " الفكر المستورد " و " الحلول المستوردة " ينبغي أن نحدد لأنفسنا ماذا نعني بالعبارة . نرفض الفلسفة الجاهلية و كل ما يتفرع عنها مما يسمونه " علوم الإنسان " ، أي التخرصات الدائرة حول حياة الأفراد و المجتمعات التي تعلل التاريخ تعليلا ماديا صرفا ، و تنكر الغيب ، و تكفر بالله ، و لا علم عندها بالبعث و الجزاء و الدار الآخرة . و ننكر ما يسمونه " علم النفس " الذي أسسه اليهودي فرويد حيث يجعل الإنسان مرجل شهوات لا غير . و ننكر المنطق الجدلي إن تعدى حدوده النظرية و زعم أنه يؤسس مذهبا صراعيا يحل به قفل الطبيعة البشرية بالعنف .

لكن تقسيم العالم و الفكر العالمي و التجربة العالمية تقسيما جغرافيا فنقول : هذا من هناك فهو مرفوض ، دون تحديد ، مزلقة كبرى . كنا في عهود مضت نحتاج لإثبات ذاتنا بالتنكر لأعدائنا جملة و تفصيلا . و الآن نحتاج ، و الذات الإسلامية تستعيد ثقتها بنفسها ، أن نبني بناءنا على معرفة تامة بمن نحن ، و بارتياح كامل لكل مروءة ورثتها البشرية و طورتها شرقا و غربا . إذا عرفنا من نحن ، و قبلنا الحكم الصادق على أنفسنا بما فيها من بقايا جاهلية يجب قلعها ، و بما فيها من عوامل فتنوية يجب إقصاؤها ، و بما فيها من أسباب غُثائية لا يغيرها الله حتى نغير ما بأنفسنا ، فقد اقتربنا من الهدف .

طلب العلم واجب على كل مسلم و مسلمة و « *الكلمة الحكمة ضالة المومن فحيث وجدها هو أحق بها* » . كما روى الترمذي و ابن ماجة عن أبي هريرة مرفوعا . و « *لن يشبع المومن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة* » . كما روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري مرفوعا .

لا نقبل الوجهة الغربية الجاهلية في عرض العلوم و توظيفها ، لأن الجاهلية توظف العلوم و ثمراتها الاختراعية لحاجات الاستهلاك الأرضي . لكن هذه العلوم و الاختراعات هي ضالتنا ، فهي حكمة و أي حكمة ، و نحن أحق بها حيث وجدناها . و لابد لنا من صبر طويل لكي نتعلمها ، و نوطنها في أرضنا ، و نستقل بالبحث العلمي ، و نوجه هذا البحث وجهة إسلامية لخدمة أهداف الإسلام و غاية السلام في الأرض و الإحسان إلى الإنسانية جميعا نحمل إليها رسالة النبوءة و معها عطاء كريم .

إن للمسلمين في هذا الزمان كفاآت عالية في ميادين العلم و الاختراع و الاكتشاف ، لكنها بالأسف تتمثل في أفواج من " العقول المهاجرة " امتصها منا الغرب و استخدمها حيث لا تصلح التربة الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية عندنا لاستصلاحها . و ما في بلادنا من معاهد و جامعات يدرس العلوم في خضوع تام و تبعية خانعة لمنهجية الغرب و توجه الغرب و حركة الغرب . و لا غرو أن يكون ذلك كذلك فالتبعية لا تتجزأ .

متى استعادت الفطرة الإيمانية عافيتها عندنا أمكن أن نبدأ مسيرة التحرر من ربقة التقليد و من ضغط الطوق الإعلامي الدوابي على العقول و النفوس ، و أمكن أن نتحمل شيئا فشيئا عبء التكنولوجيا الثقيل . متى عادت النبوءة و الوحي مرجعنا و مبدأنا و نورنا الذي نمشي به في الناس أمكن أن نتعامل مع مروآت الغرب و الشرق بكل اطمئنان .

قال البخاري في كتاب " فضائل الصحابة " باب : " ذكر ابن عباس رضي الله عنهما " : الحكمة الإصابة في غير النبوة . أعطى هذا التفسير بعد أن أورَدَ الحديث الذي دعا فيه رسول الله صلى الله عليه و سلم لحَبْر الأمة : " اللهم علمه الحكمة . اللهم علمه الكتاب " .

فإن صنا جانب الفطرة ، و أنشأنا بنينا و بناتنا في حضن الأسرة الصالحة و المسجد المربي و المدرسة الرشيدة حتى يكتمل عقلهم و يبلغوا الرشد أمِنًا من غائلة الاحتواء الثقافي الذي يمتص من الأمة دماء حياتها ، أعني الكفاآت البشرية . إذا تأيدت الفطرة بالتربية الإيمانية الإحسانية تصون النشء من كل شيطنة حتى تصبح النبوة سراجا منيرا في القلوب و يصبح الوحي هو الكلمة و هو الحق ، فلا ضير

أن نتعامل مع الآفاق الفكرية العلمية ننشد الحكمة ضالتنا الأبدية على أساس متين من الثقة بالله و رسوله و دينه و المعاد إليه .

إن أجيالا من المسلمين نُبذوا و لا يزالون ينبذون إلى مدارس متغربة تعلمهم أن أوربا و علومها و اختراعاتها و فنونها هي محور العالم ، و أن تاريخها هو محور التاريخ ، و أن الحق هو ما تبنته أوربا . رميناهم في تلك المهالك و ليس لهم أساس من الدين ، فضاعت ثَم المروآت ، سرقتها الجاهلية من الإسلام .

في أول الأمر على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم كان المسلمون على بينة من أمرهم ، على ثقة من ذاتهم ، و الوحي يتزل و الأنفس استقرت في فطرتها . لذلك ما ترددوا لحظة في غزوة الأحزاب عن تبني تقنية الخندق ، و هي تقنية عسكرية فارسية ، و لا تردد النبي صلى الله عليه و سلم في غزوة حنين عن بعث رجُلين إلى الشام يتعلمان صناعة المنجنيق و هي صناعة رومية .

فلما جاءت عصور الانحطاط تَقوقع المسلمون حول أنفسهم الواهية من نقص في الدين و ضعف في الفطرة . استوحشوا من العالم و عجزوا عن التعلم من إمدادات الله لخلقه . قال تعالى : « *كُلًّا نُمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَ هَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَـآءِ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَـآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا* ﴿20﴾ » (سورة الإسراء) .

استوحشوا من العالم و ساكنيه ، و تقلصت قابليتهم للتعلم و قدرتهم عليه لما تضبَّبَ في عقولهم معنى الدين و الدنيا ، و معنى سنة الله في خلقه و في الأنفس و في الآفاق .

من منطلق الدفاع عن الذات دفاع خائف متوجس لا ثقة له بنفسه أصدر المفتي العثماني عطاء الله أفندي فتواه بأن " كل سلطان يدخل نظامات الإفرنج و عوائدهم ، و يجبر الرعية على اتباعها ، لا يكون صالحا للملك " . و هكذا عزل السلطان سليم الثالث سنة *1807* بتاريخ النصارى عندما حاول إدخال تقنيات عسكرية في جيشه .

و يلتقي في هذه القصة الرافدان الأساسيان للهلكة التي تعرضت لها الأمة . الرافد الأول غربة المسلمين عن دينهم و جمودهم الفكري و هذا من فساد الفطرة و التربية . و الرافد الثاني فساد

الحكم ، و يرحم الله آل عثمان فقد كانوا شوكة للإسلام و درعاً . يا من يتسلى بذكر " الخلافة " الأموية و العباسية و العثمانية أسماء بلا مسمى !

قال الله تعالى يمن على رسوله الكريم : « وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿ 04 ﴾ » (سورة المجادلة) .

و أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تربيته في نفسه فقال : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

أخرجه ابن السمعان عن ابن مسعود بسند صحيح .

إذا اتخذنا من الحبيب الذي اصطفاه الله قدوة ، و استلهمنا سيرته الشريفة اكتسبنا المناعة من " داء الأمم " و من التوجس الخائف الانهزامي ، و اكتسبنا القدرة على اقتحام هذه السدود المادية و المعنوية التي تجعل منا أمة محصورة مقهورة في الجهل و الفقر و العجز .

إن سرنا على نهج النبوة تبيّنّا بأنفس جديد إيمانها كيف ننابذ بالعداء و الحذر روح الجاهلية في الآفاق اليهودية التنصيرية الصراعية ، و تبينا كيف نتعامل مع عامة الخلق أخذا و عطاء و تلمذة صابرة . قال الله تعالى : « لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿ 08 ﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَ ظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَ مَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿ 09 ﴾ » (سورة الممتحنة) .

الذين يقاتلوننا في الدين هم المنظمات اليهودية التنصيرية الإديولوجية . و " جسم الجاهلية " و فكرها و حكمتها و صناعتها و مؤسساتها غنيمة لنا نذكر عليها اسم الله و نطهرها من الرجس ، متى تأهلنا لذلك ، متحررين من رجس مقيم في أنفسنا ، يسمى هذا الرجس بلسان سنة الله " داء الأمم " ، و يسمى غثائية ، و يسمى نقصا في الخلق ، و عجزا عن التقاط الحكمة ، و هزيمة منكرة في ميدان المروآت ، و المروءة عقل و " حرفة " .

القومة

أستَعْمل كلمة " قومة " و لا أستعمل " ثورة " لأجعل بيني و بين ما تحمله اللفظة المألوفة من معاني العنف و الفوران و الغليان حاجزا ، و لأضع فكري على قواعد قرآنية إسلامية فيكون العمل إسلاميا قرآنيا لا تَسْتَزِلّه العبارات عن قواعده . كان المسلمون يكتبون في تاريخهم كلمة " ثورة " بإزاء كل خروج عن السلطان من طائفة باغية ، و يستعملون كلمة " القائم " لوصف خروج أصحاب الحق الغاضبين بحق على السلطان الجائر . و لنا عودة إلى القواعد القرآنية بعد حين إن شاء الله .

إن الثورات في حياة الشعوب لحظات تاريخية تفصل بين عهدين ، و تأتي بالتعبير الاجتماعي السياسي بعد صعود موجة شعبية تقودها طليعة ثورية إلى معاقل النظام القديم و كسره و إبادته . الثورة في حياة الشعوب " لحظة ساخنة " من التاريخ تعيد صياغة المجتمع بعد أن تصهره في أتون الغضب الشعبي و الحرب الأهلية . تأتي طليعة ثورية أو قيادة محترمة بمشروع يكشف عيوب النظام القائم ، و يقترح بديلا له ، و ينتقد ، و يعد ، و يوقد الحماس الغضبي . و يتصاعد الغضب إلى درجة الغليان ، و تكتسح الجماهير خلف القيادات الثورية الشارع حتى يسقط النظام المكروه .

و بعدئذ ينتصب الغاضبون بالأمس ليوظفوا الطاقات التي أثاروها في تحقيق مشروعهم . و غالبا ما تكون الثورة مقدمة لتحول تاريخي حقيقي يكون له الأثر الكبير في تغيير مجرى التاريخ المحلي و العالمي ، كما أثرت ثورة فرنسا و روسيا و إيران القريبة العهد .

و يسمي الانقلابيون العسكريون انقضاضهم على السلطة ثورة أيضا . بعض الشعوب ، مثل شعوب أمريكا الجنوبية منذ أكثر من قرن ، و مثل الشعوب العربية و الإسلامية منذ أربعين عاما ، مسرح لمسلسلات من " الثورات " العسكرية . بعض العسكريين من العرب و المسلمين يعتمدون على تنظيم حزبي مسبق له إديولوجيته و وعوده و أحلامه كما هو الشأن في حالة الانقلابات البعثية . و بعضهم ينبثق عن خلايا

" الضباط الأحرار " تقودهم شخصية قوية ذات طموح كما كان الحال في مصر حين أطاح عبد الناصر ، العبد الخاسر ، بفاروق و نظامه .

الانقلابية في أمريكا الجنوبية و بلاد العرب و المسلمين أصبحت سِمَةً ملازمة و أفقا لا يمكن تجاوزُه فيما يبدو . خلّف العبد الخاسر نظاما في ضباط الجيش من أوفيائه و تلامذته ، يتلو بعضهم بعضا على منصة الحكم في انقلابية مستمرة . و خلف حسني الزعيم في سوريا منذ أربعين عاما تقليدا انقلابيا مكن النصيرية من احتلال جهاز الدولة و تسخيره في استعباد الشعب المسلم .

و تتسم الانقلابية العسكرية ، أيّاً ما كان أصلها التنظيمي و إديولوجيتها ، بطابع الفردية و الاستبداد . فهي في حكم الإسلام جبرية محضة . في شخص العبد الخاسر تجسدت العروبة و الوطنية المصرية و التقدمية الاشتراكية . و في شخص السادات تجسدت الفرعونية و التبعية بشكل يكاد يكون تمثيليا . و قل ما شئت عن طاغوتية صدام و الأسد .

إن تجاوز الانقلابية في بلاد المسلمين كأسلوب وحيد للتغيير أمر ممكن . دلت على ذلك ثورة السيد الخميني في إيران حين قاد شعبه بشكل أذهل الملاحظين ، و أطاح بمحمد رضا الذي وَرث الحكم عن أبيه العسكري الانقلابي . و يحاول الجنرال ضياء الحق في باكستان و الجنرال إرشاد في بنغلاديش ، بعد أن حاول النميري في السودان ، اكتساب المشروعية و الدعم من الشعب المسلم بتبنيهم الخطاب الإسلامي و تطبيقهم بعض المطالب الإسلامية و اتكائهم على الأحزاب الإسلامية .

فأما النميري فقد خَزِيَ و سقط شر سقطة لمكره السيِّئ دون أن ينال الإسلاميين أذى ، و هم كانوا لِبضعِ سنين قريبين منه ، اغتنموا تلك السنوات من الحرية ليعززوا صفوفهم . و أما الأحزاب الإسلامية في باكستان و بنغلاديش فاستفادتهم من مهادنة الحاكم العسكري لا تخفى على الملاحظ . و لا دخل هنا للنية الأولى للحاكم العسكري الذي أدركه الغرق أو خشي أن يدركه فتعلق بأذيال الإسلام كما فعل الجنرال إرشاد أخيرا .

السؤال المطروح هو : هل يمكن للإسلاميين أن يمروا إلى السلطان عن طريق انقلابية بشكل ما أو لابد من الموجة العميقة تنسف أهل الباطل كما فعلت ثورة إيران ؟

مهما كان جوابك و جوابي فينبغي أن نستَحْضر أن الله عز و جل هو ضامن النصر لأوليائه و أنه إن تكن موجة تحتية عارمة أو انصباب من أعلى فما أخذ مقاليد الحكم إلا لحظة من لحظات " القومة " و خطوة لازمة من خطواتها . و على الإسلاميين أن يكونوا في تسمّع مُسْتمر و ترقب يقظ لإشارات القَدَر الإلهي . لا أقول باقتناص الفرص و تصيد المناسبات لإبرام " ميثاق " انتهازي بأي ثمن . إننا إن يكن لنا من أسباب الوجود في الميدان ، نفرض وجودنا فرضا بدخولنا في التعددية الديمقراطية أو بتكتلنا في الظل إن اقتضى الأمر ، لن نعدم وسيلة يوما ما ، و بعد أمد يطول أو يقصر ، لنرفض الأنظمة الجبارة رفضا مطلقا بالمقاطعة و الإضراب العام و العصيان المبدئي تطبيقا لأمر الله و أمر رسول أن لا نطيع من عصى الله و لا نتعاون معه و لا نستبقيه متى قدرنا على إزالته .

امتلاك القدرة على إزالة الباطل و أهله يقتضي منا العمل بالنفس الطويل حتى نتغلغل في الشعب و تكون لنا القاعدة الواسعة و الثقة التامة و الحركة المنضبطة و امتلاك هذه القدرة و حسن استعمالها جزء من القومة و لحظة منها ضرورية .

ثم لا نحصر أسلوب الإزالة و لا مسار المناورة السياسية في صورة واحدة لاختلاف الأحوال في الأقطار ، و تقلبها في الأزمان . و قد يكون العمل المسلح و الحرب الأهلية بين المسلمين أبعد هذه الصور عن المنهاج النبوي . بل ذلك كذلك لا شك .

القومة أيها الأحباب قيام من السقطة الكبيرة التي انحدرت فيه الأمة عدة قرون ، فهي عملية طويلة المدى ، معقدة ، تريد الصبر و المصابرة . إنها قضية أجيال ، و على الجيل البادئ في التحويل مسؤولية الدلالة على الخط القويم و مسؤولية توجيه الجهود و جهة البناء العميق لعقود من السنين قبل أن تقطف الثمار . الوعود البراقة الحماسية ضَرْبٌ من الهذيان يتفوه به الثوار إما نفاقا و إما جهلا بحقائق التغيير

الاجتماعي . سرعان ما تنقشع الوعود الثورية عن واقع يستعصي على التغيير ، و عندئذ يرتد الثوار جلادين سفاكين يقتلون طبقة اجتماعية و يضحون بأجيال .

نداء القومة و تصريحها و بلاغُها الأول و الثاني و الأخير تلخصه الآيات الكريمة من سورة الصف ، و الصف رمز للجهاد الدائم . قال الله عز و جل : « *يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿10﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَ ٰلِكُمْ وَ أَنفُسِكُمْ ذَ ٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿11﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَ مَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ذَ ٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿12﴾ وَ أُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿13﴾* » (سورة الصف) .

إنه نداء خالد للعطاء الدائم . إنه ربط للقومة ، قومة الصف المجاهد تتعاقب فيه أجيال الرجال من أهل الإيمان و الإحسان و العدل و الكرم و المروءة و العقل ، بالآخرة و رب الدنيا و الآخرة . ربط بالرجاء في مصير أخروي يفوز فيه كل فرد من جند الله الفوز العظيم . ثم يأتي في الاعتبار الثاني الجزء الأرضي ، و هو حسنة بل حُسنى ، و هو النصر من الله و الفتح القريب . و كلا الفوزين مطلب مشروع ، ينبني تحقيق أحدهما على العمل الجاد للآخرة . يعمل الصف و يعمل الفرد لنصر الله في الأرض فيجزيهم الله جزاء الآخرة ، و يطمحون للفوز العظيم في جنات عدن ، تغفر ذنوبهم و يُرقّون إلى ذلك النزُل الخَيّر فلا يجدون أسرع إلى ذلك و لا أقرب من الجهاد في سبيل الله .

القومة عملية طويلة النفس عالية المقصد ، لها أسباب محسوسة من قبيل التدبير و التخطيط و المناورة و التنفيذ ، و لها أسباب غيبية هي من سنة الله في الآفاق و الأنفس . يقول الله تعالى في أول سورة النحل : « *أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ* » . خطاب لنا معشر الأمة المحمدية لننظر في سنة الله في الذين خلوا من قبل و نتأسى بالرسل ، و نزداد ثقة بما نقرأ في الآيات البينات من وفاء الله بوعده لرسله و بما يُعرض علينا من أمثلة تاريخية لهذا الوعد و ذلك الأمر غير المخلوف .

على قوم نوح نزل أمر الله فقضى على المجرمين و أنجى الله نوحا عليه السلام و الفئة القليلة معه .

قال الله تعالى : « *حَتَّىٰ إِذَا جَـآءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ* » (سورة هود ، 40) . و أخزى الله الكافرين بصالح عليه السلام لما جاء أمر الله لرسوله بالنصر قال تعالى : « *فَلَمَّا جَـآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿ 66 ﴾ وَ أَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿ 67﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَـآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴿ 68 ﴾* » (سورة هود) . و كذلك جاء أمر الله في موعد الصبح لقوم لوط فنجا عبد الله و رسوله عليه السلام و جعل الله القرية الظالمة عاليها سافلها و أمطر عليها حجارة من سجيل . و عن أمره تعالى في مدين قال : « *وَ لَمَّا جَـآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَ أَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ* » (سورة هود ، 94) .

هناك انتظار بليد لأمر الله و هو انتظار المتواكلين الذين يبررون قعودهم و جبنهم و جهلهم بعقيدة جبرية . و هناك من يشرك الأسباب مع الله ، أو يعزل الله عن كل قدرة ، فيسلك المسلك القدري لا ينتظر خيرا إلا من جهوده و حذقه و تدبيره . هؤلاء و أولئك يكلهم الله إلى عقيدهم السوء ، فهم مع كافة البشر تقلبهم الأقدار الإلهية جزاء وِفاقا و قدرا مقدورا .

أما أمر الله و نصرته فتخص أهل العدل و الاعتدال ، عقيدة و سلوكا ، يتخذون الأسباب و ينتظرون وعد الله لا يستعجلون . كل ذلك في محاذاة تامة لكلمات الله عز و جل و تلمذة ذكية لسنة خاتم الأنبياء عليه الصلاة و السلام .

أمر الله و نصرته ، بعد عصر النبوة ، مرصود لحزب الله القائمين لله على النمط القرآني و المنهاج النبوي . و التحزب لله ليس صفة نطلقها على أنفسنا كما نشاء و متى نشاء . لكنه عمل له من القرآن و السنة معايير و موازين . فإن طابق عملنا المواصفات القرآنية النبوية كان لنا الاستحقاق و أنجز لنا الوعد ، و إن كانت الأخرى فإنما الانتظار انتظار لمقْت يترل على المزورين . قال الله تعالى يخبرنا بمجمل شروط تترل

الأمر الإلهي : « قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَــآؤُكُمْ وَ أَبْنَــآؤُكُمْ وَ إِخْوَ ٰنُكُمْ وَ أَزْوَ ٰجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوَ ٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَ تِجَــرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَ مَسَــٰكِنُ تَرْضَوْنَهَــآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ ٱللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ » (سورة التوبة ، 24) .

و سنة الله الآفاقية أن أمره يتنزل بالرحمة على من كان الله و رسوله أحب إليهم مما سواهما ، و ينزل بالنقمة على من كانت أنفسهم محشوة بغير ذلك على دركات من النقمة و التردي التاريخي و الأخروي .

التحزب لله له مواصفات . قال الله عز و جل : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَــآدَّ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُواْ ءَابَــآءَهُمْ أَوْ أَبْنَــآءَهُمْ أَوْ إِخْوَ ٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَــٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَــٰنَ وَ أَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّــٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَــٰرُ خَــٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُواْ عَنْهُ أُوْلَــٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿22﴾ » (سورة المجادلة) .

الولاء لله و رسوله و المومنين ، و موادة من والى الله و رسوله . و قبل هذه الآيات وصف الله حزب الشيطان بأهم يُوَالون قوما غضب الله عليهم ، و يكذبون ليصدوا عن سبيل الله ، و ذكر سبحانه سبب انحرافهم فقال : « ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَــٰنُ فَأَنْسَــٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَــٰئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَــٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَــٰنِ هُمُ ٱلْخَــٰسِرُونَ ﴿19﴾ » (سورة المجادلة) .

صحبة ، جماعة ، ذكر ، صدق . هذه هي المدرجة المؤدية لدرب التحزب لله .

يعني التحزب لله أن يكون المومنون جندا مطيعا لأمر الله عز و جل و أمر رسوله . و الجماعات المدعية للصفة متعددة في ديار الإسلام . و قد تجد منها جماعة تزعم أنها جماعة المسلمين التي من فارقها مات ميتة جاهلية . فهل تتأتى مع التعدد و الانقباض و تبديع الآخرين و تكفيرهم قومة على المدى البعيد ، أو انتفاضة تزيل الباطل و أهله ؟

إن من أهم المروآت و الحكمة و العقل التي ينبغي أن نتعلمها من الجاهلية المعاصرة ما أعطته تجربة طويلة من المحن و الحروب الداخلية و الحربان العالميتان من تجربة في تنظيم الحكم ، و تعايش الأحزاب المتعددة ، و تعاقبها في السلطة . الصور المثالية و المطلب القرآني هو أن تكون الأمة واحدة ، و أن تتكون من صفوة الأمة و خيارها جماعة

واحدة ، لكن تَشتَّتتْ دار الإسلام في أقطار الفتنة ، و وجدت الحواجز الحدودية بين هذه الدويلات التي وزعتها الفتنة ، و آخرُ وجوه الفتنة الاستعمار و ما زرعه فينا من اقتناع بأن الدولة القومية الوطنية هي الأفق الأعلى لا وحدة المسلمين . و داخل حدود الدويلات الفتنوية الهزيلة ، في أنفس المسلمين و في أنفس الدعاة و الجماعات ، حواجز أخرى صنعها تاريخ كل فرد و أنانيته و ذهنيته و ما تعوده و نشأ عليه و تربى فيه ، و صنعها تاريخ كل جماعة و اجتهادها ، و نظامها ، و ما حققته أو تتوهم أنها حققته من مكاسب إليه ترجع و بها تعتد كما يعتد الفرد بحسبه و نسبه .

إن جاء أمر الله و تنزل على جماعة ما في قطر ما فهل تكون هذه الجماعة المتصدية للسلطة شوكة على إخوتها الجماعات العاملة ثم يبقى لها وجه تلقى به الله ؟ ما يفعله الشيعة في إيران بالسنة فظاعة كبيرة . و لعل دخول الجماعات الإسلامية قبل القومة في التعددية الديمقراطية ، و هي حكمة و صواب في إطارها و حدودها ، تعلمهم أن الانفراد بالرأي و الاستبداد و رفض الرأي المغاير إفقار للدعوة و الدولة معا ، و قتل لهما . و هناك مجال فسيح للتعاون " فيما اتفقنا عليه و يعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه " كما قال حكيم الدعوة البنا نضر الله وجهه .

إن الرفق أصل عظيم من أصول العمل الإسلامي . و أعطيت للدعاة حرية اختيار أسلوب القومة في حدود مرسومة ، حدٌّ مبدئي هو وجوب عصيان من لا يطيع الله من الحكام ، و حدٌّ عملي تطبيقي يقول لك : إلى هنا يمكن أن تتصرف . قال رسول الله صلى الله عليه و سلم في حديث الإمام أحمد و ابن ماجة بإسناد صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه : *« سيلي أموركم بعدي رجال يُطفئون السنة ، و يعملون بالبدعة ، و يؤخرون الصلاة عن مواقيتها . فقلت : يا رسول الله ! إن أدركتهم كيف أفعل ؟ قال : تسألني يا ابن أم عبد كيف تعمل ؟ لا طاعة لمن عصى الله ! »* . الأمر بعصيانهم واضح ، و الاستفهام الإنكاري في هذا الحديث الشريف استغراب و تشديد . و الأحاديث في الموضوع كثيرة . و يبقى لك أنت أن تقدر ظروف القومة و قوة حزب الله و فرص العمل لتنظم العصيان و الإضراب العام حتى سقوط حكام الجبر العاضين المارقين . فهذا هو ما سميته الحد المبدئي .

أما الحد العملي التطبيقي ففي الحديث الشريف : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم كما روى الإمام أحمد و مسلم و النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه : *« من خرج من الطاعة و فارق الجماعة فمات فميتة جاهلية . و من قاتل تحت راية عُمِّيَّةٍ يغضب لعصبته و يقاتل لعصبته فقتل فقتلة*

جاهلية . و من خرج على أمتي يضرب بَرها و فاجِرها و لا يتحاشى لمومنها و لا يفي لذي عهدها فليس مني و لست منه » . و العياذ بالله !

لا يكن غاندي الذي شغل العالم بحكمته في تدبير الثورة أكثر من ثلاثين عاما أذكى منك ! العصيان المدني طرد أعظم دولة يومذاك من الهند . فلنحن أولى بنبذ العنف و المسلمون حليط ، حكامهم و محكوموهم ، ما بين بر يجب صونه ، و فاجر و داعر لا يهتدي سبيلا هو أولى بكلمتنا و توجيهنا ، و مومن يجب الولاء له و الموادة ، و الرايات العمية المضببة كثير ، و جماعة المسلمين التي من فارقها فمات فميتة جاهلية أين هي ؟

إن بناء حزب الله ، المتعدد إلى حين ، ثم قيادته بحكمة في مراحل القومة شأن من كبار شؤون الأمة ، إن لم نقل أكبرها على الإطلاق . و إن رعاية القرآن و السنة هي العاصم ، و اتخاذ النبوة إماما هو الهدى و الحق .

قال الله تعالى عن قومة فيمن كان قبلنا حققها " أهل الكهف " : « *إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَ زِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿ 13 ﴾ وَ رَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلَـٰهًا لَّقَدْ قُلْنَـآ إِذًا شَطَطًا ﴿14﴾* » (سورة الكهف) .

كانوا شبابا نبذوا دين الملك الفاجر ، و نابذوه فهددهم و حماهم الله من بطشه فاعتزلوا . و أنامهم الله ثلاثمائة سنين و ازدادوا تسعا تجري عليهم سنة الله رحمة ليكونوا مثلا يضرب لكل شباب مسلم ، و تجري سنة الله على دقيانوس الملك الكافر و جنده و حزبه ، أهلكهم الله بأمر من عنده و الفتية نيام . شباب قام ، فهي قومة لا ثورة . و كلمة قام تعطي معاني القوة و الاستقامة و الصبر و الإتقان . و ما ذكرت الصلاة ، و هي عماد الدين و أصله و ركنه الركين ، إلا و طلب إلينا إقامتها ، لإقامة حركاتها ظاهريا و لإقامة الخشوع فيها . كذلك القومة لا تكون عملا إسلاميا يرضي الله عز و جل إن كانت حركتها في الآفاق لا تجري على بواعث و نوازع و ضوابط من الشرع ، من إيمان المومنين ، و توادهم و تعاونهم ، و ولاء بعضهم لبعض .

لعل انفتاح الميدان أمام الإسلاميين ، بعد الحصر و القهر الذي يعيشونه تحت الجبر ، يكشف لهم عن هوية لهم أوسع من الجماعة الأم ، و لعل ما ترشحهم له الأقدار الإلهية من جلائل الأعمال يقرب الشقة بين العاملين لكيلا يقولوا

شططا و لا يأتوا غلطا . ذاك يوم تخطو القومة خطوات حاسمة و تتناول الأيدي الطاهرة مقاليد السلطان .

يومئذ يكون " الأمر الجامع " و المهمة المشتركة و الحِمل الباهظ أمرا إلهيا متنزلا يُستأذن الله و رسوله في مباشرته .

قال الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ » (سورة المائدة ، 8) .

و قال عز من قائل : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ » (سورة النساء ، 135) .

القيام لله لا لغيره . صدقا و إخلاصا . و القسط العدل بين الناس أمرنا أن نقيم العدل إذا حكمنا . بشرط أنفسي هو " القيام لله " ، و شرط آفاقي هو " القيام بالقسط " . هذا من ذاك و ذاك إلى هذا .

و نستأذن رسول الله صلى الله عليه و سلم في " الأمر الجامع " . نستلهم سيرته العطرة . لا غاندي و لا حكمة الأمم و لا محاولات الإسلاميين هنا و هناك يصح أن تتخذ قدوة . المنهاج الحق هو منهاج النبوة ، و الخلافة الموعودة الثانية هي الخلافة على منهاج النبوة . فإن لم تكن القومة المؤدية إلى تلك الخلافة منهاجية أيضا في وردها و صدرها و ظاهرها و باطنها و مراحلها و كلها و جزئها فتربصوا حتى يأتي الله بأمره .

قالت الجن تصف النبي القائم ، تصف قومته ، كما قص الله عز و جل علينا في سورة الجن : « وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿19﴾ » . و اقرأ سياق الآيات من المصحف لتظفر ببعض معالم القومة .

في السنة العاشرة من البعثة توفيت أمنا خديجة رضي الله عنها ، و توفي أبو طالب . فنالت قريش من رسول الله صلى الله عليه و سلم ما لم تكن تناله منه في حياتهما . و لجأ إلى الطائف عند ثقيف يلتمس عونا . قال له أحد قادة القبيلة لما كلمهم فيما جاءهم له من طلب النصرة : " أنا أمْرُط (أي أنزعها و أرمي بها) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ! " . و قال الآخر : " أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! " . و قال الثالث : " لئن كنت رسولا من الله لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام . و لئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك " .

و طردوه صلى الله عليه و سلم ، و أغروا به صبيانهم و سفهاءهم ، و ضربوه بالحجارة ، و بصقوا في وجهه الشريف بأبي و أمي !

صبر طويل و معاناة . و كان ذلك الأذى الأشد على رسول الله صلى الله عليه و سلم في حياته . و لولا أن سنة الله و سنة رسوله أن تجري الأقدار وفق سببيَّة يبلغ فيها العباد غاية الجهد و ينتظرون تنزل أمر الله ، و لولا النموذجية التي أرادها الله لقومة محمد صلى الله عليه و سلم و صبره ، و مثابرته ، و طول مكثه في مكة يربي الجيل القرآني جند الله و حزبه ، و هجرته ، و قتاله فيما بعد ، لكان أمر الله حصد ثقيفا .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : *يا رسول الله ! هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد ؟ فقال : «لقد لقيتُ من قومك . و كان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال (زعيم ثقيف الذي سخر به صلى الله عليه و سلم كما رأينا) . فلم أستفق إلا بقرَن الثعالب (مكان) . فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني . فنظرت فإذا فيها جبريل . فناداني فقال : إن الله عز و جل قد سمع قول قومك لك و ما ردوا عليك . و قد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت . قال : فناداني ملك الجبال و سلم علي ثم قال : « يا محمد ! إن الله قد سمع قول قومك لك ، و أنا ملك الجبال ، و قد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك . فما شئْت ! إن شئت أطبق عليهم الأَخْشَبَين (جبلان يحيطان بمكة) . فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا »* .

إن الله عز و جل أدب عبده بآداب الأنبياء . قال صلى الله عليه و سلم : *« أدبني ربي فأحسن تأديبي »* ، كما روى ابن السمعاني بسند صحيح . كان فيما رباه به قصص الأنبياء قبله ، و الأسوة لنا و الكلام إلينا يا من يعقل :

« *وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَ أُوذُواْ حَتَّىٰ أَتَــٰهُمْ نَصْرُنَا وَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَــٰتِ ٱللَّهِ* » (سورة الأنعام ، 34) .

لا مبدل لسنة الله و من افتات فإنما يبغي على نفسه .

حصل ذلك الأذى لرسول الله صلى الله عليه و سلم بين أحداث غيبية و شهادية من شأنها أن تحدث فيه غاية الاضطراب لولا أنه رسول الله و لولا ثقته بربه عز و جل . توفيت خديجة رضي الله عنها ركن بيته ، و مات أبو طالب

سنده الاجتماعي و درعه ، و أُسري به و عُرج به إلى السماوات حتى كان قاب قوسين أو أدنى يتلقى الوحي في منازل قصر عن بلوغها جبريل عليه السلام نفسُه ، ثم ها هو يلقى الجن و ينزل إليه مَلك الجبال بعد أن عاد من محنة ما وراءها محنة حين اصطف له سفهاء ثقيف صفين يمر بينهما يتلقى الحجارة و السباب و البصاق .

القومة أيها الأحبة ثبات و صبر و ثقة بالله و عمل دائب . قالت الجن : « *كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا* ﴿ 19 ﴾ ». أي اجتمعوا عليه و تزاحموا في أذاه . و كانت الأحداث التي خاضها صلى الله عليه و سلم منذ بعثته إلى وفاته سلسلة لا تنقطع من الجهاد : جهاد أكبر في تقويم الأنفس و جهاد أصغر في مواجهة ما في الآفاق من أعداء و تحديات . الأمر هكذا و إن كان المحدثون يضعفون حديث " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " .

و السيرة النبوية العطرة هي نموذج القومة و وصفها و مدرستها . عليك في عصرك و مصرك و ظروفك و حظّك من الله و قوة من معك من حزب الله ، قوة الإيمان قبل قوة العدد ، أن تترجمها واقعا حيا تتعرض به لأمر الله .

التدرج في مراحل القومة " لأمر جامع " يجمع جهود حزب الله المتعدد في واجهة الدولة ، الواجهة الآفاقية ، ريثما تتقارب الأنفس و تتبنى منهاجا واحدا للدعوة ، و نظاما واحدا ، و قيادة موحدة أمر ضروري . و لا عجلة فالتدرج صبر و مصابرة . أتى أمر الله فلا تستعجلوه .

و الرفق أصل من أصول الدعوة النبوية . أخرج الطبراني أن سعداً بن أبي وقاص جاءه الناس و الفتنة بين علي رضي الله عنه و معاوية غفر الله له و رضي عنه محتدمة ، فقالوا : " ألا تقاتل ؟ إنّك من أهل الشورى ! و أنت أحق بهذا الأمر من غيرك ؟ قال : لا أقاتل حتى يأتوني بسيف له عينان و لسان و شفتان ! يعرف المومن من الكافر . فقد جاهدت ، و أنا أعرف الجهاد " . و روى البخاري أن الناس قالوا لابن عمر زمان فتنة ابن الزبير ، أو قل " قومة " ابن الزبير ، إن الناس ضُيّعوا و أنت ابن عمر و صاحب النبي صلى الله عليه و سلم ، فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي ! قالوا : ألم يقل الله : " و قاتلوهم حتى لا تكون فتنة " ؟ فقال : " قاتلنا حتى لم تكن فتنة و كان الدين لله . و أنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة و يكون الدين لغير الله ! " .

الخلافة الثانية

ليس المقام هنا مناسبا للتنقيب و التَّعليل في شأن ابن الزبير في قيامه على أبناء مروان . فكثير من العلماء في زمانه و بعده حكموا أنه كان على حق . في هذا الكتاب ننظر إلى المستقبل و ننضبط بأمر الرسول صلى الله عليه و سلم الذي أمرنا أن نكُف إذا ذكر أصحابه رضي الله عنهم أجمعين . الذي لا خدش فيه لأحد أن نقول : إن ابن الزبير و أمثاله ممن قاموا على بني مروان ، و يا لهف نفسي على حسين ! ، قاموا و معهم الزجر النبوي عن طاعة من عصى الله *« و تسألني يا ابن أم عبد ؟ ! »* . و الذين كفوا عن المشاركة كان نُصب أعينهم الوعيد لمن خرج يضرب البر و الفاجر و لا يتحاشى من المومن . كل قدر لنفسه و اختار موقفا . و في عصرنا لا يجد المومن ذو الغيرة على دينه أي مرجح و لا مبرر للسكوت و الرضى بما يفعله بالأمة عبيد الجاهلية بين ظهرانينا .

أوردنا في الفصل الأول من هذا الكتاب الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد يبشر فيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه و سلم بالخلافة الثانية على منهاج النبوة ، و نورد هنا نفس الحديث من رواية الدارمي و البزار و فيه زيادة : *« إن أول دينكم نبوة و رحمة ، و تكون فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله جل جلاله . ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله جل جلاله . ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعه الله جل جلاله .ثم يكون ملكا جبرية ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله جل جلاله . ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي صلى الله عليه و سلم ، و يُلقي الإسلام بِجرانه (أي يستقر و يثبت) في الأرض ، يرضى عنها ساكن السماء و ساكن الأرض ، لا تدع السماء من قطر إلا صبته مدرارا ، و لا تدع الأرض من نباتها شيئا إلا أخرجته »* .

دون هذا الموعود المبارك جهادُ القومة .

دونه يتألف حزب الله الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان و أيدهم بروح منه ليتنزل عليهم أمره نصرا و رحمة . و لا يفي بهذا الشرط كل جماعة " ملتزمة " حملت اللافتة القرآنية على غير طهارة تامة .

هذا شرط أنفسي .

دون الموعود الكريم أن يتحلى حزب الله المومنون المؤيدون بروح من الله بالمروآت و الأخلاق و الحكمة و العقل و الكفاءة ، إذ لا يحمل أمر الله المومنون الضعفاء إنما يحمله الأقوياء الأمناء .

التوفيق الإلهي و النصر و التأييد عطايا غيبية من عند الله ، أما اختيار الأقوياء الأمناء ، و تأليفهم بتأليف الله و تنظيمهم ، و تخصيصهم بما تتطلبه كل مرحلة من مراحل القومة ، و وجود الفاعلية و الجدوى و الكفاءة و القدرة على التدبير و التنفيذ ، اجتهاد منا نحن ، نخطئ فيروغ عنا التوفيق ، أو ندعو الله في جوف الليل فيرد الدعاء القضاء و يأتي الله بالنصر إن شاء كما شاء .

هناك شرط آخر يبسط أمامنا مساحة واسعة نتصرف فيها ما بين الحد المبدئي و هو فريضة عصيان من عصى الله و الحد الانضباطي و هو أن نتحاشى من سفْكِ دماء المسلمين . هذا الشرط هو أن نقود حرب القومة في مراحلها كلها بحنكة ، و بمهارة ، و بدقة ، و بحيلة . فالأمر حرب ، و الحرب خدعة . لا يشترط في الحرب أن تسفك الدماء .

عند البخاري رحمه الله في كتاب " كتاب الجهاد " أحاديث لخص فقهها في عناوين ، منها : " باب الحرب خدعة " ، " باب الكذب في الحرب " ، " باب ما يجوز من الاحتيال و الحذر ممن يَخشى معرته (أي مكره) " .

قال الحافظ ابن حجر : " و في الحديث (حديث الحرب خدعة) الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب ، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة " .

في مرحلة ما من مراحل النضج و اكتمال الشروط الذاتية في المتصدرين للقومة ، و لا عجلة فالقومة قضية أجيال ، يأتي الله عز و جل إن شاء بالأمانة يضعها في يد حزبه .

يومئذ تكون الخدعة و الرأي و أخلاقية الصالحين شيئا واحدا ، و وجهين لعامل جماعي واحد . لا أقول وجهي نفاق معاذ الله . لكن الصدق المبدئي لا يتنافى مع التورية و السكوت و المصانعة . إنها مهمة بناء دولة القرآن ، ما هي نزهة على شواطئ الأحلام ، و إن الواقع الذي لا مناص من تغييره تغييرا جذريا واقع صلب ، عميق الجذور ، ضارب جرانه في الأنفس و الآفاق .

و المنافقون يسارعون إلى كل سوق ، و يدخلون في كل اشتباك ، يتحينون الفرص ، و يتسقطون ، و يتربصون . هذا عدو داخلي يأتيك يتمسح بك و يحلف الأيمان المغلظة . عدو آخر خارجي يتربص و يمكر مكر السيِّئ . فإن كان حزب الله أفرادا يجوز ، بل يستحب ، أن يكونوا كرماء و أن يغضوا الطرف ، فحزب الله جماعة و مشروعا يجب أن يكون الحذر رائدهم .

يوم يكون تسيير عجلات جهاز الدولة الموروث مهمة حزب الله القائمين يكون قد فات الأوان لاختيار منهاج السير و التعامل مع الداخل و الخارج .

إن كانت القومة في مراحل العصيان و الإضراب العام قد اختارت أسلوب الهيجان و المظاهرات ، و أفلت منها الزمام ، و من المؤكد أن يفلت في حمى الجماهير الغاضبة ، فإن ما بعد الوصول إلى الحكم يكون تَمْرِيناً مسْتمرا في تَرويض الثوران . و هل يمكن أن ننظم العصيان في هدوء ملائكي ؟ هل يمكن أن نقرع على الحكام الباب بلطف و أدب ليتنحوا عن رئاستهم ؟ ما الحيلة و ما الرأي في ولوج الأبواب دون كسرها ، و القصد في الطريق وسط الثعابين اللابسة ثوب العصافير ؟

كيف يقاتل حزب الله و جنده حراس المعاقل الجبرية بمثل صمود الإيرانيين في قومتهم ، بصدور عارية ، و تصميم على المضي في العصيان حتى الموت ؟ و هل يتكرر التاريخ ، و هل تُصنع نفسية جماعية قابلة للانفجار خارج تاريخ الكبْتِ الطويل الذي رضعته الأجيال نقمة على كل يزيد و كمدا على حسين ؟

ما الحيلة بعد أخذ المقاليد لإلزام المسيرة الداخلية و العلاقات الخارجية بالتقدم في خطى مطمئنة ؟

إن توظيف الغضب الجماهيري في مراحل القومة الأولى من أهم آليات الحركة نحو الخلافة على منهاج النبوة . مثال الصبر النبوي قبل أن يرجع من الطائف و بعد الرجوع ، و في كل سنواته المباركة صلى الله عليه و سلم ، و ما اتسمت به غَزواته الحاسمة من ضبط النفس ، نموذج عالٍ يجب أن نحذو حذوه . لكن الفلتات التي حدثت في عهد النبوة من أفراد الجماعة أو من فئات منها توسع على اجتهاد الأجيال اللاحقة ، و على القائمين للخلافة الثانية خاصة ، لكي لا يروموا المثالية فيكونوا حالمين .

في القرآن الكريم ما يُلقي على أمر الرسول صلى الله عليه و سلم المزدوج بالعصيان و التحري من سفك الدماء ضَوْءاً خاصا يكشف جانب القوة و جانب المضاء و جانب الفعالية أكثر مما يعرض جوانب الانتظار و الاعتذار . قال الله تعالى يخاطب أولئك المومنين و كل المومنين : « وَ مَالَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَ ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَ ٱلنِّسَـآءِ وَ ٱلْوِلْدَ ٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَـآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَ ٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَ ٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا ﴿75﴾ » (سورة النساء) .

و في هذه الآيات المبيّنات تحريض واقعي على الغضب لله و للمستضعفين . لدى قلة قليلة من المحسنين الوارثين لرسول الله صلى الله عليه و سلم الذي كان لا يغضب إلا لله القدرة على ضبط النفس كي لا تشوب في أنفسهم بواعث الأرض و استفزازاتها بواعث السماء . أما جماعة المومنين و سوادهم و أنصارهم فالغضب المطلوب إليهم غضب مزجِيٌّ غضب في سبيل الله في القلوب النفيسة المعدن ، و غضب في سبيل المستضعفين و هو كرم و مروءة و خلق .

تجد في أمة أنفسا تغضب على الظلم ، و تكره الظلم ، و تتوق للحرية و الكرامة و العدل . هذه مروءة يتوجه إليها كل ثائر ، و كل غاضب ، فيجد استجابة ، و يجد أنصارا . و هكذا قامت الثورات ، و نجحت المطالبات .

هي حرب و الحرب خدعة ، و الحذر و الحيلة و الرأي قوة و حكمة . لكن كل هذا يبقى لفيفا باردا من النيات و المراوغات و التسويفات و المبررات إن لم يكن مع الحيلة و الحذر و الرأي عصب الغضب ، لله و المستضعفين في قِران دائم ، و إن لم يكن العضَل الجماهيري المتحرك الفاعل .

تختلف الصورة إن تسلم حزب الله الأمر من يد انقلابية وقفت على نهاية إمكانياتها . و هذا وارد ، و للأحداث التاريخية منطق ، و لأمر الله عز و جل مسالك ، و للمزايدين على الإسلام المتلبسين به حدود . سقط نميري في الهاوية لأنه كان منافقا و نجا جند الله في السودان لأنهم كانوا في تلك الحرب أوثق بُنيانا و أدخل في الحيلة و الرأي .

تختلف الصورة إن صدم جدار المسؤولية وجوه قوم فلجأوا إلى الإسلام و جند الإسلام . و عندها يمتطي جند الله مطية التدبير و الرأي فيحتاجون إلى المحرك الغضبي الحيوي . تأتي الأمور في هذه الصورة على ترتيب آخر ، و بوتيرة أخرى .

إن في الإسلام أصولا مؤصلة للتصرف العام . المذهب المكيافيلي هو المذهبية المفلسفة ، نوع تغلب فيه الصراعية على الكيدية . لكن السياسة العالمية ، و الدبلوماسية الدولية ، و التبادل التجاري ، و التحويل ، و التزاحم الاستراتيجي عوالم يسوسها الكيد و يحسم فيها ميزان القوى .

إن الخلافة الثانية وعد موعود غير مخلوف ، و من سنة الله و رسوله أن تنشأ كل ناشئة على التدرج ، و في ميدان التدافع بين الناس ، و على مرأى و مسمع من العالم ، و بآليات أنفُسية و آفاقية تبدو مشتركة حكمها على المجتمعات غلاب .

لنا أصولنا و نموذجنا ، و موعود الله أمامنا .

لليهود المكر السيِّئ الذي قرأنا عنه كثيرا في هذا الكتاب . و في عصرنا جاء بهم الله جلت عظمته لفيفا ليوم " وعد الآخرة " ، و هو يوم من أيام القومة الإسلامية . بعد الوحدة أو قبلها الله أعلم .

و للنصارى فلسفتهم المسالمة ، في زعمها ، تأمر الناس بمد الخد الأيسر لتتآمر عليهم من وراء ظهورهم . و قد قام نصارى أمريكا الجنوبية في زماننا يصطفون و يثورون و يصرخون في وجه الظلم و الفقر و البؤس التي جاء بها فيما جاء الدور و التسلسل في دوامة الانقلاب العسكري .

في أمريكا الجنوبية و الوسطى يقود القسيسون الكاثوليك غضبا جماهيريا ثوريا . و المذهبية قِران فريد بين الصراعية الماركسية و اللاهوت الكنسي . سمى الملاحظون هذه المذهبية " لاهوت التحرير " . استقى القسيسون من الإديولوجية اليهودية لَمَّا لم تكن لهم أصول . و يرعد بابا روما و يبْرق استنكارا لهذه القِران . أينكر مطالبة الناس بالعدل ، و هي مطالبة عادلة و مروءة و رجولة ؟ أم يضحي بالمحقورين لتزدهر الكنيسة في أحضان الرأسمالية العالمية ؟

و لنا أصولنا في بناء الدولة . لنا حدود الله ، و حكم الله ، و عهد الله ، و أمر الله ، و طاعة الله ، و طاعة رسول الله ، و طاعة أولي الأمر منا ، إن كانوا منا اختيارا . لنا الشورى أصلا ، و العدل و الإحسان وظيفة لدولة الخلافة الثانية و برنامجا . لنا حمل الرسالة و تقويم الفطرة و بسط كلمة الله و سلطان الله في الأرض حتى لا يشرك به أمانة . لنا عمارة الأرض لتكون الأرض مراحا مطمئنا ليسمع الخلق كلام الله ، و يستجيبوا لداعي الله ، و يذهبوا للآخرة في أمان الله و رضى الله . لا إلــٰـه إلا الله .

لنا كل هذا عُدة و زادا و مرجعا و وعدا ، و علينا كل هذا تكليفا و عُهدة .

دعامتان عليهما تؤسس دولة القرآن : أولاهما طاعة الله و رسوله ، و الثانية الشورى .

و دعامة ثالثة بدونها لا يقوم بناء ، و هي وجود إرادة قوية مصممة مخلصة لله تنفذ أمر الله و أمر رسوله و تنظم الشورى و تنفذ . وجود حزب الله حامل أمانة الله ، المنظم ، العارف بمهماته الجامع للكفاآت اللازمة .

الدولة حكم الله تطبقه الشورى . و الدعوة روح الدولة و أصْلُها و سندها و معناها و الغاية من وجودها .

روى الإمام أحمد عن أبي فراس من خطبة لأمير المومنين عمر رضي الله عنه قال : " ألا إني و الله ما أرسل عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم و لا ليأخذوا أموالكم . و لكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم و سنتكم " .

القومة و ما تبنيه من دولة خلافية قومة لله قبل أي اعتبار ، و قيام العبد لربه ، يتعلم دينه و سنته ، و يعبده لا يشرك به شيئا ليفوز في الآخرة هو الغاية . كل جهد تبذله الجماعة لإقرار الأمن في الأرض و تدبير شؤون الدنيا و كفاية المعاش لا معنى له في سلم القيم الإسلامية إن لم تكن الدعوة إلى الله هي قبلة الدولة .

من أول تاريخ الدعوة المحمدية قال الله لرسوله : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ ﴿ 01 ﴾ » (سورة المزمل) .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿ 01 ﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿ 02 ﴾ » (سورة المدثر) . القيام في الليل للصلاة كالقيام للناس و التعامل معهم عملية واحدة ، هما عبادة لله على مرتبتين و في زمنين . فإن تجردت المعاملة مع الناس من القصد العبادي انفردت الصلاة ، و تقلصت الدعوة ، و طغت الدولة ، و انحرفت عن القصد الأول لتصبح آلة طاغوتية لضرب الأبشار و أخذ الأموال .

في هذه الآية رسم الله رب العزة و الجلال أهداف الدولة القرآنية و غايتها حيث قال : « ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَ أَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَ لِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿ 41 ﴾ » (سورة الحج) .

انتبه رعاك الله إلى « وَ لِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ » ، فليست جملة مضافة زائدة بعد كلام التشريع ، لكنها تذكير بالغاية ، تذكير بالله و اليوم الآخر ، تذكير بالعاقبة و هي الآتية من بعد أعمالكم في الدنيا لتحسُب النتائج و تقومها للجزاء .

طالما قرأ بعضهم و لا يزالون القرآن الكريم قراءة بَتْراءَ يستدلون بآيات مجردة من سياقها الأخروي الذكري على أن القرآن تشريع للدنيا عظيم . و هم عن الآخرة هم غافلون . و العياذ بالله .

وثنية من درجة ما ! و أول ما يعترض دولة القرآن في بداياتها سريان الوثنية ، من كل الدرجات و الأصناف ، في عبيد الحضارة المادية و الفلسفة المادية و الإلحاد المادي . من أصناف الغافلين

عن الله ، و أصناف المنافقين المتسترين بالإسلام ، و أصناف الفجار و تاركي الصلاة ما يمكن استبقاؤه ، و الاستعانة بخبرته ، و استعماله في مصالح دولة القرآن . لا حرج أن نفعل ما فعله رسول الله صلى الله عليه و سلم حين استعان بعبد الله بن أُرَيقط في أحرج مراحل القومة المحمدية ، في خروجه صلى الله عليه و سلم مع أبي بكر رضي الله عنه مهاجرين من مكة . و استعان صلى الله عليه و سلم في المدينة بيهود و مشركين في شؤون الحرب و السلم .

لكن فئات عبيد الحضارة و الثقافة و الفن الوثنية ينحَّوْن عن مواطن التأثير مثل المدارس و الجامعات و الإعلام و كل مقام كريم . لابد من التطهير و الكنس . و فيما سوى من يتحدى الإسلام بقول أو فعل أو سلوك أو حال تترك المجال واسعا للمزايدين باسم الإسلام الرافعين للافتات الإسلامية ، ليعرض كلٌّ بضاعته و فهمه للإسلام حتى يهلك من هلك عن بينة و يحيى من حَيي عن بينة و إن الله لسميع عليم .

دعائم الدولة الإسلامية التي عليها تبنى هي في نفس الوقت مؤشرات لصلاحيتها في أداء الوظائف الهدفية و الغائية التي من أجلها أسست ، و من اجلها كانت القومة أساسا : طاعة الله و شورى أهل الشورى ، و إرادة حزب الله .

في كل مبنى من مباني دولة القرآن ، و في كل معنى ، و في كل حركة ، و في كل مؤسسة يجب أن تكون خدمة الدعوة هي الرائد و المبرر للوجود . ما التمكين في الأرض وسيلة لغاية اجتماعية اقتصادية سياسية ثم لا شيء كما هو شأن الدولة القومية أو الإديولوجية .

و لا يكفي كنس الوثنية بطرد رموزها حتى ننقي كليات البنية في مجتمعنا و دولتنا و جزئياتها من الذهنية الوثنية التي تعلم شيطنتها المقيمة فينا و الغازية لنا بكل وسيلة أن معادلات الكيمياء تفسر كل شيء ، و أن الطبيعة خلقت قوانين الفيزياء ، و أن الصدمة الكونية خلقت الحياة فتطورت حتى أصبحت الأمِيبَا سمكة و السمكة قردا و القرد إنسانا ، و أن التموجات الجيولوجية صنعت الجغرافيا ، و أن التاريخ صنعه الإنسان .

عملية الكنس و التطهير من مهمات دولة القرآن ، و هي اليد اليسرى لجماعة المسلمين ، أما اليد اليمنى ، يد الدعوة ، فعليها أن تتفرغ لبناء على المدى الطويل ليسكن الحق حيث كان الباطل محتلا ، و لتسري الحقائق الإيمانية حيث كانت الوثنية تعيث فسادا ، و لنملأ حياة الناس اليومية في كل الميادين بالبدائل الإسلامية .

مهمة الدولة الإسلامية فيما يخص توفير المادة الضرورية للحياة ، مثل السكن و الطعام و الصحة و التعليم و الأمن ، واجب تعبأ له حكمة الحكماء و خبرة الخُبراء و عقل العقلاء . و إن تدبير الدولة العصرية لأمر معقد غاية التعقيد ، يندب له أهل الاختصاص ، و أهل القوة ، و تستنهض هممهم ، و يتألفهم حزب الله على الإسلام و خدمة الإسلام .

إن كانت رجولة التقدم في نصرة الإسلام تتمثل في أجيال الشباب ، قال ابن كثير : " كان أكثر المستجيبين لله تعالى و لرسوله صلى الله عليه و سلم شبابا " ، فإن الرجولات و المروآت الضرورية لتسيير الدولة العصرية المشتبكة الخطوط لا تتوفر إلا في أجيال المسلمين المستورين ، و من بينهم من يتشوق و يتحرق على دينه ، و سيكونون سباقين إلى أمر الله حين ينجلي عن الأمة تعتيم الجاهلية و دخن الفتنة .

مهمة إعادة هيكلة الدولة لتناسب مؤسساتها و إدارتها و نظامها و قوانينها الأهداف الإسلامية و الغاية الدعوية شرط أنفسي آفاقي للتمكن في الأرض . و أمر الله المتنزل ببركات السماء و خيرات الأرض ضمانة قرأناها في رواية الدارمي و البزار لحديث الخلافة على منهاج النبوة .

فإذا وفينا بشروط التكليف في القومة ، و من ضمنها رصد ما يمكننا رصده من أقوياء أمناء للاشتغال بدواليب الدولة ، كانت إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر واجب الكل . و لله عاقبة الأمور .

في دولة القرآن ، بقدر ما يستيقظ المسلمون لإسلامهم ، يكون واجب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، المفروض بتأكيد خاص بنص الكتاب و السنة ، مظهرا عاما لإرادة حزب الله ، مظهرا حاضرا في كل مكان و زمان و مناسبة لمشاركة الأمة رجالها و نسائها و أطفالها في الأمر العام .

لا تكون الانتخابات في دولة القرآن معرضا للإغواء و الإغراء و البيع و الشراء . بل ينبغي أن تحول اليقظة العامة ، بوصْفِها واجبا دينيا مؤكدا ، دون تلاعب أهل المنكر ، و أن تكون النصيحة العامة و الخاصة مؤداة كما تؤدى سائر فروض الدين ، فالدين النصيحة كما جاء في الصحيح .

هذان عمادان من أعمدة دولة القرآن : حزب الله و معهم الكافة العامة يطيعون الله جميعا ، و يؤدون واجبات الصلاة و الزكاة و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر .

أما العماد الآخر ، و هو الجسم الذي تتجلى فيه إرادة الأمة و وحدتها و استقرارها ، فهو الشورى . ما انتقضت الخلافة الأولى إلا و انتقضت معها الشورى ، و أصبحت شكلا و ألعوبة و تمثيلا . و إقامة الشورى على قواعد قرآنية سنية ، و من السنة فعل الخلفاء الراشدين ، إيذان بأن القومة قومة فعلا .

لا يمكن أن تهب الأمة من أقصاها إلى أقصاها هبة واحدة . و لا مناص ، فيما يبدو لتقديرنا العاجز ، من ظهور دول إسلامية قطرية جزئية تباعا حتى يأتي أمر الله بالوحدة فتكون الشورى بين دول فدرالية إسلامية ، أو ما شاء الله من أشكال الوحدة ، تحقيقا للشورى العامة . في انتظار ذلك تنظم الشورى القطرية على الصورة الكلية كأن جماعة المسلمين في هذا القطر المتحرر أو ذاك هي جماعة المسلمين المخاطبة بالقرآن . لا بأس من استعارة الأشكال الانتخابية و التنظيمية من مروآت غيرنا ، مع التصرف الحكيم و المتريث حتى تستقر أمورنا على قرار ، و على تجربة تنقصنا .

لا نجعل عبارة " أهل الحل و العقد " التي نقرأها في تاريخ المسلمين ستارا بيننا و بين الكتاب و السنة . إن وضعنا هذه اللافتة على صنف من الناس ضيعنا واجب الحكم المستقل على كفاءة الناس و غنائهم . و رحم الله أمير المومنين عمر حيث قال : " المرء و سابقته في الإسلام ، و المرء و غناؤه في الإسلام ، و المرء و حظه من الله " . هكذا أعطانا ثلاثة معايير لتزن رجولة الرجال و قوة الأقوياء و أمانة الأمناء . السابقة في الإسلام خدمات للإسلام يسبق بها المرء غيره . هذا له حسابه و وزنه و حرمته . لكن ما القصة إذا كان السابق قليل الغناء ، أي قليل الخبرة و الفائدة و الجدوى و الفاعلية ؟ ما الحيلة

إذا كان السابق و الخبير قليلي " الحظ من الله " ؟ و ما نفعل بالورع التقي ذي الحظ الوافر من الله إن لم يكن له قوة على إنجاز المهمات و لا دراية و لا فنية ؟

من يَنتَخِب ، و من يُنتخَب ، و كيف ؟ هذا تحدثنا عنه في غير هذا الكتاب .

نريد هنا أن نُدرج الشورى في سياقها القرآني لنتذكر كي لا ننسى أن الدعوة هي الأصل ، و أن للشورى و للدولة أهمية الآلة الضرورية لا أهمية الهدف و الغاية .

قال الله جلت عظمته : « *وَ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* ﴿ 36 ﴾ *وَ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَ ٱلْفَوَٰحِشَ وَ إِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ* ﴿ 37 ﴾ *وَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَ أَقَامُواْ ٱلصَّلَـٰوةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* ﴿ 38 ﴾ *وَ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ* ﴿39﴾ » (سورة الشورى) .

جرّد الشورى من سياقها ، و أخرِجها من مائها ، فإذا أنت تُزور ، و إذا أنت تُلبس اضطراب الناس في تنظيم المجتمع و الدولة لباس كذب إن نعتته بالإسلامية . لا يكون التداول شورى ، و لا الدولة دولة القرآن ، حتى يكون ما عند الله مطلب المومنين المتشاورين ، و حتى يكون التوكل عليه سبحانه ذخيرتهم ، و حتى يكون اجتناب الإثم و الفواحش قضية عامة يتناولها واجب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بالنقد و الملاحقة و المحاربة ، و حتى تكون الأخوة و المحبة و كظم الغيظ و التسامح لحمة المجتمع و سداه الشريعة ، و حتى تكون الاستجابة لله و رسوله الباعث المنهض ، و حتى تكون إقامة الصلاة و الإنفاق في سبيل الله مادة العدل و الإحسان ، و حتى يكون التناصر على بغي الباغين و عدوان المعتدين و تحرير أرض المسلمين بالجهاد الدائم برنامج الدعوة ، و مخطط الدولة .

ثم إن العدل الذي أمر الله به عباده ، و أنزل البينات و الرسل من أجله قضية الدولة و الدعوة الأولى .

قال الله عز و جل : « *لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَ أَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَ ٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ* » (سورة الحديد ، 25) .

و القسط العدل . عدل الحكم لفصل ما بين الأفراد من خصومات ، و عدل القسمة لتسوية الفساد الطبقي ، و تقليم أظافر المترفين ، و كفالة اليتيم و المسكين العاجزين ، و توفير الشغل للقادرين .

و هنا لابد لدولة القرآن أن تتكلم بلغة التنمية و تتصدى لضرورات التصنيع و حجم السوق ، و التبادل ، و الإنتاج .

على مستوى قراءة سنة الله يبدو لنا أفق التغيير الإسلامي في عالم تسوده القيم الإنتاجية ، و تسوده القيم الاستهلاكية على حساب القيم الأخوية المتراحمة ، و يُكدره الإفساد الصناعي للبيئة ، و يطلع من أرجائه أنين المستضعفين في الأرض الجوعى المفقرين ، و تهدده الإبادة النووية ، و تقوده التكنولوجيا ، و تتحكم فيه الجاهلية .

جهودنا لن تتبخر بإذن الله إن دخلنا ميدان المنافسة الإنتاجية العالمية ، و دخلنا سوق الغبن الرأسمالية ، و لا محيد عن دخولها ، بروح الدعوة و حكمة الدولة و عقلها ، و إن علمنا الإنسانية أخلاقية التسامح و البذل . ذلك يومَ نَتَصَنَّع و نتوحد و يكون لنا وزن في تلك السوق . لا قبل ذلك . و في العالم مروآت و شعوب و حركات نتضامن معها ، و نتعاون ، و نتبادل ، لننْجو من ربقة البنك العالمي و المديونية و التخلف .

وسائل العصر متوفرة لمن كانت له ذاتية مستقلة ، و إرادة ، و اختيار ، و عقل ، و مروءة ، و خلق ، و انضباط ، و برنامج ، و رجال ، و عون من الله قبل كل شيء و بعده و إزاءه . و إنما تطحن رحا سنة الله من أعرض عن الله ، و عطل أوامر الله ، و طغى في أرض الله ، مالك الملك و خالق الخلق .

لا إلــه إلا الله محمد رسول الله .

خاتمة



بين يدي الساعة

بعض الإسلاميين يسردون أحاديث نبوية تبشر بانتصار الإسلام و انتشاره في آخر الزمان ليحيوا في أنفسنا الأمل بما يزفون إلينا من بشرى . و هذا استبشار مشروع و واجب لأن الأحاديث صحيحة يجب تصديقها ، و لأن النصر و الفتح القريب هي " الأخرى " التي نحبها كما قرأنا في سورة " الصف " .

نريد هنا أن نذكر أن التاريخ ليس مباراة بين الأمم مفتوحة على المجهول ، بل هو سنة الله الجارية إلى ميعاد ، و هو الساعة ، و النفخ في الصور ، و موت الخلائق ، ثم البعث ، و النشور ، و الموقف ، و الحساب ، و الجزاء ، و العقاب ، و الجنة ، و النار .

لهذا التاريخ الجاري بنا إلى آجالنا و مواقيتنا أفرادا و أمما معنى و مغزى . هو مَحْصِي مقدر . " وعد الآخرة " مرحلة من مراحله ، و الخلافة على منهاج النبوة ، و انبساط الإسلام في الأرض ، إلى أن يرث الله الأرض و من عليها . لا تُنسينا بشرى النصر معنى النصر ، و لا يغفلنا الاستبشار بحياة الأمة من مواتها عن موتنا و حياتنا في دار البقاء .

روى مسلم و غيره عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« إن الله زوى لي الأرض (أي كشفها) . فرأيت مشارقها و مغاربها، و إن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها . و أعطِيتُ الكنزَيْن الأحمر و الأبيض . و إني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة (مجاعة عامة) ، و أن لا يسلط عليها عدوا من سوى أنفسهم ، فيستبيح بيْضتهم (فيغلب عليهم حتى يضمحلوا) . و إن ربي قال : يا محمد ! إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، و إني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بالسنين ، و لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم و لو اجتمع عليهم من بأقْطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا و يسبي بعضهم بعضا »* .

أخوف ما يخاف على هذه الأمة خلافاتها الداخلية و تأمل تاريخ المسلمين الماضي و الحاضر ، و مجازر ما بين العراق و إيران . و قتال فئات الفلسطينيين و الشيعة في لبنان . نسأل من له القدرة

الرحيم بعباده الرؤوف أن يحقن دماءنا ، و أن يجعل لنا في الاشتغال بالقومة و بناء الوحدة و الخلافة بلسما يأسو الجراح و يؤلف القلوب . آمين .

ثم إن في الحديث الشريف ما يبشر ببسط الإسلام ظله على مشارق الأرض و مغاربها . فالحمد لله .

و روى ابن حبان في صحيحه و جماعة من المحدثين بإسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل و النهار . و لا يترك الله بيت مدر (بيوت الحاضرة تبنى بالحجارة و اللبِن) و لا وَبَر (خيام البادية من وبر الجمال) إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز ، أو بذل ذليل . عزا يعز الله به الإسلام ، و ذلا يذل الله به الكفر»* .

و روى الإمام أحمد و الدارمي و غيرهما بإسناد صحيح عن ابن قبيل قال : *كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، و سُئِل أي المدينتين تفتح أولا : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلَق . قال : فأخرج منه كتابا . قال : فقال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه و سلم ، إذْ سُئل رسول الله صلى الله عليه و سلم : أي المدينتين تفتح أولا ، أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « مدينة هرقل تفتح أولا . يعني قسطنطينية»* . مفهوم الحديث أن رومية ، أي روما ، تفتح ثانيا .

كان سيدنا عبد الله بن عمرو يكتب الحديث على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم ، و من كتابه المخزون في الصندوق ذي الحلق قرأ لنا هذه البشارة . و منذ أكثر من خمسة قرون فتحت قسطنطينية بسيوف آل عثمان رحمهم الله ، و لا يبدو في أفق المسلمين القريب ما يدل على أنهم يستطيعون جمع القوة لفتح عاصمة دولة متقدمة هي رمز للنصرانية و رمز لمجد الإمبراطورية الرومانية التي تعتد الحضارة الغربية الحالية بها أيما اعتداد .

و هذا هو الوحي جاءنا مُوَثقاً موثوقا ، فهل يشك في صدقه إلا أهل الغِرّة بالله و رسوله ؟

ثم إن فتح العالم الإسلامي حتى يدخل الإسلام كل بيت مدر و وبر كما قرأنا في الحديث السابق ، و حتى يعم مشارق الأرض و مغاربها ، و حتى تفتح روما للإسلام ليس محتوما أن يتم عن طريق الحرب .

و ما كان دخول الأقوام التي دخلت في الإسلام عن إكراه ، فإنه لا إكراه في الدين ، و إنما كان السيف الإسلامي و القوة الإسلامية ذراعا قوية تدافع عن الدعوة و تكسر أسوار الجاهلية المانعة أن يصل نداء الحق للناس .

و ها هي ذهِ الديمقراطية التي يدين بها غربُ الغرب ديناً و يرجع إليها شرق الغرب لِوَاذاً تعطي حرية التدين للناس . و ما بقي للغَرب الجاهلي بشقيه اللبرالي و الاشتراكي من قيمة يتشبث بها ليحتفظ بالكرامة البشرية بعد أن عاثت الإباحية و الاستعمار و إبادة الشعوب في كل الأرض فسادا إلا " حقوق الإنسان " . حقوق الإنسان اليوم و غدا مطلب للفطرة البشرية التي تئن تحت وَطْأة النظام الاجتماعي السياسي الاقتصادي التكنولوجي الذي يكدس البشر في مدن معدنية لا رحمة فيها و لا شفقة و لا أخوة ، بل إجرام في وسطٍ الناس فيه أنانيون يجهل بعضهم بعضا . وسط انحلت فيه الأسرة . و قست فيه القلوب ، و عزت فيه العواطف الخيرة .

حقوق الإنسان باب مفتوح لنا نحن المومنين بأن الله كرم بني آدم كرامة الدنيا و الآخرة . العالم لم يتلهف و ينتظر دعوة الإسلام . دعوة السلام و الأخوة و المحبة و الانعتاق من ربقة الكفر و العدوان و الطبقية و الأَثَرَة و الاستكبار و الظلم و العنف . و إن " قواعد الإسلام " في بلاد الغرب ، و غدا إن شاء الله " القاعدة الممتازة " فيما وراء النهر ، تتدين بالإسلام و تبني المساجد و تُؤسس الجمعيات التي تتصرف بحرية واسعة يضمنها القانون و يحميها .

حقوق الإنسان مروءة نحن أحق بحمل لوائها . و في الغرب جمعيات غير حكومية و أحزاب نذرت نفسها للإغاثة و التطبيب . بعضها لا كلها منظمات تنصيرية علينا أن ننافسها لا أن نظل ننقم عليها و نندد بها و ننسب إليها من الحجم و الأهمية أكثر مما لها . علينا أن نمد اليد لجمعيات الإغاثة و لأحزاب الدفاع عن البيئة و لكل مروءة تكرم الإنسان . و في منظمة الأمم المتحدة منبر منه نسمع صوت الإسلام .

أهم من كل هذا أن نبني الدولة الخلافية النموذجية ، لا شيء أفصح خطابا للإنسانية جمعاء من نجاحنا حيث يخفق الناس . نعيش في هذا الزمان بروز الشعوب الصفراء ، تتقدم اليابان موكبها . نجاح اليابان باهر في ميادين العلوم و التكنولوجيا و التنظيم . اليابان اليوم تشكل خطرا تخشى أمريكا و أوربا

عواقبه . في الوقت الذي يركد فيه الاقتصاد الأمريكي في وتيرة نمو سنوي لا يتجاوز الاثنين في المائة إلا قليلا يسجل اليابان ثمانية و عشرين في المائة . في الوقت الذي تشكو منه أوربا و أمريكا عجزا في الميزان التجاري و التبادلي تسجل اليابان أرقاما تقرب من مائة مليار دولار سنويا . الغرب المصنع عاجز تماما عن مجاراة اليابانيين و منافستهم في الحرب الاقتصادية بعد أن هزمهم في الحرب القتالية .

في مائة سنة تقدمت اليابان من نقطة لا شيء ، و هي الآن تسبق الغرب في كل ميدان يتعلق بالتنظيم و الإنتاج بما يقدره بعضهم بخمسين سنة .

و هناك " التنينات الأربعة " كوريا الجنوبية و هونغ كونغ و تايوان و سنغافورة . بدأت مسيرتها الصناعية منذ أربعين سنة فقط . و هي الآن بصَدَدِ أن تصبح نِدّاً لليابان نفسه .

هذه نموذجية اقتصادية جديرة بالاهتمام . و علينا أن نحسب أن تصنيع الصين حتى تصل مستويات اليابان سيقلب موازين القوى في العالم ، و يعيد ترتيب كل المفاهيم . علينا أيضا أن نتوقع من الآن أن مزاحمتنا و مدافعتنا للناس في العالم لنبلغ رسالة الإسلام لن تنجح إن لم نكن من اليقظة و المهارة و العقل و الخلق و المروءة و الشجاعة و القتالية متى وجب بحيث نفهم التطور الجنوني للحضارة الصناعية و ما بعد الصناعية ، و نساهم في هذا التطور ، و نستبق هذا التطور . و ما من جزئية علمية اختراعية ابتكارية في التصنيع و الإعلام و الإلكترون إلا و تلهي الإنسان عن الله و تزيده شقاء و تعبا في الحياة ، و تزيده تلهفا على الروحانية و البحث عن الحقيقة . إنما نحن حملة رسالة ، فلابد أن تكون حركاتنا على الأرض ، و نفوذنا فيها ، و ثرواتنا ، و قوتنا الاقتصادية و العسكرية ، و كل مقوماتنا جهازا ماديا و أداة و وسيلة ليلتقي نداؤنا بذلك التلهف ، و تكون نموذجيتنا إشهارا للإسلام و رحمة صارخة .

إن الغرب اليوم بشقيه ضحية للمخدرات ، كل أنواعها ، و إن فيه لمجالا واسعا لدعوات " الروحانية " الهندية ، و الأديان الجديدة المخترعة ، و كل أنواع الخزعبلات و التنجيم و الشيطانيات . و للفن في الغرب مكانة كان يحتلها الدين . " الفن " دينهم و قُدْسهم ، و الصورة الواحة لرسام مشهور تباع بأثمان تكفي لبناء مدينة ، أو إغناء بلد من البلدان الجائعة المائتة تحت القهر .

لهؤلاء المستضعفين في الأرض نمد أيضا يد الرحمة و الأخوة ، نصرهم دين ندين به لله ، و القتال من أجلهم جهاد يحبه الله ، و الدعوة إلى الله نداء يخصهم إن عم الناس ، فهم أقرب أن يلبوا النداء .

كانت هذه الأمة المحمدية رحمة و خيرا للعالم قبل أربعة عشر قرنا ، و لمدة قرون . و إن في الصحوة الإسلامية التي نعيش بوادرها في مطالع القرن الخامس عشر لبشارة بأن آخر هذه الأمة سائر على منهاج الأولين . و جهاد أفغانستان تذكير للغافلين بأن يد الله القوية معنا ، و أن عموم نصر الله على المسلمين آت إن شاء الله مع " عالمية الجهاد " .

روى الترمذي بسند حسن عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم :

« مثل أمتي مثل المطر لا يُدْرَى آخره خير أم أوله ! » .

و من بين الأحاديث الكثيرة التي تبشر باستمرار أهل الحق في هذه الأمة هذا الحديث الذي أخرجه الشيخان عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« لا يزال ناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله و هم ظاهرون »*. من كانوا قبلنا يفسرون " أمر الله " بأنه الساعة ، و نحن في هذا الفصل نقرأ أن بين يدي الساعة ، في أمد يعلمه الله ، يأتي أمر الله نصرا مؤزرا لهذه الأمة .

و أخرج الحكيم و أبو نعيم أن الصحابة رضي الله عنهم بكوا لما قتل في غزوة مؤتة السيدان الجليلان زَيْد بن حارثة و جعفر بن أبي طالب ، و أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لهم : *« ما يبكيكم ؟ » قالوا : و ما لنا لا نبكي و قد قتل خيارنا و أشرافنا و أهل الفضل منا ! فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : « لا تبكوا ، فإنما مَثَل أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها ، فاجتث زواكيها (أي شذب و قطع أطراف أشجارها لتنمو) ، و هيأ مساكنها ، و حلَقَ سَعَفها (قطع أغصان نخلها لتنمو) . فأطعمت عاما فَوْجا ثم عاما فوجا ، ثم عاما فوجا . فلعل آخِرها طَعْماً يكون أجودها قنوانا و أطولها شمراخا (القنوان و الشمراخ فروع عنقود التمر و أصوله) . و الذي بعثني بالحق ليجدن عيسى بن مريم في أمتي خَلَفا من حوارييه ! »* .

في آخر هذه الأمة خير كثير . أخبر بذلك البشير النذير حبيب الله صلى الله عليه و سلم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . أخرج الشيخان و غيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه و سلم أتى المقبرة فقال : *« السلام عليكم دارَ قوم مومنين ، و إنا إن شاء الله بكم لاحقون . ودِدْت أنا قد رأينا إخواننا ! » قالوا : أوَلسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال : « أنتم أصحابي و إخواننا الذين لم يأتوا بعد »* . الحديث .

لشدة هذا الزمان على أهله ، و لتمسك المسلمين آخر الزمان بدينهم على صعوبة الاستمساك ذَخر الله عز و جل لمن جاهد في هذه الأزمنة المتأخرة أجرا عظيما . و نرجو أن يلحق شهداء أفغانستان و البنا و عودة و قطب و إخوانهم و كل مجاهد باللسان أو السِّنان أو تعليم القرآن بشهداء بدر و أحُد . ما بالك ! ففضل الله عظيم و هذا رسول الله صلى الله عليه و سلم يبشر من رواية أبي داود و الترمذي بإسناد صحيح عن أبي أمامة الشعباني : *« فإن من روائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجَمر , للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عملكم »* . زاد أبو داود : *قيل يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين رجلا منكم ! »* .

عند الإمام مسلم و الترمذي عن معقل بن يسار قول رسول الله صلى الله عليه و سلم : *« العبادة في الهرج كهجرة إلي »* . الهرج القتل و الفتنة . و انظر في زماننا هل تكاد تجد دعاة إلى الله لا يحنون هاماتهم أمام السلطان تصطبر عليهم أجهزة القمع و لا تقاتلهم و لا تقتلهم . فهذا الهرج ، و دخولك في الصف كهجرة إليه صلى الله عليه و سلم . على أن تحتاط لنفسك و تجتهد حتى تعلم أن ذلك الصف ينتظم على هدى من الله و رسوله ، و أنه محضن رباني يتوخى السنة و لا يسقط في البدعة جهلا أو خطأ اجتهاد .

تخطينا أبواب " الفتن " التي قرأنا منها في أول هذا الكتاب ، و نحن ننظر إلى المستقبل الزاهر بإذن الله . ننظر إلى موعود الله و رسوله ، نتقبل في سرَّاء بشارته غير المُخْلفة ، لا يغرنا تقلب الذين كفروا في البلاد ، و لا تقعدنا البشارة و الثقة بما أوحى الله إلى رسوله عن اتخاذ الأسباب لنخرج بالأمة من

الغثائية الموروثة ، واضعين أمام أعيننا نزول عيسى عليه السلام ، نكون يومئذ خلفا له عن حوارييه ، و هي مرتبة صحبة الأنبياء . جعلنا الله معهم .

ينتظر النصارى البروتستانت نزول المسيح عليه السلام كما ننتظر . أما الكاثوليك الذين تحجبهم الكنيسة عن الكتب و تؤول لهم و لا تبيح لهم الفهم المباشر فحديثهم عن نزول المسيح مغلف بألف غلاف . و أكثر البروتستانت انتظارا أشدهم توغلا في اليهودية ، ينتظرون نزول عيسى و نزول أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ليقيموا في الأرض الدولة الألفية ، دولة إسرائيل السماوية ، دولة صهيون . لا قيمة لكتبهم عندنا لما نعرف من تحريفها بيقين ، لكن أُمرنا ألا نصدق و لا نكذب ما يجيء فيها من تفاصيل مخافة أن تكون فيها أثارةٌ من علم محفوظة .

و من كتاب أشد هذه الطوائف تطرفا ، " شهود يهوه " ، أنقل هذه النبذة ينسبها الكتاب للمسيح عليه السلام ، كما في إنجيل ماثيو (***22 – 14 – 24***) و إنجيل مرقس (***20 – 14 – 13***) على ما قال .

قال : " و هذه البشارة بتشييد المملكة الجديدة ستعلن في جميع الأرض المسكونة لتسمعها كل الشعوب . و عندئذ تكون النهاية . عندما ترون إذن الشيء النجس المُفسد الذي أخبر به دانيال ينتصب في أرض مقدسة ، عندئذ ليهرب سكان أرض يهود إلى الجبال . لا ينزل الرجل الذي فوق سطح البيت ليأخذ أمتعته . و لا يرجع الرجل المشتغل في الحقول إلى البيت ليأخذ عباءته . ويل للنساء الحوامل و المرضعات تلك الأيام ! واصلوا الدعاء و التضرع لكيلا يكون ذلك الهروب في فصل الشتاء و لا في يوم السبت ، لأنه ستحدث يومئذ فتنة كبيرة لم يحدث مثلها منذ بدء الخليقة إلى الآن . لا و لن يحدث مثلها بعدها . نعم ، لو لم تكن تلك الأيام قصيرة لما نجا بشر من الهلاك . لكن هذه الأيام ستكون قصيرة بشفاعة الأخيار " .

النكتة عندنا في ذكر هذا النص " الشيء النجس المفسد الذي ينتصب في أرض مقدسة " . هم أولوا هذا الشيء بالجيوش الرومانية التي دخلت على اليهود بيت المقدس سنة ***66*** من تاريخ النصارى .

و نحن نقرأ الخبر اليقين في سورة الإسراء كما نقرأه في الحديث الصحيح الذي بشرنا بأننا نقاتل اليهود حتى إن الشجر و الحجر يقاتلهم معنا . و لعل هروب اليهود و " الفتنة الكبيرة التي لم يحدث مثلها منذ بدء الخليقة " هو إخبار من الوحي بقي لديهم محفوظا . نعيد عرض حديث مسلم في الموضوع . روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : *« لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر و الشجر ، فيقول الحجر و الشجر : يا مسلم ! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي ، فتعال فاقتله ! إلا الغرقد فإنه شجر اليهود »* . ذلك يوم " وعد الآخرة " .

لنلتفت الآن إلى اليهود أنفسهم لنستخبر ما معهم في المسألة . فإن لديهم لخبراً لا يشكون فيه .

بعد هزيمة عبد الناصر بطل القومية الاشتراكية اللاييكية سنة *1967* من تاريخهم ، عمد البكباشي إلى يهود مصر فزج بهم في السجن و هنالك التقوا بالإخوان المسلمين ، فكان بين المسلمين و اليهود الجوار و الحوار الذي قصه الأستاذ أحمد رائف في كتابه " البوابة السوداء " أنقله على طوله لما فيه من التذكير و التبشير .

قال : " كان اليهود يعيشون سادة في معتقل طره السياسي ، فهم ينتمون إلى دولة منتصرة ، أعلامها مرفوعة ، و جهات دولية كثيرة تسأل عنهم ، و ترسل مندوبيها للاطمئنان كل حين و آخر . فهم يعيشون أيام المعتقل في بحبوحة من العيش ، يرتدون الملابس الغالية الثمن ، و يخرجون للرياضة كل صباح ، و يتخذون ما يشاءون من خدم من المسجونين الذين تكلمت عنهم . و تعمل الإدارة لهم كل حساب ، و هي تُطيع رغبتهم في كثير من الأمر .

" و كانوا ينقسمون إلى قسمين : الربانيين و القرائين . و هم يعيشون جميعا في عنبر واحد ، و رقمه واحد أيضا . فيهم الشباب و فيهم الشيوخ . و كانوا على صلواتهم يحافظون . و تراهم متمسكين بدينهم ، يعملون حسب أوامره و نواهيه . و كان زعيمهم " إيلي صفدية " و هو رجل عجيب ، يستطيع أن يفعل ما يشاء و أن يحصل على ما يريد . و كنا نعجب من أحوالهم و كيف يعيشون !

و كيف يحصلون على تلك المكاسب (أي تسهيلات إدارة السجن الممنوعة عن الإخوان) في بساطة و يسر ، و نحن لم نأكل الفول المدمس حتى سقط منا شهداء . و قد أخبرنا بعضهم بتفسير هذه الألغاز . فالمال في الخارج كثير ، و نساؤهم لهن قدرة كبيرة على إقناع كبار المسؤولين . هكذا حكوا لنا .

" و كنا نجادلهم في كثير من الأحيان و نقول لهم : " في القرآن الكريم أنكم تفسدون في الأرض مرتين . و فيه أيضا أننا نقاتلكم و نهزمكم و نطردكم من أرض فلسطين . و نحن على يقين من هذا " . و يقول قائلهم في هدوء : " و نحن على يقين مثلكم . فقد حكت التوراة عن هذا . و لكن ليس في هذا الجيل . أنتم أضعف من أن تفعلوا . و نحن أقوى من أن نهزم أمامكم " . و تستفزني هذه الصفاقة الهادئة فأقول : " عجيب أمْرُك ! هل ترى هذا حقا ؟ " و يرد في هدوء : " اسأل نفسك . ألا تقرأ صحف الصباح ؟ انظر فيها لتعرف الفرق بين العرب و إسرائيل . ثم أنت تقول : إن المسلمين هم الذين يهزمون اليهود . أين هم هؤلاء المسلمون ؟ هم جميعا في السجن ، و القائم على أمركم يتبرأ من الإسلام كل صباح و مساء . ليس هو فقط ، بل كل الحكام العرب . عداؤهم للإسلام و المسلمين أكثر من عدائهم لإسرائيل و اليهود .

" حتى يتوحد العرب يحتاجون إلى جيلين . أما أن تخرجوا أنتم من السجن و تحكموا ، فهذا بعيد ، و سوف يحول بينكم و بين هذا إخوانكم من حكامكم . أما إن حدث ذلك فتلك قصة أجيال تذهب و تجيء . و نحن لن نشهد منها شيئا . هذا أمر (يعني القتال الذي يُهزمون فيه) يكون بين أحفادنا و أحفادكم . هي حرب لن يشهدها واحد منا .

" أما هذه الأيام فهي عصر اليهود . لقد بذل الحكماء و الكبراء منا أعمارهم و أموالهم من أجل الوصول إلى هذه الأيام . و قد شهدها جيلنا . و أنتم تعيشون عهدنا الذهبي " .

" و كنا نتأمل صراحتهم في دهشة و نرقب إيمانهم في فضول و تعجب . و نرى كثيرا مما يقولون ينطبق على واقعنا المر .

" و كنت أسأل بعضهم : " لو أفرجوا عنك إلى أي البلاد تذهب ؟ " . فيقول متعجبا : " إلى إسرائيل بطبيعة الحال ، هذه هي أيام الرب ، و هو يتجلى من جبل صهيون " . فأقول : " و لكنك تعودتَ الحياة في مصر " . فيجيب : " سوف يمكننا الرب من مصر . وطني إسرائيل من الفرات إلى النيل " . و أفقت مذعورا على كلامه : " أعوذ بالله ، لن يكون هذا في حياتنا أبدا " . و بهدوء الواثق يقول : " لو امتد بك العمر فسوف ترى هذه الحقيقة . و بعدها الأيام دول ، و ليفعل بنا الرب ما يشاء . قد نسينا وصايا الرب لموسى فشردنا في الغربة قرونا . و نحن الآن نعود إليها . و الرب جبار و قادر . و هو رحيم و عادل أيضا " .

هذه صفحة من تاريخ هزيمة العرب . و لليهود نواياهم التوسعية ، و يعلم الله ما يحدث ما بين الفرات و النيل بين يدي الساعة .

أما اليهود فقد جلسنا إليهم في هذه الصفحات لنسمع ذات صدورهم في وقت يصطلي سكان الضفة الغربية بنارهم ، و يقاتلهم المسلمون أطفالا و نساء و شيوخا و شبابا بالحجارة ، يرفعون هتاف : جيش محمد سيعود ! جيش محمد سيعود ! جيش محمد سيعود ! " . مشاهد مثيرة يقرأ فيها العالم أجمع معالم رجولة منبعثة من المساجد ، عزلاء يتخاذل الحكام على المسلمين ، و تخاذل هؤلاء ، بل وجودهم ، راجع لنوم المسلمين ، لما يصحوا مع الصحوة ، و لما تنلهم بركة الجهاد في أفغانستان و في الضفة الغربية ، و هي البلاد التي سماها الإنجيل " يهودا " و أخبر بأنها موقع الفتنة الكبرى على اليهود .

يبقى معنا أن " الشيء النجس المفسد " الوارد في الإنجيل هو ما يعتبره اليهود التوراتيون التلموديون عصرهم الذهبي . و اليهود العلمانيون يسيرون الدولة النجسة ، و يصنعون الصواريخ النووية ، لا خبر عندهم و لا ثقة بالأساطير التي عند " ربانييهم " و " قارئيهم " . ذلك إلى أجل مسمى يعلمه الله .

اليهود قلة قليلة ، لكنهم سكنوا الأرض كما صدرت بذلك إرادة الله الكونية . و نحن المسلمين على كثرتنا غثاء لا وزن له و لا حيلة و لا قوة . و نحن و هم مربوطون إلى قاطرة الحضارة الغربية التي تسحبنا و تسحب العالم أجمع إلى حيث تنجر سنة الله في الأرض .

الأوربيون هم بناة الحضارة المادية ، امتدوا في أمريكا بنسلهم الجسدي ، و امتدوا في الدنيا بأسرها بتلامذتهم ، و عبيدهم الطيعين ، و مستعبديهم المكرهين ، و قيمهم ، و صناعتهم ، و بضاعتهم ، و فنهم ، و ثقافتهم ، و سلاحهم ، و سيطرتهم .

الرأسمالية الأوربية الأمريكية ، اليهودية النصرانية روحا ، الرومية جسما و عددا ، تسحب الكل ، السلاف في روسيا و شرق أوربا مسحوبون ، الاشتراكية العلمية الماركسية تسحبها الرأسمالية الرومية و تجرها من رجلها بالبضاعة و التمويل و التكنولوجيا و دخول الشركات الأوربية الأمريكية ، و تسحبها من رأسها بالتحول الإديولوجي الآخذ بالميل إلى أساليب ديمقراطية الروم و تعدديتها و لبراليتها . و شقا العالم الغربي ، اللبرالي و الاشتراكي ، رومٌ بالنسبة للشعوب الملونة المستضعفة في الأرض (كان اللون سببا لاحتقار الرجل الأبيض غيره قبل بروز اليابان و تفوقه المذهل و قبل استقلال الصين بثورتها) .

الرأسمالية الرومية تسحب القطار بما أوتيت من علوم و مهارات . يخضع لسلطانها الروس أنفسهم ، ففي الفضاء ترحب مركبة " سيوز " بصاحبتها الأمريكية " أبولو " . و في الأرض يرحب جرباتشوف بريكان . تفوق رومي بين يدي الساعة يهيِّئ التفوق الصيني الياباني الأصفر .

و عن كل ذلك أخبرت السنة المطهرة ، لم تتركنا في ظلام التخرصات ليسهل علينا التماس الطريق في ابتلاءات سنة الله .

يعلم الله وحده من أي جنس أصفر يخرج ياجوج و ماجوج ، و إن كان أحد علماء المسلمين في عصرنا جزم بوجود طائفة صينية تحمل اسما قريبا من الحرف العربي .

لكن الغرب و كثرتهم و مروءتهم ذكروا في الحديث باسم الروم . و هو الاسم الذي كانت تعرف به الأقوام الأوربية في زمان النبوة الخاتمة .

روى الإمام مسلم في كتاب " الفتن و أشراط الساعة " أن المستورد القرشي قال عند عمرو بن العاص : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : *« تقوم الساعة و الروم أكثر الناس »* . فقال له عمرو : أبْصر ما تقول ! قال : أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه و سلم . قال :

لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعا : إنهم لأحلم الناس عند فتنة ، و أسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، و أوشكهم كرة بعد فرة ، و خيرهم لمسكين و يتيم و ضعيف . و خامسة حسنة جميلة : و أمنعهم من ظلم الملوك " .

هذا الحديث جاء به الوحي ، و علق عليه واحد من أذكياء العرب و المسلمين و دُهاتهم عمرو بن العاص غفر الله له و رضي عنه .

أما خبر الوحي عن كثرة الروم فظاهر كما قدمنا .

و أما المزايا و المروآت التي عرفها عمرو بن العاص في الروم فلا نزال نلمسها . و أبرزها و هي المزية " الحسنة الجميلة " و هي الخصلة السياسية التي تمنع من " ظلم الملوك " . الديمقراطية مذهب عملي و مروءة بها استقرت أنظمتهم . هم علينا طامة و عدوان ، لكنهم في أنفسهم رقابة ، و تمانع من الظلم ، و تعاقب في الحكم ، و تعددية في الرأي ، و احترام لرأي الغير ، و حرية الكلام و النقد ، و أمنٌ من تسلط الحاكم ، و سيادة للقانون .

قال قائلهم تشرشل " الديمقراطية أقل الأنظمة شرا " . فهم يعرفون حدودها و سوآتها . لكنها أقصى ما استطاعوه من حكمة . و نحن ننتقد الديمقراطية غالبا دون تمييز ما فيها من حكمة . خير ما فيها أنها تنظم الخلاف في الآراء و تضمن الاستقرار ، و شر ما فيها أن الأمر عندهم قانون بشري ، للتصويت النيابي أو الاستفتائي فيه الكلمة الأخيرة و السيادة المطلقة ، لا يدينون لله بشرع و لا يرجون له وقاراً .

المناسبة هنا ليست لنقد النظام الديمقراطي ، لكن معرض الحديث هو أن القومة الإسلامية لابد أن تُعيد إبرامَ عروة الحكم التي كانت أول عرى الإسلام نقضا كما جاء في الحديث الشريف : « *لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة ، فأولها نقضا الحكم و آخرها الصلاة* » .

معرض الحديث أن شورانا إن لم تضمن لنا آليات تسوي الخلافات و الاستقرار و التعاقب السلمي في الحكم و تعددية الرأي و التنظيمات فلا قيام لنا . ها هم في هذه الأيام طائفتان من الشيعة في لبنان تتحاربان ، و ها هم الشيعة يقاتلون السنة في باكستان . و لو لم يكن في قطر ما من أقطار الإسلام إلا

مذهب واحد ، سني أو شيعي ، فهنالك دوافع للخلاف كثيرة ينبغي أن توضع لاحتوائها و توجيهها و تنظيمها حدود تتيح للناس حرية الاجتهاد في غير فوضى و لا افتيات على الدين .

منا من الآن من يزعم أن الشورى غير ملزمة . إذن فهي عبث ! أنزل الله قرآنا في الشورى عبثا ! و شاور رسول الله صلى الله عليه و سلم أصحابه عبثا ! معاذ الله !

إن الحنين إلى إيمان الخلفاء الراشدين و أخلاقياتهم سيبقى حلما معسولا إن لم تكن الخلافة الثانية مؤسسة على شورى تعددية يدين فيها الكل لرب العالمين مباشرة و بلا مناقشة فيما جاء به النص الصريح ، و يدينون فيه لله رب العالمين بوساطة الاجتهاد المتعدد المتآلف على اختلافه المفضي إلى قرار يتبناه الجميع و يحترمه الجميع و يطبقه الجميع عن طواعية تطبيقه لتفاصيل الدين .

تُداعب آمالنا صورة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين خطب أول خُطبة له بعد أن وُلّي الأمر ، فقال : " أما بعد أيها الناس ، فقد وليت عليكم و لست بخيركم . و لكن نزل القرآن ، و سن النبي صلى الله عليه و سلم السنن ، تعلّمنا أن أكيَسَ الكيس التقى ، و أن أحمق الحمق الفجور . و إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه . و إن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق . أيها الناس ، إنما أنا متبع و لست بمبْتَدع . فإن أحسنت فأعينوني ، و إن زغت فقوموني . أقول قولي هذا و أستغفر الله لي و لكم " . كذا أخرجه ابن سعد و غيره .

و يداعبنا مشهد أمير المومنين عمر حين طلب إليهم أن يقوموه إن زاغ ، ففرح و شكر الله لما قام إليه رجل يعده بأنهم يقومونه بالسيف لو زاغ و عدل عن الحق .

لنكن كثيري التنبيه قبل القومة و أثناءها للمزورين عن جهل أو سوء نية أو استحلاء للرّئاسة ، أولئك الذين يستطيعون أن يُلَبسوا علينا بالتأويلات كما لبس من قبلهم ، فيسمون شورى و حكما إسلاميا استبدادا جديدا ذا حُلَل قشيبة كما سمى من قبلهم خلافة الانقلاب الأموي و ما تبعه من أنظمة حكم علينا .

يصف عمرو بن العاص رضي الله عنه الروم بأنهم " أحلم الناس عند فتنة ، و أسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، و أوشكهم كرة بعد فرة " .

ما شأننا أن نُجري بحثا دقيقا في التفاصيل . إنما شأننا أن نسجل في الجاهلية المعاصرة و في الجاهليات بعدها إلى يوم القيامة شرا هو الكفر و ما يجلبه الكفر و يغذيه من رذائل ، كما أن في الجاهليين أمس و اليوم و غدا مروآت .

انظر إلى صبر اليابان ، و قدرة اليابانيين على العمل المنظم المنتج . إنهم اليوم بمثابة مغناطيس لجمع ثروات العالم و خيراته . هم الآن بصدد شراء أمريكا و أوربا بأموال أمريكا و أوربا و أموال العالم . العالم كله يتطلع إلى صنائع اليابان و غرائب اليابان و دقائق اليابان . و العالم يدفع لليابان ، و يخضع للشروط اليابانية التي تدفع المنافسة التجارية العالمية إلى الركن الضيق . فمنتوجاتها أرخص و أكثر جودة .

هذه مروءة لا يستهان بها . و الخلافة الثانية إن تحلى أهلها بالخلق مع الإيمان و التقوى قادرون بإذن الله أن يقروا في المجتمع الإنساني حكما شوريا مُبرَّءاً من عيوب المكر ، و نظاما عالميا للاقتصاد لا يصب في اتجاه المجتمع الاستهلاكي المادي ، و عدلا عالميا لا تحكمه غابوية السوق الرأسمالية . و في الطريق إلى كل هذا أين مروآتنا و ديننا ؟ أين مروآتنا من ديننا ؟ أين تديننا الخالي من المروءة من المثل الأعلى الذي تجسد في الخلافة الأولى ؟

إن علينا أن نتعلم أبجديات المروآت لتصبح لنا قراءة صالحة لسنة الله في الآفاق و في أنفسنا .

من أبجديات المروءة الماركسية أن في المجتمعات البشرية ظلم طبقي . لا نُعطي لهذه الأطروحة الإنسانية الحقيقية في زماننا إلا التفاتة الاحتقار لنقول : " لا طبقية في الإسلام " . نعم لا يقر الإسلام أن يكون في الناس طبقية طاحنة ، لكن ما مبْنَى هذه الطبقية و ما علاجُنَا لَهَا لكي تذهب و لا تتجدد ؟ التحليل التاريخي المادي اليهودي الماركسي تحليل مقتضب يقترح حلولا صراعية . و ها هم الشيوعيون في روسيا يعودون من الماركسية بعد سبعين سنة من الثورة ، و بعد أن بَنَوْا بالغضب الطبقي دولة هي أقوى دول العالم شوكة ، ليتعلموا أبجدية اللبرالية الديمقراطية .

إن تفاعلنا مع العالم ، و تعلمنا منه ، و انفتاحنا عليه و نحن نحنُ لا مسخا مُقلدا تابعا خانعا لمن علائم نُضجنا . و ما تتخبط فيه الإنسانية من مشاكل ، و ما تحمله من هموم سوء القسمة بين الشمال و الجنوب ،

و هموم الخطر النووي ، و هموم الانفجار السكاني ، و هموم العدل و الغذاء ، علينا أن نحمله مع الحاملين ، و أن نغشى المحافل الدولية ، و الاستادات الرياضية ، و المؤتمرات العلمية ، و الدهاليز الدبلوماسية ، و الوسائل الإعلامية ، و الشوارع ، و الصالونات ، و نحن من نحن لا عبيدا مقلدين خانعين لزيهم و قيمهم .

نغشى كل مجلس ، و نخاطب كل إنسان ، لنتكلم بلغة الاقتصاد و لغة السياسة و لغة حقوق الإنسان ، نفهم حقوق الإنسان فهمنا القرآني النبوي ، لا نتنازل لفهمهم ، و لا نترك لقاصري العلم منا أن يساعدوا الدعاية المضادة للإسلام عندما يلخصون الإسلام في أنه دين قطع الأيدي .

نخاطب الإنسان و العالم بكل لغة يفهمها لندخل إلى فطرته المطموسة المخمورة المخدرة نوصل إليها رسالة الإسلام ، و خبر الآخرة ، و خبر الجزاء ، و خبر الخلود في الجنة أو النار ، و خبر النبوءة .

إن كنا يقتلنا الهُزَال المادي و المعنوي و الفكري فلن يسمع لنا خطاب .

و إن كنا هَمَلا غثائيا تعبث به رياح التبعية للأقوياء المستكبرين في الأرض فلن نقوى على عبور زعازع ما بين يدي الساعة من أهوال و فتن .

و إن رومية ، و هي عاصمة الروم ، لمفتوحة للمسلمين بين يدي الساعة كما جاء بذلك الخبر الصحيح ، رغم ما يبدو لنا الآن من تفَوُّقهم ، و رغم كثرة عددهم يومئذ .

فقد روى الإمام أحمد و الحاكم و صححه و وافقه الذهبي أن عبد الله بن عمرو العاص سئل : *أي المدينتين تفتح أولا : القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، فأخرج منه كتابا . فقال عبد الله (وهو يقرأ) : بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه و سلم نكتُب ، إذ سئل رسول الله عليه و سلم : أي المدينتين تفتح أولا ، أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مدينة هرقل تفتح أولا »* . يعني القسطنطينية .

و قد حقق الله عز و جل وعده و وعد رسوله صلى الله عليه و سلم ففتح للمسلمين على يد شوكة الإسلام العثمانية مدينة هرقل . و يعلم الله تعالت حكمته في أية مرحلة من مراحل الخلافة الثانية تفتح روما و ما شاء الله من أوربا و أمريكا و العالم ، و بأي وسائل .

الذي لا شك فيه أن الوعد بذلك ثابت ، و هو وعد للمسلمين من المغرب ، يعلم الله أي مغرب ، كما جاء في حديث مسلم عن نافع بن عتبة قال : " كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في غزوة قال : فأتى النبي صلى الله عليه و سلم قومٌ من قِبَل المغرب عليهم ثياب الصوف . فوافقوه عند أَكَمة . فإنهم لقيام و رسول الله صلى الله عليه و سلم قاعد . قال : فقالت لي نفسي : ائتهم فقم بينهم و بينه لا يغتالونه ! قال : ثم قلت : لعله نَجِيٌّ معهم (يناجيهم) . فأتيتهم فقمت بينهم و بينه . فحفظت منه أربع كلمات أعدُّهن في يدي . قال : « *تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله . ثم فارس فيفتحها الله . ثم تغزون الروم فيفتحها الله . ثم تغزون الدجال فيفتحه الله* » .

و الله يعلم و أنتم لا تعلمون .

هاك أسرد عليك سردا سريعا بعض ما جاء به ناموس الوحي من نبوآت مستقبلية ، منها ما نعقله الآن ، و منها ما بدت علائمه . منها ما ينفعنا في إدراك كنهه الاستنتاج و منها ما لا يزال لُغزا علينا . لكنه الوحي و الله عز و جل وحده يعلم متى و كيف . ما علينا إلا أنفسنا نتعهدها بلزوم الأمر الشرعي ، و نترك الأمر الكوني الإلهي لقدر الله ، نسأله فيه اللطف .

بوب الإمام النووي في صحيح مسلم في كتاب " الفتن و أشراط الساعة " : باب اقتراب الفتن و فتح ردم ياجوج و ماجوج ، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت ، باب نزول الفتن كمواقع القطر ، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، باب إخبار النبي صلى الله عليه و سلم فيما يكون إلى قيام الساعة ، (...) باب في فتح القسطنطينية و خروج الدجال و نزول عيسى بن مريم . إلى آخر الكتاب .

من هذه الأخبار النبوية العظيمة ما هو كلي يتناول الأحداث الحاسمة و الصفات القارة ، و منها ما يخبر عن أحداث جزئية .

من أهم ما في الكتاب ، و في سائر " كتاب الفتن " أو " كتاب الملاحم " في دواوين الحديث ، الإخبار بالدجال و خروج الإمام المهدي و نزول عيسى عليه السلام .

هذه الثلاثة الأحداث تجمع نظرنا المشتت في الآفاق الجغرافية التاريخية الآفاقية لتوجه صوب السمت الإسلامي المستقبلي الذي يجب أن يستقطب اهتمامنا و أن يوجه جهادنا ليرتبط حاضرنا بمستقبل أعلنت عنه النبوءة و نزل به الوحي . لا نكون قفّازين من تخمين لتخمين ، و من خرص لخرص .

« قُتِلَ ٱلْخَرَّ ٰصُونَ ﴿ 10 ﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿ 11 ﴾ يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿ 12 ﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿ 13 ﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿ 14 ﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَ عُيُونٍ ﴿ 15 ﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَ ٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿ 16 ﴾ » (سورة الذاريات) .

نسأل الله العافية ، و نسأله أن تعبر هذه الأمة الفتن سالمة غانمة كما وُعِدت . آمين .

إن الله لا يخلف الميعاد . و الأمر أمره إن كتب أن يسلم الروم و أهل الأرض جميعا فيقودوا العالم ، أو يُبقي للعرب ، و كل من استقام قلبه و عقله و لسانه بلغة القرآن عربي ، شأنا في الثانية كما كان لهم شأن في الأولى .

في حديث طويل أخرجه مسلم و أبو داود و الترمذي عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله علسيه و سلم ، ذكر النبي الكريم العليم الحكيم الدجال ، كما ذكره مرارا عديدة ، و حذر منه و بيَّن أن لُبثه في الأرض أربعين يوما ؛ « يوم كسنة ، و يوم كشهر ، و يوم كجمعة ، سائر أيامه كأيامكم » . الله و رسوله أعلم بهذا الحساب . و ذكر صلى الله عليه و سلم جولان الدجال في الأرض و ما يأتي من خوارق تحير اللباب و تطيش معها الأحلام ابتلاء من الله ، عزت قدرته و تعالت حكمته ، لعباده .

ثم ذكر صلى الله عليه و سلم نزول عيسى عليه السلام " عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين (أي يلبس ثوبين مصبوغين) واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطا رأسه قطر . و إذا رفعه تحدر منه جُمانٌ كاللؤلؤ " فيدرك الدجال بِبَاب لُد فيقتله .

و ذكر لنا النبي صلى الله عليه و سلم بعد ذلك كيف يوحي الله عز و جل لنبيه عيسى عليه السلام : " إني قد أخرجت عبادا لي ، لا يَدَانِ لأحَدٍ (أي لا يقدر أحد) بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور " .

و يبعث الله ياجوج و ماجوج . و يصف رسول الله صلى الله عليه و سلم إفسادهم في الأرض و سفكهم للدماء . و يحاصرون نبي الله عيسى و المومنين معه حصاراً تحدث فيه المجاعة ، فيتضرع عبد الله و كلمته عليه السلام إلى ربه عز و جل ، فيرسل وباء يقتل ياجوج و ماجوج . ثم يترل الله عز و جل مطرا يغسل الأرض من " زهم " ياجوج و ماجوج و نتنهم ، و تعود للأرض بركتها و ثمرتها .

لا علم لنا بالكيف و الحين و التاويل ، لكن لا نُغْرِب كما يغرب بعض من يؤول الدجال الأعور بأنه الحضارة الغربية . نفوض و نومن و نسأل الله العصمة لنا و لهذه الأمة . و لله أمر هو بالغه .

ثم ما بعد ذلك إلا النفختان في الصور يصعق في الأولى من في السماوات و الأرض إلا من شاء الله ، و تقوم في الأخرى الخلائق ينظرون ، « وَ أَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَ وُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَ جِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـــنَ وَ ٱلشُّهَدَآءِ وَ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ 69 ﴾ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿ 70﴾ وَ سِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا (...) وَ سِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا » (سورة الزمر) .

و يصف الله عز و جل في كتابه العزيز كيف يستقبل أهل الشقوة أصحاب الشمال في جهنم ، و كيف يخاطبون ، و كيف يوبخون على كفرهم بالرسل و تكبرهم . و يصف كيف تفتح أبواب الجنة للسعداء أهل الجنة من أصحاب اليمين و المقربين السابقين ، و كيف تحييهم الملائكة و تبشرهم . اللهم اجعلنا منهم بفضلك آمين .

في حديث مسلم عن النواس عن النبي صلى الله عليه و سلم خبر يُوقفنا ، و نفهمه لأن علائمه ظهرت . و ما كان لمن قبلنا إلا أن يومنوا به إيمان الغيب .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يصف ثمرة الأرض و بركتها التي ترجع إلى الأرض بعد عتو ياجوج و ماجوج و إفسادهم : « *فيومئذ تأكل العصابة (أي الجماعة) من الرمانة ، و يَسْتظلون بقحفها (أي بقشرها) ، و يبارك في الرِّسل (بكسر الراء و هو اللبن) حتى أن*

اللقحة (أي الناقة الحلوب) من الإبل لتكفي الفِئام من الناس (الجماعة من الناس) و اللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس » .

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم بعد هذا : *« فبينما هم كذلك (أي في رغد من العيش و سَعة خارقة من الأرزاق) إذ بعث الله ريحا طيبة ، فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مومن و مسلم ، و يبقى شرار الناس يتهارجون (يتقاتلون) فيها تهارج الحُمر فعليهم تقوم الساعة »* .

نفهم و نتصور الآن على ضوء البحوث الرائدة في ميدان الزراعة الهدروبونية و الهندسة الوراثية أن بالإمكان تطوير فصائل من النبات و الحيوان إلى أن تبلغ المواصفات الواردة في الحديث .

في سنة *1985* بتاريخ النصارى نظم اليابانيون معرضا زراعيا في عاصمتهم طوكيو ، و قدموا للعالم الذي لم يعد يندهش لشيء من أنباء الاختراعات العجيبة نبتة طماطم زرعت في أرض من البوليستر و سقيت بوسائل صناعية خاصة فأعطت خمسة عشر ألف حبة !

و في مختبرات الغرب و الشرق تجري تجارب على الفئران ، و غدا على الإبل و البقر ، ترفع حجم الفأر إلى مقاييس مخيفة .

سبحان الله و الحمد لله و لا إلــه إلا الله و الله أكبر . و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم مالك الملك العزيز الحكيم .

الأحاديث الواردة في شأن الإمام المهدي متواترة غزيرة تملأ دواوين الحديث و دفاتر العلماء و مجالس الجدل من العهد الأول . فالمعتمدون على النصوص الصحيحة قسمان : طائفة تتوقف في تحديد الزمان و تعيين الأشخاص ، و طائفة ادعت المهدوية ، لا يكاد جيل من أجيال المسلمين يخلو من طالب للحكم ، بحق أو بباطل ، ينتحل اللقبَ .

ممن ادعى المهدوية رجال صالحون ، قد يكون لُبِّس الأمر عليهم لما يرونه من منامات . و منهم أدعياء خُلّص و مشعودون . حتى أن بعض الروايات التي لا أصل لها زعمت أنه " لا مهدي إلا عيسى " لتسد هذه الذريعة .

يعلم الله عز و جل في أي جيل من أجيال القومة الإسلامية يظهر الإمام المهدي عليه السلام . الذي لا شك فيه أن نزول عيسى عليه السلام يكون في وقته و حكمه و إمامته . و ندع لإخواننا الشيعة تأويلهم للمهدوية و نظرية الإمام المعصوم ، فليست هذه العقيدة لديهم بالسبب الكافي لنقطع رحمهم الإسلامية ، و إن كانت نسبة العصمة لغير الأنبياء عليهم السلام مدخلا مُترعا لكل بدعة .

أخرج الحاكم بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : « *يخرج في آخر أمتي المهدي ، يسقيه الله الغيث ، و تخرج الأرض نباتها ، و يعطى المال صحاحا ، و تكثر الماشية ، و تعظم الأمة ، يعيش سبعا أو ثمانيا* » . يعني حجة أي سنة .

و عند أبي داود و الترمذي و غيرهم أحاديث صحاح حسان .

نلاحظ أن البشارة بنزول الغيث يسقيه الله المهدي ، و إخراج الأرض نباتها ، و كثرة الماشية ، و وفرة المال ، و عظم الأمة تتطابق مع الإخبار ببركات الأرض و السماء الموعودة للخلافة الثانية ، و تتطابق مع بركة الأرض و ثمرتها المُخْبَر عنها في نُزول عيسى عليه السلام .

و الحمد لله رب العالمين ، آخر دعوانا و بداية شكرنا ، و أوساط أملنا أن يرحم الله هذه الأمة .

وصلنا إلى نقطة النهاية في هذا اللقاء أخي المومن و أختي المومنة ، فليكن زادنا للجهاد تقوى الله ، و ليكن هجيرنا لا إلــٰه إلا الله و الصلاة و السلام على رسول الله و آله و صحبه و إخوانه من بعده .

اللهم صل على سيدنا و نبينا و حبيبنا و قائدنا و شفيعنا محمد و على آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم و على آل سيدنا إبراهيم ، و بارك على سيدنا محمد و على آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم و على آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد . و على أزواجه

أمهات المومنين ، و على ذريته الطيبين الطاهرين ، و على جميع النبيئين و الصديقين و الشهداء و الصالحين ، و على أمتهم الواحدة من الأولين و الآخرين . آمين .

و إن تفضلت أخي و أختي بالدعاء الصالح و قراءة الفاتحة لروح هذا العبد الآبق من ربه المذنب العاجز القاصر المقصر فبركة ذلك مرجوة . و جمهور العلماء المعتَبرين على مذهب أن الصدقة الجارية من تلاوة كتاب الله الكريم تبلغ الموتى . لا إلــٰه إلا الله محمد رسول الله .

فرغت من كتابة كتاب " سنة الله " ظهر يوم الأربعاء

الثامن من شوال ***1408*** ، و كنت كتبت جله صيف العام الماضي .

نفع الله به آمين . و الحمد لله رب العالمين .

فهرس

مقدمة

الفصل الأول
القاسية قلوبهم

الفصل الثاني
روح الجاهلية

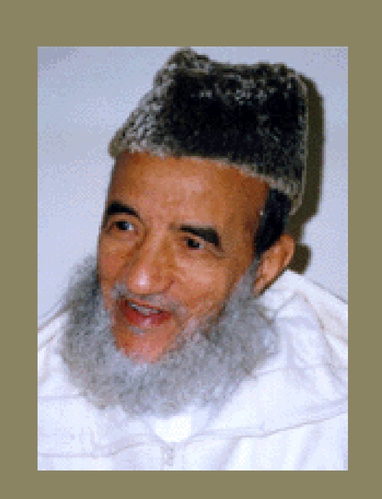
الفصل الثالث

الصحوة الإسلامية

الفصل الرابع

من الشكوى العاجزة إلى الوعود الناجزة

خاتمة



- سنة الله أن ينصر رسله و الذين آمنوا في الحياة الدنيا و في الآخرة إن آمنوا و عملوا الصالحات ، لا إن أخلوا بالشرط الجهادي حالمين بالمدد الإلهي الخارق للعادة ، و هو مدد لا يتنزل على القاعدين بل يخص به الله من قام و شمر و تعب في بذل الجهد ، و أعطى الأسباب حقها .
- و من شروط الله و سننه المكملة لمعاني حكمته تعالى في الكون و ابتلائه للعباد بالسراء و الضراء أن يتعاقب النصر و الهزيمة ليربي الله الذين آمنوا و يمحصهم و يمحق الكافرين آخر المطاف ...
- الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، و من أجلّ العبادة الدعاء و الثقة بالوعد . و الإحسان أن تحسن عملا و تتقن الفنون البشرية المتاحة المسخرة لتمتَدَّ يَدُ القوة المعدة سببا واصلا بين السماء و الأرض ، دعاء عمليا و استفتاحا ميدانيا لأبواب النصر .
- يطرح المسلم الذي يشهد لله بالوحدانية و يجهل من دينه كثيرا ما وضعه الله من أسباب و ما رتب من نتائج . يطرح من الاعتبار سنة الله في التاريخ التي لا تديل لها و يتعلق بالغيب و ينتظر المعجزة . و يتجلى طرحه هذا في تواكلية عاجزة عن فهم الواقع و عن التأثير فيه . هذا المسلم السطحي لا يدرك مسؤولية العباد و كسبهم و يبقى إيمانه مشطورا حيث وقف مع (و الله خلقكم و ما تعملون) (سورة الصافات ، 96) و لم يلتفت إلى (قل هو من عند أنفسكم) (سورة آل عمران ، 165) التي قرعت أسماع الصحابة بعد هزيمة احد لتثبت لأولئك الغر الميامين أسد الله أن سنة الله لا تجامل أحدا .